

تاريخ الإسلام فى غرب إفريقيا

رواد

ومغامرون يستكشفون

دول

تتنافس على تجارة الرقيق

قوى

وقراصنة تنهب الثروات

زعماء

يبيعون مواطنيهم من أجل المال

صراع

قبلى وثنى إسلامى

على أرض إفريقيا



تأليف روسيل وورين هاو

ترجمة د. عبد الوهاب محمد الزنتاني

الحائز على جائزة ابن سينا فى الأدب من أجل السلام

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تاريخ الإسلام
في غرب إفريقيا

تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا

رواد ومغامرون يستكشفون
دول تتنافس على تجارة الرقيق
قوى وقراصنة تنهب الثروات
زعماء يبيعون مواطنيهم من أجل المال
صراع قبلى وثنى إسلامى مسيحى على أرض إفريقيا

تأليف / روسيل وورين هاو
ترجمة / د. عبد الوهاب محمد الزنتانى
الحائز على جائزة ابن سينا
في الأدب من أجل السلام

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشؤون الفنية

هاو، روسيل وورين
تاريخ الإسلام في غرب افريقيا/ تاليف روسيل وورين هاو ؛ ترجمة عبد الوهاب
محمد الزنتانى. ط ١ . - القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨ .
٣٠٤ ص ٢٤١ سم.
تدمك: ٧ - ٠١٨ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - افريقيا الغربية. ٢ - الفتوحات الإسلامية.
١ - الزنتانى، عبد الوهاب محمد. (مترجم) ب - العنوان . ٩٦٦

الكتاب : تاريخ الإسلام في غرب افريقيا

المؤلف : عبد الوهاب محمد الزنتانى

رقم الايداع : ٢٣٤٢٨ / ٢٠٠٨

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولى : 7 - 018 - 463 - 977 - 978

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناسر ولا يسمح بإعادة

نشر هذا العمل كاملا أو أى قسم من أقسامه ، بأى شكل من

اشكال النشر إلا بإذن كتابى من الناسر

الناسر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع: ١٢ شارع نوبار لاطوغلى (القاهرة)

ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت: ٢٥٩٠٢١٠٧ - ٢٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت: ٢٢٧٣٨١٤٢ - ٢٢٧٣٨١٤٣

والمعرض الدائم }

www.darghareeb.com

إهداء

إلى أبناء بلدى الساعين إلى مستقبل أفضل من خلال التضاهم والتعاون بين بلدانهم فى الوطن العربى الكبير الذى ستتحقق وحدته بإذن الله بحيث يتبوأ مكانه ومكانته ودوره فى إرساء قواعد الثقافة والأدب والحضارة ذلك الدور الذى كان قد اضطلع به رجال أمتنا العربية على مدى قرون عدة مضت وقد فقدوه عندما تكالبت عليهم قوى البغى والطغيان وتفرق زعماءهم وأهل الراى فيهم حيث ساد السيف واختفى القلم، إلى أبناء بلدى الصادقين فى توجهاتهم لتعزيز التعاون مع أبناء قارتهم (إفريقيا) .

اليهم أهلى هذا الجهد المتواضع متمثلاً فى ترجمة أمينة لكتاب يتناول إفريقيا وتاريخها الذى كان للعرب دوراً بارزاً فيه (لغة وثقافة وحضارة واقتصاد) وإلى كل من يجد فى التاريخ متعة ودروساً مثلما فعل الرواد الأوربيون فى اكتشاف مجاهل إفريقيا مضحين بكل شيء بما فى ذلك حياة كثر منهم وفى النهاية عرفوا وسيطروا وغنموا، على أننا لا يجب أن ننسى الرواد المسلمين الأوائل مثل: (الطبرى والإدرسى وابن بطوطة والساعدي والبكرى وابن حوقل) وغيرهم لكن جهودهم كانت فردية لم تدعمها حكومات ولا منظمات كما هو حال دول ومنظمات رواد أوروبا.

والله المعين

د. عبدالوهاب محمد الزنتانى

بلدة الزنتان فى ٢٣ يوليو ٢٠٠٧م

موضوعات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء.....
٩	مقدمة المترجم.....
١١	مقدمة المؤلف.....
	الفصل الأول
١٧	رمال وسيوف - عصر الإمبراطوريات الإفريقية.....
	الفصل الثاني
٢٧	البونت وزنجبار.....
	الفصل الثالث
٣٩	عرب وبربر وزنوج - المرابطون.....
	الفصل الرابع
٦٣	ممالك غرب السودان القديمة.....
	الفصل الخامس
١٠٧	عصر التجارة والاستكشاف سفينة وشاطئ.....
	الفصل السادس
١٣٥	الممالك الغينية.....
	الفصل السابع
١٤١	صناع الخرائط وتحديد الأهداف.....
	الفصل الثامن
١٦١	إلغاء سيراليون وليبيريا.....
	الفصل التاسع
١٧٩	غرب إفريقيا البريطانية ما قبل الاستعمار.....

الفصل العاشر

مبادرات الألمان والفرنسيون ١٩٩

الفصل الحادى عشر

دلتا النيجر مقدمة إلى نيجيريا ٢١٥

الفصل الثانى عشر

البرتغال وإفريقيا الأطلنطية ٢٤٣

الفصل الثالث عشر

شرق إفريقيا (الزائجا - الأزانبا - والبرتغاليون) ٢٥٥

الفصل الرابع عشر

زائجبار واستكشاف مدار الجدى فى إفريقيا ٢٦٥

- إثيوبيا ٢٧٩

- مدغشقر ٢٩٣

- جنوب إفريقيا ٢٩٩



مقدمة المترجم

لعله من نافلة القول: إننا يجب أن نقرأ كثيراً عن تاريخ إفريقيا لنعرف أكثر وبالتالي نعزز توجهنا سياسياً واقتصادياً وفكرياً وثقافياً عن قارتنا (إفريقيا).

وعندما أقول نعزز إنما أقصد التعاون في مختلف المجالات فأننا لست من مؤيدى فكرة الوحدة الإفريقية وأقول بالوحدة العربية والتعاون الإفريقي بحيث نجمع بين التاريخ والجغرافيا، بين الأصل والفصل، بين المصير والمصلحة، وقولى هذا ليس رداً على أحد ولا هو إنكار لواقع قد يستمر لبعض الوقت ولكنه لا يغير من حقائق التاريخ ولا يفصم رباط اللغة ذلك أن الأصل هو العروبة والفصل هو الإفريقية؛ لأننا عرب أفارقة مع إفريقيا تجمعنا الجغرافيا، وبالتالي حسن الجوار وتبادل المصالح والتعاون، ومع العرب يجمعنا التاريخ واللغة والدين والآمال والمصير، ولقد كنت ومازلت أعتقد أنه لن يكون صعباً ولا غريباً علينا أن لمجدد دور أسلافنا العرب في إفريقيا إذا ما درسنا وتعلمنا من التاريخ الماضى وعرفنا ضرورات الحاضر، وهذا الاعتقاد أحد دوافع اهتمامى بترجمة كتاب السيد (روسيل وارين هاو) حيث كان دور أولئك الرواد الأوائل فى هذه القارة كما فى غيرها من القارات والبلدان عظيمًا دون أن يتوفر لهم ما يوجد بين أيدينا الآن من معلومات تاريخية وجغرافية وديموغرافية ومادية مع الإرادة والإيمان، إرادة التحرير والبعث، والإيمان برسالة الإسلام الخالدة، إسلام المحبة والتوَادد والإصلاح وحرية وكرامة الإنسان ولأننا فى ليبيا قد سعينا بجد وتحركنا حثيثاً، وبذلنا كثيراً من أجل الوحدة العربية التى صعب منالها أو حتى الاقتراب منها لأسباب عديدة محلية ودولية، اقتصادية وسياسية واجتماعية وحتى نفسية، أدركنا أخيراً أنه فى عالم اليوم لا بد لأى تحرك أن تسنده عناصر وأول هذه العناصر الاقتصاد والتجارة ولهذا وبحكم الجغرافيا فقد صار الاتجاه إلى إفريقيا ولأن بوصلة أى اتجاه تتمثل فى المعرفة والإدراك لكل أساليب الحياة مراعاة للمصلحة الوطنية والإقليمية والدولية بحيث لا يحدث التعارض الذى يؤدى غالباً إلى الاختلاف وأحياناً إلى الحروب، من هنا كان علينا أن نقرأ وندرس ونمعن النظر فى أحداث الماضى وظروف الحاضر وآمال المستقبل، وتلك هى الغاية أولاً من هذه الترجمة، وثانياً سيرى القارئ كيف كان التنافس

والتزاحم وحتى التقاتل بين الأوربيين وأهل الأمريكيتين وقتئذ حول تجارة الرقيق الإفريقي وكيف كانوا يعاملون الأفارقة الذين يسترقونهم، وهاهنا نجد المؤلف يقول { في سوق بيع العبيد يتم التعامل معهم مثل الحيوانات عندنا وكانت المرأة أرخص بالثلث أو الخمس من الرجل، وأن إطعام هؤلاء العبيد عند احتجازهم في معسكرات بالماء والخبز يكلف (اثنين سنت) في اليوم وعند ترحيلهم تحمل الباخرة الواحدة بين خمسمائة وستمائة أو سبعمائة من الأفراد أحياناً، هكذا كان الحال خلال تلك القرون من السنوات (الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر) ويتساءل المرء الآن خلال القرن العشرين والواحد والعشرون، ما الذي حدث أو تغير؟

في ذلك الوقت كانوا يشترون الإنسان الإفريقي (ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً) وينقلونهم لتسخيرهم في أعمال شاقة ومهينة، والآن وبعد عدة قرون من الزمان نرى الإفريقي يذهب إليهم متسللاً وقد يموت في الطريق غرقاً أو عطشاً في البحر أو الصحراء، وإذا وصل إليهم لا يكلفهم شيئاً إذا كانوا يحتاجون إلى جهده ليستخدمونه في أحقر الأعمال (مشكورين)، إما في جمع القمامة أو إطعام الخنازير!! وإذا لم يكونوا في حاجة إليه (وهذا غالباً) يعيدونه مطروداً مكروهاً إلى البلد الذي جاء منه، وها نحن في هذا اليوم (١٦ / ٨ / ٢٠٠٦م) نسمع أن إسبانيا التي كانت رائدة في تجارة الرقيق قبل خمسمائة سنة تعيد (١٦٠) إفريقي إلى البلاد التي جاءوا منها بعد اعتقالهم على شواطئها! ونساءل، ماذا قدمت بلادهم الإفريقية المستقلة بعد ما يسمى (حكم وطني؟) وماذا قدم حكاهم الأشاوس غير القهر والفقر والمزيد من الاستعباد؟ وبم آتاهم الحكم الوطني غير المزيد مما كانوا عليه منذ خمسمائة سنة ماضية؟

سيجد القارئ أن هؤلاء الأوربيون الذين يتهمون العرب بالتورط في عمليات بيع الرقيق هم الذين أقاموا مشروعاتهم التجارية والمعمارية والزراعية بجهد العبيد الذين استرقوهم بالقوة والكرباج ونقلوهم عنوة في صناديق خشبية تسمى (بواخر) وعاملوهم مثل الحيوانات كما قال مؤلف الكتاب، فليقرأ من يريد أن يعلم بما كان وكيف؟ فهل ينطبق على هكذا حال قول: (بيدي لا بيد عمرو) ؟

ومن الله التوفيق والعون

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب الذى يتكون من أربعة أقسام وعندما طبع صار يتألف من قسمين يقصد منه أن يكون تقديم تاريخى لإفريقيا السوداء، وهو خلفية لأخبار ومعلومات تأتى من أربعة أخماس القارة التى تقع جنوب الصحراء العظمى ومحيط الرمال.

ففى خلال السنوات الحالية كانت هناك أعداد كبيرة من الكتب عن إفريقيا، وكان هنالك بشكل خاص محاولات جادة لضم تاريخ متناثر بحيث يكون واحداً وهو أمر صعب بسبب الانتشار الواسع، وفى ماضى الأمم الإفريقية التى تستطيع القراءة والكتابة تستعمل عموماً اللغة العربية وهى أحياناً جيدة وفى أخرى تمثل عمل تخمينى ككتاب (و. بوفيل) المعنون (قوافل الصحراء القديمة) الذى نشر سنة ١٩٣٣م والذى مثل تاريخياً أحداث القرن العشرين، وحدث أن عدداً من الدارسين بدءوا بإعادة قراءة رواية (ابن بطوطة) وأعمال (البكرى) كذلك كانت كتابات المستشرقين (أوريون وصينيون) المتصلين بإفريقيا الجنوبية والشرقية، ولقد شهدت فترة الخمسينيات ظهور عدة أعمال فى الغالب باللغة الإنجليزية وحديثاً جاءت دراسات أخرى فى كتب باللغة الفرنسية، كما وصلت إلينا حديثاً أبحاث أدبية عن فترة الاختراق الأوربي مثل قصائد البحارة الحماسية وبعض المستكشفين وأخيراً الجنود والموظفين الإداريين، وهناك كتب أخرى تواصلوا مع المجتمعات الإفريقية تلك التى تعامل معها التجار، ولسوء الحظ فإن أغلب القيودات الإفريقية خلال القرون المعاصرة عن قصد أو بلا قصد كانت منحازة تأخذ هذا الجانب متجاهلة الآخر كالإسهامات الأوربية أو تلك الأمور الأهلية فى الثقافة الإفريقية وتاريخ العالم، وهذا ينطبق على بعض المؤرخين المتأخرين للثقافة الإفريقية الذين كانوا يكتبون فى ظل مناخ فترة التحرير وهؤلاء عادة يرفضون بشكل انفعالى الاختراق الأوربي على اعتبار أنه نوع من التطفل، وهذا تعامل غير علمى مع التاريخ، والواقع أنه محاولة لإثبات أن إفريقيا تاريخ قبل مجيء الأوربيين، لذلك فإن بعض الانفعال والزعم جعل الماضى الإفريقى قائماً على معطيات مغمورة وغير مصدقة، معطيات مشكوك فيها تمثل نوعاً من الهجوم على آراء ذات طبيعة عرقية تعود إلى عهد جنكيز خان يقابلها فى المدارس الأخرى

نقاش انفعالي أيضاً لأسباب سياسية محاولاً إثبات أنه ليس لإفريقيا ماضى على الإطلاق، وفي هذا الكتاب شعرت أنه من الواجب لتخليص تاريخ إفريقيا من الأحجاف أن أتجنب أى محاولة للرجوع إلى تلك التعريفات .

وعن قصة إفريقيا خلال الفترة الإمبريالية (موضوع القسم الثانى) هنالك مادة وفيرة نشرت وهى تتناول غالباً المساحة أو البلاد جاءت فى شكل قصص بعض الرحالة إضافة إلى كتابات أخرى عن الفلسفة الكونىالية ومعلومات أوفر عن علم الأصول، كذلك فإن تاريخ بعض الحركات الوطنية موثق نسبياً بأقلام الكتاب الوطنيين والمراقبين من الخارج وبعض المؤرخين، وفى السنوات الحالية كان هناك تدفق كبير من الكتب والكتابات عن أماكن معينة عديد منها عن إفريقيا السوداء المعاصرة، أو إفريقيا ككل، وتناولت عدة كتب المشاكل الحديثة فى القارة عن الإفريقية (الأفريكانيزم) وعن الاقتصاد والطب والتطور الاجتماعى .

والسؤال، لماذا هذا الكتاب ذو الأربعة أقسام (والذى ربما يماثل كل الكتب؟) إنه يحاول أن يؤدى عملاً يجمع معاً كل تاريخ إفريقيا السوداء القديم والحديث فى عمل عام واحد ومؤلفه يحاول أن يتحاشى الدخول فى الاتجاهات المعاصرة ليكون ناقدًا علاجياً بحيث يعتبر كل جزء من تاريخ إفريقيا، كل تبادل ثقافى أو أى تبدل صورى أو شكلى كما لو أنه جزء هام من كل، وتاريخ إفريقيا نفسه كما لو أنه مرأى واحد معاصر من ماضى العالم وحاضره، وطالما أن هذه الكتابة موجهة للدبلوماسى وللقارئ المستقل ولرجال الأعمال وللجامعات والمدارس العليا (فى إفريقيا وخارجها) وإلى قراء الكتابات غير الخيالية، فلقد تجاوزت الأسلوب المجهد فى استخدام الملاحظات والاقتطاف الممل من المصادر مع استثناءان :

الأول: كتاب وكتابات وأعمال القرون الماضية التى تكون جزءاً من التاريخ الإفريقى، والثانى: كتابات بعض الكتاب الأفارقة المحدثين المتميزين الذين رأيت أنهم يستحقون الذكر .

وأنا مدين بشكر خاص للإسلامى الفرنسى البروفيسور (فينيست مونتيل) من جامعة داكاز وهو مصدر معرفى لا يستغنى عنه فيما يتعلق بتاريخ الإمبراطوريات القديمة، وإلى

الكاتب الإنجليزى الذى سبقت الإشارة إليه (بوفيل) وإلى العلامة الأمريكى الدكتور (جيمس دوفى) لعلمه الواسع فى التاريخ الإفريقى البرتغالى وإلى المؤرخ النيجيرى البروفيسور (ك . أنووكا) عميد جامعة عبدان لملاحظاته الدقيقة البناءة فى تطورات دلتا النيجر، وللكاتب الأسترالى (آلان مورهد) عن عمله المتعلق بالإمبراطور (ثيودور) وغزو ناير لإثيوبيا، وأخيراً لصديقى (جورج بادموور) من ترينداد الرجل الثائر الذى كانت قيوداته عن عموم إفريقيا رائعة وفريدة، وبعيدا عن الوقت الماضى المتعارف عليه فإن كتب أو مخطوطات (روبرت أندري) و(روبرت كارنيفين) و(جون رايديل) وكثيرين غيرهم كانت بشكل خاص ذات قيمة فى مادتها الأصلية، ومن أجل اختيار ماذا يمكن التركيز عليه فى النهاية اخترت العديد من المصادر مثل كتاب (بليكنس ديلبوس) و(جيدى) و(باربارا هول) و(كابل جونز) وهى مصادر مشابهة لتلك التى أصدرها (بوسمان وكابتن أدامس) خلال العقود الأوائل والتى كانت قيمة من حيث الإحساس بما كان فى ذلك العهد، ومن الصعب أن تكتب تاريخ مقنع دون الرجوع إلى كثير من المراجع والتسجيلات العربية إذ إن كتابة تاريخ إفريقيا لا يتم بالاعتماد على حساب التواريخ وحده كما هى الطريقة فى أغلب التواريخ الأوربية والأمريكية والأسبوية إذ لا يوجد خط محدد مرجعى مثل (الوثيقة العظمى)^(١) أو عصر النهضة الأوربية أو الثورة الفرنسية، ويمكن القول: إن استغلال رحلة البحارة البرتغاليون (كمقارنة بحرية وليست سياسية) بالرحلة الأوربية إلى أمريكا أنها ذات تأثير محدود على السواحل الإفريقية ذلك أنه خلال القرن الثانى عشر نرى بورنو لم تتغير كثيراً عن غانا خلال القرن الحادى عشر، وفى إفريقيا لكل منطقة سوداء ظروفها التى تختلف عن بقية أجزاء القارة فى حين أن الأحداث فى إيطاليا مثلاً تتلاقى مع تلك التى فى فرنسا وتؤثر فى تلك التى فى هولندا أو البرتغال^(٢) بينما الأحداث فى بريطانيا تتأثر بتلك التى فى إسبانيا أو ألمانيا فى حين أن دلتا النيجر فى تاريخها لا تتأثر بأنجولا أو إثيوبيا

(١) تسمى الوثيقة العظمى أصدرها يوحنا ملك إنجلترا اعترافاً بحقوق النبلاء والكنيسة والأحرار سنة ١٢١٥م - المترجم .
 (٢) تجدر الملاحظة إلى أن هذا الذى ذكره المؤلف يخالف ما جاء فى جميع الأديان السماوية، فقد جاء فى القرآن الكريم ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق) و﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ (سورة التين) و﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله عل كل شيء قدير﴾ (سورة العنكبوت: ٢٠) - المترجم .

وبالمقابل فإن هذه لا تتأثر بالكاميرون أو السنغال، ولا يوجد تنال في حساب التاريخ حتى الزمن الحاضر في القارة ذلك أن التاريخ السابق لكل بلد أو منطقة يقوم فيما يشبه الفراغ، ولهذا فإن الجزء الأول من هذا الكتاب يتناول إفريقيا قبل الأوربيين حيث إن واحدا من اثنين من أحداث التاريخ (الاحتلال) كان واضحا ولكن الآخر (تقدم الإنسان) كان مرتبطا بانتشار الإسلام، أما القسم الثاني من الكتاب فيتناول إفريقيا قبل الاستعمار، ولهذا فهو يبدأ بمناطق السواحل، والقسم الثالث يتناول فترة الاستعمار الشيء الذي يتطلب إعادة مؤشر البوصلة إلى إفريقيا البرتغالية، وحتى في سيراليون التي يتناولها القسم الأخير هناك عودة للتاريخ السابق، إن التاريخ الإفريقي يمكن أن يقدم في عدة آلاف من الصفحات وفي اختيار ما يسقط وما يؤخذ فقد حاولت أن أبين كم كان الدارسون المحدثون أذكاء في استخراج الماضي القديم وهكذا فقد ركزت على ما ظهر لي أنه ذو أهمية (غانا ومالي وسونغاي) وهي جميعا تتماثل وتغير القوى فيها يجعل الفرق قليل في قصة الإنسان، وهنا تعاملت مع أهم جزء من التاريخ القديم في غرب السودان وكيف كانت محاولة شنغاي وانتصار الجيش الإفريقي الأسود دروسا للمستقبل الذي حدد لعدة مئات من السنين تاريخ السودان الغربي، وبالمثل فقد ألقيت الضوء على أحداث غزو (الناير) لإثيوبيا وهو الذي فتح أبواب هذا البلد للعالم الخارجي وتلك الحملة في الحرب العالمية الأولى لشرق إفريقيا حيث تقرر جزئيا مصير العالم في تانجانيقا، وفي الشاطئ الغربي لم أعلق أهمية كبيرة على الحملة العسكرية بينما اعتبرت بشكل أساسي أهمية التجارة وتأثيرها الحضاري ورأيت أهمية دلتا النيجر كخط دقيق للامتداد البريطاني وبدرجة أقل في السنغال للانتشار الفرنسي، وباستثناء تحليل ملخص للتأثير الاستعماري المحلي المتداخل مع الاستراتيجية الإفريقية وعلاقتها بالمشاكل الأخرى وموضوع الوحدة الإفريقية، ومن هنا فإن الكتاب يتناول أحداث التاريخ الإفريقي ككل وعلاقة القارة بما وفد إليها .



الفصل الأول

رمال وسيوف

عصر الإمبراطوريات الإفريقية

الفصل الأول

رمال وسيوف - عصر الإمبراطوريات الإفريقية

حيث بدأ الإنسان في إفريقيا:

على الرغم من أن القروء الأوائل يمكن أن يكونوا قد انتقلوا إلى مراحل طبيعية في مختلف المناطق من كوكبنا، فإن الخبراء الآن يؤكدون أنه كان في وحول الوهجات المطيرة (بحيرة فيكتوريا) مكان أول حيوان متطور النشأة مؤدياً إلى نشأة إنسان، ولهذا الحيوان المتطور النشأة تاريخ يبلغ سبعين مليون سنة طولاً، وأصلنا الأول يشبه إلى حد كبير الحيوان المتطور النشأة حيث كان نباتي أكل خضار وبنيتة الجسدية لم تكن صالحة لأن يحيا مثل أغلب أنواع الحيوانات القادرة على تحمل المراحل الصعبة ولكن أذرعه كانت أطول من رجله تمكنه من التآرجح من شجرة إلى شجرة بحيث يكون بعيداً عن وصول الحيوانات الكاسرة إليه وإضافة إلى ذلك فإن الحيوان المتطور النشأة كان دماغه أكبر من بقية الحيوانات الأخرى، ومنذ عشرين مليون سنة ماضية دفع الجفاف جدنا الأول إلى الأرض وكان القرد البري (الأرضي) قد اكتشف بواسطة البروفيسور (ل.س.ب. ليكي وزوجته) في إحدى الجزر ببحيرة فيكتوريا وهو لم يكن يتآرجح على الشجر وإن كان قادراً على التنافس مع بقية الحيوانات ويعيش على ما توفره الطبيعة في الأرض، ولابد أننا في النهاية نحن الأفارقة والأوربيين من هذا القرد الأرضي، وعلى جانب غير بعيد شرقاً في كينيا وجد (ألدوفاي جورجى) سنة ١٩٥٩م بقايا متحجرة لحيوان متطور النشأة ومن دراسة عظامه ظهر أنه من آكلى اللحوم وعمره مليون وثلاثة أرباع المليون سنة، ومنذ ما يزيد عن حوالى ثلاثين سنة على اكتشاف (ليكى) العظيم في منطقة الجنوب من

القارة، وفي كهف حجري مدمر كان أحد القرود قد وجد واسمه العلمى (إسترالوبيتوكوس أفريكانو) أى قرد الجنوب الإفريقى وعمره ثمانمائة ألف سنة قبل تاريخ إفريقيا، كان طوله حوالى أربعة أقدام ووزنه حوالى سبعين رطلاً وهو يشبه إلى حد ما قزم قوقازى، بينما دماغه أكبر قليلاً من الحيوان المتطور النشأة فى (الدوغاى) على الرغم من أنه بعيد عنه فى الزمن، ولأنه كما عرف لا يتأرجح على الأشجار صار يواجه ما فى الأرض مثلنا، رأسه قائماً بين كتفيه مستقيماً وهو أفتح القدمين مثلنا ولا يستعمل الأذرع الطويلة كبقية القرود حيث صارت قصيرة تستخدم فى أغراض أخرى، ومثلنا له خلفية بارزة تحوى عضلات تمكنه من تحريك أعضاء جسمه ورشاقتة ودماغه أنقذه من الانقراض، وأسنانه مثلنا يأكل بها اللحم وليس فى فمه أضراس كثيرة تساعد على المضغ وله ناب حاد مثلنا نحن الآن، جسده كبير، عيناه وأسنانه مثلنا غير انها تبرز قليلاً عند الفك الأعلى، وبذلك الأسنان الحادة الأمامية يأكل الأشياء وهى خام وله كل خواص الإحساس والفهم، ومنذ قديم الزمان تتواجد نسخة الإنسان هذا وشكراً للبروفيسور (رايموند دارت) الأسترالى الذى اكتشف هذا المخلوق قبل (ليكى) على الرغم من أن نوعه ليس كقرد (أردوقاى) ومنذ أن اكتشف (ليكى) العم الأكبر لقرد (دارت) وهو قزم آخر أطلق عليه اسم (هومو هوبيلز) وهو معاصر لنوع آخر أقل قرباً من الإنسان ينتمى فقط إلى واحد وثلاثة أرباع المليون سنة ماضية من تاريخ الأرض، ويلاحظ أن إنسان بيكين أو جاناو المسمى (بيشيكاثروبوس) ينتمى فقط إلى أربعمائة ألف سنة وهو ربما أتبع طريق مختلف، وإنما مشابه فى النشأة والارتقاء وقد حدث له ذلك فى آسيا، وأول إنسان أوربى عرف يرجع تاريخه إلى ربع مليون سنة ماضية فقط والمتوقع أنه انتقل من إفريقيا عندما انتهى العصر الجليدى من أوربا، والإنسان الحديث بفكره الواسع وقد تطور ذقنه واستقامت هيئته فى وقت قريب .

إن قصة إفريقيا السوداء هى قصة كل بلدان العالم غير المرتبطة الآن والتي قسّمت بحواجز طبيعية وتوزعت عبر قارة أكبر من مساحة الولايات المتحدة ثلاث

الفصل الأول : رمال وسيوف عصر الإمبراطوريات الإفريقية

مرات، وهى كذلك قصة كثير من الاختلافات الخارجية من أوربا إلى الولايات المتحدة إلى آسيا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، ولقد اكتشف العلم الصلة بين الإنسان والقرود فى شرق وجنوب إفريقيا وتقديرات بعض النظريات الدقيقة عن الهجرة من إفريقيا كانت معروفة قبل هذه التأثيرات وقبل أن يتم غزو الصحراء وتحدى شاطئ البربر وإمبراطوريات غرب السودان (تحديدا فيما يعرف بموريتانيا ومالى والنيجر) دينياً وثقافياً وسياسياً وصارت إفريقيا الشمالية امتداداً قريباً من الشرق الأوسط فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وحدث خلال السنوات الحالية ارتباط إسلامي بسيط، وكذلك جبهة عالمية بشأن بعض المواضيع الاستعمارية أحدثت صلة بين الشاطئين فى محيط الرمال، ولكن خلال القرون الأولى من الألفية السابقة فإن وجه البحر الأبيض المتوسط اتجه إلى كل من الشمال والجنوب وليس فقط إلى مرافئ روما واليونان والشرق، وإنما أيضاً إلى تلك المناطق التى مازالت حتى اليوم من أكثر العوائق المعروفة للإنسان وكانت الرحلة أبعد من أفق البحر مخيفة وليس صدفة أنه عندما ظهر الجمل بما له من قدرة على تخزين الأكل والشرب فى جوفه وتقدمه على البغل كثيراً من حيث السرعة وقد دخل رحلات الصحراء أن يعتمد على اعتبار أنه سفينة الصحراء، ولم يكن لأى أمة إفريقية سوداء قدرة وقوة بحرية كحالتها فى الصحراء، ومن المؤكد أنه مثلما لا تبقى رمال الصحراء أثاراً لخطوات الإنسان فإن تاريخ إفريقيا القديم كذلك لا يمكن تتبعه وإن كانت هناك بقايا من الصورة العامة فى النيل الأعلى أى ممالك شرق إفريقيا وصراع القوى القديم فى غرب السودان والرغبة فى السيطرة ومصير الإمبراطوريات الكبيرة .

إن تاريخ إفريقيا السوداء يتحدد بدرجة كبيرة بجغرافيتها ذلك أن إفريقيا شمال الصحراء هى جغرافياً وثقافياً مرآة العالم الذى تتصل به كثيراً، شواطئ البحر المتوسط، الإسبان، الإغريق، الشيشيان، هم متأثرون بالعرب؛ لأن دياناتهم نظرياً تنادى بالإحسان بدلاً من السيف، وفى جنوب البحر الأبيض المتوسط هناك الصحراء

القاحلة وأبعد جنوباً تبدأ قارة جديدة فتبرز أرض خضراء ثم مناطق واسعة بها أعشاب عالية وشجيرات ثم تدريجياً تظهر غابات تضم (ليبيريا وساحل العاج الجنوبي من دلتا النيجر شرقاً، وجنوباً هناك الغابات المطيرة في الكونغو وهي مساحتها كمساحة أقطار أوربا، وهناك جنوب وشرق خط الاستواء جبال عظيمة قممها تعانق السماء محاطة ببحيرات جليلة وشلالات مياه تتكون بواسطة فلق كبير، وهنا غالباً يكون الطقس قائظاً وهذه المناطق التي كانت لوقت طويل طاردة للأفارقة مع استثناء بسيط للنيليين والناس ذوي العلاقة (إثيوبيا، الأمهارة، والقالاس، والباقاندا، والباتوتس، هذه هي الصورة الأوسع لإفريقيا وهي في الواقع غير كاملة حيث إنه في جنوب غابة (أشانتى الندية) تقع الأرض شبه القاحلة حول (أكرا) وجنوب تلك المرتفعات حول (ساليزبوري) تقع غابات (ناتال) كثيرة الرطوبة، بينما قرب كينيا تظهر أرض شبه صحراء في الشمال، وقبل فترة ظهور النفط يمكن النظر إلى إفريقيا على أنها مقاومة للإنسان وغير مفيدة، وهي تتكون من أحد عشر مليون ميل مربع أربعة ملايين ونصف منها أراضي صحراوية رملية ولقد أثر على تطور إفريقيا البحر كما هي الصحراء، وكان الأطلنطي في الغرب حاجزاً منذ عدة قرون، ومن المؤكد أن القوى البحرية كانت من ناس غرباء وأماكن بعيدة بداية من (الفينيقيين)، وفي زمن (القامبليان - عشرة آلاف سنة من قبل الميلاد) ظهر نموذج الإنسان عند مدار الجدي في إفريقيا، وهذا النموذج من الإنسان باق الآن في شخص إنسان الغاب بجنوب إفريقيا، ومن الواضح أن الأقرام معاصرون لنموذج الإنسان البدائي أو ربما جاءوا متأخرين عنه بعض الوقت، أما الأسود، الإنسان الحديث فيمكن أن يكون ظهوره خلال (الخمس آلاف سنة قبل الميلاد في جنوب إفريقيا) وكل هذه المخلوقات عاشت بشكل خاص على الصيد وعرفوا استخدام النار تقريباً منذ (خمس آلاف سنة ماضية) وفي فترات الجفاف انتقل الكانجاريين والقامبليان إلى الغابات المطيرة الكونغولية والغانية، وخلال الفترة المطيرة تلك عرفوا أدوات كثيرة إضافة إلى الفؤوس والحراش والإبر المصنوعة من العظام، وكذلك مظاهر أدوات التجميل والخيوط، وفي الألف

السادسة والسابعة قبل الميلاد ظهرت ثقافة الحاميين^(١) جنوب الصحراء ويذكر أن هؤلاء الناس هم غالباً بيض يعتقد أنهم من أصل فلسطيني، وهناك معلم أثري معروف ينسب إليهم يقع شمال الصحراء في قفصه بتونس، ولقد حدثت معهم خطوة عظيمة إلى الأمام في الارتقاء البشري، في الزراعة وصناعة الفخار، وإذا كانت الصحراء في وقت ما خضراء ومأهولة صارت تفقد خضرتها منذ تقريباً ستة آلاف سنة وقد جفت الأنهار، ولم يبق إلا وديان يابسة تشاهد الآن من الجو، وكانت قبل التجفيف الحراري متطورة وقد استبدل الصيد جزئياً بالرعى عندما جاء الحصان المدجن من البلاد العربية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومنذئذ صارت التجارة وركوب الخيل أسباب البقاء للمجتمعات الأكثر تقدماً، وعرفت طريق فزان عبر الصحراء واستخدمت، ومن الجانب الشرقي لشاطئ البحر الأبيض المتوسط بدأ الفينيقيون وهم الحدود الأوائل للسوريين واللبنانيين يعبرون الصحراء ويسيرون السفن إلى الساحل الغربي الإفريقي ولكن هذه الطرق البحرية ماتت بعد ذلك، ولقد كانت الصحراء قبل أي شيء آخر هي التي عطلت التطور الإفريقي في الوقت الذي تقدم فيه الإنسان نسبياً في أوروبا وربما في آسيا أيضاً، وكان التقدم الثقافي الذي حصل عليه الشرق الأدنى^(٢) وانتشر في أوروبا يمكن أن ينتشر في صحراء إفريقيا كذلك لو لم تقرر الرمال بغطائها عكس ذلك، وعلى أي حال كان يمكن أن يكون بشكل أوسع وأكثر، وطقس إفريقيا كان يمكن أن يحفظ مناطق الاستقرار بحيث يمكن لحضارة البحر الأبيض أن تنتشر أبعد مما حدث، وربما يصدق القول: إن الوضع العام للأرض والجفاف قد أخر إفريقيا لوقت طويل عن أن تؤسس حضارة راسخة .

(١) الحاميين هم قوم في شمال إفريقيا وقتذاك قيل: إنهم من نسل حام بن نوح، ومنهم التوارق والبربر - المترجم .

(٢) قال المؤلف (الآداب التي سرقها الشرق الأدنى) وقد استبدلنا ذلك بالقول: (حصل عليها الشرق الأدنى؛ لأن العلوم والآداب من وجهة نظرنا تحصل ولا تسرق كذلك كان من الإنصاف أن يقال: حصل عليها العرب وليس الشرق الأدنى؛ لأن العلوم والثقافة والآداب نقلها العرب إلى أوروبا، وهو الشيء الذي تؤكد أحداث التاريخ - المترجم .

وهناك ثلاث مجموعات عرقية معروفة جيداً في إفريقيا جنوب الصحراء وهى (البوشمين من الجنوب والزنوج والهاميين، أما الهاميين وربما الزنوج أيضاً فقد جاءوا من آسيا والاثنتين اختلطتا معا وبالنوع الإفريقى، أما البوشمين فإنهم من الأصل الإفريقى وهم كانوا حيثذ وفى ذلك الوقت يمثلون المخلوق المتقدم الأهم، أن التزاوج فى هذه الأنواع وخصوصاً بين الزنوج والهاميين متعدد وبشكل خاص فى الجانب الشرقى من إفريقيا، وبعضها ربما قريباً نسبياً ذلك أن الشعوب فى إفريقيا لابد أنها كانت قليلة والمواصلات بين المسافات الشاسعة صعبة، ومع ذلك فإن الهجرة كانت مبكرة، واليوم نجد أن البوسكوبر أحياناً أطول قامة من البوشمين الأوائل، أما الأقزام فمازالوا يعيشون على الصيد والهورتونس وهم جماعة أخرى من جنوب إفريقيا يعتقد أنهم خليط من تزاوج الزنوج والبوشمين كما أن القبيلة منذئذ وحتى الآن هى التى توفر الحماية وتحدد القانون الاجتماعى، ويلاحظ أن قليل من هؤلاء مازالوا فى أماكنهم التى عاشوا فيها أصلاً، بينما أغلب القبائل والجماعات هاجرت إلى المناطق التى هى فيها الآن منذ قرون ماضية، وفى هذه التطورات التاريخية البدوية فإن التقدم الثقافى يكون فى العادة راکداً، والواقع أن الإنسان الإفريقى إذا كان قد تأخر فذلك لظروف وأسباب ولا يجب المبالغة فى بعض الأمور قياساً بماضى آسيا وأوربا حيث إن هناك عادات وتقاليد تنتقل من الأب إلى الابن ومن الأم إلى ابنتها، ويجب الاعتراف بأن حالة تحسن الوضع المعيشى (الغذاء) قد جاءت مع مجيء البحارة البرتغاليون وهو الشيء الذى يمثل نقطة تحول فى تاريخ إفريقيا، ويذكر أنه من بين خمسة آلاف نوع من المزروعات والأشجار فى الكونغو المعاصر جاءت من آسيا ومن أمريكا والقليل جداً منها كان محلياً، وهذه تنتج مختلف أنواع الغذاء، وتضمنت المستوردات العديد من الأنواع الزهرية وحتى الموز الذى يعتقد أنه إفريقى كان هناك ما يعزز الاستنتاج بأنه كان قد استنبت بالاستيراد، وهناك منتجات محلية أخرى كالبطاطا البرية الحلوة، وقد حل إنتاج

الأطعمة وتربية الماشية محل الصيد فى مناطق نهر النيل خلال الألفية الخامسة قبل وقتنا الحالى، وفى الألفية الرابعة قبل الميلاد كانت هناك حيوانات الماعز فيما يعرف بالسودان الآن ومن الواضح أنه لم يكن هناك إنتاج للبذور، وفى الألفية الثالثة قبل الميلاد بدأ الزوج وسكان السافانا (الأرض الواسعة) يزرعون، بينما كان الفقراء البدو من قبائل الغابات قد تحولوا من مرحلة الصيد مع بداية العهد المسيحى، والمنتج الأقدم هو الذرة ومع تطور الزراعة تطور وضع الغذاء والعمر والصحة، وبالتالي زاد عدد سكان القارة .

وخلال القرن السادس والسابع صارت البواخر البرتغالية تصل ناقلة الذرة الصفراء والفواكه والبقول السودانى كما عرف الليمون الذى يأتى من آسيا ومن أمريكا، وقبل ذلك بقليل عرف الأرز وأشياء أخرى وربما الموز، وكل ذلك جعل مناطق الغابات صالحة للزراعة، وصارت القبائل البدائية التى تعيش على التنقل والصيد مستقرة، واليوم فإن تلك المواد والمزروعات كالذرة الصفراء والأرز وغيرها تعتبر منتجات أساسية فى إفريقيا، أما الصيد فى أعماق البحار فقد جاء متأخراً حيث بدأ فى سيراليون، واللغة فى إفريقيا كانت بدائية مستعملة منذ خمسة آلاف سنة تقريباً على الرغم من أن إفريقيا فى البداية كانت تتكلم بالسنة عديدة خلاف ما هى عليه الآن، أى حوالى ستمائة لغة وآلاف من اللهجات، وكانت تلك اللغات بدائية جداً قياساً بمفهوم اللغة، ويظهر أن تلك اللغات بدأت تتطور منفردة وبتأثير قليل على بعضها، وكان هناك أربع مجموعات :

فى الشمال والشمال الشرقى كانت اللغات حامية سامية، وفى الجنوب والجنوب الشرقى من القارة فإن اللغات حلقومية بالنسبة للهوتينتوس والبوسكوبز، ولذلك فإن اللغات تنقسم إلى سودانية غربية وسودانية شرقية، وبعبارة أخرى: تنقسم اللغات على ضوء الوجود الطبيعى لمجموعات من الناس، ويوجد أوسع تشابه فى مختلف السنة البانتو فى النصف الجنوبى من القارة، وذلك ربما منذ ألفى

سنة فقط، ولعلها تعود في أصلها إلى غرب السودان، وإن قد اختلفت اللهجات لدى بانتو غرب السودان في العهد الوسيط، وفي الوقت الحديث فإن اللغات في غرب السودان مركبة وهي الهاوسا والباربارا وهذه تأثرت نسبياً باللغة العربية، وهناك في شرق إفريقيا اللغة السواحلية وهي آتية من اللغة العربية، ومن المعروف أن اللغات الإفريقية غنية في كلماتها المتعلقة بالنبات والحيوان ولكنها فقيرة في المعقولات، وأخيراً قام الباحث السنغالي الشيخ عنا ديوب بترجمة جزء من كتاب (باول لانجفين) عن النسبية إلى لغة الـ وولف باستعمال معانى الجذور القائمة على الجذور العلمية في الكلمات الإفريقية أو الأصل اللاتيني، وذلك من أجل أن يثبت أن ثراء اللغات الإفريقية لا شبهة فيه، ولكن ربما من المناسب القول: إن اللغات الإفريقية ظهر غناؤها عندما اتصلت خلال القرون الحديثة باللغات العربية والأوربية، وباستثناء العربية فإن النظرة المنصفة والموضوعية ترتاب كثيراً فيما إذا كانت اللغات الإفريقية ستعايش القرون التكنولوجية القادمة .



الفصل الثاني

البونت وزنجبار

الفصل الثانى

البونت وزنجبار

إن حضارة إفريقيا السوداء القديمة كانت ربما فى (البونت) وهى منطقة الآن تكون جزءا من السودان الحديث أو الصومال، ولقد أرادت مصر رقيق الأراضى السوداء عند نهاية شواطئ البحر الأحمر وبذلك بدأ تحول الثقافة إلى الجنوب من الشرق الأدنى، ولقد تطور حجم التجارة مع ثروة مصر على الرغم من أن المعلومات عن هذه المرحلة قليلة، ولكننا نعلم أنه مع الألفية الرابعة قبل الميلاد كان الذهب يستورد وكذلك النحاس من هضاب البحر الأحمر، وكانت الموانئ قد أنشأت باستخدام الأرقاء كعمال، وهناك الشيء القليل معروفا عن سلوك وتصرفات الناس، وإن كانت ظاهرة الإيمان بالآخرة تلاحظ فى تراتيل الدفن، وكذلك وضع بعض حاجاتهم الهامة معهم، أما فى منطقة بونت فإن البيوت خلال هذه الفترة كانت تبنى وبها نوافذ زجاجية مما يدل على بعض التقدم، وخلال الألفية الثالثة قبل الميلاد بدأ استيراد الفضة والرصاص من منطقة جزر (إيجا)^(١) ولذلك صارت أحواض السفن تعمل على بناء سفن بطاقة ستين مجدافا بحيث تعمل فى البحار الأليفة بحثا عن الذهب والعاج والكهرمان ومواد العطور، وخلال الألفية الأولى قبل المسيح نشأت حضارة فى (كوش) الواقعة الآن شمال السودان الحالى وهنا صارت تصنع كميات من البرونز، علما بأن كوش كانت تقيم بها أصلا مجموعة قوقازية، ولكنها شملت كثير من الزنوج (عبيدا وأحرارا) عندما توسعت جنوبا، وكانت القيادة والإدارة فى

(١) جزر بحر إيجا تقع بين تركيا واليونان، وهى تمثل مناطق نزاع وتماس بين البلدين مما أدى إلى حروب بينهما قديما، والنزاع حولها مازال قائما، وكادت الحرب تشتعل بين البلدين أواخر سنة ١٩٨٣ م، عندما أعلنت اليونان أنها ستبدأ البحث عن النفط فى تلك الجزر - المترجم .

الدولة (قوقازية)، بينما كان المعتقد الدينى مصرىً، وإذ نمت قوة الدولة تحدثت جارتها الكبيرة القائمة فى الشمال، وحدث أن زعيم كوش قام بغزو مصر ولم يكتمل ذلك الغزو إلا فى عهد ابنه (فيانخى) سنة ٧٢٥م حيث أسس الأسرة الفرعونية الإثيوبية الخامسة والعشرين، وخلال القرن التالى أجبرت عناصر كوش من طرف الأشوريين لتعود جنوباً إلى أرضها الأصلية، وأخيراً ربما من أجل تفادى جفاف الأراضى العالية نقلت عاصمة (كوش) من (نباتا) إلى (مروا) وهذه تقع على بعد حوالى مائة ميل شمال الخرطوم وآثار (مروا) الهامة مازال موجودة ولكن الرمال تغطيها الآن وتحتاج لعمل كبير لإظهارها، وفى القرن الرابع قبل الميلاد احتلت مروا من طرف المملكة الإثيوبية وفى هذا الوقت كان المعتقد الدينى فى كوش خليطاً من المحلى والمصرى على أن معتقد كوش هذا قد انتشر غرباً فى الصحراء وربما أبعد منها، ولقد درس ذلك الانتشار الباحثون النيجيريون فوجدوا فى بعض المناطق البعيدة أن المعتقد الدينى هناك يرجع إلى كوش، وحوالى هذا الوقت ظهر التأثير الدينى المسيحى فى المنطقة وقد ترسّخ فى إثيوبيا وشرق إفريقيا، وكانت كوش قد امتدت تعاملاتها التجارية فى ذلك الوقت إلى البلاد العربية والهند وحتى إلى الصين، وكانت الممالك إلى الجنوب من كوش وشرق إفريقيا قد تأثرت بالغزو السامى الآتى من البلاد العربية خلال عدة قرون قبل الميلاد، أما انتعاش المسيحية بين الأمهرين فيعود إلى القرن الرابع من زماننا وذلك عندما تحول الإثيوبيون إلى الدين المسيحى بتأثير قساوسة بيزنطيين فى الإمبراطورية الرومانية، أما أسد يهودا الإمبراطور كما كان يعرف دائماً فهو إمبراطور الحبشة، والواقع أنه ليس من سلالة سليمان وملكة سبأ كما تحاول الأسطورة أن تؤكد، وإنما لقبه الرسمى هو (النجاشى) وهذا يعود على الأقل إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادى حيث كان يلقب به، ومن الواضح أن تأثير إثيوبيا الذى يمتد إلى الجنوب الآن، بل وحتى إلى جنوب إفريقيا يعرف من أسلوب الزراعة والمبانى الحجرية وغابات المناطق العالية، وفى العصر الحديدي الأزانى كانت منجزات الحضارة الكينية متواضعة وإن قد دامت إلى عدة قرون فائته وكان النظام الاجتماعى

ضعيفاً، ونجد آثار مدينة (انتاروكا) المهدامة معروفة حتى الآن من عهد (آزانيا)، ويظهر أن المملكة كانت فى الشمال لكنها دفعت إلى الجنوب بسبب ضغط الإسلام، وأخيراً انتهت (آزانيا) نتيجة لضغط فرسان الحرب من القبائل النيلية مثل: (دليو وماساى وباهيما ووانيككا)، وقد فرضت قبيلة (باهيما) مثلما فعلت (الباتوتس) من رواندا وبوروندى نظام إقطاعى شبيه بالنظام الإقطاعى فى أوربا القرون الوسطى، وكانت الطبقة العليا تكسب الأبقار والماشية مما يدل على الثروة والامتياز وتهتم ببعض الفنون البسيطة كصناعة الفخار والأقمشة، أما الباهيما كطبقة صناعية كانت تنتمى إلى قبيلة (باريو) والباتوتسى فهى من (الباهوتو)، وقد استمرت المملكة الرواندية حتى سنة ١٩٦٠م وإلى أن أتت الانتخابات بالنظام الجمهورى، أما مملكة البوروندى فمازالت باقية كنظام ديموقراطى، والصومال له تاريخ مماثل للحضارة الحامية التى فرضت نفسها على الرعاة والصيادين الزنوج، وكان هنالك نوع آخر من التأثير على المنطقة ذلك هو (النظام الشيرازى) الآتى من فارس والذى تظهر آثاره فى المسجد الرئيسى بزنجبار وفى بناء قصر حسونة كومو الواقع فى جزيرة (كيلو) وهذا يرجع إلى القرن العشر والثانى عشر الميلادى، والكثير غير معروف عن الكيفية التى تطورت بها الحضارات الحامية والسامية أو الطريقة التى أتت بها وجعلتها تخرق وتؤثر فى إفريقيا، وكما أن الاهتمام الأوروبى بشرق إفريقيا والذى تابع تطوره فى قلب إفريقيا السوداء السيد (بريستور جون) رئيس المجموعة المسيحية وهو شخصية كاريزمية ذات بأس، ولقد تأججت الرغبة الأوربية عن الجزء الجنوبى الثالث من القارة بسبب تلك القصص التى تواترت عن مملكة (مونوموتابا) وكان ما ذكره (بريستور جون) مجرد غش عن إثيوبيا ومليكتها ذلك أن مملكة (مونوموتابا) استمرت على الرغم من أنه من الصعب تقدير أهميتها الحقيقية اعتماداً على العديد من الروايات والقصص التى جاءت من البحارة والتجار، ولذلك فإن بلادها عندما عرفت بواسطة البرتغاليين أصيب الرحالة بخيبة أمل على أن مملكة (المونوموتابا) يظهر أنها أدارت البلاد بطريقة تقارن ببعض الممالك المعاصرة التى كانت فى أوربا الإقطاعية وأوربا ما بعد الإقطاع،

ولقد ذكر القبطان البرتغالى (باربوسا) الذى كان يكتب من ساحل (موكامبيكى سنة ١٥١٧م) قائلاً: خلف هذه البلاد فى اتجاه الغرب تقع مملك (بيناميتابا) وهى خاصة بأناس وثنين يسميهم المغاربة (الكفار) وهؤلاء أناس سود يمشون عرايا فيما الوسط من الجسم، وكان الرحالة من هذه المملكة قد وصلوا الشاطئ وهم يرتدون جلوداً بذيول ويحملون سيوفاً وحراباً ونبالاً ورماحاً حديدية، ويعتقدون أن (باربوسا) قال هناك على مسافة رحلة أسبوعين أو ثلاثة تقع مدينة كبيرة تسمى (زانجياتشى) بها العديد من البيوت المقامة من الخشب والقش تخص الملحين، وأن ملك (بيناميتابا) عادة ما يقيم هناك، وهذه البلاد تقع على الطريق المؤدى من (سوفالا) إلى (رأس الرجاء الصالح) وفى هذه المدينة يقيم ملك (بيتاميتابا) فى مبنى كبير ومن هناك يقوم التجار بنقل الذهب إلى (سوفالا) حيث يقدمونه للمغاربة بلا وزن مقابل أقمشة ملونة وخرز .

ويكتب السيد (قوز) بعد بعض الوقت من ذلك يقول: فى وسط هذه البلاد هناك قلعة بنيت من الحجارة الكبيرة من الداخل والخارج وأن هذا المبنى تحفة يتمثل فيها كل الإبداع مثلما يقول الناس: إنه لا يمكن للرأى أن يلاحظ الجس بين حجارتها، كذلك تحدث (قوز) عن قلاع أخرى مشابهة فى أماكن ثانية بالمملكة، وأضاف قائلاً: إن ملك (بيناميتابا) يقوم على دولة عظيمة تؤدى فيها الخدمات باحترام كبير، وأن العمارة الرئيسية طبقاً لقول (باروس) عرضها خمسة وعشرون شبراً وهى التى تسمى الآن (زامبابوى الكبرى) والتى تقع مباشرة على طريق (جوهانزبرج ساليزبورى) فى روديسيا، وأن عمر زامبابوى الكبرى ربما أكثر من ألف سنة ماضية، وقد جددت خلال فترة قصيرة وأقيمت فيها توسعة، وتاريخ أغلب آثارها الحديثة من القرن الثامن عشر الميلادى، وأن مبانيها عالية ومزينة بالحجارة البيضاء وطرقاتها مزخرفة، ولذلك فإن طراز المباني بالكامل إفريقى بلا أى تأثير خارجى على الرغم من أن الرخام الشرقى من الواضح أنه يباع على الشاطئ، وتقع ضمن ذلك الخراب روديسيا الحديثة وزامبيا، وفيهما مشاهد من نفس النوع، وإن كانت أقل أهمية، والناس الذين عاشوا فى هذا

العمران تعاملوا بأنواع من النحاس مثل ذلك الذى يوجد فى (كاتانقا)، أو بنوع من سبائك النحاس، وربما يكون الفينيقيون الذين أبحروا طوافاً بإفريقيا حسب قول (هيرودوتس) خلال القرن السابع الميلادى قد قدموا نوع السبيكة النحاسية التى وجدت فى إنجلترا (المملكة المتحدة) وبالتالي يمكن أن تكون هذه قد وصلت إفريقيا الشرقية من فينيسيا عبر مصر ونهر النيل، وعلى أى حال فإن هذه القطعة المميزة تشير إلى حجم التعامل التجارى المبكر عبر القارات، أو من خلال الشواطئ أو كلاهما، وهناك آثار ثقافات كثيرة تبين أنها اتصلت ببعضها فى المقاطعات (الزيمبابوية) كتلك التى جاءت من (ماشونا) طبقاً لأحد المصادر خلال القرن الثانى عشر الميلادى، ومن الواضح أنها انتقلت جنوباً من (زامبىزي) سنة ١٤٠٠م ثم مرة أخرى من سنة ١٥٠٠-١٧٠٠م وحوالى هذا الوقت كان (الراوزى) تحت قيادة مليكهم (مامبو) قد انتصروا على مملكة (مونوموتابا)، وبالتالي قام (الراوزى) بتحديث وتوسعة (زيمبابوى الكبرى) وبعد ذلك حل محلهم شعب (الناقونى) الذى جاء من الجنوب، وفى سنة ١٨٣٥م سلخ حياً آخر (مامبو) من شعب (الراوزى) بواسطة شعب (السوازى) الذين تقع بلاد قبيلتهم الصغيرة حالياً فى منطقة محاطة تماماً بجنوب إفريقيا، ولقد قام شعب (السوازى) بحرق قصر (المامبو) ويدعى (تاباس كامامبو) وبعد ثلاث سنوات قام (زولو أيمبي) وهو من قبيلة (مزليكاوى) وكان قد انفصل عن حكم (أشاكاباطش) باحتلال (السوازى) وهم من نسل (روزوى ونقونى) وفى هذا الوقت اكتشف جزء هام من مملكة (مونوموتابا) فى سنة ١٩٣٢م عندما تسلق مزارع وابنه وبعض أصدقائه أشجاراً عالية فى مرتفع (مبابونقو بوى) وهى قرية بجنوب إفريقيا بالقرب من نهر (ليمبوبو) المحاذى لروديسيا، وفى الربوة وجدوا قبراً ملكياً به قطع ذهبية وبقايا أثرية ترجع إلى ما قبل العمران الأوربى، كذلك وجدت أشياء أقل أهمية فى مناطق أخرى من (ترانسفال) مع نماذج لقلاع ومساكن من الحجارة، ولهذا فإن اكتشاف هذا المزارع المدعو (فان قران) وغيره أظهر أن أولئك الناس يدفنون أجساد ملوكهم وقوفاً، وكذلك فإن الميت عند الدفن يحظى بنوع التراتيل المراسمية والهياكل توحى بأن هؤلاء الناس كانوا من (البوشمين أو الهوتينتوس) أو

آخرين أو خليط منهما، وأخيراً صار النوع المسيطر فى المنطقة غالباً من الزنوج ولكن به أصول من الهوتينتوس وجنس آخر، ولقد وجد الدارسون أن التراث الأصلى ربما كان يشمل طبقة حاكمة من غير الزنوج، أما عمال الصياغة فيعتقد أنهم من الزنوج الذين جاءوا من الشمال، وامتلاك الماشية يمثل نوعاً من الغناء والتميز لدى عامة الأفارقة الجنوبيين والشرقيين، ولقد بدأ العصر الحديدى مبكراً تقريباً فى هذا الجزء من إفريقيا، وكان الرحالة الدارس العربى (الإدريسى) قد كتب سنة ١١٥٤م عن تجارة تصدير الحديد من مقاطعات الساحل الواقعة على مدخل (ليمبوبو)، وخلال القرن الحادى عشر أسس البرتغاليون مراكز فى منطقة المحيط الهندى، وكان سوفالا وهو ميناء مملكة (مونوموتابا) أغنى المواقع قد ترأسه فى بداية القرن السابع عشر السيد (لويز دى فيجيريدو فالكو) الذى كان كاتباً لدى (فيليبى الثانى)، وهو الذى منحه ذلك الميناء سنة ١٦٠٧م وخلال عمله لثلاث سنوات وهى مدة تلك الوظيفة كسب (لويز دى فيجيريدو) ما يقدر بألفى (كروزادوس)، وهذا المبلغ يعادل تقريباً مليون دولار حسب قيمة النقد الحديث، وهذا بالطبع يعطينا فكرة عن تطور التجارة فى مملكة (مونوموتابا) كما سيلاحظ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، وفى إفريقيا ما قبل الاحتلال كانت محاولات البرتغاليين لضم أنجولا إلى موزمبيق تعود إلى هذا التاريخ المبكر، ولا يعرف الكثير عن حكومات القبائل خلال ذلك الوقت ولكن كان معروفاً بوضوح أن (المونوموتابا) على الرغم من أنها قوية لم تكن أبداً مملكة خالصة ولقد أدت التقاليد القبلية وقانونها الشفوى غير المكتوب إلى نوع من الديمقراطية مصحوبة ببعض الفوضى؛ إذ كانت أغلب شعوب الجانب الشرقى من القارة لم تصل بعد إلى أى تطور حتى يمكن أن يقال: إنها مستقلة، وما يعرف بالنظام القانونى البسيط متبعاً، وكانت ممالك غرب إفريقيا بالنظر إلى هذا الوضع متقدمة عن أولئك الذين فى شرق إفريقيا وبلا أدنى شك فإن مملكة (مونوموتابا) حققت بعض النجاح فى الصناعة والفلاحة وباستيراد الخزف الصينى والمنسوجات الهندية، وكانت هذه المملكة قد حققت الاكتفاء الذاتى من محصول الغلة وكما هى فى أوروبا العصور الوسطى، فإن الحياة مريحة لبعض المحظوظين على أن الأمة

الشاملة قللت من إمكان خلق حضارة حقيقية، وأن أغلب الرحالة كانوا قد أثنوا على النشاط الاجتماعى النسبى ومحاولات الناس اتباع أفكار جديدة بتقليد البرتغاليين خلال القرن التاسع عشر عندما توسع هؤلاء فى القارة لأول مرة بعد عقود من المحاولات، وهنا تبددت آمال المستكشفين البرتغاليين الأوائل عن فترة ما بعد الحضارة، فقد كانت الحروب المهلكة والصراعات الدائمة سائدة، مما أجبر البرتغاليين غالباً على التدخل لصالح هذا الطرف أو الآخر وهذا الشيء الذى أدى إلى تدمير الإعمار السابق، وفى سنة ١٨٥٦م كتب الدكتور البرتغالى (ديفيد ليفينجستون) رئيس البعثة الاستكشافية وهو فى طريقه من (زامبىزي) إلى الساحل قائلاً: إن المظهر الوحيد للقوة الذى حققه وريث (المونوموتابا) يتمثل فقط فى حيازته قرابة مائة زوجة مما سيحدث بعد وفاته الكثير من التخاصم والتقاتل بين ورثته، ومن بين الناس المسالمين أو المحاربين على حد سواء لا يختلفون على أن السيد (ليفينجستون) ذكر أنه وجد أن أغلب تلك القبائل تقدم المساعدة للأجانب، أما السيد (هينرى ستانلى) المستكشف المعاصر للسيد (ليفينجستون) فقد قال: إنه كان عليه أن يقاتل من أجل حياته غالباً خلال كل ميل فى طريقه عبر نهر الكونغو، بينما فى إفريقيا الجنوبية الخطر الحقيقى بالنسبة للرحالة كان استثنائياً وبشكل نسبى، حيث إنه فى بعض الأحيان كان الغذاء والدواء يقدم للزائر أبيض البشرة، ويحصل على المساعدة من المواطنين دون أى مقابل، أما غرب إفريقيا فقد حققت تقدماً على شرقها، ومن الملاحظ أن سكان غرب إفريقيا لهم جذور فى شرق القارة وشماليها، وطبقاً للروايات المتواترة فإن (كوش) هو ابن (حام) حفيد (نوح) وذرية (كوش) هم (الزغاوا) و(الهابيشار) الإثيوبيون والقبط والبربر الذين يتمون إلى قبيلة استقرت قبل المسيح فى شمال وغرب الصحراء، ونجد أن الأسطورة الحامية تذكر أن آخرين كثر يعود أصلهم إلى وادى النيل وأن أغلب أهل غرب إفريقيا، إما أنهم جاءوا أو يعتقد أنهم جاءوا من الشرق أو الشمال ويظهر أن هذا يتفق مع الروايات القبلية فى حين أن عمران غرب إفريقيا يتمثل فى أدوات العصر الحجري التى وجدت قرب (جوس) فى شمال نيجيريا، وهذه عمرها قرابة أربعين ألف سنة، وفى سنة ١٩٣١م اكتشفت رؤوس فخارية بمنطقة (بنوك) فى مقاطعة (زاريا) وهذا ما أكد إضافة إلى ما بعده من حفريات أن هناك وجوداً

أولياً ما قبل الحضارة فى هضبة نيجيريا، وأن تاريخ ذلك يرجع إلى ألف سنة قبل الميلاد، وأن تلك المخلوقات كانت تقيم فى قرى وتستعمل أدوات حجرية وتصنع أدوات الزينة، أما العرب، كل البلاد الواقعة جنوب الصحراء الشمالية هى بلاد السودان وهكذا فإن لغة المنطقة المعروفة الآن هى أم سودانية أو غرب سودانية^(١) وأن الصحراء (السافانا) والمناطق المعشبة فى غرب إفريقيا تسمى السودان الغربى، بل العرب ويطلق البربر على الأرض الواقعة جنوب الصحراء اسم (أقوياناوين)، ومن هذه التسمية أخذ البرتغاليون والأوروبيون عموماً اسم (غينيا)، وهى التى تشير الآن إلى حزام الغابات غرب ساحل غرب إفريقيا، أى المنطقة الواقعة جنوب السودان الغربى، وليس حقيقة أن (غينيا) مستقاة من (غانا)، أو هى ترجمة خاطئة من كلمة (غنى) وهذه كلمة من لغة (سوسو) وتعنى (امرأة) وهناك ادعاء أو نظرية تقول: إن تلك أول كلمة تعلمها البحارة البرتغاليون من لغة محلية، ولقد كان عالم البحر الأبيض المتوسط والسودان الغربى على اتصال منذ قديم الزمان، وكانت (لبدة الكبرى) الرومانية الواقعة قرب طرابلس تمثل طرف فزان التجارى على طريق الصحراء، وفى القرن الخامس قبل الميلاد قال (هيرودوتس) أن الجرمانتين (بربر فزان)^(٢) فى الصحراء جنوب ليبيا الحالية هاجموا الإثيوبيين (السود)

(١) لا يوجد ما يمكن أن يسمى لغة سودانية، فالعرب هم العرب ولغتهم عربية، قبل الإسلام وبعده، وربما يقصد المؤلف اللهجة السودانية، وإذا كان ذلك هو المقصود فإن اللهجات السودانية تزيد على الثلاثمائة، وبالرجوع إلى المجلد الأول من كتاب تاريخ إفريقيا العام ويطلع على تصنيف اللغات أو اللهجات الإفريقية سيتأكد له ما نقول، علماً بأن كتاب تاريخ إفريقيا قد صدر عن (اليونسكو).

(٢) ليس صحيحاً هذا القول لأن الجرمانتين غزوا المنطقة فعلاً من الجنوب أى أبعد من فزان، وليسوا منها ولا نعرف معنى لتعبير (بربر فزان)، وربما كلمة بربر يعنى بها المؤلف أنهم فعلاً متوحشون دمروا ما وقع أمامهم من عمران، ومن المعلوم أن بطليموس قال: إن الجرمانتين سود نوعاً ما أو أنهم شديداً السود، وعلى الأرجح أنهم جاءوا من إثيوبيا، وما يؤكد أنهم جاءوا وهم قبائل متوحشة من جنوب ليبيا حسب ما ذكر (كامبس فايرير) عندما قال: «مع هذا يجب أن يلاحظ أن عادة استخدام وتزيين بيض النعام التى كانت إحدى خصائص الحياة القفصية استمر خلال العصر الحجري الحديث، حتى الوقت الذى ذكرت فيه الشعوب الليبية فى السجلات التاريخية مثل الجرمانتين، ولقد تأكد هذا بالحفائر التى جرت فى (أبونجيم) بإقليم طرابلس» - جاء هذا فى الجزء الثانى من كتاب تاريخ إفريقيا العام - إصدار هيئة اليونسكو، المترجم.

مستخدمين مركبات خفيفة تجرها الخيول، ومما يحمل على تأكيد قول هيرودوتس الرسومات العديدة التى وجدت على الصخور، وكانت تلك الرسومات قد وجدت فى طريقين متوازيين من فزان ومن مراكش إلى (تومبوكتو)، وهى فرع من نهر النيجر، وربما كان لبربر الصحراء اتصال مع الزنوج منذ حدوث الجفاف خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد عندما كانت الصحراء تكتسح الأراضي الخضراء، ومن المحتمل أن يكون الطرفان قد التقيا مرارا عندما تحولا إلى الجنوب والشمال فى الأماكن ذات الكلا، وأخيراً فرّق جفاف الصحراء هاتين الفئتين بحيث صار الاتصال بينهما مسألة تجارة أو حرب وتلك محاولات من أجل الحياة لكل منهما (المحاربون والتجار) وما يبرر التنقل عبر محيط الرمال غالباً وبالضرورة المتاجرة فى البضائع الفخمة التى تجلب عادة أثمناً مجزية، والاستثناء الوحيد كان (مادة الملح) الذى ينقل فى اتجاه الجنوب من الصحراء وفى اتجاه الشرق من الأطلنطى، ومن غوينا يأتى الذهب وتحديدًا من (وانقارا) ومن المناجم التى عرفت فيما بعد باسم (شاطئ الذهب) ثم كانت الصادرات الأخرى الغوينية تتمثل فى حبوب شجرة (الكولا) وهى أحد الأشياء المنشطة التى سمح بها الإسلام، وناب العاج والملح والخيول والماشية وخزر الحلى ومصنوعات أخرى والنحاس والأقمشة، وكانت العملة المستخدمة تسمى (كورزى) وهى هندية كما هناك عملات تبادلية أخرى بجانب الكورزى كبودرة الذهب وقطع الملح الحجرى وقطع من الحديد أو النحاس، وكل هذه الأشياء لها قيمة محددة متناسبة بينها وبين الكورزى، وإضافة إلى استيراد الأقمشة والخزر الملون فإن بلدان السودان لها صناعاتها المحلية كالصوف وإبر النسيج المصنوعة من العظام والخزر المصنوعة من الزجاج المذوب وهذه مازال تصنع فى منطقة (بيدا) الواقعة فى نيجيريا الجنوبية، ويظهر أن تجارة الرقيق لم تكن واحدة من أدوات التجارة السودانية حتى ظهور الإسلام فى الصحراء الغربية^(١) ومن الملاحظ أن

(١) ليس حقيقة أن الإسلام كان سبباً فى تجارة الرقيق، بل العكس تماماً أن الدين الإسلامى يحرم تجارة الرقيق، ويكفى دليلاً قول خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، بل إنه يمكن الجزم أن تلك التجارة كانت أوربية أمريكية غربية . المترجم .

التغيير من الحياة القبلية إلى نوع من النظام البدائى للدولة قد أخذت به الثقافة الغوينية من شمال إفريقيا، وكان أهل شمال إفريقيا يقتنون الخيول والجمال قبل الزواج، ولذلك فإن هذا أحد أسباب الهجرة من الشمال إلى الجنوب، وقد تكونت الدولة الإقليمية عندما قام الغزاة بتعيين حكام على المستوى الإقليمى عكس ما كان عليه الحال فى تعيين الموظفين على مستوى القبيلة أو المجموعة العرقية، هذا بعد أن اندمج المحتلون فى ذلك المجتمع وورث أولئك الذين كانوا فى وقت ما مزارعي الحكم، وهكذا فإن الاستعمار الحديث عندما أعطى دولا قابلة للنمو نسبياً لكل جزء فى إفريقيا يكون قد تقدم بهذا الأسلوب إلى الأمام .



الفصل الثالث

عرب ويرير ورنوج

الفصل الثالث

عرب وبربر وزنوج

المرابطون

من أجل أن تتبّع قلب إمبراطوريات إفريقيا السوداء فى غرب السودان فإنه من الضرورى أولاً أن ننظر بعناية إلى الشمال، إلى عرب وبربر شاطئ البحر الأبيض المتوسط موضع الحضارة الجديدة، ولقد قيل: إن التاريخ الإفريقى ينبع إلى حد ما من الصحراء، الصحراء التى تزهو وتخضر من الوضع الطبيعى المتصل بسقوط الأمطار، وبحديث جغرافى نقول: إن تغير الصحراء حدث تدريجياً ذلك أن التصور المبدئى يقول: إن ساحل البحر الأبيض المتوسط الإفريقى كان أخضر، ولكن يظهر أن سقوط الأمطار على الساحل قد تغير قليلاً خلال الألفين وخمسائة سنة الماضية على الأقل، ومع ذلك فإن (لبدة الكبرى) ما تزال فى ذلك الوقت بها ستون ألفاً من السكان، وتتزود بمائها الكافى لحوضها وحماماتها العامة بحسب مستوى سقوط الأمطار كما هى الآن أى سبعة أو ثمانية أنشئت سنوياً وأحياناً أقل، ولقد كانت المنطقة تمثل مخزن حبوب روما أو حتى أكثر فى زمن قرطاج - كانت الفيلة مألوفة فى المنطقة، وكذلك أعداد كبيرة من الحيوانات وكما أثبت (بوفيل) أن كل الإنجازات الإنسانية والزراعية كانت نتيجة الاستخدام الحازم للرى، وكانت بعض البلدات تحصل على مياهها من مسافات تصل إلى عشرين ميلاً، بل إن قرطاج يأتىها الماء من مسافة تبلغ تسعين ميلاً بواسطة قنوات عديدة، واليوم فإن احتياج المزارع العربى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط محدود بجالون ونصف الجالون يومياً وهو ما يوازى خمس استهلاك المزارع الإفريقى فى إفريقيا الاستوائية، ونظراً لاحتمال أن هذه الاحتياجات المائية فى الأزمنة القديمة لم تكن كثيرة يمكننا القول: إن نسبة ثمانية جالونات من سقوط الأمطار فى

طرابلس الغرب يكون كافياً لمحصول جيد، ويذكر أنه عندما وصل (هارديان) إلى إفريقيا علمنا أن هطول الأمطار كان وافراً لأول مرة منذ خمس سنوات في حين كانت الأرض كانت قاحلة وبذلك فإن شاطئ الصحراء قد اخضر والشكر ليس للطبيعة، وإنما لله، ثم للمهندسين الرومان، وفي سرت وهي الآن الشاطئ الأوسط الليبي، فإن الجفاف قد وصل أعلى درجة بلا إمكانية للنمو، ولهذا فإنه أينما توقف الحرث مع انهيار السدود الرومانية والأحواض الكثيرة، فإن الرمال تنتشر بسرعة وخلال عقود قليلة تختفي المدن تحتها وبجانب الطبيعة كان هناك من أحدث الخراب إنهم (الهلالية) قبيلة الهلالية عرب مصر^(١) وهم عكس الغزاة العرب خلال القرنين السابع والثامن الميلادى ذلك أن بني هلال دمروا ولم يحفظوا أو يقدموا شيئاً في المقابل.

إن الوديان الجافة التي هي من مظاهر الصحراء هي في الواقع من صنع الطبيعة ولقد كانت أنهاراً قبل زمن الإنسان عندما كان هطول الأمطار وافراً بعضها تبقى مياهها متدفقة كل السنة، والحيوانات الكبيرة عاشت إلى وقت قريب مثل السباع والنعام والوعول، والآن لم نعد نراها في وقتنا الحاضر إلا في الأطالس، وربما تكون النمرور باقية في المعاقل المراكشية إلا أن الفيل وهو أصغر من ذلك الذي يوجد في إفريقيا الاستوائية كان قد انقرض بسبب الصيد في بداية العصر المسيحي، وكان كذلك قد استعمل في الحروب، وطبقاً للملاحظات (بوفيل) فإن عدداً كبيراً من الحيوانات كانت تقتل أثناء الألعاب الرومانية، وفي واحدة من تلك المناسبات التذكارية حدث خلال ظهيرة يوم واحد أن مات ستمائة سبع في تقاتل مع المصارعين، وقد احتفل (تيتوس) بالتمثال العظيم خلال تلك الألعاب مما كلفه تسعة آلاف بهيمة وعدة آلاف من المصارعين، على أن المدمر الرئيسي للحيوانات كان الجفاف وتعدي الإنسان الذي يؤدي إلى تدمير الغابات، أما حيوانات الصحراء المقيمة فهي الزرافة

(١) هذا قول مغلوط، فالهلالية ليسوا أصلاً من مصر، نعم هم عرب جاءوا من الجزيرة العربية؛ حيث أقاموا لبعض الوقت بصعيد مصر على عهد الدولة الفاطمية، ثم لأسباب سياسية شجعهم الحاكم الفاطمي بالزحف على الشمال الإفريقي. المترجم.

والظبي وقرد الرمال والفهد وثعلب الصحراء وبعض الغزلان وربما بعض السباع والنمور، والعديد من هذه الحيوانات تبقى بدون شرب مياه لشهور أو سنوات، وبعض النعاج وماعز الصحراء والجحوش لا تشرب من الولادة إلى الموت، أما^(١) الجمال فهي تشرب فقط عندما تكون فى الخدمة وبعض جمال منطقة البحر الأحمر تشرب مياه البحر، ونعلم أن حياة الصحراء التي كانت صعبة أو هي مستحيلة للحيوان هي كذلك صعبة على الإنسان، وكان الراعى البدوى الذى يعتاد عليها، وشدته كانت دائماً من الحياة والقتال للاحتفاظ بالآبار أو احتلال آبار الآخرين عند الاحتياج، ولذلك فإن بدو الصحراء يعيشون كما كانوا دائماً بتحولهم وتنقلاتهم إلى المناطق الخضراء عند اللزوم، وفى هذه الظروف يعيش الإنسان حياة قصيرة، وتاريخياً عندما لا توفر الصحراء المرعى على مدار السنة وتجف الآبار، فإن البدوى يمكن أن يستولى أو حتى يحتل المناطق الخضراء، ولذلك فإن الشجاعة وسرعة الحركة واحتمال شدة الصحراء دائماً تجعله عدوانياً جاهزاً وقت الحرائة، ومن هنا فإن المعارك أو الحروب تمثل جزءاً من تاريخ غرب السودان، وبسبب هكذا حال فإنه لم يكن هناك موقع دفاع حقيقى ثابت حتى إن الحاكم الفرعونى الحادى عشر أقام حائطاً يمتد من (هيليوبوليس إلى بيلسيوم) للدفاع ضد البدو، كما أقام الآشوريون حاجزاً على الفرات ضد الغزاة، وأقام الفرس حائطاً لمنع غزوات قبائل الهون الهمج، وكان حائط الصين العظيم من أجل مراقبة المنغوليين، ولم يكن هناك مثل هذا الدفاع المثالى، ولا حتى صارت محاولة لإقامة هكذا حاجز دفاع على الجانب الغربى من الصحراء، والدفاع الأمثل والمناسب تقيمه حكومة قوية وإدارة جيدة قادرة على أن تستدعى قوة معدة للدفاع، ومثل هذه الحكومة فى النهاية ظهرت، وبذلك لم تتكرر هجمات البدو خلال القرون الأخيرة ولا توجد حالياً، ولكن هذه الحكومة القوية عندما تواجه

(١) لا نعرف من أين جاء أو استقى هذا المؤلف معلوماته تلك عن حياة الحيوانات فى الصحراء والقول: إن بعضها لا يشرب الماء مدى الحياة، وهذا قول مجاف للحقيقة تماماً، ولسنا نعرف أو نعلم بشيء من هذا؛ لأن الكثير منها يشرب الماء ربما يومياً ولا يعيش لفترة طويلة بدون ماء باستثناء الجمل. المترجم .

الهجمات أحياناً تذهب بعيداً بحيث تضع حداً لتلك الهجمات حتى السلمية منها التي يقوم بها الرعاة الذين تبعاً لذلك يرغبون على الدفاع عن أنفسهم وعن تلك الأرض الصحراوية المقيمين بها، وتلك واحدة من نماذج الصراع في المناطق العالية بغرب إفريقيا، ومعروف أن مصادر الصحراء الفقيرة أصلاً قد استهلكت مما زاد في الجفاف وقلل عدد الواحات، وفي الزمن القريب حدث أن حملات الرقيق في غرب إفريقيا أثر على الواحات ذلك أن الصحراويين الرعاة يكرهون الزراعة ويكلفون زنوجهم الأرقاء بزراعة تلك الواحات، ويحدث أنه خلال الفصول الجافة في الجانب الصحراوي المعشب تقوم الشعوب المسلمة بالهجوم على زنوج غينيا لاسترقاقهم، وعندما يزيد عدد الرقيق يبيعون الزائد منه في الصحراء ذاتها^(١) وعندما قامت الإدارة البريطانية ثم الفرنسية بمنع تجارة الرقيق أهمل (لوردات) الصحراء تلك الواحات بحيث غطت الرمال بعضها، ويلاحظ أن القبائل الصحراوية من أجل سرعة الحركة قللت من الاعتماد على الحيوانات في تنقلاتها فمثلاً الثور بحمله يحتاج الماء مرتين في الأسبوع، أما الجمل فيحتاج الماء ثلاث مرات في الشهر وكلاهما يقطع حوالى عشرين ميلاً في اليوم ويحملان نفس الوزن، وإن كان الثور يحتاج وقتاً أطول ليقطع نفس المسافة في حين أن جمل الركوب (المهرى) أسرع كثيراً من جمل الحمولة، وربما يكون حيوان الصحراء الأساسى هو الحمار الذى يقطع هو الآخر حوالى عشرين ميلاً في اليوم ويحمل حوالى نفس الوزن الذى يحمله الجمل أو الثور ولا يحتاج للماء^(٢) وكان الجمل قد جاء به الفرس إلى مصر في القرن السادس قبل الميلاد، ولكن ذلك

(١) هذه مغالطة تاريخية أخرى لا يمكن أن نعتبرها خطأ في المعلومات، وإنما هي قصد الإساءة إلى المسلمين ذلك أن تجارة الرقيق كانت قبل الإسلام، والأوروبيون أنفسهم فعلوا ذلك في وقت ما وعندما جاء الإسلام حرم استعباد الناس ويكفى أن نردد ما قاله خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، ومع ذلك فإن ما يحدث الآن من بعض الكتاب الأوروبيين وكذلك بعض المنظمات الأوروبية يقصد الإساءة إلى الإسلام كما حدث مع المرتد (سلمان رشدي)، والمنافقة البنجلاديشية (نسرين).

(٢) معلومات هذا المؤلف مع الأسف رغم قيمة كتابه التاريخية عن الحيوانات ضئيلة جداً، فالحيوان الوحيد الذى لا يحتاج كثيراً للماء هو الجمل، وليس الحمار ولا الثور. المترجم .

الجمل لم يكن داجنًا، ولم يستمر طويلاً عبر ذلك التاريخ، وكان أوائل الناس الذين عبروا الصحراء بدون بهائم محملة، وفي وقت هيرودوتس الذى سمع رواية تقول خمسة من الرجال اتجهوا غربًا ومعهم الماء والغذاء وبعد أسابيع من السفر وصلوا مكانًا به أشجار مليئة بالفاكهة وعندما كانوا يجمعون تلك الفاكهة فوجئوا بأناس يقبضون عليهم قالوا عنهم فيما بعد إنهم أقزام سود وقد نقلوهم عبر مستنقعات إلى بلد يقع على نهر يجرى من الشرق إلى الغرب، وكان مليئًا بالنماسيح ولكنهم فى النهاية أفرجوا عنهم ليعودوا عبر الصحراء إلى بلادهم، ولقد اعتقد هيرودوتس مثل الذين ذكروا له الرواية أن أولئك الناس كانوا قد وصلوا الجزء الأعلى من مرتفعات النيل، ولكن من المتوقع أن ذلك الذى شاهده كان نهر النيجر، ولقد كانت أعظم التأثيرات الحضارية فى إفريقيا آتية من قرطاج أثناء احتلالهم الذى امتد ألف سنة لإفريقيا البحر الأبيض المتوسط، وكان الأعمام القرطاجني أساسًا تجاريًا حيث إنهم خاضوا فى البحر الأبيض المتوسط الغربى وتجاوزوه فيما بعد إلى (أعمدة هيروكليس) جبل طارق حاليًا، وأخيرًا فإن الاهتمام التجارى والسياسى أجبر القرطاجيين على خلق إمبراطورية فى إفريقيا حيث الموانئ الطبيعية التى كانت صالحة كقاعدة مثالية لشعب تجارى، وكانت كذلك قرطاج نفسها ميناء ممتازًا يقع على رأس بحرى يمكن الدفاع عنه بيسر وهو قريب من طرق التجارة الكبيرة، ومدينتهم الثانية قادس (قاديز) تمثل مكانًا مناسبًا لمراقبة الممرات فى جبل طارق من الجانب الآخر ولم تكن هناك اتفاقية تجارية بين الإمبراطورية القرطاجنية والرومان، وحدث أن باخرة رومانية أجبرتها الأحوال الجوية على اللجوء إلى أحد الموانئ القرطاجنية، وكان عليها أن تبحر فورًا بعد مجرد انتهاء الإصلاح ولم يكن من حق أحد النفاذ من خلال تلك الممرات غير القرطاجيين، وذكر كاتب روماني كيف أن ربانًا من قاديس كان متجهًا إلى (كورنول) وجد نفسه محاصرًا بواسطة سفن رومانية وكان كل الساحل الإفريقى غرب برقة (ليبيا الحديثة) منطقة قرطاجية، وكان المنتج الرئيسى فى تجارة القرطاجيين هو الياقوت والذهب والرقيق الأبيض والعاج وريش النعام، الأخيران يأتيان من شمال

إفريقيا نفسها، بينما طريق فزان أساساً كانت طريق نقل الذهب، وكانوا يصدرون الرقيق إلى الشمال ويحتفظون بالبعض لأنفسهم والبعض الآخر يبيعونه، وكان المصدر الرئيس لهذه البضاعة جزراً تباع أربعة رجال بامرأة واحدة، ولم يكن الرقيق الزنجي مظهراً بارزاً في ملك القرطاجيين على الرغم من أنه كان هناك زنوج قرطاجيون (أحرار وأرقاء)، وكذلك زنوج يخدمون في الجيش القرطاجني الذي قام بغزو (سيسيليا) خلال القرن الخامس قبل الميلاد كما عرف فيما بعد من جماجم موتى المقابر القرطاجية، ويذكر (فرونينوس) أن أسرى الحرب القرطاجيين كانوا يستعرضون عرايا أمام اليونانيين كإهانة لقرطاج أمام المشاهدين، وكان رقيق القرطاجيين يتم إما بالشراء أو بالأسر في الحرب وهم يقومون أحياناً بحملات صغيرة من أجل ذلك، وقرطاج كان لديها مزارعون بربر من الصحراء المجاورة الذين تقوم باسترقاقهم عند الطلب، ولا بد أن بعض الرقيق من الزنوج كان يأتي من فزان في صحراء ليبيا الجنوبية، وأن الجرمانتين هم الذين كانوا يصطادون الزنوج لبيعونهم، وكانت قرطاج تمثل الزبون الجيد للجرمانتين كما أن الذهب أيضاً وصل قرطاج بواسطة الجرمانتين من فزان إلى لبده الكبرى، وكان الطريق الآخر للذهب هو ممر (تاغار) من النيجر في (تمبوكتو) إلى سيلجيماسة بمراكش، بينما بقي مكان الذهب الأصلي سرّاً تمت المحافظة عليه بشدة لمدة ألفى سنة، وفي تقديرات (هيرودوتس) أنه كان له مصدران معروفان منطقة في ليبيا وأخرى خلف أعمدة هيروكليس^(١) وفيما يظهر أن هيرودوتس لم يكن يعرف أين (وانقار) والبلد المنتج للذهب أو الذي في أرضه الذهب خلف أعمدة هيروكليس عندما شرح كيف ومتى جاء التجار إلى البلد الساحلي (غانا الحديثة) حيث كان يوضع المنتج القادم من بعيد من السفن على الشاطئ ويعود التجار إلى سفنهم ليعلنوا بواسطة إشارة دخان، حيث يخرج السكان

(١) ممر جبل طارق ويظهر أن تلك التسمية - أعمدة هيروكليس - كانت قبل الإسلام أو قل الأقل قبل عبور المسلمين إلى أوربا في تلك الحملة الشهيرة بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد، والعالم يعرفه الآن باسم (قفلتار) أي: جبل طارق محرقاً . المترجم.

من الغابة المختفين فيها ليضعوا الذهب بجانب البضاعة، ثم ينسحبوا إلى الغابة مرة أخرى وهنا يعود التجار القرطاجيون إلى الشاطئ ليعرفوا كم من الذهب وضع بجانب البضاعة فإذا ما وجدوا أنه كاف أخذوه وذهبوا وإذا لم يكن كافياً يعودون إلى سفنهم ليطلقوا إشارة دخان أخرى ويتنظروا فيخرج السكان ليضعوا مزيداً من الذهب، وهكذا يستمر الحال إلى أن يكتفى الطرفان، وكان السبب في هذه الطريقة وهذا التعامل ربما هو الخوف بالنسبة للسكان من الاسترقاق، ومن المحتمل أن القرطاجيين قد أرسلوا حملتهم الشهيرة خلال القرن الخامس قبل الميلاد تلك الحملة المكونة من ستين سفينة وعدة آلاف من الرجال والنساء بغرض إنشاء مستعمرات على ساحل إفريقيا الغربية، كانت الحملة بقيادة (سوفيت كانو) وعلى مسافة يومين من جبل طارق أنشأ (هانو ثسمياتيريو) مستعمرة تعرف الآن باسم المهدية على مدخل وادي سيبو، ثم أبعده إلى الأسفل أقام الرواد معبداً، ثم استمروا في اتجاه الجنوب ليقيموا خمسة مستعمرات أخرى وبعدها واصلوا الرحلة وكانت المستعمرة الأخرى ربما (أرقوين الحديثة) على الشاطئ الأطلسي وبعدها وجدوا نهراً مليئاً بالتماسيح وأفراس الماء، وكانت تلك هي (سانت لويس الحديثة) بالسنگال، وهذا النهر لو أمكنهم أن يعرفوا كان يقود إلى حقول الذهب في (وانقارا) ونهر آخر وصلوه بعد الأول هو الآن (غابيا) وكانت الرحلة جنوباً من هناك قد أظهرت لهم ما يمكن أن يكون انفجاراً بركانياً هو غالباً جبال الكامبيرون ولقد عثروا على خليج أسموه (القرن الجنوبي) وهو الذي يمكن أن يكون (وقوو)، وهنا وصلوا جزيرة مليئة بالهمج وهم ناس ذوو شعور أغلبهم من النساء، واعتقدوا أن هؤلاء (غوريلات) فحاولوا القبض على رجل منهم إلا أنهم فشلوا في الوصول إليه فقبضوا على ثلاث نساء أخذوهن وقاموا بضربهن حتى الموت، ثم أخذوا جلودهن إلى قرطاج (وفي نظر العلم الحديث أن الضحايا كن من نسل أقزام)، ثم عندما بدأت المواد الغذائية تنفذ من الحملة توجهت شمالاً، وأخيراً وجدت سفنهم طريقها إلى قرطاج، ومن الواضح أن الرحلة إلى الجنوب كانت من أجل البحث عن الذهب، وعدم الإشارة إلى تفاصيل تلك

الرحلة يؤكد أن ذلك هو الغرض أى البحث عن الذهب ليقى كل شيء سرًا، وكان أوائل الأوربيين الذين اكتشفوا الساحل هم البرتغاليون فى عهد الأمير (هنرى دى نيفيكاتور) وهم أيضًا كانوا فى طلب معرفة أماكن وتجارة الذهب، وربما كان هؤلاء قد تشجعوا للذهاب أبعد فى الجنوب أى إلى الرأس نفسه، معتمدين على خرافة غير حقيقية تقول: إن الأشوريين بقيادة الفرعون (نيخو فى سنوات ٦٠٩-٥٨٨) قبل الميلاد قد طافوا حول القارة بحرًا، وعندما هزمت روما قرطاج ورثت مسئولياتها الإمبراطورية، ومن غير مناطق إفريقيا حول قرطاج قرر الرومان أن يتركوا البقية للحكام المحليين وهكذا يكونون قد وضعوا سابقة للحكم غير المباشر وأعطوا اسمًا للقارة بحيث اقترن اسمها مع مدينة قرطاج وأشير إليه فى الاتفاقية بين باى تونس حسين باشا وفرنسا سنة ١٨٣٠م، وقد سميت مملكته باسم (مملكة إفريقيا) علمًا بأنه أثناء زمن الأباطرة كانت سواحل المغرب من لبده إلى أعمدة هيروكليس جزءًا من الإقليم وكأى مستعمر آخر وجد الرومان أن مسئولياتهم تزداد سنة بعد سنة وأن انتفاضات البدو جعلت الطرف الساحلى من إفريقيا أصعب من أن يحافظ عليه، وربما لعدم تقدير تنقلات البدو الفصلية وضرورتهم الاقتصادية خلال الفصول الجافة وبحثهم عن المرعى لماشيتهم فى المناطق الرعوية عجز الرومان عن إبقاء البدو مسالمين أو جعل المحاربين منهم دومًا فى الصحراء، ومحاولات الرومان إبقاء البربر دومًا فى الخليج جعلت كل البدو أعداء أشداء لروما وبذلك تحولت خيمهم وواحاتهم مأوى جيدًا للمتمردين على الإمبراطورية ولهذا حاول الرومان وضع قواعد فى الواحات، ومن خلال المدن الثلاثة (لبده - اويا - سبراتا) هذه المدن التى استقت منها طرابلس اسمها الحالى استأنف الرومان التجارة التى كانت تقوم بها قرطاج مع المحاربين الجرمانتين، ولكن تلك العداوة بين الصحراء وروما سرعان ما ظهرت فى هذه المناطق كذلك، وكان هيرودوتس قد وصف الجرمانتين بأنهم أقوىاء جدًّا، أما (تاسيتوس) فقد قال: إنهم لا يغلبون، وهؤلاء عاشوا فى واحات متناثرة بفزان التى كان يطلق عليها اسم (فزانيا) فى حين كانت عاصمتهم هى (جاراما) أى (جرمه الحديثة) أما

أراضيهم فقد امتدت شرقاً إلى النيل وشمالاً إلى شاطئ سرت على البحر الأبيض المتوسط وهم أصلاً من القوقاز واندمجوا مع عبيدهم الأرقاء، واعتنقوا الديانة المصرية ويظهر أنهم مثل بقية البدو فضلوا التجارة مع قرطاج كشريك تجارى ساحلى، فضلوها على العسكرية الرومانية حيث كان التماس مع روما دائماً، وخلال عدة عقود قبل الميلاد أخذ الرومان قراراً هاماً بخصوص إرسال جيش إلى فزان للتخلص من مشاكل القبيلة التى تتكلم اللغة البربرية؛ لأنها ساعدت المتمرد (قايتولى) ضد المستعمرين وبالنظر إلى هذا القرار المتعسف بوضع قوات فى الصحراء يمكننا أن نتصور أن الرومان قد أخذوه بعد العديد من الاختراقات والتجاوزات، ولقد وضعت قوات الصحراء تلك تحت قيادة الإسباني (لوشىوس كارنيلوس بالبوس)، وكانت حملته ناجحة، ولهذا فإن (بالبوس) صار أول أجنبى يكرم كبطل منتصر عند عودته إلى روما، وبقي هذا الاحتلال دون أن يتحداه أحد على مدى قرنين من الزمان تقريباً، ثم فى سنة ٦٩ دخلت (لبدة) فى حرب مع (أويا) بعد أن طلبت مساعدة من الجرمانتين فأسرع نائب (نوميديا) بمساعدة لبده وهزم (أويا) وحلفاءها، وكان يمكن للجرمانتين أن يدفعوا بالأخيرة بعيداً إلى الصحراء لو لم تكن هناك أسباب أخرى، وعند هذا الحد توصل الرومان والجرمانتين إلى سلام المحاربين خلال السنوات اللاحقة، وقد ساعدت واحدة من قبائل الصحراء الرومان بحيث قاموا برحلتين طويلتين على ظهور الجمال عبر الصحراء حتى وصلوا (تبيستى) وكان الجمل فى هذا الوقت مظهرأ جديداً فى مواصلات الصحراء، حيث إن الرومان قد شاهدوا الجمل المدجن لأول مرة فى سنة ٤٦ قبل الميلاد عندما استولوا على اثنين وعشرين جملأ من البربر غير النظاميين، وربما يكون الجمل وصل الصحراء الغربية بواسطة بربر (زناتا) وهؤلاء هم الذين أسسوا حكم المريدين بفاس وتلمسان، ويظهر أن أصل زناتا من شرق برقة (غرب مصر الحديثة) وعلى ظهور جمالهم وصلوا واستقروا عند الأطلسى فى جبال مراکش، أما استخدام الرومان للجمل وسيلة نقل فربما جاء بعد فترة من ذلك، ولهذا صار الجمل وسيلة الحرب فى الصحراء لأكثر من ألفى سنة، ربما مثل

دور القوة الجوية فى الجيوش الحديثة؛ لأنه يتمتع بالسرعة وقوة الحركة والمسافات الطويلة فى العمل التى لم يكن يحلم بها أحد وذلك أدى إلى نهاية عصر حروب العشيرة (فى المناطق القريبة) إلى عصر الحروب الإفريقية الواسعة (البعيدة) كذلك مكن من تقريب الموانئ البعيدة مثل لبدى ككل جماعة تجارية فى الصحراء، وبقيادة (سيبتوس سيفيروس) الذى أصبح إمبراطوراً سنة ١٩٣م وصلت لبدى قمة مجدها، هذا القرطاجى الذى ولد ببلده ومات سنة ٢١١م^(١) جعل موانئ البحر الأبيض المتوسط هامة بسبب تجارة الذهب والياقوت، وبذلك تمكن من تعزيز دفاعات طرابلس الغرب، وعموماً عمل على بناء دولته الوطنية حيث أنشأ معاصر الزيتون، واستنبت عشرات الآلاف من هذه الأشجار التى مازال البعض منها باقياً إلى يومنا هذا، ومن المعروف أن الكثير من تاريخ الصحراء مازال غير كامل وسيبقى، وفى هقار البعيدة فى وسط الصحراء بالقرب من (عباليسا) تقف آثار قلعة خضمة فى شكل مازال يستعمله الأهالى (التسيو) فى تيبستى ولكن ليس بواسطو التوارق الحاليين، وتذكر الروايات الشعبية دائماً أنه كان بيت الملكة (تين هانان) التى جاءت من (تافلت) فى جنوب مراكش على جمل أبيض ومنها تكونت قبيلة التوارق المحليين، ولقد كشف البحث عن قبر وكان يحوى عظام امرأة من نوع الأسرة الفرعونية وعلى ذراعى جثتها أسورة من الفضة والذهب، وعلى صدرها أقراط من الحجر الكريم وحبوب أخرى كما حوى القبر أيضاً حبوب تمر وبقل وإناء حليب رومانى وعملة حديدية قسطنطينية وهدايا أخرى، أما من أين جاءت (تين هانان) ولماذا وكيف؟ ثم كيف أصبحت حاكمة لمنطقة متوحشة بعيدة فلم يوجد له تفسيراً أبداً، ومن كل أولئك الناس البيض فى الصحراء والذين أطلق عليهم الرومان اسم (الليبيين) وقال عنهم العرب إنهم بربر فإن الأهم فى الأزمنة القديمة ما لا خلاف عليه أنهم توارق (فرد تارقى) وكان هؤلاء الناس منذ ما قبل ألف سنة بعد

(١) سيفيروس (١٤٦-٢١١) أصبح إمبراطوراً (١٩٣-٢١١) ولد ببلده (إفريقيا - ليبيا الآن)، ارتقى العرش بالقوة، وقضى على خصومه، ونشر السلام فى الإمبراطورية بإخضاع الثورات التى نشبت فى بلاد ما بين النهرين وبلاد الغال وبريطانيا، أقام أجمل المنشآت فى روما . المترجم

الميلاد يضعون اللثام على وجوههم، ومن المحتمل أنه لأسباب دينية قديمة انتهت الآن، ولذلك في العربية الحديثة يسمون (الملثمين) وهم مقسمون بين قبائل، والقبيلة المهمة تاريخياً هي قبيلة (سانهاجا) وهناك نوعان من الأمازيغ (الأمازيغ والأمازيغ) ولسان لغتهم يكتب بحروف (التيفيناغ) وهو جزئياً آت من اللغة العربية القديمة على الرغم من أن التوارق المسلمين كما ذكر (بوفيل) يظهر أنهم كانوا من أتباع (ميسراس) لبعض الوقت من تاريخهم الماضي، وكانت هناك تقاليد مسيحية كذلك فهم مثلاً لا يتزوجون إلا امرأة واحدة ويتزينون بالصليب ويستخدمونه في الجواهر وفي دروعهم وسيوفهم مقابضها في شكل صليب، وكذلك فإن مراند سروج جمالهم تصنع في شكل صليب، وهناك أشياء كثيرة في حلية التارقي اليومية فيها صلبان وأدلة أخرى على تأثير المسيحية في تاريخهم الماضي مثل إشراك الملائكة في تصورهم لله وإطلاق أسماء (صمويل - داوود - شاؤول) على أنفسهم، أن التوارق الذين يركبون الجمال يسيطرون على طريق غدامس غات (في اتجاه بلاد الهوسا) كذلك على طريق (لبده أو طرابلس فزان وطريق كاوار) طريق الجرمانتين إلى بورنو ومملكة نهر تشاد، وطريق برقة الكفرة واداي، ويشتركون مع (سيجيلماسة)^(١) في طريق (والاتا) مع العرب البربر وبكلام واضح، فإن التوارق يشتركون في كل الصحراء وفي الجانب الشمالي مما نسميه نحن الآن غرب السودان مع المهاجرين العرب واليهود، على أن العرب واليهود يحافظون بدرجة كبيرة على هوياتهم المتميزة عن البربر في الصحراء وإن كانوا قد اختلطوا مع السكان في المناطق الكثيفة بأراضي الزنوج في السودان، أما الهجرتان اليهوديتان فيظهر أنهما التقتا عند سلسلة (فوتا) بمنطقة الوسط والشمال في غينيا الحديثة، أما الفولاني الذين توزعوا من هناك عبر المناطق العالية في غرب إفريقيا وتحديداً عبر شمال نيجيريا فقد دخلوا في المجتمع اليهودي على الرغم من أنهم مثل كل الناس في

(١) سيجيلماسة بلدة قديمة في المغرب كانت تسمى (تافيلالت)، وهي اليوم إطلاق تقع على الشاطئ الأيسر لوادي (زيز) قيل: إنها شيدت عام ٧٢٨م وقد بناها بربر مكناس وحكمها (بنو مدرار) سنة ٧٧١ - ٧٧٢م واستولى عليها جوهر القائد، ثم وقعت في قبضة عبدالله بن ياسين (١٠٥٥ - ١٠٥٦) زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥١م، وقال: إنها من أجمل البلدان. المترجم.

غرب السودان اليوم مسلمون، ومن القرن الرابع إلى القرن السابع فإن شمال إفريقيا ضربت بانتفاضات دينية ونزاعات حربية حيث بدأ التقدم العربى من غرب مصر فى سنة ٦٤٢م، وكان التيار الدينى فى ذلك الوقت يدعو إلى كثير من الاحتلال فى المناطق الجديدة، وكان المغرب هو الهدف الحقيقى، ولقد تكررت الحملة فى سنة ٦٧٨م بقيادة عقبة بن نافع حيث تقدم منتصراً إلى الأطلنطى، واقتحم بحصانه المحيط تأكيداً لانتصاره، على أن انتصاراته العسكرية توحى بأنها لن تطول ذلك أن البربر فى كل مكان انتفضوا بقيادة أحد ملوكهم ويدعى (كسيلة) وذلك بمساعدة اليونانيين الذين أزعجهم الانتشار العربى^(١) لكن المحاربين الصحراويين (يقصد البربر) قتلوا (عقبة) وقضوا على قواته قرب (بيسكرا) سنة ٦٨٣م وهدموا القيروان^(٢) كما دفعوا الباقي من المهاجمين إلى أرض مصر، وأخيراً وخلال سنوات قليلة قام حاكم مصر بإعداد حملة جديدة لاحتلال المغرب، وقد أعاد بناء القيروان وهدم مقر التجارة الكبير فى قرطاج، وفى هذا الوقت اتحد البربر تحت قيادة امرأة من (زناتا) ذات صوت جهورى متنبئة تدعى (الكاهنة)، وقد أوقفت العرب عند الخليج سنة ٧٠٣م، ثم هزمتهم لكن نصرها كان قصير العمر ولم تمر خمس سنوات حتى قام العرب بقيادة موسى بن نصير بهجمة جديدة أوصلتهم شواطئ الأطلنطى وهكذا تحول آلاف من البربر إلى دين الإسلام وبمساعدة هؤلاء المحاربين تقدم فرسان العرب ليقتحموا إسبانيا سنة ٧١١م، وعلى الرغم من سجلهم السالب فى الثقافة

(١) هكذا هى الحال دائماً فإن الغازى والطامع الأجنبى يبحث عن الأقليات لاستخدامها فى أغراضه ومطامعه الخاصة، وليس رغبة فى مساعدتها حتى لو كانت فعلاً مضطهدة وهو الشيء الذى لم يحدث من المسلمين؛ لأن دعوة الإسلام هى التسامح والحسنى. المترجم .

(٢) هذه مغالطة أتى بها المؤلف ولا نعرف لماذا ؟ وما نعرفه نحن أن القيروان مدينة بتونس، وقد أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠م، وصارت مقراً للحكام العرب المسلمين بغرب إفريقيا إلى سنة ٨٠٠م، ثم صارت عاصمة للفاطميين سنة ٩٠٩م، وأقام بها المسلمون جامعاً شهيراً هو (جامع القيروان). المترجم .

والسياسة فى إفريقيا، فقد قدم العرب فى إسبانيا أعمالاً جليلة فى الثقافة والسياسة، وأن الثقافة الإسبانية والبرتغالية تدين لهم بالكثير، أما احتلالهم للمغرب فقد كان يواجه التحدى دائماً ذلك أنه خلال الثلاثة قرون كانت الحروب فيها أكثر من السلام، وأخيراً خلال القرن الحادى عشر الميلادى طرد البربر العرب مرة أخرى شرقاً إلى النيل^(١) ثم خلال عقود قليلة قام العرب البدو من بنى هلال وبنى سليم بعد أن تركوا أرضهم العربية بتحدى مواقع البربر الحصينة، بعد أن قام الخليفة الفاطمى الحاكم فى القاهرة بتشجيعهم على ذلك رغبة فى التخلص منهم، وكان هؤلاء المائتا ألف بدوى محاربين لا يهزمون مثلهم مثل بقية التوارق، وقد استقرت قبيلة بنى سليم فى برقة أما قبيلة بنى هلال فقد اندفعت غرباً زارعة عملاً مريراً من الدماء، وهكذا فإن المؤرخ العظيم (ابن خلدون) قد وصفهم على أنهم مثل الجراد فى انتشارهم حيث إنهم جففوا الواحات، وسرعان ما قضوا على الباقي من الغابات، وفرضوا ثقافة لم تنهض عملياً أبعد من حد السيف^(٢) أما البربر وهم من الناس الغيورين على نقاء جنسهم المعروف فى التاريخ فقد انسحبوا إلى المناطق الجبلية جنوب مراكش والصحراء الوسطى، حتى إن (بوفيل) كتب يقول: إن التصميم الذى على أساسه حافظ البربر على نقاء جنسهم أثار إعجاب علماء الأجناس باستمرار وبالرغم من دخول الفينيقيين إلى بلادهم، وكذلك الرومان

(١) لم تذكر لنا كل المصادر التاريخية شيئاً كهذا؛ إذ إن إسلام البربر وحّد بينهم وبين بقية العرب المسلمين، وهنا نجد المؤلف يخالف أحداث التاريخ عندما يتحدث عن حملة بنى هلال وبنى سليم . المترجم .

(٢) الواقع أن المؤلف ليس فقط يخالف أحداث التاريخ، وإنما يتجنى على الحقائق، فمثلاً قال: إن البربر طردوا العرب خلال القرن الحادى عشر شرقاً إلى النيل، وأنه بعد عدة قرون جاء الهلالية وسليم، وهذا غير صحيح تاريخياً لأن بنى هلال وبنى سليم هم الذين جاءوا خلال القرن الحادى عشر وليس بعده، وكان فعلاً الحاكم الفاطمى قد شجعهم على ذلك؛ لأسباب سياسية وخلافات بينه وبين أمراء الشمال الإفريقى، ونقرر هنا وفقاً للتاريخ أن البربر لم يطردوا العرب، وأن مجيء بنى هلال وسليم كان خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر، وأن تجفيف الواحات وغيره لم يحدث كما قال المؤلف . المترجم .

والوندال والدم العربى، فإنه قد لوحظ ندرة فى الدم الأجنبى بينهم، وبشكل خاص كيف أن العرب والبربر فشلوا تمامًا فى مسألة الاندماج برغم أنهم عاشوا متقاربين على مدى أكثر من ألف سنة تلك التى فرض فيها العربى دينه ولغته^(١) وطريقة عيشه ولبسه وعاداته على أوسع مدى وأكبر جزء من البربر، لكن هؤلاء البربر حافظوا على نوع جنسهم فى جبال الأوراس، فمثلاً هناك فقط نسبة ٣٥٪ من البربر لون عيونهم أسود أو عسلى، ولقد بقى العرب غالباً رعاة يعيشون فى الخيام متعصبين كثيرى الشكوك بتنظيمات قبلية إقطاعية، أما البربر فى الجاناب الآخر فيعيشون فى المدن والقرى وهم عادة ديموقراطيون على أن البربرى أحياناً يثور متعصباً، وقلما يتأثر بالحماس الدينى، وهم مثل اليهود يتزاوجون عندما يجدون أنفسهم بين الشعوب الزنجية، ولكن يحاولون إبعاد أنفسهم عن جيرانهم العرب^(٢)، وهناك نتيجة واحدة من احتلال العرب للصحراء الغربية وهى أنهم أتوا بالعلماء العرب إلى هذا الجزء من العالم، أولئك العلماء الذين يصحبون عادة رحلات التجار بالإبل أو البواخر، وعلمنا بذلك الذى جاء فى تاريخ غرب السودان، فإننا مدينون بكل شيء اليوم لأولئك الكتاب مثل: (البكرى والإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون وابن حوقل والعمري وياقوت وبشكل غير مباشر المسعودى)، فالمسعودى أحد علماء بغداد خلال القرن العاشر الميلادى كان الأستاذ للكثير منهم على الرغم من أن مجال سفرياته كان

(١) وجب علينا أن نشير دائماً إلى أن المؤلف يحاول الإيحاء بأمور كالقول (فرض العرب) والسيطرة العربية، والواقع أن الإسلام لم يكن قد فرض فى أى مكان من العالم، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون)، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر)، قال: إذا رأيت ولم يقل: افرض، ولهذا فإن المسلمين كانوا يخبرون الناس بين الإسلام أو الجزية، والبربر كغيرهم دخلوا الإسلام طوعاً ومازالوا مسلمين، وإذا كانوا قد قاوموا فى البداية فذلك شيء طبيعى نحترمه . المترجم.

(٢) نعتقد أن المؤلف وهو يكتب التاريخ قد فاتته أن يدرس ما هو عليه الحال فى وقتنا الحاضر ذلك أن الإقامة فى منطقة محددة لا يعنى الابتعاد، وإنما يعنى الارتباط الأسرى فقط - المترجم .

فى المحيط الهندى والصين ومدغشقر، ولقد تأثر به العديد من الدارسين فى السودان حيث إنه زار (أودوغاست) عاصمة التوارق، وكذلك عاصمة غانا التى لم تكن معروفة، وعندما شاهد نهر النيجر يتدفق إلى الشرق اعتقد أنه نهر النيل، أما أبو عبيد البكرى المولود فى إسبانيا خلال القرن الحادى عشر وهو من عائلة شريفة فقد كان أول أعظم جغرافى فى شمال إفريقيا بما فى ذلك جزء من غرب السودان، كذلك فإن الإدريسى الذى ينتمى للقرون اللاحقة هو أيضاً عربى إسبانى على الرغم من أن جده كان أميراً على (مالقا) فقد عمل فى بلاط الكافر (روجر الثانى)^(١) وكان الإدريسى قد ولد فى سبته وهى الآن جزء إسبانى فى مراكش، وفى قرابة سنة ١١٠٠ فإن ياقوت كان فى القرن الحادى عشر يونانياً وقد اختطف وهو طفل وبيع لأعرابى الذى علمه وشجعه على دراساته فى الجغرافيا، أما العمرى فقد كان خلال القرن الرابع عشر دمشقياً وعمل فى البلاط السلطانى بمصر، وابن بطوطة خلال القرن الرابع عشر كان فى طنجة وهو من عائلة بربرية أو مدنية، وتربى فى جو دينى وقد حج إلى مكة وعمره إحدى وعشرون سنة، ولقد عشق السفر حيث غادر مكة إلى الهند وكان سلطان دلهى معروفاً بحبه للعلماء، ولهذا أعجب بابن بطوطة وعينه قاضياً ملكياً فى المدينة وبعد سبع سنوات مع السلطان أرسل ابن بطوطة إلى الصين فى مهمة كلفه بها السلطان، فقبض عليه فى الطريق، وجرد مما لديه، فهرب متجهاً إلى الجنوب ووصل ساحل (مالابار) حيث كان المالديفيين يحكمونها فجعلوه قاضياً، إلا أنه كان فى أحكامه قاسياً، وبسبب ذلك اضطر إلى الإبحار بعيداً خوفاً من انتقام ضحاياه، ووصل سيلان وأسام مسافراً عبر آسيا إلى بكين، حيث رفض إمبراطور المغول أن يتيح له فرصة

(١) روجر الثانى أول ملك على صقلية (١١٣٠ - ١١٥٤) ابن روجر وخليفته فتح أبوليا وسالرمو (١١٢٧)، ورغم معارضة البابا أخذ جانب البابا المضاد (أناكليستوس الثانى) الذى توجه ملكاً (١١٣٠) ضد البابا (أنوسنت الثانى)، فجمع أنوسنت الإمبراطور (لوثر الثانى)، وحلفاء آخرين ضد روجر، وأجبر أنوسنت على أن يقطعه جميع الأراضى التى كوئت إلى سبعة قرون تالية مملكتى (نابلى وصقلية) وفتح روجر الثانى هذا عدة مدن على الساحل الإفريقى، كما شجع اندماج الجماعات البشرية فى مملكته، وأقام إدارة مركزية قوية استعادت لصقلية رخاءها، وكان بلاطه فى (باليرمو) مركزاً للفنون والآداب . المترجم .

مقابلته وهو زائر غير معروف، وعن طريق سومطرا وسوريا عاد أخيراً إلى بلاده، إلى إفريقيا، وقد وصل طنجة في سنة ١٣٤٩م بعد ثلاث وعشرين سنة من الترحال، وفي وقت قصير منذ وضع رجله على أرض بلد مسلم ذى أهمية لم يغادره ولم يعد إلى بلاد السودان أبداً، وكانت كتاباته عن تلك الرحلات من أئمن ما سطر كاتب إفريقيا أسود خلال زمن القرون الوسطى، ومات ابن بطوطة في مارس سنة ١٣٦٨ أو ١٣٦٩م بعد أن أبحر أو مشى أو ركب قرابة خمسة وسبعين ألف ميل في حياة إنسان هي فوق العادة، أما ابن خلدون وهو المعاصر لابن بطوطة فقد كان عربياً إسبانياً هربت عائلته من إسبانيا في عهد المرابطين، وكان قد ولد في تونس سنة ١٣٣٢م وعمل في بلاط السلطان هناك، ثم أخيراً في بلاط سلطان فاس، إلا أنه سجن بسبب مخالفة سياسية، ثم أجبر على مغادرة السلطنة وعاش لبعض الوقت على طلاقة لسانه في محاكم (قرينادا وبرقى وبيسكرا وتيلمسان) وربما كان خلال عودته إلى تونس قد بدأ كتابة تاريخه عن العرب والبربر، ثم انتقل إلى القاهرة المكان الذى يجد فيه العلماء الاحترام وهناك عين مفتياً مالكيًا، وفي سنة ١٣٧٨م تقاعد ليعيش في قرية جانبية وبدأ يجمع ملاحظاته ويتم عمله الشيء الذى أخذ منه أربع عشرة سنة، ثم طلب مرة أخرى إلى القاهرة فعين مفتياً، وهنا وبسبب الغيرة والحرص اللذين طبق بهما العقاب القرآنى مثله مثل ابن بطوطة فى المالديف جعلاه لا يطاق، وفى سنة ١٤٠٠م سحب السلطان فى محاولته غير الموفقة من أجل إنقاذ دمشق من تار تيمورلنك، ثم عاد إلى القاهرة ليموت سنة ١٤٠٦م، واعترف به كأعظم عالم فى وقته، وكان عبدالرحمن الساعدي أحد العلماء العرب السود فى (تومبوكتو) خلال القرن السابع عشر وهو الذى كتب تاريخ السودان إلى سنة ١٦٥٥م ولقد اكتشفت نسخة من كتابه (تاريخ السودان) بواسطة المستكشف الألمانى العظيم (بارت) فى منطقة (قواندو) بشمال نيجيريا سنة ١٨٥٨م ومنذئذ تم اكتشاف نسختين أخريين، ويذكر أنه عند طرف السودان الغربى ظهرت مملكة أو ممالك أسمتها الأدبيات العربية والبربرية (غانا) وتحدث عنها البكرى بشكل جيد قائلاً: إن مبانيها الجميلة وشعبها التارقي وطقسها

الرطب وغناها المتحصل من تجارة الذهب مع (وانقارا) وتجارة الملح مع (تاغازا) يجعلها بلداً مهماً، وخلال منتصف القرن الثامن الميلادي أرسل العرب الذين كانوا يحكمون المغرب وقتئذ حملة عن طريق (سيجيلماسة) لمهاجمة غانا، وعندما رجعت الحملة كانت محملة بكمية وافرة من الذهب، ودمر ذلك الجيش تلك العاصمة التي لم تكن قد عرفت أبداً في المصطلحات الحديثة، ويظهر أن الإشارة إلى تلك المدينة أو الدولة التي تسمى غانا ذكرت فقط في كتابات البكري وابن حوقل، وفي تاريخ الفتح خلال دراسات القرون الوسطى، أما الساعدي فقد ذكر دولة ثم أشار إلى دولة لم تعرف حتى الآن للمؤرخين اسمها غانا ولها اثنان وعشرون ملكاً منذ بداية العهد الإسلامي إلى نهايته، وفي إشارات أخرى يظهر من الواضح، ومن خلال كثير من الروايات إنه كان يعنى البلد، كذلك يظهر أن الكلمة استخدمت بواسطة العرب والبربر فقط، أما القبيلة الحاكمة في غانا بحسب رأى الساعدي الذي يكتب اعتماداً على ما سمعه في سفرياته أن تلك القبيلة هي من البيض، في حين أن أغلبية الشعب من السود أي (المانديقوز)، ولكن فرع (السونينكي) من (المانديقوز) على رأى الساعدي أمكنهم أخيراً أن يدخلوا عضواً منهم على العرش، وفي ظل حكم السود وصلت المملكة إلى قمة مجدها خلال القرن التاسع الميلادي، وربما كانت حدود هذه المملكة أو الممالك هي النيجر من الشرق والسنغال وماولى من الغرب وجنوب الصحراء من الشمال، وكان اتحاد التوارق في ظل حكم (تيلوتانا) رئيس قبيلة (ليموتانا) قد دخلوا غانا غرب السودان بحملة تتكون من مائة ألف جمل خلال القرن الثامن الميلادي ولم تكن المسافة طويلة بحسب السفر في الصحراء حيث إن (أودوغاست تيقداوست حالياً) لم تكن تبعد عن عاصمة غانا لأكثر من رحلة أسبوعين وهي التي كانت أقرب إليها من ساحل موريتانيا^(١) وكانت (أودوغوست) مدينة بربرية فيها مبان عالية وبها نخيل وجالية عربية تجارية، وعدد كبير من الزنوج

(١) نعتقد أن الرقم (مائة ألف جمل) رقم مبالغ فيه كثيراً، أو أنه جاء غلطاً في الكتاب أو نقل عن معلومة خاطئة في الأصل. المترجم.

الأرقاء وهى غنية بسبب التجارة وكانت (أودوغوست) شهيرة عبر تلك الصحراء بما فيها من علماء وبجمال نسائها البيض، مما جعل البكرى يتحدث عنها باستفاضة، وخلال القرن الحادى عشر الميلادى توقف الرئيس الأكبر لقبيلة صنهاجة البربرية (يحيى بن إبراهيم) فى القيروان وهو فى طريقه من ملكة، فأعجب كثيراً بالعالم المسلم الناسك (أبو عمران) الذى هو أيضاً أعجب كثيراً بجهل الرئيس الصحراوى (يحيى) وبخجل سأل هذا الرئيس الصحراوى أبو عمران أن يساعده فيبحث إلى شعبه فقيهاً يعلمه، وحدث أخيراً أن الأمن فى هذه البلاد قد توتر بسبب رجال قبيلة هذا المتعصب الصارم المدعو (يحيى) عندما تبين لهم أن المدعو (عبدالله) يدعو لأشياء لا يريدونها فحرقوا بيته وطرده إلى الصحراء الغربية، ولكنه مع اثنين من مريديه من قبيلة (ليموتانا) اتجه إلى السنغال، واستقر فى جزيرة على النهر أو ربما جعل مقامه فى الرأس الأخضر (داكار الحديثة)، ولقد انعزل عن العالم فى كثير من التنسك والعبادة مما جذب انتباه الناس إليه، حيث نظمهم على اعتبار أنهم أتباعه، وعندما بلغ عدد هؤلاء الأتباع قرابة ألف رجل جمعهم (عبدالله) وطلب منهم التوزع والقيام بالدعوة للدين الحنيف (الإسلام)، ودعى (المرابطون) هذا التعبير الذى أخذ عنه أغلب الأوربيين كلمة (مرافيدس) وأخذ عنه (الفرنسيون تعبير مرابوت) أما الكلمة المستخدمة محلياً الآن فهى (مرايتى) وفى سنة ١٠٤٢م، قاد عبدالله المرابطين ضد قبيلتى (جيدالا وليموتانا) اللتين حرقتا بيته وطرده إلى الصحراء، وسرعان ما هزم هؤلاء المرابطون أولئك المرفهين الذين يملكون الزنوج ويسيطرون على التجارة ولقد خيرهم عبدالله بين الموت أو اعتناق الإسلام عقيدة المرابطين الذين يزداد عددهم باضطراد، ولكن عبدالله فيما بعد فرض عقوبات صارمة على جماعته وأتباعه المتزايدين، منها: منع السرقة والاغتصاب، وهذه كانت تمثل مغام تقليدية للانتصار العسكرى حتى بالنسبة للمتدينين، وهو الشيء الذى أغضب المرابطين فأنكروا على زعيمهم فعلته، لكن عبدالله لم يرضخ ورجع إلى أصله فى (سيجيلماسة) وإلى أستاذه (واقا) الذى بارك انتصارات تلميذه السابق وساعده على تقوية عساكره،

وفى سنة ١٠٤٨م أرسل تلك القوات عبر الصحراء قائلاً: إن كل من لا يطيع دعوة عبدالله سيخرج من جماعة الإسلام، وكل من يخالف مسيرة عبدالله سيقتل، ولذلك خلال سنوات قليلة انضمت الصحراء الغربية إلى المرابطين، ونجد البروفيسور (فينيسنت مونتييل) يقدم تفسيراً اقتصادياً عن حملة عبدالله الثانية قائلاً :

إن جمال صنهاجة ورجال الترحال وجدوا أنفسهم محاصرين من كل الجهات، فالمرتفعات من الشمال قفلت بواسطة زناتا الذين سيطروا على وادى درعا، وبالتالي منعوا طريق الخروج إلى أطلس الأوسط، والمعابر الغربية المؤدية إلى أطلس الأعلى أقفلت بواسطة بربر قبيلة مصمودة، وفى نفس الوقت إلى الجنوب كانت طريق المرتفعات الحالية قد سدت بواسطة الزنوج، وهكذا صارت الصحراء صغيرة جداً، ويضيف البروفيسور (مونتييل) قائلاً : كان هناك عنصران أضيفا إلى ما يحيط بهم وبظروفهم سنة ١٠٤٨م، أولهما: أن طريق قوافل المصريين هجر بسبب انعدام الأمن والعواصف الرملية، وثانيهما: كان هناك قيظ استثنائي، وبحلول سنة ١٠٥١م كان عبدالله بن ياسين يقود جيشاً من ثلاثين ألف رجل، جميعهم على استعداد أن يموتوا فى سبيل معتقدتهم، وبعد أن قضى على بعض محاولات المقاومة اتجه بذلك الجيش المنظم جداً إلى الشمال، وقد استولى أولاً على مدينته (سيجيلماسة) سنة ١٠٥٣م، ثم استولى على (أودوقوست) التى وقعت تحت حماية (غانا)، وكانت قد انقسمت على نفسها فى وقت كانت فيه القبائل العربية والبربرية تكره بعضها البعض والاثنتان تكرهان حكم قادة (السونينكى) الطغاة، وبحلول سنة ١٠٥٤م كانت المنطقة فيما بين السودان والمغرب أغلب أجزائها عملياً تحت سيطرة المرابطين، وتحول عبدالله للقتال فى مراكش نفسها، وهذه تسمى المغرب الأقصى من العالم العربى، ولكنه بعد حروب طويلة وحمولات عديدة قتل فى معركة بعد ثلاث سنوات من حملته تلك ومات خليفته بعده بوقت قصير، وهكذا تولى أمير المرابطين المدعو (أبويكر) كلاً من القيادة الروحية والقيادة الزمنية وحاول أن يحافظ على قبائل البربر متضامنة (وهى المربة تقليدياً) وهذا واجب صعب؛ إذ إن عبدالله لم يكن موجوداً وهو الرجل الذى يحب

ويخشى، ولقد حدثت ثورة كبيرة فى جنوب الصحراء، وكان على أبو بكر وقد أوكل لابن عمه (يوسف بن تاشفين) قيادة بعض قواته، وسار بالقوات الأخرى إلى الصحراء لضرب الثورة، وقد تمكن من السيطرة على القبائل المتمردة، كما هزم المحاربين من قبيلة (سونينكى) كذلك، وعندما عاد إلى المغرب وجد ابن عمه يوسف يتمتع بشهرة بسبب العديد من الانتصارات العسكرية وعلى غير استعداد أن يعيد للأمير قواته وسيثبت يوسف أنه خليفة قوى لعبدالله نفسه، يوسف هذا الرجل الضعيف جسدياً ذو البشرة التى لفحتها الشمس واللحية الخفيفة والشعر المجعد والحواجب الكثة والأنف الأتقنى^(١) الرجل الذى يعيش غالباً على أكل دقيق الشعير وحليب الإبل، صوته خافت لكن كلماته واضحة، وهو متعصب متدين شق طريقه داخل المغرب، ولقد أسس مراكش سنة ١٠٦٢م (الاسم الذى جاءت منه الكلمة الحديثة - مراكش) ثم دخل فاس السنة التالية ثم تلمسان ثم الجزائر، وعلى الفور أصبح حاكماً لإفريقيا كلها لصالح المرابطين البربر، فيما عدا الموانئ قوية الدفاع فى سبتة وطنجة، وقد حاول المعتمد أن يصل إلى تحالف مع ابن تاشفين، وكان قد طلب منه لمجدة المسلمين الإسبان ضد هجمات الممالك المسيحية، ولقد اشتم يوسف فوراً عندما تلقى الطلب بالخطر على المسلمين، فأمر قواته بالإبحار عبر المضائق، وأقام أول قاعدة للحرب ضد المسيحيين، ورحب به ترحيباً حاراً فى أول قرية مسلمة، وما لبث أن وحد قواته مع المعتمد وتوجهها فوراً لملاقاة القوات المسيحية، وعلى الرغم من العدد العظيم فى جانب قوات الأوربيين فإن يوسف هزم تلك القوات الكافرة فى منطقة (الزلاقا)^(٢) وكان ألفونس قد جرح فى تلك المعركة التى انتصر فيها المسلمون،

(١) الأتقنى: هو ذلك الذى يشبه منقار العقاب - المترجم

(٢) موضع فى إسبانيا بالقرب من بطليوس (بداجور الآن) هزمت فيه قوات السلطان يوسف بن تاشفين قوات ملك قشتالة المدعو (ألفونسو السادس) فى يوم الجمعة ٢٢ أكتوبر سنة ١٠٨٦م، وتعرف تلك الساحة الآن باسم (سجرجاس) على ضفاف نهر (ريو) (جريرى)، ومن المعلوم أن ملك قشتالة حاول أن يخادع المسلمين بالحرب يوم الجمعة وقيل لابن تاشفين: إن الحرب لن تقع فى هذا اليوم لكنه أكد قائلاً: إن الحرب خدعة ولا بد من الاستعداد وهكذا حدث. المترجم .

ولقد تزوج الغازي بامرأة مسيحية من سبتة، ومن الواضح أنه متأثر بدوافع دينية جديدة، وقد ترك يوسف بن تاشفين الحرب الإسبانية بنفس السرعة التي جاء بها إليها^(١) مبقياً ثلاثة آلاف مقاتل من البربر كحراس بتصرف المعتمد وقاد أغلب قواته راجعاً إلى إفريقيا، وفي هذا الوقت عاد (الكوستاليان)^(٢) إلى الهجوم على مسلمي إسبانيا، ولهذا عاد يوسف بن تاشفين أدراجة الشيء الذي جعل هذا المتدين المرابطي في مواجهة أمير فاسد خليع^(٣) وقوبل يوسف بن تاشفين في عودته بترحاب كبير من قبل المواطنين العاديين في جنوب إسبانيا وعومل كما لو أنه (مسيح) وهو رجل استقامة وبسطة يفرض انضباطاً صارماً على قواته ولم يكن فاسداً، وهنا منع يوسف بن تاشفين جميع أنواع الضرائب التي لا يسمح بها القرآن، وسرعان ما كان كل رجل وامرأة وطفل على استعداد للقتال من أجله، وبدأ باحتلال مناطق حليفه السابق وطبقته العربية الفاسدة الحاكمة واستولى على (قرانادا وسيفيلي) منهم ثم اتجه شمالاً وبحلول سنة ١١٠٢م كان يوسف والمرابطون يسيطرون على مساحة من السنغال إلى أربو في إسبانيا، وكانت حياته قصيرة خلال هذه المرحلة إذ لم يعيش إلا أربع سنوات

(١) لم نجد في سيرة حياة هذا القائد العظيم المسلم شيئاً من هذا الذي أورده المؤلف، وما نعرفه أنه فعلاً متدين ملتزم وغيور على نصرته دين الله في كل مكان، أما تعبير (متعصب) فهو ما يقوله عادة هؤلاء الأوروبيون عن أي مسلم في ذلك الوقت، وحتى في أيامنا هذه، وبالتالي فإننا نرى أنهم هم المتعصبون رغم حضارتهم وتقدمهم. المترجم.

(٢) يقصد القشتاليون الذين هزمهم ابن تاشفين في معركته الأولى معهم، ونذكر أن مثل هذا قد حدث مع أول فاتح مسلم وهو (معاوية بن أبي سفيان) عندما فتح جزيرة قبرص، وعلى الرغم من أن قواته تلك قد سيطرت على كامل الجزيرة، إلا أنه وقع معاهدة مع المواطنين القبارصة مشروطاً عليهم، ألا يسمحوا لأحد باستخدام جزيرتهم ضد العرب، لكنهم مثل أهل قشتالة خالفوا نصوص الاتفاق، وسمحوا لليونانيين باستخدام الجزيرة ضد العرب؛ مما اضطر معاوية أن يعود ويحتلها مرة أخرى، وهذا مما يؤكد أن أحداث التاريخ تتكرر في أزمان مختلفة- ولمن يريد الاطلاع على حملة معاوية (ملك العرب) أن يعود إلى كتابي المعنون (قبرص من معاوية إلى أجاويد الصادر سنة ١٩٩٤م). المترجم.

(٣) لا نعرف شيئاً من هذا عن الأمير المعتمد بن عباد، وما نعلمه أنه قوي في الحق، وعندما شعر بمؤامرات المسيحيين ضده، وعلى المسلمين، طلب مساعدة يوسف بن تاشفين، ويذكر لنا التاريخ أن أعوان المعتمد قالوا له: إنك تستعين بمن قد لا يخرج من بلادنا الفنية إذا ما دخلها، فقال قوله الشهيرة: (إني والله لأقبل أن أرعى الجمال بدلاً من أن أرعى الخنازير)، بمعنى أن سيطرة المسلمين أفضل من المسيحيين الأجانب. المترجم.

وقبره البسيط فى مراكش يقول عنه معاصروه: إنه فى البساطة يرمز إلى حياة هذا الرجل، ولقد ماتت منجزات يوسف بن تاشفين معه وكان ابنه وخليفته يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة، ويدعى على بن يوسف بن تاشفين لم يعرف حياة التدين والتقشف الصحراوية، وكان زعيم البربر الكبير فى السن لا يحترم هذا الشاب بنفس الطريقة التى كان يحترم بها والده العظيم، وعلى كان يعتمد فى قوته على ميليشيات من المرتزقة المسيحيين الأرقاء وفى عهده كانت أريحية وقوة يوسف بن تاشفين فى القيادة قد صارت من الماضى، وسار الشاب على طريق الظلم وكان جباناً وأخيراً ثار عرب الأندلس ضد لوردات البربر، وفى المغرب قام فصيل من البربر الأتقياء يسمى (الموحدون) بإسقاط دولة المرابطين وعلى الرغم من أن الموحدين فى الأصل من سكان الأطلس، وأول زعيم لهم كان متعصباً يدعى (ابن تونمارت)^(١) ويكنيه أتباعه (المشعل) وقد أمر بترجمة القرآن إلى اللغة البربرية التى كان يكتبها هو نفسه بحروف عربية، وقد منع لشام الرجال والمشروبات الكحولية واحتفالات الزواج وأشياء أخرى كثيرة، وفى حربه مع المرابطين أنشأ دولة بربرية برلمانية وكان يقوم بتغيير رجالها من وقت لوقت على أن احتلال مواقع المرابطين فى مراكش أكمله خليفته المدعو عبدالعال مؤمن الذى بنى الكتوفية فى مراكش (هناك خلاف فى الاسم بين عبدالعال مؤمن حسب التاريخ وعبدالعال حسب ما ورد هنا) وبقيادة عبدالعال مؤمن تأسست مملكة الموحدين التى تمتد من الأطلس إلى شاطئ سرت، وبعد انتهاء دولة الموحدين بعد قرن من الزمان ظهرت دولة زناتة وهم من الحفصيين فى تونس وقتئذ وتونس الحديثة .



(١) هو ابن تومرت محمد وليس كما ذكر المؤلف (ابن تونمارت) وهو مصلح دينى مراكشى (١٠٨٣-١١٣٠) يسمى مهدي الموحدين، ولد فى جبال السوس، وكان يتردد على المساجد للدراسة الدينية، سافر إلى الأندلس ومصر والحجاز، واتصل عن قرب بأراء ابن حزم والغزالي وتأثر بها، ثم أخذ بعد عودته إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى تشدد ملحوظ، ولاقى فى سبيل ذلك عتاً، وكانت له محاجات طويلة فى تأييد دعوته، ولقد دعا أولاً إلى مكارم الأخلاق، ثم استنكر المعتقدات وطريقة الحكم، وكون لنفسه أتباعاً علمهم ونظمهم وسماهم المؤمنين أو الموحدين، وبدأ يحمل على دولة المرابطين ويضع أساس دولته التى تسمت (دولة الموحدين فيما بعد)، والتى أقامها تلميذه عبد المؤمن، كانت دعوته سياسية دينية سفكت فيها دماء كثيرة، وتتمثل آراؤه فى مزيج من تعاليم الشيعة وأهل السنة. المترجم.

الفصل الرابع

ممالك غرب السودان القديمة

الفصل الرابع

ممالك غرب السودان القديمة

نظرة إلى الخلفية التاريخية لتلك القرون التي دارت فيها الحروب والآلام والعذابات في شمال إفريقيا خلال فترة ظهور الممالك بين الشركاء الجنوبيين في التجارة مع العرب والبربر لابد أن تلاحظ أن جزءاً كبيراً من تجارة إفريقيا السوداء إنما هو تاريخ (بلاد السودان) الذي يبدأ في شمال إفريقيا الأبيض، فهذه المنطقة نادراً ما تتحد إلا أنها اتحدت لعدة قرون في عداوتها لرفاه الزنوج العظيم في ظل مملكة أو ممالك (غانا)، وكذلك بسبب الطمع في ذلك الرفاه، وكان موقف العرب والبربر يتكيف بناء على المعاملة التي يلاقونها العرب والبربر الواقعون تحت سلطة العديد من الملوك الزنوج، وهم يرون أن ثروة كبيرة تقع تحت تصرف الوثنيين، وكان البربر تجار الساحل يملكون أهم مصدر لصناعة غانا أو قل أحسن معرفة لغانا وقتئذ، وعند البكرى فإن موقعاً قد اكتشف سنة ١٩١٤م في كومبي بواسطة الفرنسي (بوفيل دي ميزيديس) ولكن التمويل لاستمرار البحث لم يكن متيسراً إلى سنة ١٩٣٩م وعند بدايته توقف بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم بوشرفيه سنة ١٩٤٩م وكومبي هي في مالي الحديثة، وأظهر التنقيب أن هناك مدينتين على مسافة ستة أميال تقريباً، في المدينة الأساسية (غانا) كما وصفها البكرى (التي ربما تكون أو لا تكون هي كومبي)، وأنها مدينة المسلمين وبها حوالي عشرة مساجد، ولذلك اجتذبت العديد من الدارسين المسلمين، أما مدينة الوثنيين التي كانت في ذلك الوقت مقر الحكم تسمى (الغابة) إذ كانت المساكن تتكون من عشش وطوب مع قليل جداً من مباني حجرية، ولقد جاء اسم الغابة من الأدغال المقدسة، وربما من الأشواك التي تحيط بمنطقة الوثنيين حيث يقوم القساوسة بتلاوة تراثيلهم، وقد سجل البكرى قائلاً: في مناسبات الاحتفال

يضع الملك على رأسه غطاء من ذهب ويعلق الجواهر على ملابسه وخلفه طبقاً لروايات المؤرخ العربى الإسبانى يقف أتباعه وعلى يمينه أبناء أتباعه من المسئولين بزخارف على رؤوسهم، أما الوزراء فيجلسون أمام الملك ومحافظة البلد يقبع عند قدمى الملك، وحول المنصة تقف عشرة من الأحصنة مطهمة بالذهب، أما الحراس فحول رقابهم وعلى جنوبهم أشرطة من ذهب وفضة، وبالقرب من الملك كلب من النوع النادر، على أن قلة من الأمم الإفريقية التى لا تربي كلاباً تستخدم مثل الصقور والنسور للصيد، ومن المعروف أن تربية الحيوانات فى البيوت وكذا الطيور عادة تمثل نموذجاً لحضارة عظيمة فى الغرب والشرق وعدم فعل ذلك فى إفريقيا السوداء، ربما يعود إلى تأثير الإسلام، وفى أيام البكرى كان هناك الكثير من المسئولين فى البلاط الملكى كصاحب الخزانة والوزراء والمترجمين عادة ما يختارون من الجماعة الإسلامية، مثلما يحدث الآن حيث ينتقى الرجال للمراكز الهامة فى المجالات المختلفة من المجتمع الأوربي، وفى بلاط الملك فإن الاحتفالات تبدأ بالدق على الطبول ويسمونها (الديبا) على أن طبول البلاط السونينكى مازالت تسمى (تابا) وعند سماعها يركع الحضور، أما المسلمون فيصفقون فقط فيتقدم الملك وهنا يقوم الوثنيون بصب القذارة على رؤوسهم المطاطاة، ولقد ذكر الإدريسي أن خزانة الملك تشتمل على سبائك الذهب التى تزن الواحدة منها خمسة عشر كيلو (ثلاثين رطلاً) وهى تمثل كمية احتياط للملك، ووجدت سبيكة خلال الزمن الحالى تزن ثلاثين رطلاً، وهذا ما يدل على أن تقدير الإدريسي كان دقيقاً وصائباً، وأشيع فى مركز التجارة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أن هناك سبيكة ذات حجم عظيم وعندما بيعت بعد فترة من الزمان بواسطة ملك من سونينكى لتاجر مصرى ذكر ابن خلدون أنها كانت تزن طناً، وعندما مات ملك غانا حسب قول البكرى تطلب طقس دفنه ترتيبات تمثلت فى وضع جسده ممدداً على فراش وثير ووضع فى صندوق خشبى عظيم، وقد أعدت موائد الطعام والشراب بجانبه وأقيم ضريح فخيم حيث تجمع الأهالى ليقيموا حوله خندقاً كبيراً وتنتهى المراسم، وكان التجار الرحالة يهتمون أساساً بالتجارة والثروة، ونجد البكرى

عندما عاد إلى إسبانيا يتحدث عن أولئك الناس فيقول: هم يزرعون نوعاً من الذرة الحمراء ويصطادون سمك نهر النيجر، ويهاجمون القبائل المجاورة من أجل الرقيق، ويقول البكرى: إن ملك غانا في وقته يمكنه أن يجهز جيشاً من مائتي ألف لهذا الغرض بما فيه عدد أربعين ألفاً من رماة الأقواس، أما الإدريسي فيصف عاصمة الملك غانا على أنها تمثل السوق الرئيسي في غرب السودان، وأن تجارتها في الذهب عظيمة حتى إن أهلها يفرضون رقابة على الكمية التي تعرض؛ إذ إن الذهب السبائك يعد من ممتلكات التاج، وأما الذي يباع أو يصدر إلى الشمال في سبته فهو فقط الذهب الرقيق (البودرة) وكان الخرز يصنع خصيصاً لتجارة الزنوج، وهكذا لأن التجار ينطلقون من (سيجيلماسة ودراعا) وأماكن مماثلة بذلك الخرز وأشياء أخرى مثل الجواهر، وعند مرورهم عبر (تاغار) يحصلون على الملح وفي مدينة غانا يبيعون الخرز والملح ويستأجرون وكلاء محليين يرافقونهم عبر أراضي السودان في رحلة مدتها لا تقل عن عشرين يوماً إلى أسفل عند السنغال حيث يتوقف التجار القرطاجيون ويضعون بضاعتهم للمبادلة بالذهب، وقد وصف هيرودوتس تلك المعاملات على الوجه التالي :

عندما تصل قافلة التجار جانب النهر يبدأون بالدق على الطبول من أجل تشجيع السكان العراة على الخروج من الحفر التي يجعلونها في الأرض ويعيشون فيها وذلك الدق على الطبول يعد إعلاناً عن وجود البضاعة وأولئك العراة لا يخرجون إلى أن يغادر التجار مكان تكديس البضاعة على جانب النهر، فيخرج العراة إلى مكان البضاعة ويضعون رقيق الذهب (البودرة) بجانب البضاعة في شكل أكداس ويعودون إلى حفرهم، وبعد مجيء وعودة وزيادة في الذهب يقوم التجار بأخذ الثمن (الذهب) ويغادرون تاركين البضاعة، وقبل المغادرة يدقون مرة ثانية على الطبول مما يعني أن المبادلة قد تمت، ومن الطبيعي أن هؤلاء التجار يأتون للذهب ولكن إذا ما قبضوا على أي زنجي يحاولون معرفة مكان الذهب فيضربونه حتى الموت من أجل ذلك فلا يعطى سر قبيلته، وفي هذه الحالة يوقف الزنوج عملية التجارة تلك لسنوات أحياناً ثم يعيدونها فقط عندما يحتاجون للملح، ولقد كتب (سادا مستو) خلال القرن الخامس

عشر يقول: إن التجار العرب وبربر صنهاجة فى سيجيلماسة يقولون: إن التبادل الصامت مازال هو القاعدة فى التعامل مع بعض القبائل الغربية السودانية، وهناك دليل على تجارة الدق على الطبول فى مناطق مختلفة فى (وانقارا) إلى وقت متأخر، ويقول المؤرخون: إن هناك تعاملًا مشابهًا، فمثلا كان الرومان يشترون الحرير من الصينيين بنفس الطريقة، ولقد لاحظ رحالة القرن الخامس الصينى السيد (فا هين) التعامل بطريقة الطبول فى سيلان، وفى إثيوبيا قبل المسيحية كان الذهب يباع بنفس هذه الطريقة، أما الأتزام الكونغوليون فقد مارسوا هذه العادة فى بداية عهد الاستعمار أى فى أقل من قرن ماض، وليس من المستحيل أن نعرف أن بعض جماعات الأتزام مازال تمارس هذه الطريقة .

ويقول مؤرخو القرن العشرين عن غانا إن أساس الإمبراطورية قد أقيم خلال القرن الثالث أو الرابع الميلادى فى منطقة (أووكار) وكانت فى ذلك الوقت مسكونة بالزنج الذين يتكلمون اللغة الماندية من قبائل السونينكى، وهم جماعات هاجرت من شمال إفريقيا، وإن كانت هوية هؤلاء المستوطنين غير مؤكدة إذ ربما يكونون مزارعين بربر، وإن كانت هناك بعض أسباب للاعتقاد أنهم إن لم يكونوا يهوداً فهم لابد أنهم من البربر الذين وقعوا تحت تأثير اليهودية، وربما يكون بهم خليط يهودى، ولقد حدث فى فترة قرب القرن الرابع الميلادى أن أسس هؤلاء المهاجرون نوعاً من السيطرة (الحكم) على الزنج الذين يعيشون بينهم، ثم أقاموا نظاماً تقليدياً يتكون من (أربعة وأربعين ملكاً) وهم الذين حكموا (أووكان وهود) حتى نهاية القرن الثامن الميلادى، وفى سنة سبعمائة وسبعين أطاح الزنج السونينكى بهذا النظام واستمر حكمهم فى غانا إلى عهد سيطرة المرابطين تقريباً، ولقد حدث أن المسيطرين السابقين صاروا جزءاً من قبيلة (الفولانى) الآن بسبب الاختلاط والتزاوج، الفولانى الذين لغتهم تتصل (بالتوكولور والولف والسير السنغالى) ويذكر مؤرخون آخرون أنه لابد أن يكون هناك أكثر من غانا ذلك أن الاسم من الواضح أنه يطلق على غير مكان فى غير عصر، والمصطلح كما يظهر إنما يعنى أحياناً (كلا) من البلد أو المدينة أو الملك،

والكلمة ربما جاءت من المصطلح البربرى (قان) وهذه تعنى الغابة فى اللهجة الحديثة وفى الصيغة العربية الموريتانية (آقان) تكون (قانا)، وهى التى ربما تعنى لغوياً المملكة أو الممالك، وغانا كانت أسطورة بالنسبة للعرب والبربر وهى كذلك كانت سوقاً للرقيق فى المملكة أو (الممالك) وفى روايات عربية يذكر أن غانا كانت سوقاً شهيرة للرقيق أثناء كل الفصول، وتقع غرب غانا مملكة (تيكرور) التى أسسها (التوكولورز)، وهى كذلك سوق للرقيق والذهب، والتوكولورز موجودون الآن فى السنغال الحديثة ومنهم العدد الأكبر فى (فوتا) الواقعة شرق غينيا حيث يطلق عليهم اسم (تيكارير) وكان مطلب الإطاحة بنظام غانا والمجاورين لها ضرورياً من وجهة نظر دينية وتجارية وسياسية فى المغرب الإسلامى، على أن تقاسم الامتيازات فى غانا القديمة صورَه البكرى، كما أنه مماثل لذلك النظام الأبيض فى جنوب إفريقيا اليوم^(١) حيث كان للإنجليز احتكار المناجم والصناعة والثروة والاستثمار فى حين أن المجموعة الأقل تطوراً وإتقاناً هم الإفريقيون الذين لهم الغلبة من حيث العدد السكانى، وفى غانا كثير من السونينكى وخصوصاً طبقة (المونسييد) الذين كانوا مسلمين، لكن التقديرات المعاصرة تشير إلى أنه عندما تولى الزوج العرش كانت السلطة وأغلبية الناس وثنيين وكان لدى التجار المغاربة وحركة المرابطين المتدينين فكرة واحدة وهى ضرورة احتلال غانا الوثنية، وربما كانت هزيمة أبوبكر للسونينكى فى معركة سنة ١٠٦٢م جزءاً من خطة التغلب على غانا التى نعرفها اليوم، ولقد أصر يوسف على إبقاء طليعة من جيش المرابطين فى حين رجع الأمير عبر الصحراء وصار يرتب لتأسيس إمبراطورية المرابطين الخاصة به فى منطقة الزوج أو على الأقل فى جزء من الجنوب الزنجى، وفى سنة ١٠٧٦م استولى فى النهاية على ما وصف آنذاك بعاصمة غانا وعمل السيف فى الوثنيين حيث جعل البلاد وما فيها من ذهب تحت سيطرة المرابطين، وهنا أيضاً كان حكم المرابطين قصير الحياة، وبعد النصر تنازعت القبائل البربرية، وفى أقل من عقد من الزمان استطاع السونينكى استعادة استقلالهم من الغزاة

(١) المقصود النظام العنصرى السابق الذى أقامه البيض هناك ذلك أن المؤلف يتحدث عن فترات سابقة. المترجم.

ثم إن السونينكى أنفسهم اختلفوا بحيث أضعف الاختلاف والحروب سلطة الدولة وباستمرار تلك الخلافات أوشكت الدولة على الانهيار، وفى سنة ١٢٠٣م قام السوسو (وهم وقتذاك أغلبية الناس فى غينيا الغربية بما فى ذلك كوناكرى) بالاستيلاء على عاصمة غانا نفسها بعد أن قام زعيم السوسو المدعو (سومانقورا) بضم القلعة الاستراتيجية (جارا) وإذ رفض العرب والبربر سيطرة حكم السوسو وانضم إليهم أغنياء السونينكى التجار هجروا العاصمة التى يمكن أن تكون (كومبى) واتجهوا شمالاً فى الصحراء إلى مسافة مائة ميل تقريباً، وهناك أنشأوا مدينة جديدة فى واحة (كارافنسىرى) عند (والاتا) ولم يمر وقت طويل حتى قفز ثراؤها بحيث تجاوز مدينتهم السابقة التى تحولت إلى مدينة أشباح ولكن استمرار الحديث عن غانا حتى خلال القرن الثامن عشر يعنى إما أن الإمبراطورية قد غيرت موقعها أو أكثر احتمالاً أن هناك فى التاريخ أكثر من غانا واحدة، أو ربما أن بعض الغانات موجودة بجانبها، على أن بعض المؤرخين يشيرون إلى غانا على أنها (والاتا) لأن اسم غانا مثل اسم مالى يطلق غالباً على أى مملكة فى غرب السودان، ولقد استمر استعمالها فى قصص الرحالة، وفى القرن الرابع عشر بعد سقوط السونينكى وظهور مالى ذكر ابن خلدون أنه سمع حديثاً فى القاهرة من الشيخ عثمان الذى قال عنه: إنه فقيه فى غانا ما معناه، إن أعضاء عشيرة السوسو هم جزء من قبيلة الفولانى فى تيكورور، وهؤلاء يسمون إمبراطوريتهم (كانيقا)، وهذه تكونت عند احتلالهم لسونينكى غانا، وقد تحولوا مع زعيمهم (سومانقورو) إلى الجنوب ليتحدوا قبائل مع (المانديقو)، وكانقابا تعرف على أنها مالى وبتقدير لوردات الحروب فى السوسو أن المانديقو كقبيلة مسلحة تمثل تهديداً لقوتهم فى غرب السودان، ومن أجل إضعاف مالى دبر السوسو عملية قتل أحد عشر أخاً ممن يمكن أن يكونوا ورثة المملكة، وأبقوا على الأخ الثانى عشر لأنه صغير ومريض وهذا يدعى (سون جاتا)، وكلمة سون تعنى جزءاً من اسم أمه وأما جاتا فتعنى أنه ابن أمه، ومن خلال الاسم الذى أخذه (مارى جاتا) برز كزعيم وبطل لأمة (المانديقو)، ولذلك فإن قصائد تمجيدته ماتزال تزداد حتى اليوم، وفى سنة ١٢٣٥م

(بعض المصادر تقول سنة ١٢٤٠م) تمكن (مارى جاتا) الذى تحول إلى الدين الإسلامى من تدمير جيش سوسو فى منطقة (كيسيرنا)، واندفع بجيشه فى اتجاه الشمال داخل الصحراء وحول عاصمته إلى (نيانى)، وهى أيضاً تعرف على أنها مالى أو ماندى، وفى السنوات اللاحقة وجه قادة جيوشه إلى أبعد من نهر جامبيا وتيكورور، وهى المناطق التى لجأت إليها قبيلة السوسو المهزومة حيث استطاعوا تنظيم بعض المقاومة واستعادوا عرش تيكورور لمدة قرن من الزمان، وأخيراً هزموا من طرف (الوولوف) سنة ١٣٥٠م، ولقد قاومت قبائل الونقارا فى حقول الذهب محاولات (مارى جاتا) الذى أراد تحويلهم إلى الدين الإسلامى، مع أنهم أخيراً قبلوا رئاسته، وكانت شهرة الغنى الكبير فى مالى قد انتشرت فى أوروبا كما كان حفيد (مارى جاتا) المدعو (منساموس - الملك) عندما تولى العرش قد ضاعف من شهرة الإمبراطورية، حيث حج إلى مكة عندما تولى العرش سنة ١٣٠٧م وحج سنة ١٣٢٤م، وعزز التجارة الداخلية والخارجية مع (والاتا ومع ليبيا ومصر) باستخدام ثروته التى لا تقاس، وبناء على ذلك فقد استبق الزيارة بعدد خمسمائة من العبيد كل واحد منهم يحمل كمية من الذهب تزن أربعين رطلاً، وفى القاهرة طارت شهرته بما له من كرم وعطاء وغطرسة، حيث رفض أن يقبل الأرض فى حضور السلطان المملوكى الذى يظهر أنه لم يقابله بالاحترام الذى تستحقه رتبته الملكية، ولقد أحضر الملك السودانى معه مائة جمل يحمل كل منها حوالى ثلاثمائة رطل من الذهب للبيع والإهداء^(١) ولقد وجد العمرى الذى زار القاهرة بعد مرور اثنتى عشرة سنة بعد زيارة الملك^(٢) أن

(١) لابد أن هذه الأرقام مبالغ فيها؛ لأن العبيد وهم خمسمائة، وكل منهم يحمل أربعين رطلاً من الذهب، هذا يعنى أن الذهب مع العبيد يصل إلى عشرة آلاف كيلو تقريباً، أما الجمال وهى مائة ويحمل كل منها ثلاثمائة رطل من الذهب أى مائة وخمسين كيلو من الذهب على كل جمل، وهذا يعنى أن الذهب على الجمال يصل إلى خمسة عشر ألف كيلو تقريباً، وعلى أى حال فإن الروايات القديمة يمكن أن تكون المبالغة فيها أكثر من الصواب، والمؤلف ينقل عن آخرين وربما لم يتحقق مما ينقل. المترجم.

(٢) العمرى بن فضل الله أحمد (١٣٠٠-١٣٨٠) ولد بدمشق وخدم السلطان الناصر بن قلاوون، ألف فى الجغرافيا كتاب (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار). المترجم.

الناس ماتزال تتذكر تلك الزيارة وأهميتها من حيث تدعيم التجارة، وكان أتباع مانساموس قد دفعوا مبالغ طائلة مقابل مشترياتهم وخصوصاً في الملابس الحريرية، وفي الأراضي المقدسة كان كرم مانساموس عظيماً جداً حتى إن ثمن تجارة الذهب الرقيق (الغبار) في السوق ارتفع كثيراً، وفي طريق عودته إلى بلاده استقبل مانساموس مبعوثاً أتاه بأخبار سقوط عاصمة مالي (قاو) في يد السنغاي مما جعله يغير سيره ويأخذ طريقه إلى (قاو)، حيث قابل بعثة الملك المهزوم، وأخذ أبنائه الاثنين رهائن ثم استدعى مانساموس المهندس الشاعر الأندلسي الذي أخذه من مكة، وطلب منه أن يقوم ببناء مسجد جديد في (قاو) بحيث يكون هذا المسجد أول مبنى في السودان الغربي مقاماً من الطوب المشوى وماتزال أساساته موجودة حتى الآن، وسقوط (قاو) قرب تومبوكتو لمالي وهي التي ورثت الحياة الثقافية والتجارية من (والاتا)، واجتذبت إليها قبيلة (جادالا) التي كانت بدائية وهي الآن قبيلة الصحراء التجارية الثقافية، ولقد عمل مانساموس على تقدم تومبوكتو في أن مهندسه عمل على تزيينها بمسجد جديد ومبان أخرى، وكان الدارسون من (جادالا) في مسجد (سانكوري الجديد) قد اجتذبوا بدورهم أولئك (الجادالا) الذين يعتقد أن أصلهم من نتاج زواج مشترك بين البرتغاليين واليهود والعرب وهم يعيشون الآن في ما يسمى (جيدالا أو جويدالا البرتغالية) وإذا كانت صور مانساموس التي وردت في خريطة (كاتالان) صحيحة فإن هذا الزعيم يظهر في طول متوسط بلحية كثيفة وبطن بارز وهو يرتدى تقليدياً اللباس الأبيض ويضع على رأسه تاجاً مذهباً دقيقاً على شكل وطراز أولئك الذين في أوروبا الغربية، وكان معاصروه وقت الحج قد فوجئوا بلونه الأسمر حيث إنهم يتوقعون أن الناس في بلاد السودان زنوج سود، توفي مانساموس سنة ١٣٣٢م بعد أن أنشأ أكبر إمبراطورية إفريقية في شبه الصحراء، وربما كانت من أحسن النظم حيث اجتذبت العديد من المصريين والمغاربة والمستوطنين الآخرين المعروفين باسم (تور) أي الغرباء، وفي الخرائط الأوربية عن إفريقيا كانت تبرز تلك الإمبراطورية بوصفها من أغنى البلدان وقتذاك، واسم مالي وقتئذ يعنى المكان الذي

يعيش فيه الملك، وهكذا فإن الاسم يمكن أن يعطى لأي عاصمة (ماندوقية) علماً أن مانقى تعنى مختلف الناس فى مالى، وكذلك مقعد مانسا يعنى مقعد الملك (ماندينكا)، أما مانيلكا فقد بقى اسم القبيلة التى ينتمى إليها أول رئيس لغينيا الحديثة الرئيس (سيكوتورى) وماندينقو الحديثة هى جامبيا واسم الهاوسا للماندينقو أو المانيلكو هو (وانقارا) وبعد وفاة مانساموس حدثت نفس القصة المعتادة فقد أضاع ابنه المدعو (ماغان) الكثير من ممتلكات الإمبراطورية خلال أربع سنوات فقط فأولاً مفرزة حرسه فى تومبوكتو هزمت بواسطة المحاربين من (ياتينخا)، ثم إن الرهائن أبناء ملك شنغاي (على كولين وسليمان نوح) فرا إلى (جاو) وهناك أجبا التمرد حيث منح (على كولين) التاج هناك وكان (ماغان) قد استبدل بخاله (سليمان) وهذا استطاع أن يستعيد ما فقد من الإمبراطورية عدا (جاو وتومبوكتو) وحدث أنه فى عهد سليمان أن قام الرحالة (ابن بطوطة) بزيارة مالى وربما كان هناك فى ذلك الوقت أكثر من مالى ولكن واحدة كانت أكثر أهمية من غيرها، لقد سافر الكاتب البربرى من مراكش سنة ١٣٥٢م عبر سيجيلماسة وسوق الملح فى (تاغارا)^(١) ومن هناك أرسل من يقوم بالاستكشاف فى (والاتا) للتأكد من أن المياه قد أعدت للقافلة القادمة؛ إذ إنه إذا لم يصل هو شخصياً، فإن القافلة يمكن أن تهلك وكان المبعوثون عمى أو على وشك العمى، وإن كانوا من ذوى السمعة والشعبية الكبيرة حيث إنهم يجدون طريقهم عبر الصحراء بقدرة أكبر من أغلب الناس؛ لأنهم يعتمدون بقوة على حاسة الشم ومعرفة الأرض باللمس، وقد وصل ابن بطوطة (والاتا) بعد مسيرة شهرين من سيجيلماسة وكانت المدينة فى هذا الوقت تابعة لمالى، وقد فوجئ الكاتب بجمال النساء وباستقلالهن فى المظهر على غير التقليد الإسلامى، كما فوجئ أيضاً بعادة خروجهن وكانت عائلة نساء القصر (كيثا وكوتانا وكوليالى - إلخ) يتمتعن بقوة هائلة فى الحكم، كما كانت البلاد فى حالة سلام واستقرار، ومن هناك واصل ابن بطوطة سفره

(١) يذكر أن مدينة بنغازى الليبية فى وقت ما كانت تسمى مدينة سوق الملح، وكان ذلك السوق يقع فى الجانب الغربى من المدينة، وتحديدًا فى المكان الذى أقيم فيه قصر كبير استخدمه الحاكم الإيطالى أثناء الاستعمار، ثم استعمله الملك الليبى إدريس السنوسى، وعندما تقرر إنشاء الجامعة الليبية سنة ١٩٥٦م، أهدها الملك ليكون مقراً لتلك الجامعة، هذا فقط لإعلام من لا يعلم بذلك من الليبيين. المترجم.

إلى (نيانى) العاصمة مع ثلاثة فقط من صحبه، ولم يكن معهم طعام لرحلة مدتها أربعة وعشرين يوماً، وإنما كانوا يبادلون بالملح احتياجاتهم اليومية، واجتاز ابن بطوطة نهر النيجر الذى اعتبره (خطأً) على أنه النيل، وبعد أن شفى ابن بطوطة من مرض ألم به فى (نيانى) قام بزيارة للبلاط الملكى، وكانت التقاليد تشبه ما ذكره البكرى عن غانا حيث يقوم طالبو المقابلة الملكية بارتداء خرق ويقذفون التراب على رؤوسهم الحليقة ويقوم الرجال بالركوع كعلامة للتقدير ويوجد عادة اثنان من الماعز مذبحان كمظهر لإبعاد الحسد، وقد رأى ابن بطوطة الملك يقدم للزوار امرأة ليقتلوها ويأكلوا لحمها ومن ثم يلطخون جباههم وأذانهم بدمها، كما وجد أشياء تثير الإعجاب والاستغراب، ومن هنا فإن رواية ابن بطوطة تعكس ترفع العرب والبربر عن الأفارقة السود لكنه فى نفس الوقت يعترف قائلاً: إن السودانيين يتعاطون التجارة ويطيعون القوانين وأعجب بمستوى تلك التجارة، وذكر أن سلسلة من الجمال عددها ثلاثة عشر تصل (والاتا) بانتظام وهى محملة بمختلف أنواع البضاعة، لكنه مع ذلك فجع بسبب عادة أكل لحوم البشر والكلاب والحمير، وكذلك بتعري النساء وتلك عادة رآها حتى فى نساء البلاط الملكى، وقال: إنه قلما يلاحظ المرء لبسا على امرأة^(١) كما قال: إن

(١) وهذا ما ذكره ابن بطوطة، قال: إذا سافر أحد ملوكهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرش وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها، والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً، وإنما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج والدقيق والنبق والأرز والفونى وهو كالحردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوباء، فيشتري منهن ما أحب من ذلك، ويضيف ابن بطوطة: ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا باديات العورات، ولقد كنت أرى منهن فى رمضان كثيراً على تلك الصورة، وأخبرنى فارنا ماغنا أن مناسم لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاضى من البيضان يكنى أبى عباس ويعرف بالداكالى فأحسن السيد إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقتة، فلما وصلوا إلى ميمما شكوا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمما وتوعد بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً ولا سارق يطئون بتلك البلاد، فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء، وإنما دفنها بيده فى ذلك الموقع، وأشارت له إلى الموضع، فأخرجها الأمير وأتى بها إلى السلطان، وعرفه بالخبر، فغضب على القاضى ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم فأقام عندهم أربع سنوات، ثم رده إلى بلده، ولم يأكله الكفار لبياضه؛ لأنهم يقولون: إن أكل الأبيض مضر؛ لأنه لم ينضج والأسود هو النضوج بزعمهم. المترجم.

الناس على الرغم من تدينهم مازالوا يحفرون علامات على وجوههم تبين قبائلهم وتقاليدها، ووجد بشكل خاص أن صناع الذهب من الوثنيين، ولقد قضى الكاتب ابن بطوطة ثمانية أشهر في (نيانى) وعاد على ظهر جمل عبر تومبوكتو وانحدر أسفل إلى النيجر عبر سنغاي حيث منح هناك طفل (رقيق) من سنغاي وقضى شهرا في (قاو)، ثم رافق مرحولا متجهاً إلى (تاكيد) ومعه ستمائة امرأة (رقيق) إلى سيجيلماسة وفاس وخلال عبوره للصحراء الكبرى كانت ملاحظاته تعكس حجم التجارة عبر الصحراء وقتئذ، وكذا تلك الصلات بين المغرب والتجار السودانيين ورأى مالى ليس في وقت رفعتها في وقت حكم مانساموس، ولكن بشيء من السعادة وبعد هذا الوقت بخمسين سنة صارت مملكة صغيرة مهدمة، أما سنغاي وقد استعادت بعضاً من مجدها السابق في ظل حكم (على كولين) فقد كانت أسعد حظاً ذلك أن العاصمة في (قاو) مثلها مثل غانا بها وثنيون ومسلمون على الرغم من أن أغلبية الناس مازالوا وثنيين، وفي سنة ١٤٦٨م في عهد حكم (سونى على) تحرك جيش سنغاي شمالاً في اتجاه المدينة العظيمة الأخرى الواقعة على نهر النيجر في السودان وهى تومبوكتو وقد احتلها، ويذكر السعدى^(١) أن عهد (سونى على) كان صعباً ودموياً، وأن سكان تومبوكتو أجسادهم سوداء وفيهم أصل بربرى وهم يحقرون السنغائيون بالرغم من أن البيت الحاكم في (قاو) يتكون من أصل بربرى وتحديداً هؤلاء يكرهون (سونى على) الذى ينعتة السعدى بأنه طاغية وخليع وسارق وأنه يمرح بموت المثقفين والمتدينين كما أنه سادى ومجنون وكان ذات مرة قد أجبر امرأة على أن تضع طفلها وهو على قيد الحياة في فوهة مدفع بحيث يقذف به لتأكله الكلاب، وفي كثير من المناسبات كان يأمر بحرق ضحاياه حتى الموت أمامه، وآخرون يوضعون عرض الحائط لبعض الوقت ثم يقتلون، وتقدم ملك سنغاي إلى (جيني) التى حسب الأسطورة المتواترة قد قاومت تسعة وتسعين حملة عسكرية قام بها ملوك مالى، وفي هذا الوقت

(١) السعدى عبدالرحمن بن عبدالله (١٥٩٦ - ١٦٥٥) مؤرخ سودانى اشتهر بكتابه (تاريخ السودان) الذى أرخ فيه لدولة سنغاي الكبرى ومالى والطوارق، نشره المستشرق الفرنسى (مرداس) سنة ١٩٠٠م . المترجم .

سقطت المدينة بسوق ملحها الكبير في يد (سونى على) بعد أن حاصرها لعدة سنوات، وربما يكون سقوطها والنصر النهائي عليها حدث سنة ١٤٧٣ م، وإذا كان موسى قد أزعجه تقدم ونجاح سونى على فقد أمر بالتقدم ناحية الشمال واستولى على (والاتا)، ثم انسحب بعد أن نهب المدينة وقرر سونى على أن يأخذ موقع سوق (ماليان) لنفسه، حتى إنه أقام ما قصد به أن يكون قناة تمتد مائتى ميل من بحيرة (فاقبيان) إلى (والاتا) بحيث توفر له مواصلات متحركة بالقوارب لكن هجمات جديدة من طرف موسى أجبرت الطاغية على التخلي عن هذا المشروع الطموح، ومن حظ الناس الكبير فى تومبوكتو إنه مات سنة ١٤٩٢ م وكان خلال ست وعشرين سنة قد حول المملكة الصغيرة إلى أكبر إمبراطورية فى المنطقة، وفى هذا الوقت بعد أن توفى خلفه ابنه، ولكن العرش سرعان ما استولى عليه أحد قادة جيش والده وهو (محمد تورى) وأخذ لنفسه لقب (أسكيا) وبالتالي أصبح اسمه (أسكيا محمد الأول) وكان فى قوته مثل (سونى على) ولقد أعطى كثيرا من الاحترام للدين والعلماء، وحقق انتعاشا إسلاميا كبيرا، ولذلك حدث أن العلماء الذين اضطهدوا فى عهد (سونى على) صاروا الرجال المفضلين فى هذا العهد أى فى ظل (أول أسكيا) وكانت (قاو وتومبوكتو) قد تقدمتا اقتصاديا واجتماعيا، وقام (أسكيا محمد)، بأداء فريضة الحج حالما تولى الحكم مصحوبا بعدد خمسمائة فارس وألف من المشاة وحمل ثلاثمائة قطعة من الذهب الثلث منها لعمل الخير فى المدن المقدسة، وكان أسكيا الأول قد وحد الحكم فى سنغاي ووسعه، وتوسعته الكبرى ربما كانت فى دولة الهاوسا وهى بلاد غنية تقع بين النيجر وبحيرة تشاد، والهاوسا معروفون كمزارعين يمتنون الحياة والصباغة والدباغة والحداة وهم يقيمون فى المدن المقامة من الحجر مثل (قوبركاتسينا وزاريا وكانو)، وهذه المدن اجتذبت التجار العرب ولم يكن الهاوسا على أى حال مقاتلين فيما عدا مقاومة بسيطة حدثت فى (كانو)، ولقد امتدت سلطة (أسكيا محمد) إلى حدود سنغاي وحدود الأعداء التقليديين (التوارق) الذين أزعجهم احتلال بلاد الهاوسا وهى المرعى الموسمى للبدو، ومن أجل أن يؤمن (أسكيا محمد)

حدوده الواسعة احتل بلاد التوارق ليدفعهم بعيداً إلى الصحراء، ولقد ذكر (بوفيل) قائلاً: مثلما فعل الفرنسيون خلال بداية القرن العشرين كان علي (أسكيا محمد) أن يتعلم أنه من أجل أن ينهى مشاكل قد تحدث في المستقبل حرم البدو من أراضي مراعيهم وإضافة إلى ذلك بعد أن تخلص (أسكيا محمد) من إزعاج التوارق واجه تمرداً على باب الدار ذلك أن ملك (كابى) الذى كان قد حارب مع أسكيا فى حرب الهاوسا والتوارق فجأة ثار وأعلن استقلال منطقة (كيبى)، وتقول الأساطير: إنه لم يكن راضياً على نصيبه من غنائم انتصارات (أسكيا محمد) وقد حصل كائنا على تأييد المحيطين به المحميين بالمستنقعات والغابة، ولذلك استطاع أن يحافظ على عاصمته (سوراما) ضد هجمات (أسكيا محمد) وكانت المشاكل الأساسية التى تواجه (كائنا) لبعض الوقت هى أقل من مشاكل سنغاي الذين كان عليهم أن يعبروا المستنقعات فى طريقهم من الغرب بدلاً من شرق (كيبى) حيث يوجد (ماى على) حاكم (بورنو) الذى صار ينظر باهتمام إلى بروز جار قادر على تحدى السنغاي ذلك أن الكياويين الذين صدوا بشتى الطرق هجمات (ماى على) وجيشه القوى، وبعد أن احتل الإنجليز (سوكوتو وقواندو) وجدوا (ساركين كيبى ساما إسماعيل) فى (أرقونقو) على بعد عدة أميال مازال بنجاح يقف ضد الهجمات من العاصمتين القويتين الفولانييتين منذ عقود، واليوم فإن الشعب الفولانى تشتت ولم يبق إلا القليل من ذلك المجد الذى حققه (أسكيا) ومن الجدير بالاهتمام أن المدينة التارقية السابقة المسماة (أغاديس) مازالت مسكونة بناس أغلبهم من أصل (سنغايوى) وهم يتكلمون لغة السنغاي، وهناك كذلك التوارق لكنهم مع ذلك لم يستعيدوا السيطرة السياسية على المدينة، وكان أول انتصار (لأسكيا) قد تحول إلى هباء حتى قبل أن يموت ذلك أن أبناءه الثلاثة بقيادة أكبرهم موسى قد تمردوا عليه وطلب (أسكيا) من أخيه (يحيى) العون لكن الأبناء قتلوا عمهم وزحفوا على (قاو) حيث أجبروا أسكيا على التخلي عن الحكم لصالح موسى وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨م لكن موسى المتجبر هو الآخر اغتيل فيما بعد وخلفه (أسكيا بينقان كورى) قائد الحملة غير الموفقة على (كيبى) وهو

الذى عاقب (أسكيا الكبير) بالنفى إلى جزيرة فى النيجر حيث مات وهو فى حالة سيئة، وخلال القرن السادس عشر تعززت كثيراً المعرفة بالسودان بسبب كتابات (ليو أفريكانو) وهو شاب مغربى ولد فى (جرينادا)، وتعلم على يد فقيه فى فاس، وهذا الشاب كان ضمن الأسرى الذين أخذوا عندما سيطرت وحدة قراصنة مسيحية على سفينة عربية عند جزيرة جربا التونسية سنة ١٥١٨م ونظراً لعلمه الغزير قام القراصنة بتقديمه إلى البابا (ليو العاشر) ليعمل طبيباً وفنياً لديه لكن البابا حرره وحوّله دينياً وغير اسمه من (الحسن بن وزاز) إلى (جوفانى ليونى) وهذا اسم البابا نفسه كما شجعه على إتمام علومه فى إيطاليا، وفى المجال الذى كان الشاب قد بدأه بالعربية المبني على ملاحظات سفرياته وعنوانه (تاريخ ووصف إفريقيا والأشياء التى تحتويها)، ولقد ظهرت هذه الملاحظات بعد ثلاث سنوات من وفاة البابا، وكان (ليو أفريكانو) قد شدد على أهمية السودان للتجارة المغربية، ولذلك اثنى سلطان فاس على مواطنه المراكشى، وقدم له هدية كانت قد وصفت على أنها تتكون من خمسين زنجياً عبداً واثني عشر جملاً وزرافة وست عشرة من قطط الزباد، ورطل من الزباد، ورطل من العنبر، وستمائة جلد غزال، وفى سنة ١٥٦٠م كان ليو أفريكانو أحد أعضاء بعثة أرسلت إلى سنغاي من طرف شريف فاس مولاى (محمد القيم) مؤسس ملك السعديين وكان الكاتب الشاب فى عمر أقل من العشرين سنة عندما سافر مع جيش (أسكيا) المنتصر، وفى تومبوكتو بين وجود قناة المياه خلال فصل الفيضانات، وكان قد أعجب بوفرة القصب والبقر والحليب والزبدة والملح الذى كان يجلب من مسافة خمسمائة ميل من (تاغارا)، وكان حمل الجمل من الملح يساوى أكثر من ثمن الجمل نفسه، ووجد (ليو أفريكانو) سكان المدينة على أنهم شعب طيب ومضياف وهم يقضون أغلب أوقات الليل يرقصون ويغنون فى كل شوارع المدينة، ويحتفظون بعدد كبير من الرقيق الرجال والنساء، وإن كانت مدينتهم تواجه خطراً شديداً من الحرائق، وفى الزيارة الثانية كان نصفها قد احترق خلال خمس ساعات ولم يكن هناك فى أطراف المدينة حدائق أو بساتين على الإطلاق وهو يصف حكم (أسكيا)

قائلا: إن ملك تومبوكتو الغنى لديه العديد من الصحون والصولجانات وهى جميعاً من الذهب والبعض منها تزن ألفاً وثلاثمائة رطل وهو يحافظ على عرش منظم وجميل مزود بالأثاث الرائع، وعندما يسافر هذا الملك إلى أى مكان يمتطى جملاً يتقدمه بعض رجاله المهمين وهو كذلك يفعل نفس الشيء عندما يسير إلى ميدان الحرب بينما جميع جنوده يمتطون ظهور الخيل وإذا ما أراد أحد أن يتحدث إلى الملك فهو لابد أولاً أن يركع عند قدميه ثم يأخذ من التراب كمية يرشها على رأسه وكتفيه، وهذه عادة يحافظ عليها الجميع وهى تمثل تحية الملك وكذا الحال بالنسبة لسفراء الإمارات الأخرى، ولدى الملك دائماً ثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة الذين يحملون الحراب والسهام المسممة وهم يتبعونه وتحدث بينهم وبين بعض الناس مناوشات عندما يرفض البعض دفع الإتاوات المقررة وكل الأشياء التى يأخذونها يقومون ببيعها لتجار سوق تومبوكتو، وأولئك التجار يستخدمون هم ومرافقوهم أحصنة صغيرة فى حالات السفر، أما الخيول الممتازة فيأتون بها للبيع وعندما يسمع الملك بأن أى تاجر أتى للبلاد ببعض الأحصنة يأمر بإحضار عدد معين أمامه ويختار أحسنها لنفسه ويدفع الثمن المعقول، ولدى بلاط الملك عدد كبير من الرهبان والقضاة والعلماء والأطباء وهؤلاء يقيمون فى البلاط الملكى وعلى حسابه، وفى السوق تباع الكتب ومختلف المخطوطات بأثمان أغلى من أى بضاعة أخرى، وكانت عملة تومبوكتو ذهبية وبلا أى ختم أو كتابة وإن كانوا يستعملون فى حالة الأشياء ذات القيمة القليلة عملة صغيرة جاءت من مملكة فارس، أما ليو أفريكانو فقد جعل (شلىن كورى) يساوى أربعمائة من (الدوكات) واسمه على العملة المحلية الذهبية، وكان (سته وثلاثين) من هذه العملة تزن أوقية من الذهب، ويظهر أن الكاتب المغربى قد زار تومبوكتو وهى فى قمة مجدها، ويعود الفضل فى ذلك إلى (أسكيا) وبلاطه الميمون، كذلك زار هذا الكاتب (جيني ونيانى) فى مالى وقال: إن (جيني) غنية بالأغذية والقطن، وهذه يبادلونها بالأسلحة والمعدات الأخرى، وفى مالى حيث كانوا يعانون من هجمات (أسكيا) وجد أيضاً الأبقار والخنطة ووفرة القطن، ووجد كذلك الناس

مضيفين، وهناك عدد من المدارس الإسلامية في مسجد المدينة، ويضيف (ليو أفريكانو) قائلاً: إن الناس في هذه المنطقة يتقدمون على جميع السود في الذكاء وفي التحضر وفي الصناعة، وقال إن عاصمة (أسكيا هي قاو) وهي غير مسورة ويوجد هناك البلاط الملكي وبيوت التابعين وبيوت التجار الأغنياء، وعن سوق الرقيق قال: العبد الذي لا يزيد عمره على خمس عشرة سنة يباع بمبلغ ست دوكلات، وكذلك يباع الأطفال في هذا السوق، أما الملك فله في هذه المنطقة قصور خاصة وهي التي يبقى فيها عدد كبير من السريات والعبيد والخصيان وله حراس يتحركون على الخيول وحراس مشاة، وكان سوق المدينة نشطاً تباع فيه الخيول بثمن أربعين وأحياناً خمسين دوكة، ولا يوجد نوع من الأقمشة في أوربا لا يعرض في هذا السوق منه ما يباع بأربعة دوكلات للمتر، ومنه النوع الممتاز الذي يصل ثمنه إلى خمسين دوكة ذهبية، أما السيوف والسروج ومختلف أنواع التوابل فأثمانها عالية ولقد وجد ليو أفريكانو، الملح غالياً جداً وهناك الكثير من الذهب، وذهب إلى الهاوسا وهي منطقة محتلة حديثاً من طرف (أسكيا) وهناك أعجب بوفرة صناعات الأحذية والحديد ومواد أخرى، ومملكة الهاوسا الأخرى وهي التي قال: إن اسمها (زانفارا) وتتكون من (كاتسينا وكانو وزاريا) وكلها مدمرة بسبب الحرب مع سنغاي وترهق أهلها الإتاوة التي فرضت عليها، واندفع أكثر في اتجاه الخروج من نطاق إمبراطورية (أسكيا) إلى بورنو حيث يوجد الذهب بكثرة، حتى إن كلاب الصيد توضع على رقابها حلقات من ذهب، والانتصارات في الحروب توفر لبورنو العديد من الرقيق، ووجد أن هذا الرقيق يستعمل للتبادل التجاري، وقال: إنهم يقدمون عشرين من الرقيق مقابل حصان جيد، وعندما اتجه ليو أفريكانو شمالاً إلى بلاده ربما عبر (أغادير)، وعندما كان في الهاوسا لاحظ أن الأرض يزرع في شكل دوائر بالماء المتدفق من نهر النيجر، وهذا جعل صناعات الخرائط يضعون اسم البحيرة سنة ١٥٦٤م ويحددون موقعها في أعلى تومبوكتو خالطين بين نهر النيجر ونهر السنغال الذي يتدفق غرباً وهكذا بقي وضع البحيرة على الخرائط إلى نهاية القرن الثامن عشر، وكانت عمليات الاحتلال التي قام بها (أسكيا)

قد جعلت سنغاي إمبراطورية غنية خلال القرون الوسطى، ومن الطبيعي أن يشير ذلك طمع بربارى وهو الشريك التجارى، وقد امتدت سنغاي فى أيام مجدها من الصحراء إلى الغابات المطيرة، ومن الأطلنطى إلى بحيرة تشاد تقريبا وكانت هذه الإمبراطورية غنية، وأرضها خصبة بالمياه وكثيرة الحيوانات والأسماك والبذور وكان صناعتها وعمال المناجم فيها يوفرون الذهب والحديد والنحاس والجلود ومختلف المنتجات من أجل مواجهة احتياجات الاستيراد، وكان دائما هناك الفائض من الذهب والرقيق وكانت مشكلة سنغاي الاقتصادية الأساسية تتمثل فى كيفية مواجهة توفير مطالب منطقة البحر الأبيض المتوسط من صادرات هذين المنتجين من إفريقيا، ومن يمكن أن يتحدى هذه الإمبراطورية لابد أن يكون قوة كبرى، وفى سنة ١٥٧٨م كان المغاربة قد هزموا البرتغاليين فى معركة القصر الكبير حيث قتلوا منهم ستة وعشرين ألفا فى الميدان وبعد جهد بقى منهم مائة ألف أحياء ومن بين الذين قتلوا كان ملك البرتغال الذى خلفه شقيقه البالغ من العمر تسعاً وعشرين سنة وهو ابن سرية زنجية وفى هذا الوقت أضاف الحاكم الجديد إلى اسمه لقب (المنصور) وكان فى هذا الوقت قد انتقل الحكم فى مراكش من بلاط الموحدين إلى المريدين أى إلى أسرة سعدى التى تدعى أنها آتية من الحجاز، وتنتمى إلى النبی محمد ﷺ، ومدفوعين بانتصارهم على البرتغاليين بدأ المغاربة ينظرون إلى أبعد وكان هنالك أمراً يمنع بيع المعدات الحربية للمسلمين من البابا لكن الملكة البريطانية (اليزبث) زودت المنصور بقنابل المدفعية وخشب البواخر والمجاذيف وتسهيلات فى خدمة أحواض السفن البريطانية مقابل ملح البارود المغربى الذى كانت تحتاجه لصنع دقيق البارود، واحتج على ذلك ملك إسبانيا (فيليب)، ولكن الهدف الحقيقى لطموح الجيش المغربى لم يكن فى أوروبا ؛ إذ كانت خطط المنصور السرية جداً تتمثل فى احتلال سنغاي والاستيلاء على حقول ذهبها، وفى ذلك يكون الهدف الأول أساساً (تاغازا) حيث يوجد عبيد (موسىغا) التوارق يخدمون الملح الذى كان يبادل بالذهب فى السودان الغربى بالطريقة التقليدية (ملح بذهب) ولقد وصف ابن بطوطة (تاغازا) على أنها قرية قبيحة بها بيوت

ومساجد مقامة بطوب التراب ومغطاة بجلود الإبل وليس بها أشجار، والباحثون عن الرقيق يعيشون على التمر الذى يأتى من (درعا وسيجيلماسة) ولحم الإبل وأشياء تأتى من الجنوب، ويقول ابن بطوطة إنه فى أثناء زيارته وجد أن حمل الجمل من الملح يساوى أوقية من الذهب فى (والاتا) وفى مالى يساوى أكثر من ثمنه فى (والاتا) أربع مرات، ويضيف هناك قطع صغيرة من الملح تستعمل كعملة بواسطة الأرقاء، ووصف ليو أفريكانو الملح قائلاً: إنه أكثر بياضاً من أى رخام وكان مصدر غذاء عمال المعادن يبعد مسيرة عشرين يوماً، وكذلك فإن الحياة تعتمد على استمرار التجارة وغالباً ما يكون الطعام قليلاً، ولذلك تحدث حالات مجاعة، ويضيف: إنهم يشربون مياهاً مالحة من آبار واقعة بالقرب من حفر الملح عندما لا تصل المياه الصالحة من الواحات فى الوقت المناسب، وقبل أن يباشرو المنصور حملته قرر عدم احتلال (تاغازا) ربما خشية ردود فعل انتقامية على مراكش قد يقوم بها التوارق، وبدلاً من ذلك اختار السير فى طريق دورى (غير مستقيم) إلى سنغاي وكانت القوة المصاحبة كما ذكر تبلغ عشرين ألفاً من الرجال، ولكن يتوقع أن تكون أقل من ذلك، وقد هلكت فى الصحراء وبالتالي اضطر المنصور لأن يحتل (تاغازا) بقوة جديدة تبلغ مائة ألف مقاتل حيث هرب منها الزوج ومنع عودتهم (أسكيا داود) من العودة ولذلك فإن المناجم توقفت ولم تعد تعمل بدون أولئك الزوج الرقيق، ولهذا ترك المغاربة (تاغازا) وبدأوا أكبر حملة قتال عسكرية فى إفريقيا حتى الزمن الحاضر وهى التى ماتزال أصدائها تذكر فى مراكش خلال القرن العشرين تلك كانت حملة موريتانيا، ونحن الآن فى سنة ١٥٨٩م والمنصور فى فاس عندما جاءه مبعوث من مراكش يحمل رسالة من زنجى يدعى (ولد كيرنفيل) وهو الذى نفاه (أسكيا الجديد - إسحاق الثانى) إلى (تاغازا)، لكنه هرب وجاء إلى مراكش وكاتب الرسالة يدعى أنه شقيق (إسحاق الأكبر) مغتصب السلطة والواقع أن (ولد كيرنفيل) كان مخادعاً لكن موقفه أعطى المنصور المبرر الذى كان يريده من أجل أن يغزو الصحراء (بعض المصادر تقول: إن المنصور فى بادئ الأمر أراد أن يفاوض أسكيا الذى رد بأن أرسل للسلطان حراباً ورماحاً)، وكان المغاربة قد اعتمدوا على العدد لتحقيق النصر ولكن حملة سنغاي احتاجت

لتكتيك مختلف؛ إذ إنه بغير عدد محدود لن يكون هناك أمل فى عبور جيش كبير صحراء جافة، وكان لدى المغاربة أسلحة نارية وهذه تعطيهم مميزات واضحة على العدد الكبير فى قوات سنغاي، ولكنهم أيضاً احتاجوا إلى وسائل لنقل العساكر ولقائد جيد، وهكذا اختار المنصور إسبانياً ذا عيون زرقاء مستعبداً يدعى (جافاس) من (لاس كيفاس فى جرينادا) وهذا الجافاس كان قد رقى ليكون باشا وتحت قيادة هذا الخصى عشرة قواد منهم أورييون مرتدّون^(١) وكان يجب أن يكون الجيش عدده أربعة آلاف مقاتل قوى نصفهم من أوربا والنصف الآخر إسبان مغاربة، أما الفرسان الذين يكونون نصف تلك القوة فكان ثلاثة أرباعهم مغاربة، والربع الرابع من الأوربيين، والأورييون فقط هم الذين يحملون أسلحة نارية، وكان فرسان الخيول المغاربة يقاتلون طعنًا بالرمح، كما أن بعض الأوربيين فى تلك القوة لا هم مستعدون ولا هم مرتدّون وإنما خونة مسيحيون أكثرهم فرنسيون، أما المرتدّون والمرتزة وهم نخبة تعمل على سلاح المدفعية منها ستة مدافع ثقيلة كذلك فإن بعض القناصة البرتغاليين من الذين نجوا فى معركة القصر الكبير، ولغة هذا الجيش كانت الإسبانية، أما فرسان الخيول المائة وثمانية آلاف والذين يركبون الجمال فكانوا جميعاً مختارين بعناية يصحبهم ألف سائق جمال ملحقين بالحملة ومن الواضح أن هذه القوة الكبيرة مع نقلات الإبل كانت من أجل قطع مسافة فى الصحراء تبلغ ألف ميل سيراً، ولذلك فإن الجيش وخيوله سوف يعتمد فى تربيته من الماء والغذاء على ما تحمله الإبل فى المؤخرة والذى تتكون كميته من احتياطي (مائة وثمانين خيمة وواحد وثلاثين ألف رطل من البارود ومئات من جلود الثيران المملوءة بماء الشرب إضافة إلى الرصاص والإطلاقات والحبال والأقمشة والحرايب وأشياء حربية أخرى)، ومواد الغذاء تلك تتكون من الحبوب والتمر، ولقد غادرت الحملة مراکش فى ١٦ أكتوبر سنة ١٥٩٠م

(١) فقط للتذكير، كنا قد أوردنا أن الكاتب يقول عن أى أوريى يعمل أو عمل مع العرب أو المسلمين: إنه مرتد، وهذا ربما يعنى مرتداً عن الدين المسيحي، ونحن نقول: إنهم مرتزة يعملون نظير أجر يتفق عليه كما هى الحالة حتى خلال القرن العشرين، وتأجير المرتزة البيض للقتال فى بعض بلدان إفريقيا كالأجولا وموزامبيق والكونغو وغير هذه البلدان. المترجم .

(بعض المصادر تقول سنة ١٥٩١م) وقد مضت شهور قبل أن تصل مراكش أى أخبار عن هذا الجيش الجرار وعندما جاءت الأخبار كانت غالباً غير مباشرة حيث كان راكب جمل من منطقة (عاراوان) بعد مسيرة عدة أيام من تومبوكتو تقدم لدى بلاط الشريف شاكياً أنه فى ذات يوم كان يرعى حيواناته فى سلام إذ بجيش (جادار) يأتى من بين المرتفعات ليستولى على بعض أغنامه، وهكذا بينت شكوى هذا الراعى أن القوات قد عبرت الصحراء وربما يكون (جادار) القائد أراد بتلك الوسيلة أن يبعث الأخبار إلى مراكش، وطبقاً لرواية (محمود قاتى) فى كتابه طريق الفتح أن ربع تلك القوة التى تتكون من أربعة آلاف رجل لم تتمكن من الوصول لمواجهة السنغاي، ولعل المعين لتلك القوة كان أساساً ماء الشرب، ويذكر ليو أفريكانو قصة عن تلك الصحراء فيقول: كان فى صحراء (أزاود) يوجد نصبان من الرخام واحد لتاجر من الأغنياء جداً والثانى لتاجر آخر متوسط الحال، وكان الأول على شفا الموت من العطش وعندما التقيا باع الثانى للأول كوباً من الماء بمبلغ عشرة آلاف دوكات، وليس لديه إلا ذلك الكوب من ماء الشرب، ولكن الاثنان بهذه المبادلة الباطلة ماتا من العطش فلا الكوب سد عطش الأول ولا بقى للثانى، وعندما سمع إسحاق فى سنغاي بمقدم جيش الصحراء أرسل عدداً من الناس إلى المناطق الواقعة فى طريق الجيش بأوامر سد الآبار لكن أولئك الرسل قبض عليهم التوارق وهؤلاء وقعوا فيما بعد فى أيدي المحاربين التابعين (لجودار)، بينما كانوا فى طريقهم إلى (جاو) وأمر إسحاق رجاله المقاتلين أن يتجمعوا لمواجهة قوات (جادار) لكن الناس فى البلدة رأوا أنه لا أحد يمكن أن يعمل أى شيء فى الوقت الضيق إلا البدو غير النظاميين الموجودين فى الشمال، وهكذا ففى وقت متأخر تجمعت قوات سنغاي وحدث أول صدام مع الجيش الزاحف فى منطقة (تونديبى) على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلاً من (جاو)، وكان (قاتى) قد قدر قوات سنغاي بثمانية عشر ألف فارس وتسعة آلاف وسبعمائة من المشاة وكانوا مصحوبين بعدد من المسلمين (أطباء ومخططين)، ويضيف (كاتى) قائلاً: إن الأحياء من المراكشين كانوا جميعاً من الفرسان نصفهم أوريون

والنصف الآخر مغاربة، وبدأ الزنوج هجومهم بأن دفعوا قطعاً من البقر على العدو، لكن المغاربة أفسحوا الطريق لذلك القطيع بحيث يتجه نحو قوات (جودار) ثم فتحوا النار من الجانبين وبذلك تفرقت القوة المدافعة ما عدا رجال الحرس الملكى وهم يسمون (رماة الأقواس الانتحاريون)، وقد ربطوا سيقانهم على أفخاذهم بحيث لا يهربون فى حالة الخوف وصاروا يرمون العدو بأقواسهم ونبالهم إلى أن تم اقتحامهم والتنكيل بهم، وهكذا استولى المغاربة على كميات من الذهب فى ميدان المعركة، ولكن عندما دخل (جودار) ورجاله مدينة (قاو) نفسها صدموا بمنظر قذارتها فى حين هرب منها السكان حاملين معهم كل ما يملكون ولم يبق لا ذهب ولا أى شيء آخر، وعند هذا الحد انتهت رغبة (أسكيا إسحاق) فى المقاومة بحيث تقدم بطلب السلام للباشا الشاب الإسباني قائد الحملة مؤكداً على ولاء التحالف مع شريف فاس، وإنه بذلك يسمح للمغاربة بحرية استيراد الملح إلى سنغاي إضافة إلى أنه سيدفع جزية تبلغ مائة ألف مثقال أى (اثنى عشر ألفاً وخمسمائة أوقية من الذهب) مع مائة من العبيد الأرقاء، وبذلك لا بد أنه أراد تحاشي الاحتلال العسكرى الذى قد يؤدى إلى حق مغربى فى استعمار دائم، وكان (جودار) راغباً فى قبول العرض بالرغم من أنه صدم بما شاهد من سوء فى حالة البلاد لكنه ليس مخولاً صلاحيات أكثر، وبالتالي كان عليه أن يوفد مبعوثين إلى شريف فاس طلباً للتعليمات، وذكر فى رسالته إلى شريف فاس ضعف حالة الجيش وحالة حكومة تلك البلاد حتى إن أربعمائة من رجاله ماتوا خلال الأسبوعين الأولين فيها، وإنه بناء على نصيحة إسحاق انتقل إلى تومبوكتو وهى الأنسب صحياً، وعلى مسافة تسعة وعشرين يوماً من السفر وتقع على جانب النهر، واستلم رد شريف فاس الذى كان غير مقتنع بما ذكر (جودار) وقال: إن على قائده أن يبقى مفرزة من الجيش فى (قاو) وعليه أن يأخذ رهائن معه من أهل (قاو) وأعلن السلطان أخبار الانتصارات العظيمة فى (توندينى) هذه الانتصارات التى تأتى بالثروات الكبيرة، ويذكر (بوفيل) إنه لم تصدر تعليمات عن إرسال قوات أخرى، وإنما إرسال جنرال آخر يكون أكثر وحشية ورأى المنصور أن يعطى شعبه

وزواره في البلاد انطباعاً عن ذلك الانتصار بحيث يظهر أنه شامل وقدم للسفير العثماني يداً مقطوعة مدعياً أنها يد إسحاق، وقبل ذلك كان التجار البربر أقل تحمساً من الشريف ورغبة في احتلال حقول الذهب السودانية إذ كانوا في العموم مقتنعين بالطريقة التقليدية في نظام التبادل خوفاً من أن يرفض الزنوج عمليات ترسيب مياه الأحواض^(١) إذا ما حدث الظلم في سنغاي بسبب الاحتلال، وكذلك كانوا على علم بأن حقول الذهب أبعد جنوباً من (قاو) على الرغم من أنهم لا يعرفون تحديداً أين موقعها، وبالتالي فإنهم يشكّون ما إذا كان باستطاعة الجيش المغربي أن يصل إليها، أما خليفة (جودار) فقد كان خصياً أوريبياً يدعى (محمود بن زقون) ربما يكون إسبانياً أو برتغالياً وهذا كان قائد كل المرتدين في مملكة المنصور، وعلى الرغم من أن رياح الصحراء كانت عاتية وكان الوقت من أسوأ الأوقات لعبور الصحراء فقد أمر بالسفر فوراً مع أربعين أوريبياً آخرين على أن يكون السير ليلاً حيث يكون الطقس بارداً فقط، وهكذا وصلت مجموعته بسلام إلى تومبوكتو في أقصر وقت أي خلال سبعة أسابيع، وهناك أمر محمود بقطع كل الأشجار ونزع أبواب الخشب من كل البيوت التي يوجد بها هذا الترف البرجوازي وبتلك الأخشاب صنع قارين وأبقى وحدة عسكرية صغيرة في تومبوكتو، ثم غادر في اتجاه أسفل النيجر ليدمر جيش سنغاي في منطقة البومبا وحاول أن ينصف بعض الأفراد والرتب الذين عزلهم إسحاق من جيشه والذين قتلهم المرابطون (ربما التوارق)، وفي هذا الوقت هرب آلاف من السنغاي إلى المغاربة بينما استسلم (أسكيا الجديد) لكن المشاكل الإقليمية بقيت؛ إذ كانت هناك مجاعة حتى إن المغاربة أكلوا إبلهم وأحصنتهم، ثم طلبوا من المهزوم (إسكيا الجديد) أن يبعث لهم ما أمكن من الطعام وبرغم أن سنغاي كانت تعاني أيضاً ألا أن (أسكيا الجديد) كان سعيداً بأن يظهر نوعاً من الإخلاص والطاعة فأرسل بعض الأغذية وبعد

(١) هذه العملية رأيناها مستعملة في بعض بلدان آسيا في هذا الوقت، أي خلال نهاية القرن العشرين، وتسمى فعلاً (الترسيب) أي أن يجمع الواحد كمية في مياه النهر في شيء مثل الغريال يصير يحركه حتى تسقط المياه ويبقى الحصى الذي ربما يشتمل على بعض الذهب. المترجم.

ذاك طلب منه المجئ إلى معسكر المغاربة ليؤدى يمين الولاء للمنصور لكنه عندما جاء ومعه رجال بلاطه غدر بهم وقتلوا جميعاً، ومن ثم قام محمود بتعيين (أسكيا عميل) فى تومبوكتو إلا أن هذا الخير لم يجد إلا القليل من الطاعة بين السكان، وقام فى هذا الوقت السنغاي غير المهزومين فى الجنوب بتعيين (أسكيا) آخر من بينهم على أن هذا استبدل سريعاً بزعيم أكثر قدرة وقوة يسمى (أسكيا نوح) وهو الذى شكل جيشاً سيربك المغاربة لمدة سنوات أربع أخرى تقريباً على الرغم من أن المغاربة يتمثل تميزهم فى الاعتماد على قوة النيران، بينما يتميز السنغاي بعدد المقاتلين، ولذلك عرف نوح كيف يتحاشى الالتحام المباشر وفعل ما نسميه نحن الآن بتكتيك حرب العصابات، ولهذا انسحب إلى (بورقو) وهى أرض غابات ومستنقعات ساحباً خلفه المغاربة إلى ذلك الفخ الطبيعى الذى يجد فيه مساعدة الأهالى المحليين، وبذلك جعل الجنود البيض يغرقون فى المنطقة الحارة والغريبة ومياه النهر الملوثة، وهكذا سرعان ما سقطت حيواناتهم بسبب لسعات ذبابة (تسى تسى) القاتلة، وهنا أرسل محمود خبراً إلى شريف فاس يعلنه أن الاحتلال الدائم مستحيل، وعلى هذا الأساس أدرك المنصور أن (جادار) القائد السابق كان على صواب فى تقديره للمشكلة، ومن أجل أن يساعد محمود فى عملية الانسحاب والتفاوض مع السنغاي أرسل إليه ألفاً وخمسمائة فارس ومثلهم من الجنود المشاة وخمسمائة حصان احتياطي، وبعد ذلك أرسل أيضاً أربعمائة فارس فى حملة صحراوية بطريق مختلف ومع الوقت الذى وصلت فيه حملة الإمدادات تلك خلال سنة ١٥٩٤م تمكن محمود بذكاء من الانسحاب عبر النيجر إلى تومبوكتو تاركاً مفرزة عسكرية صغيرة فى (قاو) ومن الملاحظ أن المغاربة فى حملتهم بغرب السودان لم يتمكنوا من استخدام تلك المميزات التى يوفرها لهم سلاحهم النارى كما أنهم فشلوا فى تسخير المنافسات القبلية غير المحدودة لصالحهم، بل إنهم على العكس جعلوا كل مجموعة من الناس ضدهم بسبب تعنتهم وخياناتهم، وتاريخياً فإن حملتهم كانت سبباً فى الفوضى بكل المنطقة حيث صارت هجومات التوارق أقوى وأكثر والحروب من كل الأنواع كانت سمة كل يوم، فبينما

كان محمود عند النهر كان التوارق قد هاجموا تومبوكتو ولحبت تلك المفرزة المغربية الصغيرة فقط عندما وصلتها قوة إمداد تتكون من ثلاثمائة رجل أرسلت على عجل من النيجر، وكانت تلك القوة المسعفة بقيادة الضابط الوحيد في الجيش المغربي الذي سجل لنفسه موقفاً شجاعاً وهو أوربي اسمه (قائد مامي بن مارون)، وعلى الرغم من أنه تسلم أوامر بذبح الناس الذين في المدينة أى أولئك الذين تأمروا ضد المغاربة، إلا أنه أظهر نوعاً من الاعتدال، بل قتل بيده عسكرياً مغريباً كان قد سلب أحد الزنوج، ولقد اعتذر هذا الضابط لمفتى المدينة الطاعن في السن واسمه (أبو حفص عمر) عن تجاوزات المفرزة المغربية، وبذلك تمكن من استعادة الأمن والطمأنينة حيث قام السكان بقسم الولاء لشريف فاس، كما عاد الهاربون من الصحراء، وأعيد فتح طرق التجارة وصارت الحياة في المدينة عادية، وسارع الدارسون والتجار بالعودة من (جيني) إلى المدينة معتمدين على موقف (مامي الشريف)، ليعلموا خضوعهم ويدفعوا الجزية ومقدارها ستون ألف مثقال، وكان مامي يمارس الشدة عندما يقتضى الحال ذلك، وقد وقف ضد أولئك الذين يخلقون المشاكل (التوارق) ليقتل كل رجل يجده يقوم ببيع النساء والأطفال في سوق الرقيق، مما أغنى سوق الرقيق، لكن توارق صنهاجة انتقموا حيث نكلوا بوحدة الحراسة المغربية، أما قائد ميامي محمود بعد عودته من الجنوب فقد استخدم جنوده إضافة إلى قوة مساندة تتكون من ألفين من الرجال جاءوا من المغرب منتقمين من السنهاجيين، وبعد ذلك وضع خطة ذكية لنهب مدينة تومبوكتو فأرسل منادياً عبر الشوارع يقول: إنه في يوم الغد سيكون هناك تفتيش من بيت إلى بيت عن الأسلحة، وأكد المنادى أن أتباع الولي (سيدى محمود) القاضى السابق لن تفتش بيوتهم، ولذلك سعى الأغنياء لوضع أموالهم وأسلحتهم في بيوت أولئك المحظوظين الأتباع؛ لأنهم يعلمون أن المغاربة سوف يستولون على كل شيء يجدونه في البيوت الأخرى عند التفتيش، وبعد ذلك النداء جمع الناس في مسجد (سانكورى) من أجل أن يؤدوا قسم الولاء للمنصور ثم يسرحون، وتم استدعاء الرجل الولي وقفلت أبواب المسجد عليهم جميعاً وتولى الجنود أمر تلك البيوت التى

جمع فيها مال الأغنياء ونهبوها بعد أن فتشت من السقف إلى الأرض، كما قتل بعض أولئك الذين حبسوا في المسجد، ومن ذلك النهب جمع مائة ألف مثقال أرسلت لشريف فاس، بينما تقاسم القائد وأتباعه المبالغ والأشياء الباقية وحتى إنه قبل النهب قام أولئك المواطنون المساكين في تومبوكتو بإرسال وفد عن طريق أبو حفص عمر إلى مراكش سنة ١٥٩٢م يرجون من شريف فاس المعاملة الحسنة، وعند ذلك أظهر المنصور تأله وأسفه على وضعهم الصعب ووعدهم بالإصلاح، حيث أرسل مع الوفد حراساً من المقاتلين تحت قيادة (أبو اختيار) وهذا ابن أحد الأمراء المسيحيين غير المعروفين، وقد كلف بمعاملة المواطنين في تومبوكتو معاملة حسنة وإنسانية، وعندما وصلت تلك القافلة (تاغازا) علمت بأنها خدعت حيث إن مبعوثاً صحراوياً سبقهم بأوامر مختلفة، وكان أبو حفص عمر الذي أرسل الوفد عن طريقه وبقية العلماء قد ربطوا في سلاسل وبعد عدة شهور ورغم وهنهم في السجن أمروا بالسفر عن طريق الصحراء إلى مراكش وكان بين أولئك الذين وصلوا أحياء بعد تلك الكارثة أبو حفص عمر الطاعن في السن ومعه المؤرخ المحلي (أحمد بابا) وعندما اعتقل أبو حفص وبقية العلماء كان القائد الأوربي الذي كلف بمساعدة محمود ويدعى (أحمد بن الحداد) قد تسلل عبر الصحراء ليلبغ شريف فاس عن المعاملة التي يلاقيها الناس في تومبوكتو، وفي هذه المرة كان شريف فاس قد تأثر حقيقة بما يقوم به مندوبه هناك، ولذلك عندما وصل أبو حفص عمر والعلماء الآخرون إلى بلاطه تأكد منهم أن الأموال التي سلبها محمود بعث منها للبلال فقط مائة ألف مثقال أي من كل ما نهب من تومبوكتو، وهذا الشيء الذي أغضبه كما لم يغضبه شيء آخر من قبل، ولهذا أمر قائد أوربي آخر ويدعى منصور بن عبدالرحمن أن يسافر إلى تومبوكتو ويتولى القيادة من محمود على أن يضع جنرال الصحراء ذاك في مخزن إلى أن يموت^(١) وفي هذه

(١) يلاحظ أن كل هؤلاء القادة الأوربيين يسميهم المؤلف خونة ومرتدين، والحقيقة أنهم مرتزقة، وإن حملوا أسماء إسلامية، ولقد شهدنا جماعات المرتزقة الأوربيين يبيعون جهودهم وقدراتهم القتالية حتى خلال القرن العشرين، وأذكر أنه خلال حرب الكونغو كانت قد افتتحت مكاتب في لندن لتسجيل المرتزقة، وإرسالهم للقتال هناك، وكذلك الحال في حرب يافرا وليبيريا إلخ . المترجم .

الأثناء كان محمود مازال يدير الحرب الصعبة ضد نوح وقد أنشأ وحدة رقابة عسكرية مغربية على النهر من (جيني) إلى (قاو) حيث تتولى مفرزة قيادة (قودار) الصحراوية المسئولية، أما فى الميدان فقد استلم محمود تحذيراً ودياً أرسله ابن شريف فاس المدعو (مولاي أبوفارس) يتعلق بالمصير الذى ينتظره، وهكذا وعلى الفور باشر هجوماً على قوات نوح حيث مات فى الميدان على أن نوحاً نفسه قتل فى مواجهة مع الباشا الجديد منصور بعد ذاك مباشرة، واتضح للقائد الجديد أن الوضع فى غاية السوء ذلك أن المغاربة يسيطرون على النهر ولكن ليس على بقية المنطقة؛ إذ لم يقيموا إدارة ولا أسسوا نظاماً ولا وجدوا حقول الذهب؛ لأنهم كانوا دائماً فى حالة حرب وفى (قاو) كان المقاتل (جودار) غير راغب فى تسليم القيادة للقادم الجديد من مراکش، وفى هذا الوقت مات منصور ويعتقد أن (جودار) دس له سما، وتم تعيين قائد جديد أرسل من مراکش لكن (جودار) دس له هو الآخر السم فمات، ولم يبق من يمكن أن يتحدى سلطة القائد الإسباني المخصى (جودار) غير القائد مصطفى محافظ تومبوكتو الفاسد العاجز، ولم يكن من (جودار) إلا أن يخنقه بيديه ليموت على الفور، وعند هذا الحد أدرك المنصور فى مراکش أنه إذا كان هناك من يقود جيشه فلا بد أن يكون (جودار) نفسه، وخوفاً من أن يقوم جنرال الصحراء ذاك بإعلان نفسه حاكماً مستقلاً فى سنغاي عمل شريف فاس على إشعار (جودار) بأنه القائد المفضل لديه، وبالتالي طلب منه أن يعود إلى مراکش من أجل أن يقمع الانتفاضة المحلية، لكن (جودار) رد قائلاً: إنه لا يمكنه أن يعود إلى مراکش قبل أن يعين محافظاً قديراً ليحل محله وعلى ذلك قام شريف فاس بإرسال اثنين من المدنيين أحدهما برتغالى، إلا أن (جودار) قال: إن قبيلة (ماندينقوس) فى مالى تعد للهجوم، وأن المدنيين لن يكونوا قادرين على الدفاع ضد تلك القبيلة ولهذا قرر شريف فاس إرسال عمر باشا الذى كان سابقاً قد قاد القوات المساندة إلى السودان، وقام هذا المخصى البرتغالى عمر باشا بتقسيم الألف رجل من مقاتليه إلى قسمين أحدهما وصل بينما هلك القسم الثانى فى الصحراء ووافق (جودار) على تسليم القيادة لعمر باشا وعن عودة هذا الجنرال البطل الصحراوى كتب التاجر الإنجليزى الذى يعيش فى مراکش

ويدعى (جاسبير توماس) بتاريخ ٤ يوليو ١٥٩٩م رسالة إلى أحد أصدقائه في لندن يصف فيها عودة هذا البطل قائلاً:

منذ ستة أيام ماضية وصل إلى هنا رجل نبيل من (قار) يدعى (جودار باشا) الذى كان قد أرسل من طرف هذا الملك منذ عشر سنوات ماضية ليحتل البلاد المذكورة حيث فقد الكثير من رجال هذا البلد أرواحهم ولقد أحضر معه ثلاثين جملًا محملاً بالتبر، وهذا التبر إنما هو الذهب الذى لم يصف بعد وكذلك كمية كبيرة من النحاس ومن قرون وحيد القرن وكمية أخرى من الخشب للصباغة تمثل حمولة مائة وعشرين جملًا وهذه جميعها قدمها للملك مع خمسين حصانًا، وكذلك عدد كبير من الأقزام ورجال ونساء أرقاء بجانب خمس عشرة فتاة عذراء وكانت ابنة ملك (قاو) واحدة منهن وهى التى ستكون سرية الملك، وعليك أن تلاحظ أن كل هؤلاء النسوة ذوات شعور سوداء كالفحم، ولقد قدر كاتب الرسالة تلك ثمن حمولة الثلاثين جملًا بمبلغ ستمائة ألف جنيه إسترليني أى حوالى ثمانية ملايين دولار بالعملة الحالية، وعندما غادر (جودار) توقع أن تحدث ثورة (المانديقوس) على إثر سفره، وفعلاً حدثت انتفاضات قبلية صغيرة قمعها عمر باشا ببعض الصعوبة لكن هذا استبدل على الفور بسليمان باشا الذى صار جنرالاً جيداً ورجلاً كفئاً يتمتع بفكر إدارى ممتاز، وقد نقل مفرزة الجيش التى كانت فى تومبوكتو تثير المشاكل إلى خارج المدينة ونظم الجيش وبدأ عهد جديد فى عملية احتلال سنغاي بموت المنصور سنة ١٦٠٣م، وبموته حدث الصراع بين أبنائه الثلاثة على خلافته وكان كل منهم يشغل منصباً قوياً، وقد استولى أصغرهم على مراکش وهو المدعو (زيدان)، ولذلك سيطر على أخويه الكبيرين المنافسين له فى حين أن القائد سليمان كان قد استدعى على إثر موت المنصور الكبير وكان السودان قد تأثر بانتفاضات نسبية تقع بين وقت وآخر يقوم بها التوارق والفلولانى والسنغاي، وحالما عزز مولاى زيدان أخيراً موقفه فى البلاد أعاد عمر باشا إلى الصحراء لإقرار النظام فى تلك المناطق، وبعودة عمر وتوفر النية والقدرة على إرساء قواعد الاحتلال ولكن بعد ثماني وعشرين سنة من الموت والخراب أمر المغاربة من طرف الشريف الشاب بالانسحاب، إلا أن الجيش فى النيجر صار له قانونه الخاص ابتداء من سنة ١٦١٢م وما بعدها، حيث انتخب الباشا

الخاص به الذى يقوده ويذكر (مونتيسيل) أنه كان هناك مائتا باشا بين سنوات (١٦١٢-١٧٥٠م)، وصار هذا الجيش يرقى ويخفض رتب ضباطه، وبرغم قرار الشريف الجديد بشأن سنغاي فإن تومبوكتو بقيت مدينة مغربية، وكانت عملياً تحت حكم (أسكيا) الذى عينه الجيش وهو الذى رفض أن يعود إلى الوطن على الإطلاق، وكانت تلك المفزة العسكرية الصغيرة تسيطر على (قاو وجينى وبامبا) وبذلك وعلى ضوء تلك الأحداث صار المغاربة فى النيجر مستقلين، وإن كانت صلاة الجمعة مازال يدعى فيها للشريف، وعندما مات المنصور قرر مغاربة النيجر على الفور الاعتراف بزيدان، وفى سنة ١٦٦٠م فإن باشا تومبوكتو أو (أسكيا) محمد الشيتوكى رفض أن يستمر دعاء الجمعة باسم الشريف، وأمر أن يدعى له شخصياً، وبعد مرور عقود ضعف الوضع فى تومبوكتو بحيث أمكن أن يحدث الاختلاط فى مدن سنغاي ولم يبق السكان مغاربة خلص، ولذلك فإن قبضتهم على تومبوكتو ضعفت وأمكن للوثنيين من بامبارا أن يسيطروا وحدث فى هذا الوقت أن انتهى عهد السعديين فى مراكش وتولى الحسنيون أو ما عرف ببنى فلال الذين ووجهوا بمقاومة من جانب أولئك الذين يؤيدون البيت الحاكم السابق، وقام واحد منهم بتكوين جيش من الزنوج فى تومبوكتو من أجل تدعيم مطلبه بحيث حصل على اتفاق مع الشريف الجديد، ومن ثم صار قائداً لجيشه مستخدماً عناصر التمرد كحرس ملكى، وكان هؤلاء النخبة من الجنود السود مخلصين جداً ولا يهتمون بالأمور السياسية، وسرعان ما أصبحوا جنوداً طيعين لأى شريف يتولى ولذلك طلب من المراكشيين السود المنحدرين من أصل الأسرى فى حملة السودان أو حتى الأرقاء أن يلتحقوا بالجيش كذلك تقرر تربية أطفال الزنوج منذ الولادة بحيث يكبرون جنوداً محترفين، وحدثت حملات على السودان للقبض على الزنوج أو حتى شرائهم لتقوية الجيش، وبحلول القرن الثامن عشر وطبقاً لرواية (مونتيل) كان هناك مائة وخمسون ألفاً من الزنوج فى مراكش، وفى هذه الأثناء كان الجيش الأبيض فى النيجر قد اختفى مع مرور السنوات بالاندماج فى شعوب البامبارا والسنغاي، وإن كان المرء يلاحظ فى شوارع جينى وتومبوكتو بين طبقة التجار بقايا طبيعية وراثية فى أشكال الناس مما يؤكد أن الرواد الأوائل فى تلك الغزوة الكبرى لغرب السودان كانوا

فى الغالب جنوداً أوروبين، وعلى الرغم من الكارثة التى واجهتها تلك الحملة إلا أنها أتت بمال وفير للبلاط السلطانى، ولقد ذكر (لاورينس مادوك) وهو تاجر إنجليزى آخر مقيم فى مراكش قائلاً: إنه رأى ثلاثين بغلاً محملاً بالذهب من الصحراء مما يقدر بثمن أكثر من مليونين من الدولارات بالسعر الحديث، وكانت الجزية السنوية التى تأتى من تومبوكتو تقارب هذا التقدير على أن جزية (قاو) أكثر من تومبوكتو وبرغم انتهاء الاحتلال كانت التجارة إلى مراكش تزيد على ما قيمته ثلاثة ملايين من الذهب غير المنقى فإن المملكة الشريفة يمكنها أن توفر الكثير من الترف، ويذكر القبطان (جون سميت) وهو من ولاية فيرجينيا فى ملاحظات رحلاته ما يلى:

إن كثيرين من الفنيين الإنجليز يعملون فى مراكش مثل صناع الساعات والسمكرة وبعض الصناعات الدقيقة الأخرى، ويحصلون على مرتبات جيدة أى مبلغ سبعة دولارات فى اليوم الواحد مع الأكل المجانى، وكذلك اللباس المجانى وهو عادة إما من الصوف أو الحرير أو القطن والإعفاء من الضرائب، ويذكر بعض المؤرخين أن صناع الساعات ربما كانوا كذلك يعملون فى صيانة المعدات البحرية والإرشادية التابعة للشريف والتى تستخدم فى الصحراء، والحروب كما يرى التجار تضر بأعمالهم بدلاً من أن تساعدهم (كما كانوا يتوقعون) ذلك أن مصادر الذهب السودانية التى تحدث من أجلها الحروب لم تكتشف أبداً ولكن رغبة البلاط الملكى فى الاحتلال لم تتلاش أو حتى تؤجل، وكان لمراكش حليف واحد هو (إنجلترا) التى تزوده بالأسلحة وبذلك ارتفع تقدير إنجلترا فى عهد الملكة (إليزبت) لدى شريف فاس وذلك عندما هزمت عدوه القديم (فيليب ملك إسبانيا) سنة ١٦٠٠م، وكان الملك المغربى قد أرسل وفداً ليقابل الملكة إليزبت فى (نونستيشن بارك) من أجل أن يعرض عليها القيام بحرب مشتركة ضد الملك الإسباني هذه الحرب التى يمكن بعدها أن يتقاسم المغرب وإنجلترا الإمبراطورية الإسبانية فى العالمين القديم والجديد، والملكة إليزبت التى كانت تحتاج من المغرب ملح البارود لم تقل بشكل مباشر (لا) على أنها موّهت الأمر إلى أن مات المنصور بعد ثلاث سنوات من ذلك العرض، وحتى وقت

قريب في العالم المتقدم نسبياً لم يجدوا المكان الذي يأتيهم منه الذهب ويظهر أنه مما لا يصدق أن يمر ألف سنة دون أن يكشف هذا السر المعضلة، ولقد ذكر الإدريسي^(١) بدقة اسم المصادر عندما قال: إنه (وانقارا) ولكن أين هذه (الونقارا) فالاسم الذي يماثل كلمة الهاوسا في (الماندينكو) يعنى أحداً ما أو مكاناً ما يستولى عليه ملك، والكلمة كما هي تستعمل بواسطة الزنوج أنفسهم وتعنى ترسيب الماء في أحواض (أشانتى ولوبى وبامبوك وبورى)، وبرأى الإدريسي يمكن أن تكون الأخيرة (بورى) حيث مازال التعامل بطريقة الدق على الطبول مستعملاً خلال القرن الثامن عشر الميلادى، ولقد كانت إفريقيا دائماً أرض الهجرات العظيمة وكانت (وانقارا) الغنية بالتأكيد هي (أشانتى) وقد شهد القرن السابع عشر الكثير من الأنشطة الأوربية على ساحل غينيا وهي صغيرة ولكنها مملكة غنية متطورة وربما يمكن أن توصف إفريقيا قبل مجيء الأوربيين بأنها مجهولة أى الأجزاء التى لم يرها الأوربيون باستثناء أولئك المسيحيين المستعبدين أو الضباط المخصيين المرتدين فى الجيش المراكشى (أوربيون أيضاً) وكان هناك عصر من التدين عبر أغلب المناطق العليا والتى تعرف باسم غرب السودان، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت قبائل الهاوسا وحدها التى لها مطالب حقيقية تهتم بها، فالهاوسا الحامية الأصل لغتها تتكون من العربية والتميازغية (لغة بربر الصحراء) وهى التى تكتب بالخط العربى، وهؤلاء بربر صاروا زنوجاً وهم يسيطرون على ما يعرف اليوم بنيجيريا الشمالية، وتقول الأسطورة: إن القبيلة بدأت تكون عندما جاء بطل بربرى يدعى (أبو يزيد) إلى ما يعرف الآن

(١) الإدريسي أبو عبدالله بن محمد (١١٠٠ - ١١٦٦م) يلقب بالشريف ولد فى سبتة لأسرة علوية تعلم فى قرطبة وساح فى أوروبا وآسيا ومناطق البحر الأبيض المتوسط، ثم استقر فى بلاط (روجر الثانى) فى بلرمة بصقلية، وهناك صنع كرة فلكية من الفضة وخريطة للعالم حفرت أيضاً على اسطوانة فضية، وفى بلرمة صنف كتابه المعنون: (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق سنة ١١٥٤م) وهو وصف للأرض اعتمد فيه على مشاهداته الشخصية، وكان كتابه ذاك من أهم الأعمال الجغرافية فى عصره، وفيه قسم العالم إلى عشرة أقسام (أقاليم)، ثم قسم كل منها إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق، ووضع لكل قسم منها خريطة، بالإضافة إلى الخريطة العامة، له كتاب آخر فى الصيدلة بعنوان: (الجامع لصفات أشات النباتات). المترجم.

(بالداورا من بورنو) خلال القرن التاسع أو العاشر الميلادى حيث قتل الثعبان وتزوج الملكة، وهذه أسطورة مشابهة لأسطورة الحكم الإثيوبى المعروفة جيداً بحيث لا يمكن تجاهلها، وكذلك تقول الأسطورة: إن بطل (سنغاي) المدعو (زا اليمين) وهو نظرياً من أبو يزيد جاء خلال القرن الرابع عشر بتسعة أشقاء وهم ذريته وقد أسسوا كل من (داورا - كانو - زازاو - جوبير - كاتسينا - بيرام - ورانو) وبلغت الهاوسا هي (بوكوى) أى الأخوات السبع، وما هو مؤكد وحقيقى أن الهاوسا قد وجدت بسبب غزو (الزغاوى) أو التوارق البربر فى المنطقة ذلك أن هؤلاء الغزاة قد أتوا ومعهم أشياء نادرة يقومون بها كحفر الآبار فى الصخر واستخدام الخيول، واليوم فإن ذرية (زغاوى) يسمون (هابى) ومنهم أول رئيس لوزراء نيجيريا ويدعى (السير أبوبكر تفاوى باليو) ويظهر أن عاصمتهم كانت (جوبير) ومن أجل ذلك فإن أشرافهم هم (الأمازيغ) ويذكر (بوفيل) أنه ربما من الدلالة أن (ساراكونا) وهى العائلة المالكة فى (جوبير) بها تحت العينين نفس علامة القبيلة التى وجدت تحت عيون بعض الفراعنة فى مصر القديمة، والمسلمون من (وانقارا ومالى) ومناطق أخرى فى الشمال قد حولوا الهاوسا إلى الإسلام ربما خلال القرن الرابع عشر الميلادى ويعرف الهاوسا الآن أنهم من أحسن التجار وصارت لغتهم فرنسية فى غرب السودان، كذلك هم مشهورون كحدادين وصباغين ودباغين وحياكين وبصورة عامة صناع، كذلك لم يشغلوا أنفسهم بالحروب على الرغم من أنه خلال القرن الخامس عشر اكتسبت الملكة (أمينة) صيتاً سيئاً فى ساحة القتال بسبب علاقاتها الرجالية حيث كانت تتنقل بين رجل وآخر آخذة عشيقاً كل ليلة من المكان الذى تتواجد به، ثم تأمر بشنقه فى الصباح، وكانت دويلات الهاوسا دائماً صغيرة نسبياً وكانوا يتقاتلون فيما بينهم ويحاربون أحياناً ضد (قاو) فى سنغاي وضد بورنو ومالى وكانت حكوماتهم بملوكها ووزرائها وقضاتها وبقية موظفيها جيدة بمقاييس السودان، وهناك أمة أخرى عظيمة فى المنطقة تلك هى (الفولانى) التى جاءت من (فوتاجالوه) خلال القرن الثالث عشر الميلادى وهؤلاء الفولانى ينقسمون إلى (كاتل فولانى بورورجى) و(فولانى جيداً) الأولى بدوية وثنية

زراعية وملاح أفراها بربرية ويهودية ومن هؤلاء صارت هذه القبيلة وحتى الآن فإنهم قلما يتزاجون مع قبائل الزنوج المجاورة، أما (الفولانى جيداً) فهم مسلمون ويتزاجون بكامل الحرية، ويذكر أن (كاتل فولانى) هى واحدة من قبائل إسرائيل المفقودة وربما هى فى الأصل غجرية وهم لا يلعبون أى دور فى السياسة ومازالوا متأخرين، أما الفولانى السود فى المدينة فهم أقوى قبيلة سياسية فى نيجيريا، وكان البطل الفولانى من الهاوسا (عثمان دان فوديو ديم) قد جاء من (قوبير) حيث ولد هناك سنة ١٧٥٤م وهو فى أرض الفولانى يدعى (عثمان فودى ديم) وديم هى اسم أسرة توكور، وهذا الأخير مسلم ملتزم وداعية مؤثر أصدر مائة كتاب تقريباً ومئات الكتابات الأخرى، وبذلك نال كراهية ملك (جوبير) المدعو (نافاتا) لأن عثمان كان ينتقده بسبب تشجيعه للوثنية فى المدينة، وهكذا أصدر الملك (نافاتا) قراراً ينص على أن من يسمح له بممارسة شعائر الإسلام لابد أن يكون قد ولد مسلماً فقط، ثم حرم ارتداء الحجاب والعمامة، وحدث أن هدوءاً غير يسير بين الملك والعالم استمر فقط إلى أن مات الملك وقد خلفه ابنه (يونفا) وهو تلميذ سابق لدى عثمان ومع ذلك قرر هذا التلميذ الوريث أن الزعيم المتدين (عثمان) يمثل خطراً كبيراً إذا بقى حياً، وهكذا جرت محاولة لقتله، ولكنها فشلت الشيء الذى أكسب الشيخ العالم شعبية أكبر ومن هنا تصرف (يانفا) بحزم حيث ذهب بنفسه إلى قرية الشيخ عثمان وأجبره على الهرب، وكانت هجرة عثمان أو هربه فى ٢١ فبراير ١٨٠٤م وهذا التاريخ مازالت تحتفل به قبيلة (الفولانى جيداً) باعتباره يوماً مقدساً، وفى (جودو) تمكن عثمان من جمع جيش المؤمنين الملتزمين الذين وافقوا عثمان على ترجمة القرآن من لغته المقدسة (العربية) إلى (الفولانى) وبعد أربعة أشهر فقط استطاعت هذه القوة التى جمعها عثمان أن تهزم (يانفا) وبالتالي أقسمت على الجهاد ضد الكفار، وبعد ذلك الانتصار أعلن الجيش أن عثمان (سيركين موسولى) أى عثمان قائد المؤمنين، وهذا اللقب مازال معمولاً به لدى السلطان (سوكوتو) وكان حاكم (كوتسينا وداورا) وكانو وآدار وزازاو) قد انزعج بما حدث (ليانفا) ولذلك قرر أن يحرض أتباع عثمان فى مملكتهم،

وبذلك ثار الفولانيون ضد سيطرة الهاوسا على الرغم من أن عدداً من الفولانيين قاتلوا بجانب النظام الوثني، فإن كثيرين من الهاوسا الزنوج حاربوا مع المسلمين الإصلاحيين، وقد عمل عثمان على منح كل واحد من أتباعه المخلصين علماً مزوداً ببيركاته أمراً إياهم بمحو الكفار من الأرض، وبعد ذلك أعطى هؤلاء المخلين إمارات كل من (كاتسينا - كانو - زاريا - بورنو - هاديجا - آدموا - كومبي - كاتاقوم - نوبي - داورا - بيساو - كازاوري) حيث يقيم ذريتهم اليوم، وفي كانو مازال جيش الهاوسا المكون من عشرة آلاف يظهر في أيام الاحتفالات بمعداتهم، وكانت دويلات الهاوسا قد وقعت تحت سيطرة الفولاني، ولم تبق تقاوم إلا بورنو وحدها وبمساعدة اللاجئين من الهاوسا جنود وقادة إضافة إلى مساعدة زعيم كانيمي القوى حال هؤلاء دون سيطرة الفلاني على بلاد البورنو غرب تشاد، وزعيم كانيمي اسمه الحقيقي (محمد الأمين) وكان مسلماً ملتزماً مثل عثمان، ولكنه كان يرتاب من انتشار قوة الفولاني، وكان أحد أتباع عثمان يدعى (أحمادو لابوسيكو) وهو رجل متدين جداً وخشوع قد أسس إمبراطورية خاصة به في غرب الهاوسا بادئاً من قرية تسمى (حمد الله) أي (الحلالية بالعربية الفولانية) وتقع بالقرب من (موبتي) حيث هزم البامبارا في ماسينا وهزم الأرماء في جيني باسطاً السيطرة على مناطق من فولتا السوداء إلى تومبوكتو وهكذا بارك عثمان تابعه ذاك وقد حصل على الاسم الشرفي (سيسي) ثم سمي نفسه أمير المؤمنين^(١) ولقد أقام نظاماً دينياً خالصاً يتكون من قبائل (جادو وباسيدي وسانقاري) وطبقة من الزنوج الأرقاء استمرت إلى أن مات سنة ١٨٤٥م حيث تحول اللقب الإمبراطوري إلى الحاج عمر سنة ١٨٦٢م، وفي سنة ١٨١٠م وصل تقدم الفولاني أبعد نقطة برغم أنها ليست من كل مطامحهم، وكان التقدم

(١) هذا ليس غريباً على الحكام في إفريقيا؛ إذ يسمون أنفسهم بهكذا اسم (أمير المؤمنين) دون أن يكون فعلاً الحاكم من المؤمنين، فلقد شاهدت خلال الربع الأخير من القرن العشرين حاكماً إفريقياً، سمي نفسه بهذا الاسم (أمير المؤمنين)، وصار اسمه الكامل (أمير المؤمنين المشير محمد جعفر نميري رئيس جمهورية السودان الديمقراطية) وما كان بالفعل مؤمناً، ولا كانت جمهوريته ديمقراطية، ولا حتى شرعية!! المترجم.

المأمول قد أوقف بسبب غابات الجنوب والقوة العسكرية التى تتمتع بها القبائل الوثنية مثل (يوروبا) وشعب الجبال فى الشرق، ولقد وصل الفولانى سوق (يولا) فى الغرب ودخلوا (بيرنين وكيبى) لكنهم عجزوا عن هزيمة كل (الكيباوين) وهنا أسس الفولانيون حكومة ضعيفة تعتمد قوانين الشريعة الإسلامية بحيث فرضوا الجزية على الإمارات المجاورة، وكان عثمان نفسه قد توقف عن النضال حالما وضع التاريخ حدود سيطرته، وقد كرس نفسه للدراسات الدينية بداية فى (سيفاوا)، ثم فى (سوكوتو) التى مات ودفن بها سنة ١٨١٧م، وبعد موت عثمان الذى كان يمثل الرمز الدينى للإمبراطورية صار الاهتمام بالحصول على الرقيق من خلال الحملات على قرى الهاوسا بدلاً من التبشير بدين الرسول (محمد) أما الإمبراطورية الأخرى التى دامت إلى عهد الاستعمار فهى إمبراطورية (موسى)، وكانت هناك فى الأساس خمس دول بين فولتا السوداء، وموقع الانحراف الكبير لنهر النيجر وهى (واقادوقو - ياتينقا - فادا - أنقورما - داقومبا) وحسب الروايات الشفوية، فإن هذه الدول ذات أصل مشترك، وخلال القرن الثالث عشر أو الرابع عشر فإن سكان منطقة بحيرة تشاد الذين يوصفون بتعبير (الرجل الأحمر) بسبب لونهم الفاتح وهم ربما من ذرية بربرية احتلوا (قور) والسكان الأصليين الذين يتكلمون لغة الباندى فى المنطقة وأسسوا نظام شبيه فى إدارته وأسلوبه بذلك المنسوب للهاوسا (بوكووى) ذلك لأنهم دجنوا الخيول واستخدموا العربات فى الحرب، وكانت العائلة المالكة تفضل تجار قبيلة (الماندى) فى تعاملاتها وعاملت أغلبية (القور) كعبيد أرقاء، ومع ذلك فإن لغة القور تغلبت على ما عداها وكذلك معتقدات القور فى حين جاء الإسلام متأخراً ولم يسد إلى زمن قريب، ومن الواضح أن أول دولة كانت (المابوسى) حيث إنه فى القرن الرابع عشر والخامس عشر انتشرت إمبراطوريتهم شمالاً وسيطرت على تومبوكتو سنة ١٣٣٨م .

وأعدت حملة أخرى خلال سنة ١٤٧٧م حيث وصلت (والاتا) ولكنها هناك دحرت بواسطة (سونى على)، وفى هذا الوقت كانت القوة التى تتمتع بها (أسكياس) فى الشمال تضم دولة (موسى)، وهى التى بالتالى توحدت مع (واقادوقو وفادا

وأنقورما وباتينقا) وبعد ذلك وحيث اقتضى الأمر التقدم جنوباً فقد أدى ذلك إلى تأسيس دولة (الداقومبا)، وهكذا فإن دويلات (موسى) صارت فى جمهورية (فولتا) ما عدا (داقومبا) التى يقع أغلبها فى غانا الحديثة، وعلى الرغم من ضغوط (السنغاي) من الشمال والأشانتى من الجنوب فإنها لم تفلح فى هدم دويلات (موسى داقومبا)، وعندما وصل الأوربيون خلال نهاية القرن التاسع عشر وجدوها سليمة ومازالت تدار مباشرة بواسطة أولئك المنحدرين من صلب مؤسسيها، والواقع أن الحدود قد تغيرت بينها على أن (موسى) و(موغويلنا) مازالا يمثلان عناصر هامة فى سياسة فولتا الوطنية، أما (كانيم) التى ساعدت الهاوسا فى الحرب ضد الفولانى فهى دولة أخرى قديمة وتشابه إلى حد ما فى مساحتها منطقة (بورنو) فى نيجيريا الحديثة وتمتد أرضها عبر بحيرة تشاد وتاريخها يعود إلى القرن الثامن ودامت إلى القرن الثالث عشر، وقد توسعت حدودها خلال عهد (دوناما ديباليمى - ١٢١٠ - ١٢٢٤) م، واستمر النظام الفووى من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر، أما المرباطون فقد تأثروا بثقافة البحر الأبيض المتوسط فى صنع الفخار وصب النحاس، ولديهم تمتعت المرأة بحقوقها فى الحكم، أما الشعب (الكانيمى) فقد زاول التجارة بإتقان وأظهر تقاليد وعادات فى الاستخفاف بالمعتقدات الدينية وهى باقية حتى يومنا هذا، ولذلك رفض هذا الشعب السلطة الروحية التى كان يمارسها سلطان (سوكوتو) وتسمى (ساركين موسوليمى) أى الإيمان الإسلامى، ويذكر (ليو أفريكانو) أنه وجد جمهرة (الكانيمى) مازال وثنية وذلك خلال سنة ١٥٢٦م وعندما وصل إلى كل من (دينهام وكلايرتون) كانيمى بعد ذلك بأربعة عقود وجد أن الملك مازال يخاطب الناس من وراء حجاب محاطاً بإجراءات أمنية بالغة، وفى سنة ١٨٧٠م كان المستكشف الألمانى (قوستاف فون ناختيغال) قد وجد أن السلطة سلبت بواسطة عبيد القصر والأرقاء، وذكر أن هناك واحدة من المدن الغربية المدمرة فى دارفور تقع فى وسط الصحراء تسمى مدينة (جبل أورى) ربما كانت عاصمة (كانيمى) خلال القرن الثالث عشر حيث إن هناك مباني من الحجر باقية بأسوارها التى ترتفع إلى مستوى اثنى عشر قدماً تقريباً، ويقول أحد

المؤرخين: حقيقة إن (كانيمى) كانت خلال القرون الوسطى مدينة للسودان الأوسط وهى بالضبط مثل مالى التى كانت مدينة لغرب السودان، وهما كانا المراكز التى شهدت تطور الحضارة السودانية كما نعرفها نحن الآن والتى كانت مختلفة تمامًا عن الحضارة الغربية وعن حضارة قبائل الزنوج فى الجنوب، ونجد مؤرخين يقولان فى هذا الشأن: إن الدولة التقليدية السودانية لم تكن إقطاعية على الرغم من أنها مؤسسة على النظام الوراثى وسلطة العائلات الكبيرة فى الحكم، ولذلك فهى بشكل ما قريبة جدًا من النظام البيروقراطى أى أنها بيروقراطية بدون ورق وحبر وأرفف وهواتف وفيها تدار الأعمال بواسطة موظفين تحت سلطة الملك، وهؤلاء يمكن أن ينقلوا من وظيفة إلى أخرى فى النظام الإدارى، وهم يرقّون أو يخفّضون أو يفصلون بقرارات من مسئوليتهم، وحول شخص الملك هناك حلقة من المسئولين الذين يشغلون وظائف كبيرة، وهى كذلك كثيرة بحسب الاحتياجات الاقتصادية للدولة، والإدارات الهامة غالبًا هى تلك التى تتبع الملكة الأم أى أخت الملكة، وللملك عدد من الزوجات، وعلى الإدارة هناك عدد قليل من المسئولين الكبار أى أربعة أو خمسة، ومن خلال هذا التسلسل يحدث نظام المناطق والمراكز، وفى الغالب يكون هؤلاء من الأحفاد والأصهار الذين يتربون فى البلاط الملكى، والعمل الأساسى لمثل هذه الإدارات يتركز على الارتفاع بمستوى التأييد للملك وخدمة السكان المقيمين فى عاصمته والأعمال المحلية، أما أمور التجارة الكبيرة مثل تجارة العاج والجلود والذهب والنحاس والملح، فهى للتصدير ومحتكرة للقصر، ويقيم الفنانون والصناع والاختصاصيون الآخرون فى العاصمة الملكية، وكلما توافرت فوائد التجارة الهامة للبلاد كان هناك كذلك فوائد لحكام المناطق، ولقد ذكر أحد المسئولين أنه كلما استدامت إمبراطورية طويلاً، كلما صارت إدارتها فاسدة وغير فاعلة، وكذلك صار حكامها يسعون إلى زيادة ثرواتهم وشهواتهم^(١) وبالتالى فإن حكام المناطق والناس المحكومين يحدث لديهم المزيد من

(١) لعله يمكن القول: إن هذا ينطبق تمامًا حتى الآن على حكام العالم الثالث فى وقتنا الحالى، وبشكل خاص فى وطننا العربى مع الأسف، وشكل أخص لدى البلاد البترولية . المترجم.

الحساس بالغبن والفرص للثورة أو على الأقل التعاون مع أى غاز جديد، إن الدولة السودانية قلما اندفعت أكثر إلى غابات الجنوب بحيث لا تكون خيولها تحت رحمة ذبابة (تسى تسى) القتالة وتكون فرص المدافعين ضدهم أكثر فاعلية، ومع هذا فإن تقاليد غرب إفريقيا مثل أساطير (آكان) فى ساحل العاج وغانا الحديثة، تلك الأساطير التى تقول: إن السكان فى هذه المناطق جاءوا من الشمال أو من الشرق وإلى درجة ما يرجع ذلك إلى الهجرات أو الغزوات، ولقد تطور الجنوب المدغل فى طريق مختلف، فإذا كانت نواحي مالى والنيجر تحمل ملامح من تأثير الصحراء والبحر الأبيض المتوسط فإن ساحل غرب إفريقيا يتأثر بالأطلسى الأوربي، وهنا يظهر التأثير مستمرًا وعلى ضوء المقاييس السودانية فهو مسالم جدًا، ولقد بدأ فى القرن الخامس عشر وكان بيع الرقيق فيما يسمى الآن (ساينت لويس السنغال) قد وصل لشبونة فى سنة ١٤٤٤م وبحلول سنة ١٤٧٥م وصل البرتغاليون خليج بيافرا وشواطئ نيجيريا الحديثة، وخلال نفس القرن وصل التجار البرتغاليون عن طريق البر مملكة بينين، وعندما عاد الأوربيون إلى بينين سنة ١٨٩٧م، وجدوا التأثير البرتغالى واضحًا وبقايا بما فى ذلك صلب أعداء الملك، وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت بينين مترادفة مع الرعب والبربرية أى أنها بلد الدماء، ولكن عندما وصل البرتغاليون فى السابق كانت فى أوج نهضتها مثلما يحدث مع الإمبراطوريات السودانية؛ إذ إن حركة النهوض والسقوط غالبًا ما تحدث على نفس المنوال فى إفريقيا كما فى أوربا وكما فى آسيا خلال الدورة الهمجية كحالة عصر التجديد الأوربي؛ إذ إنه فى أقرب وقت تكون جاهزة للبروز مع أول إشارة للفوضى، ولقد نسب بعض الكتاب المعاصرين عاطفيًا إرجاع الفترة اللاحقة من التاريخ والتى سبقت الاستعمار فى غرب إفريقيا إلى تجارة الرقيق وتبعًا لذلك فهم يضعون اللوم على القوى الخارجية، لكن القرينة تؤكد أن الثقافة السودانية والغينية النامية رزحت تحت ثقل الفساد والفوضى وعدم الأهلية وماتت كما هى قصة ذلك فى مصر وأثينا وروما ولشبونة، أما قصة تجارة الرقيق التى يقولون إنها نتيجة لقوى خارجية لا بد أن ترفض أيضًا على ضوء حقائق التاريخ إذ

كانت تجارة الرقيق أولاً وبعد كل شيء هى صناعة إفريقية كبرى، إن الثقافة الغينية فيها تماثل مع السودانية مما يظهر تأثير الشمال حيث النماذج البديعة منذ ألفى سنة وهذه فيها طابع من الحضارة الكوشية أو المصرية؛ لأنها تتضمن فكرة القدسية الملكية واستخدام رؤوس الكباش فى الزخارف الدينية، ولقد وجد عالم حديث متميز هو الدكتور (سابورى بيويكو) فى قبيلة (يوروبا) أترورى مصرى وتأثير يهودى^(١) وهناك الناس الذين يقيمون قرب الشاطئ يكونون نحاف الأجساد بسبب تأثير الغابة، ولذلك فإن اختيار (ليبيريا) كمكان للإقامة بواسطة جمعية المستوطنين الأمريكين، وكذلك اختيار منطقة (فرى تاون) بواسطة الجمعية الملكية البريطانية قد فرضته ظروف قلة السكان فى هذه المناطق الغابية المطيرة، حيث إن ذبابة (تسى تسى) قد قضت على البغال والخيول، ولم تكن هناك من وسيلة للنقل إلا على رؤوس الناس، وهكذا فقد أعاق هذا الحال أى تطور فى اتجاه الشاطئ الكبير بما فيه من أنهار عظيمة، أما النيجر فهو صالح لإبحار السفن؛ لأن أغلب امتداده البالغ ألفين وستمائة ميل والسفن التجارية يمكن أن تستخدم فيه لمسافات معقولة، وفى الفصل الرطب (الشتاء) فإن مياه السنغال صالحة لاستخدام السفن لما لا يقل عن خمسمائة وستين ميلاً إلى كينيا وقايا يمكن استخدام مياهها إلى مسافة تبلغ ثلاثمائة ميل، وهناك مميزات أخرى تتمثل فى الموانئ الطبيعية فى (لاجوس - فرى تاون - دوالا - باتورست - سانت لويس - بوث هاركوت - وداكار) وكان مجيء الأوربيين إلى الشواطئ الغرض منه توجيه التجارة السودانية وجهة بعيدة عن الصحراء وخصوصاً عندما جاءت فترة الاستعمار بالطرق ومواصلات الأنهار وخطوط السكك الحديدية وكان هذا وقتذاك فى كل اتجاه، ولكن مع مرور الوقت فإن هذا كله لم يجعل عبور الصحراء أكثر سهولة، حيث إنه خلال سنة ١٨٥٠م حدث أن طابوراً من ألف وخمسمائة جمل وألفين من الرجال هلكوا جميعاً وهم فى الطريق من (تاغازا) إلى تومبوكتو على أن الرغبة فى

(١) الأترورى: هو ذلك الذى يتنمى إلى مقاطعة أتروريا فى إيطاليا، ولست أعرف على وجه التحديد ما علاقة الأترورى بمصر، وكذلك قصة التأثير اليهودى، إلا إذا كان لغرض فى نفس يعقوب . المترجم.

الذهب الثمين والملح المطلوب يجعلان هذه الرحلات المثيرة ذات قيمة وفائدة، وبعد مدة طويلة من تلك الحادثة صارت قافلة تعرف باسم (آزالامى) أو (تاغالام) تنتقل من (اير فى بيلما) إلى عاصمة (كاوار) تنقل الملح من بلاد الهاوسا واستمرت فى ذلك إلى سنة ١٩٠٨ م، وتوقفت فى هذا الوقت، وقال (بوفيل): إن هذه القوافل تتكون من عشرين ألف جمل تجمع من القبائل فى متسع من الوقت وتجهز من أجل تلك الرحلات^(١) وكانت الرحلات فى الذهاب والعودة تستغرق ثلاثة أسابيع عادة، ولقد استمر استعمال الجمال فى النقل الصحراوى يقودها فى الغالب التوارق، والرحلة تبدأ فى شهر أكتوبر بقيادة المدعو (ساركين توراوا) من (أغاديس) وهو وزير السلطان (أمينو كال)، وفى الرحلة عادة ما يأخذون الذرة والأقمشة من الهاوسا فى مبادلة بالملح وكمية كبيرة من علف الحيوانات، ويظهر أنهم لا يأكلون لحم الجمال، وإنما يعيشون على أكل التمر الذى يحصلون عليه من (كاوار) التى يصلون إليها خلال خمسة أيام، وهناك تنضم إلى قافلة (آزالامى) قافلة أخرى قادمة من (داماقارام)، وتصل القافلتان (بيلما) بعد ثلاثة أيام ويعودون من نفس الطريق إلى (أغاديس)، ومن ثم وبعد استراحة لا تطول يقود (ساراكين تاوارا) وزير السلطان القافلة إلى (سوكوتو كانو) وأسواق الهاوسا الأخرى، ومنها تعود الجمال محملة إلى (اير) بالحبوب والأقمشة المصبوغة وهى مرغوبة جداً، وهكذا فهى ترسل من غدامس فى طريق طويل إلى فزان عبر صحراء ليبيا إلى (كانو) بحيث تصبغ وترسل مرة أخرى إلى طرابلس على البحر الأبيض المتوسط لتباع فى الأسواق ولذلك فإن صناعة الجلود فى الهاوسا مطلوبة، واليوم ماتزال ملابس (كانوا) تظهر فى أماكن بعيدة مثل موريتانيا، وتنقل أحياناً عبر البحر، وكذلك الأسماك والسكر والشاى من فرنسا ومواد التجارة الأخرى مثل الحرير من طرابلس الغرب، ومن فينسيا خرز الزجاج، ومن سوريا المرايا وإبر الخياطة، وعلى الرغم من أن اسطبلات الجمال لم تعد توجد فى الطريق، فإن القوافل ماتزال تنقل

(١) نرى أن هذه الأعداد من الجمال أمر مبالغ فيه، حيث إن المؤلف يذكر دائماً أعدادها بالآلاف، على الرغم من أنه يشير إلى مصادر الخبر غالباً، فليس من المعقول تسيير عشرين ألف جمل فى وقت واحد. المترجم .

المواد إلى أماكن بعيدة حتى منطقة (كانو) التى تقع على الخط الموازى الثانى عشر الذى يفصل بين سافانا الصحراء وحزام المنطقة الحارة فى إفريقيا الوسطى، وعلى الرغم من أن طريق (فزان كاوار) ينقل كميات كبيرة من الملح جنوباً من (بيلما) فهو كذلك طريق نقل الرقيق، ويقول (بوفيل): إن أى أوربى يسافر عبر الطريق الملطخ بالدماء يحس بالرعب من وجود آلاف الجماجم البشرية التى تملأ الطريق وهذه الجماجم هى غالباً لأولئك الشباب والشابات التى توجد بشكل خاص بالقرب من الآبار مبرزة كم كانت معاناة أولئك البشر التى أدت إلى الموت من الإعياء بحثاً عن شربة ماء، ولقد كان هناك إلحاح فى طلب الزوج المستعبدين عند ساحل شمال إفريقيا بعضهم للاستخدام المحلى وأغلبهم من أجل التصدير إلى مصر وتركيا وبلدان أخرى، وكان ثمن زوج الهاوسا أغلى وأكثر من غيرهم ذلك أن الذكور منهم يرتفع ثمنهم بسبب أنهم أذكىاء ولهم خبرة فى بعض الأعمال، أما الإناث فبسبب جمالهن المتمثل فى استقامة أجسادهن ورقة أطرافهن، وهكذا كان الطلب على الرقيق كبيراً، وكان العرب يستفيدون من الرحلات العابرة والجمال التى تحمل كل شيء آخر، ولجّد الباحث (دينهام) يقول: إن التجار الذين يأتون من منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى بورتو لا يقبلون ثمناً لبضائعهم غير الزوج المستعبدين، وتلك يسميها (بوفيل) العملة الرئيسية فى بورتو، ويستمر (بوفيل) قائلاً: من أجل مصالحهم فإن تجار الرقيق لابد أن يتأكدوا من أن عبيدهم فى حالة صحية جيدة قبل أن يعبروا بهم الصحراء، وأن الذكور الشباب الأقوياء عادة ما توضع فى أرجلهم سلاسل حديد تكون موصولة برقابهم، أما النساء والبنات عادة ما يتركن بلا قيود، وغالباً لا يصل من هؤلاء غير الأصحاء خلال تلك الرحلة الطويلة إلى فزان وهناك يجعلونهم يستريحون ويقدمون لهم غذاء جيداً، ثم ينقلونهم إلى أسواق البيع حيث يحصل التاجر على فوائد تصل إلى خمسمائة فى المائة، وكان هناك شيء مهم فى عمليات النقل هذه وهو أن الطلب على الزنجرى المخصى الذى يستعمل فى حراسة وخدمة الحريم أكثر من غيره، وكان من المعتاد فى السودان أن يخصص الزنجرى القوى سواء أكان طفلاً أو شاباً خلال

حملات صيد الزنوج، وفي بعض القبائل وتحديدًا قبيلة (موسى) التي يعاقب فيها المجرم بالخصى بحيث يكون بيعه بعدذاك مفيدًا، وفي حالات الخصى هذه يحدث أن يعيش فقط ما لا يزيد على العشرة في المائة من الضحايا بسبب المعاملة الهمجية التي يواجهاونها، ويقول (بوفيل) نقلًا عن مصدر في (كانو) إنه خلال سنة ١٩١٩م حدث في عملية خصى مائة من الزنوج أن عاش منهم عشرة فقط، أما (بارث) فيعطي نسبة أقل في هكذا حالة ويقول: إن الذين يعيشون أقل من العشرة في المائة، كما يذكر أن قبيلة (موسى) لديها خبرة أكثر من القبائل الأخرى في إجراء هذه العمليات، ومن أجل أن يبقوا طريقة عملياتهم تلك سرية يقول (بوفيل): إنهم ومعهم (البورنيون) لهم شهرة عالمية في هذه التجارة الخارجية وزبائنهم من تركيا ومصر وبلدان أخرى ذلك أن الطلب على الخصيان رغبة محلية وخارجية؛ إذ إن الأسعار عالية، وأن عملية الخصى تتم في إفريقيا وفي الشرق الأوسط وكذلك في أوروبا وتحديدًا في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وقد استمر ذلك إلى آخر القرن التاسع عشر، وتجارة الرقيق ككل كانت تمثل نشاطًا مربحًا في الداخل والخارج وكثير من القبائل الكبيرة كانت تقوم بهجمات على الأضعف منها للقبض على الزنوج وبيعهم، ويقول (بوفيل) عن تلك الحملات: إن المهاجمين يحيطون بالقرية فجأة خلال الليل ويقبضون على كل من يريدون قبل طلوع الفجر وغالبًا يأخذون الشباب والشابات، أما كبار السن والضعفاء من الجنسين فإنهم يذبحونهم، وقد شاهد (بارث) في بورنو كما يقول (بوفيل): إن مائة وسبعين رجلًا تركوا ينزفون حتى الموت، وحدث أنه بعد تلك الهجمات والعمليات البشعة أن قام الإصلاحيون الأوروبيون بالمساعدة غير المباشرة، وذلك بأن خربوا طرق قوافل الإبل في الصحراء، ليس فقط من أجل إنهاء تلك التجارة الإفريقية المربحة، وإنما أيضًا تخريب زراعة الواحات التي تعتمد عليها قوافل الإبل لأكلها، وهكذا عمل كان من أجل إنهاء العبودية، ولقد أدى تخريب زراعة الواحات إلى موت قوافل الإبل، تلك القوافل التي كانت مستمرة ومعروفة لعدة قرون على أن ذلك في الواقع كان له عدة عيوب، فقد كتب أحد المؤرخين يقول: إن الاحتياج للملح أجبر الناس الذين في

الصحراء على أن يفترضوا بعضهم البعض في فوضى، حتى إن البدو في تاريخهم الطويل والمضطرب لم يعرفوا ذلك من قبل فقد اشتعلت الصحراء كما حدث أثناء قيام الرومان بمنع الصحراويين من استغلال أراضي مواشيهم المعتادة، وإن كانت الأحداث هذه المرة بشكل أوسع، أن الاعتداء على الزراعة الدائمة في المناطق الهامشية وصل نسبة لا يمكن أن يحتملها أحد، ذلك أن واحات الصحراء استمرت تنقلص والآبار تنضب والأحواض تجف، وبسبب التخريب البشرى صارت الصحراء أجذب من أى وقت مضى، كذلك فإن الروابط التى كانت تشد البربر لقرون عديدة فى غرب السودان انقطعت إلى الأبد، ولقد حدث أنه قبل القضاء على تجارة الرقيق كان الاهتمام العالمى بتجارة إفريقيا قد اضمحل وربما كان ذلك جيداً؛ لأنه حدث قبل مدة ليست بعيدة سبقت العهد الاستعماري، وكانت رحلة الصحراء باعتمادها على الواحات تتجه مباشرة إلى (والاتا) لإحضار ما تحتاجه الرحلة من المياه وتستغرق أربعة أيام، ومع ذلك فهي معرضة للضياع، وبحلول القرن السادس عشر لم تعد رحلة إفريقيا تستحق تلك المخاطر، وكان المدعو (دريك بيليكا) فى سنة ١٥٨٠م قد استثمر خمسة آلاف جنيه فحصل على عائد قدره مليون ونصف المليون، ولهذا السبب قال عن الرحلة: إنها ذهبية فى الدنيا الجديدة التى تم اكتشافها، وهكذا صارت التجارة الأوربية تتجه إلى آسيا وخصوصاً تلك الأمريكية فلا الرقيق ولا زيت النخيل ولا الراند^(١) أو الوجود الاستعماري أعاد تجارة إفريقيا إلى الواجهة مقارنة بأهمية التجارة العالمية، ولكن بمساحتها وثرواتها .. إفريقيا السوداء لا يمكن أبدا إهمالها .



(١) الراند: وحدة نقدية مستعمل فى إفريقيا الجنوبية ، والراند: يساوى مائة سنت . المترجم .

الفصل الخامس

عصر التجارة والاستكشاف سفينة وشاطئ

الفصل الخامس

عصر التجارة والاستكشاف سفينة وشاطئ

التجارة والحرب جمعت البحر الأبيض المتوسط وبربر البحر والمستأجرين والبعثات المسيحية (الإفرنج) معاً في كل جيش مسلم (مرتدين وخونة، أحراراً أو مستعبدين)^(١) في أغلب السفن الأوربية التي تزور الموانئ العربية والإفريقية بانتظام تحمل الأسلحة والملابس والحلى والمعدات والمنتجات الأخرى للبيع وتشتري الرقيق والمخصيين والذهب والأبنوس والعاج وريش النعام، على أن الأوربيين نادراً ما اخترقوا الدواخل والاستثناء الوحيد كان مدينة مراكش التي استقر بها خمسة من الرهبان المبشرين الفرنسيين خلال سنة ١٢١٩م، وبعد فترة قام البابا جريجورى التاسع بجعلها أسقفية استمرت إلى سنة ١٦٣٦م، ومع ذلك فإن المسيحيين كان محرمًا عليهم الإقامة في مكان آخر، على أنه كانت توجد في بعض الأماكن البربرية مجموعات صغيرة من اليهود، وكان هذا التسامح مفيداً عند نهاية القرن الرابع عشر حيث كانت هناك مجموعة يهودية في جزيرة (مايوركا بإسبانيا) يصنعون بعض المعدات خدمة للملاحين، وكانت الخرائط الإفريقية تصنع بناء على معلومات من رجال الدين وملاحظات البحارة، وقد عمل هؤلاء نماذج مهمة على الرغم من أنها ليست دقيقة بقياس الوقت الحالى، ولكنها بينت ساحل غرب إفريقيا وأجزاء من الدواخل، والأكثر أهمية من تلك الخرائط ورد في أطلس (كاتالان) لإبراهيم كريستوفر على عهد شارل الخامس، وكانت التجارة الخارجية في أوروبا قد تطورت كثيراً؛ إذ إن الحروب أنضبت

(١) هكذا اعتاد الكاتب أن يصف هؤلاء المرتزقة الذين استأجرتهم بعض الجيوش العربية أو الإسلامية، وسبقت الإشارة إلى هذا فيما تقدم، ولقد عرف العالم جيوش المرتزقة الأوربيين الذين تم استئجارهم في حرب أو حروب إفريقيا خلال القرن العشرين . المترجم.

الاحتياطي الوطني من الذهب، ولذلك فقد أصبح من الضروري الحصول على هذه المادة بشكل عاجل، وكانت منتجات التجارة الأوربية كبيرة بحيث لا يمكن نقلها إلى الشرق من أجل التبادل مع بضائع أخرى، كذلك كان من الواضح للتجار إذا ما أرادوا المبادلة بالذهب في الأسواق الإفريقية القريبة، فإنهم لابد أن يحصلوا على هذه المادة الثمينة باعتبارها الأصلح للتجارة الشرقية التي صارت متاحة على الرغم من أن خرائط مايوركا لم تكن مفيدة، وهي كذلك ليست دقيقة حتى إن الاعتماد عليها بالكامل يمثل بعض الخطر بدلاً من أن تكون مفيدة للرحالة الرواد وتشجعهم على السير في طرق الصحراء والوصول إلى مناطق الذهب في إفريقيا السوداء، ولكن الخوف من تلك الرحلات حل جزئياً بوصول (أنسيلمي دي أسلاقوير) سنة ١٤١٣م إلى مرسيليا وهو الذي كان قد غادر منذ إحدى عشرة سنة ولم يسمع عنه شيء منذئذ، وتوقع المؤرخون أن يكون قد انضم إلى قافلة الفورماندى (جين دي بيثينكورت) التي غادرت سنة ١٤٠٢م لاحتلال جزر الكاناري، وقد أقام أسلاقوير عدة سنوات في (قاو)، حيث أشار صاحب كتاب (طريق الفتح) إلى وجود مسيحي رقيق في (قاو) خلال تلك الفترة وقال: إن هذا المسيحي الرقيق قد اكتسب حظوة لدى البلاط الملكي حتى إنه تزوج أميرة من سنغاي تدعى (كسايس)، وكان أسلاقوير وزوجته الأميرة الغنية بما لديها من الذهب والجواهر وابتتهما وثلاث من الخادومات من سنغاي وثلاثة من المخصيين قد وصلوا طولوس بحيث أحدث مجيئهم كثيراً من اللغط حول ثروتهم، وهكذا فإن تجربة (انسلاقوير) شجعت أحد الرجال ليشد الرحال إلى دواخل إفريقيا، وكان ذلك هو الثرى الشجاع الجينوى (أنطونيو مالفانتى) الذى اخترق الصحراء وحصل على معلومات مفيدة عن الطريق، لكنه لم يكتشف الذهب، وقيل: إن آخرين تبعوا طريقه وحققوا بعض النجاح فى التجارة وعلم أن مثل بيت مال (بورتينارى) ويدعى (بينديتو داي) قد وصل تومبوكتو فى وقت متأخر من سنة ١٤٧٠م، ووفق فى بيع منتجات أقمشة (لومبارد)، ثم عاد بعد ذلك إلى (فلورينسا) لكن مذكراته اختفت، وإذا كان هناك ما يمكن أن يقال عنه: إنه فتح طريق إفريقيا للعالم الخارجى أكثر من أى

شخص آخر فهو الأمير (هنرى الملاح)، وهو بطل وطنى برتغالى، اشتهر عندما استولى على (سبته) وهى الآن إسبانية فى مراكش، وكان ذلك خلال سنة ١٤١٥م وكان عمره واحداً وعشرين عاماً، وتبعاً لذلك منح منصب (الحاكم الملكى) لتلك المدينة وكانت هذه التجربة الإفريقية قد دعمت التطلعات لاستكشاف تلك القارة المجهولة، بحيث يتم احتكار الذهب فيها وتغيير معتقد الوثنيين هناك، وفى هذا الوقت كانت الرحلات البحرية تحمل من الأساطير ما يرعب إنسان العصور الوسطى مثلما تحمل الصحراء من خوف؛ إذ إنه وراء رأس (بوجادور) تقول الأسطورة: إن هناك ضباباً لا يمكن اختراقه، وأن ذلك الضباب مسكون بالشياطين الذين يدفعون السفن إلى بحيرات تغلى بنار سائلة، لكن الأمير هنرى الملاح أصر على أن كل ذلك غير حقيقى، مما شجع ودفع الملاح (جيل أنيسى) لأن يغامر من أجل ذلك وبالتالي إثبات حقه السيادة وعاد إلى لشبونة سنة ١٤٣٤م بغصن عسلوج من المكان الذى يعرف الآن باسم (السنغال)، وكان يرغب بحمله وردة غصن العسلوج الميته أن يثبت أنه ذهب إلى ما وراء الصحراء، ووصل الساحل حيث الأرض الخضراء فى الجنوب، وأن الشياطين لم يكونوا هناك، وبعد هذا الحدث أبحرت سفن أغلبها من النوع الكبير ذات حمولة خمسين طنّاً (وهذا يساوى مائة طن بحسب التقديرات الحديثة)، ولقد جعلت الرغبة فى فتح حدود جديدة الدماء تجرى سريعة فى عروق مئات الشباب البرتغالى فى هذا العصر، وحدث أن العديد من المتطوعين للإبحار إلى إفريقيا استعدوا فى أسرع وقت البعض منهم التحقوا بسفن القراصنة، وكان هدف الأمير هنرى الملاح الأساسى يتمثل فى تحويل الأفارقة إلى اعتناق الدين المسيحى، وهم وثنيون على الرغم من أن ذلك لم يكن بذات الأهمية كما هى التجارة، وإنما جعله الأمير لتحقيق هدف سياسى مستخدماً إياه من أجل ضمان موافقة البابا على أن يكون أى بلد يكتشفه فى المناطق من (بوجادور إلى الهند) برتغالياً، وهكذا فقد كانت أول الاكتشافات هى تلك التى عرفت فى عصر (قرطاج) وكان مدخل السنغال فى (ساينت لويس) الحديثة قد أشار إليه (هيرودوتس) على أنه الفرع الغربى من النيل، وفى رحلة الأمير هنرى الملاح حدث أن

أول بلد شاهده كان أغلب سكانه من السود، وتطلق عليه تسمية بربرية أى (أكال ايقويناو) ومعناها أرض العبيد وتعير (ايقويناو) تعنى العبيد، وهكذا سمو المنطقة باسم غينيا والاسم الحديث ينطق (غينيا) وبعد ذلك كلف الأمير هنرى الملاح الفينيسى المدعو (ألفيس دا موستو) ليستكشف نهر غايا الذى يعتقد أنه يؤدى إلى أرض الذهب فى (وانقارا) وصعد (دا موستو) مع النهر لكنه فشل فى الوصول إلى المناجم وبعدئذ حصل البرتغاليون على إذن من (سونى على) من أجل إرسال بعثة بطريق البر من منطقة رأس (أرقوين) أى موريتانيا الحالية إلى تومبوكتو وحدث أن رجلاً واحداً من تلك الرحلة الرهيبة بقى حياً خلال مسيرة الذهاب والعودة، واتضح أن الرحلة غير مفيدة تجارياً، ومع نهاية القرن الخامس عشر أقامت البرتغال عدداً من المحطات التجارية على طول الساحل بين غامبيا وخليج بينين الصغير لكنها أيضاً فشلت فى أن تتقدم إلى الدواخل حيث كانت الغابات والمستنقعات والقبائل المعادية تقفل الطريق، وفى سنة ١٤٨١م وقبل أن يصل كولومبس^(١) كوبا بإحدى عشرة سنة أقام البرتغاليون قلعة (جورقى دا مينا) على ساحل الذهب وهى ماتزال قائمة وتستخدم كمركز للبوليس الآن خارج قريه تسمى (المينا) أى (غانا الحديثة) وهى صرح غير عادى كمكان للإدارة البرتغالية فى إفريقيا، وذلك لأهميتها فى ذلك التاريخ المبكر

(١) كريستوفر كولومبس (١٤٥١ - ١٥٠٦) مكتشف أمريكا ولد فى جنوة بإيطاليا وانتقل إلى لشبونة، حيث تزوج من ابنة فلاح برتغالى، التقى ببعض الملاحين الذين كانوا يعتقدون فى وجود جزر بأقصى الغرب، كان أخوه الصغير المدعو بارثيلميو خبيراً بصناعة الخرائط فى لشبونة الذى اشترك فى رحلة إلى رأس الرجاء الصالح ويظن البعض أن تأثيره على أخيه الأكبر كان عظيماً كما كان أيضاً تأثير مارتى بنزون، وهو الذى قاد فيما بعد سفينة بيتا فى رحلة كولومبس الأولى، وقصة فشل كولومبس فى الحصول على مساعدة ملك البرتغال (جون الثانى) والثمانى سنوات التى قضها فى التوسل إلى البلاط الإسبانى لتقديم العون له قصة معروفة، وعندما أجيب إلى طلبه رحل من ثغر (بالوس) فى إسبانيا على رأس ثلاث سفن (سانتا ماريا وبيتات ونبتا)، وقد رسا فى جزيرة (سان سالفادور) فى أكتوبر ١٤٩٢م، وقد استقبل فى إسبانيا بعد عودته استقبالا حماسياً، وفى رحلته الثالثة سنة ١٤٩٨م اكتشف مصب نهر (الأورينكو) بفنزويلا، وأسفر حكمه لمستعمرة (هايتى) عن عودته إلى إسبانيا مصفداً فى الأغلال، قاد حملة رابعة سنة ١٥٠٢م لاستعادة مركزه فوصل إلى ساحل (هندوراس)، ولكن مشقة الرحلة أرغمته على العودة، ومات مغموراً . المترجم .

لتجارة ساحل الذهب، وحدث فى ذلك الوقت أن أعطى البابا الإذن للملك البرتغالى (جائون الثانى) بحيث يطلق على نفسه لقب (أمير غينيا) هذا اللقب الذى لم يمت إلا بعد ظهور الجمهورية فى هذا البلد، وبالتالي فإن استعمال كلمة غينيا فى المنطقة صارت عامة خلال نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وكانت العملة الإنجليزية التى تحمل هذا الاسم قد خرجت فى سنة ١٦٦٢م، وأطلق عليها هذا الاسم فقط؛ لأنها صنعت من ذهب غرب إفريقيا الخالص النقى، وكانت تساوى خمسة فى المائة أكثر من العملات الرسمية المصنوعة من مواد أخرى، ومع نهاية القرن الخامس عشر كانت معلومات البرتغاليين عن الساحل جيدة، ولكن الدواخل بقيت مجهولة، ويمكن القول: كم كانت ستستمر على ذلك الحال لو أن إفريقيا لم يطأ أرضها المغامرون، وكما حدث بداية فإن اكتشاف أمريكا جعل الاهتمام بإفريقيا يعود إلى الوراء .

وفى النهاية حدث أن اكتشاف أمريكا أعاد سير التجارة الأساسية مع إفريقيا أى تجارة الرقيق الإفريقى، حيث إن البرتغاليين وهم أول قوة احتلال فى إفريقيا صاروا يرسلون عشرات الآلاف من العبيد الأرقاء إلى البرازيل بعد مائة سنة من رحلة كولومبس، وهذا التنظيم استمر من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٦٨٠م، وفى العموم، فإن حوالى مليون إفريقى أغلبهم من أنجولا عبروا جنوب الأطلنطى إلى (باهيا) خلال القرن السابع عشر الميلادى، وكانت هناك قصة ربما تكون باطلة، ولكن من المحتمل أنها صادقة تقول: إن قسيسا من (لواندا) أقنع الفاتيكان بأن يفوض البلاط الملكى البرتغالى بحيث يضع مسئولاً على جانب ميناء لواندا ليبارك جموع العبيد الأرقاء الذين يمرون أمامه فى الطريق إلى السفن والسياط تحرق أجسادهم، كما أن الميناء البريطانى العظيم فى (ليفربول) قد تم بناؤه من فوائد بيع الرقيق، هذه الفوائد التى بلغت القمة خلال القرن الثامن عشر الميلادى، ذلك أنه فى أثناء عقد واحد (١٧٨٣-١٧٩٣) نقلت سفن ليفربول ثلاثمائة ألف عبد رقيق فى المتوسط، وهذا ربما وفر فائدة أكثر من ثلاثة ملايين دولار فى السنة، أما البرتغال فقد كانت أول قوة رئيسية أوروبية شريكا لإفريقيا فى تجارة الرقيق ونقله من خلال الطريق البرى فى بينين،

وهذا الآن جزء من نيجيريا الحديثة، وفي أواخر القرن الخامس عشر حيث كانت أمريكا قد اكتشفت حديثاً وكانت التجارة الإفريقية ماتزال موجهة لاحتياجات البرتغال المحلية، فقد رحبت مملكة بينين بقرار تعيين وكيل ملكي مقيم من لشبونة وهو المدعو (دوارتي بيريز)، وكذلك قبلت بإرسال بعثات من بينين والموانئ المجاورة من شباب العائلات المهمة إلى لشبونة للدراسة بحيث يعودون متعلمين وكاثوليك، وحدث أنه عندما وصل الكابتن (ريتشارد وايندهام) بينين سنة ١٥٥٤م وقام بشراء ثمانين طنًا من الفلفل، وجد أن العديد من الناس يتكلمون اللغة البرتغالية، كذلك خلال القرن الخامس عشر استكشف ملاحون إسبان وبرتغال ساحل غرب إفريقيا، حيث وصلوا إلى عمق الجنوب عند مصب نهر الكونغو وما بعده، ومع النمو الذي انفتح بواسطة تجارة السفن، فإن ساحل مملكة إفريقيا الأطلنطية الذي مازال مختلفاً فقد أهميته مع دول (السافانا) الغنية والتي كانت لعدة قرون تمارس التجارة مع عالم البحر الأبيض المتوسط عبر طرق الصحراء، وكان العنصر الجاذب في تجارة إفريقيا غير الاحتياج الدائم والكبير للذهب، وقبل تطور تجارة أمريكا الناهضة تلك المرتبطة بالنقل التقليدي للتوابل مع آسيا تجارة إفريقيا عبر الطرق الأرضية بواسطة وكلاء متخصصين في بعض المواد مثل: الحرير والأحجار الكريمة والسكر والعاج وبعض التوابل، ولذلك عملت البرتغال وإسبانيا وبريطانيا وفرنسا على تخطيط احتكار تجارة التوابل التي كانت تقوم بها فينيسيا وجينوا وتريستي وهي حكومات المدن البحرية العظيمة، حيث كانت تبادل تلك التجارة بالخشب والحديد والرقيق المسيحي (الأبيض)، وأحياناً الذهب والفضة، مبكراً قبل ذلك حاربت الحملات الصليبية من أجل أن تجعل طريق تجارة التوابل إلى الشرق أكثر انفتاحاً كما بحثت الممالك الغربية عن أرخص وأقرب طرق تجارة التوابل، وكان كذلك ساحل غينيا مكان جذب ممتاز للقراصنة الجنوبيين وهؤلاء حددوا حجم تجارتهم بأنفسهم ذلك أنه خلال سنة ١٢٦٠م كانوا قد أرسلوا بعثة إلى جزر الكاناري، وفي سنة ١٢٩١م كانت بعض سفن جينوا تطوف بحر إفريقيا، ولكن تلك القافلة لم ترجع أبداً، على أن بعض

المصادر خلال السنوات القريبة تذكر أن قوافلهم وصلت شرق إفريقيا، وإذا ضعفت قوة جينوا فإن ملاحيتها بما في ذلك كولومبس الذي أبحر إلى إسبانيا صاروا يعرضون خدماتهم على القوى الخارجية الثرية ، وكان الأمير البرتغالي هنري الملاح أحد أهم مستخدم لهم ومنذ قرنين قبل أن تضعف إسبانيا بالاحتلال العربي لجزيرة (إيبيريا) بحيث لا تبقى إلا إمارة (جرينادا) متيحة الفرصة للممالك المسيحية في (كاستايل) و(أراقون) والبرتغال، وهذه الممالك قررت ثلاثة أشياء :

- ١ - احتكار تجارة غرب إفريقيا وتجاوز الاعتماد على طرق التجارة مع الشرق .
- ٢ - إيجاد معبر إلى المحيط الهندي وشراء تلك المنتجات التي مازال الاحتياج إليها قائماً .

٣ - جعل معتنقى المسيحية حلفاء ضد التهديد الدائم من جانب الإمبريالية الإسلامية^(١) ولقد كان الأمير هنري الملاح إلى درجة ما موفقا في كل تلك الأهداف ذلك أنه في سنة ١٤٤٨م كانت البرتغال قد تمكنت من إنشاء موقع في (دار قوين) حيث الصيد البحري ممتاز كما هو الآن ومنذ هذا الوقت صارت الاستكشافات البرتغالية في هذا الساحل منظمة، وعندما مات الأمير هنري الفلاح سنة ١٤٦٠م كانت السنغال ونهر (روكيل) صالحة للإبحار وأول مجموعة من العبيد وصلت لشبونة من أجل تعليمهم وتحويلهم إلى الدين المسيحي، وفي سنة ١٤٦٩م منح البلاط البرتغالي حق احتكار تجارة غينيا لمدة خمس سنوات للمدعو (فيرنانود قوميس) بشرط أن يتعمق سير سفنه أربعمائة ميل سنوياً في اتجاه جنوب الأطلنطي، ومع اتفاق تمديد سنة لذلك الاحتكار يعطى (قوميس) فرصة إلى سنة ١٤٩٥م، بحيث يمكنه أن يؤسس

(١) من المؤكد أن أحداث التاريخ تتكرر في زمن مختلف وأماكن مختلفة، ومطامع الناس وعدوانهم لا ينتهي، فهذا السيد بوش الابن رئيس أمريكا ينادى بنفس ما نادى به، وعملته تلك الممالك المسيحية منذ أكثر من ثمانية قرون، وإذا كان بوش الآن يصف الإسلام بالإرهاب فأولئك وصفوه بالإمبريالية، وهذا شيء مردود ذلك أن الإسلام لم يكن إمبريالياً في ذلك الزمان، ولا هو إرهابي الآن، ولن يكون في وقت من الأوقات عبر كل مراحل التاريخ . المترجم.

قاعدة (فيرناندو) ويكتشف (المينا) التي تعطي فرصة جانبية لمراقبة تجار الذهب المسلمين، وعند هذا الحد استأنف البرتغاليون السيطرة على تجارة الساحل، وفي سنة ١٤٨٢م تم الوصول إلى الكونغو وبعد ست سنوات من هذا التاريخ تمكن (برتولوميو دياس) من الدوران على الرأس بحيث دخل المحيط الهندي وهذه خطوة تماثل أول طيران لرائد فضاء في العصر الحالي من حيث الأهمية التاريخية، وفي سنة ١٤٩٧م دار أيضاً (فاسكو دا جاما)^(١) حول الرأس واستمر ليزور الهند وفي هذا الوقت كانت تجارة غرب إفريقيا فيما عدا تجارة الذهب قد انخفضت ذلك أن غرب إفريقيا من حيث الموارد لا تقارن بالهند، ولا يمكنها أن تنافس أمريكا، وكانت مشاكل غرب إفريقيا التي عرفت في هذا الوقت جميعها من نفس النوع، وأن سكانها غير قادرين على توفير العاج وغيره بالكميات التي يتفقون عليها مع التجار في الوقت المناسب، ولذلك فإن تجارة فلفل غرب إفريقيا كانت أقل نجاحاً في السوق الأوربي قياساً بالفلفل الهندي، وفي هذا الوقت وصلت شحنة من الرقيق الإفريقي إلى أوروبا الغربية، ولكنها أعيدت إلى المصدرين الأفارقة لقلة الطلب عليها، وكانت البلدان الأوربية وتركيا التي ينقل إليها الرقيق قد وجدت مصدراً آخر، ولهذا بقي الذهب وحده الذي يستحق تلك الرحلات المثيرة والمتعبة إلى غرب إفريقيا، وفي تلك المرحلة المبكرة، ومن أجل تخزين الذهب وحماية التجار والملاحين، ومنع التهريب أقيمت قلعة (المينا) سنة ١٤٨١م وعين بها حاكم ملكي ووحدة حراسة عسكرية، على أن تجارة المنافسة قد ازدادت رغم قرار البابا الصادر بالتتالي في سنوات (١٤٥١ - ١٤٥٥) بتحريم استكشافات غينيا والتجارة مع البرتغال، وحسب معاهدة سنة ١٤٩٤م قسمت المناطق وأعطيت إفريقيا وآسيا للبرتغال، ولكن تلك البلدان الأقل قوة بحرية آنئذ مثل بريطانيا وفرنسا والدنمارك استمرت فضولياً تتسلل بواسطة ربابنة سفن صغيرة إلى غرب إفريقيا خلال القرن التالي أي (السادس عشر)، وكان

(٢) فاسكو دا جاما (١٤٦٠ - ١٥٢٤) ملاح برتغالي أول أوربي يصل إلى الهند بالبحر (١٤٩٧ - ١٤٩٩)، وبذلك جعلت رحلته حول إفريقيا ثروة الهند في متناول أوروبا، وساعدت على نمو ثروة البرتغال وإمبراطوريتها، وفي رحلة فاسكو الثانية دعم قوة البرتغال في مياه الهند، وساحل إفريقيا بالوسائل العنيفة - المترجم .

هناك ثلاث شخصيات معروفة الأسماء من إنجلترا وهم (جين أنقو ووليام وجون هاوكيز) هؤلاء الرجال كانوا يمثلون عصاة بحرية مسلحة تعمل في هذا الحقل، أما الجهود البريطانية والفرنسية فقد كرسّت لا لتجارة غرب إفريقيا، وإنما لسلب السفن الإسبانية في منطقة الكاريبي، وكان الاهتمام الأوربي مركزاً أساساً على غينيا العليا أي من سيراليون الحديثة إلى موريتانيا، وكان أقل بالنسبة لساحل الحنطة أي (ليبيريا الحديثة وساحل العاج) بسبب وجود المخاطر وعدم وجود موانئ صالحة أو أماكن رسو طبيعية، وفي الشرق كان ما يعرف بساحل الذهب وتسمى في هذا الوقت باسم ساحل الرقيق أي (داهومي)، وهذا اجتذب إلى حد ما بعض الاهتمام، وكان البرتغاليون هم القوة المسيطرة لأكثر من قرن على هذا الساحل كما على قلعة (المينا) وهناك أنشأوا بعض محطات تجارية صغيرة محصنة ومحطات مراقبة في جزيرة الرأس الأخضر، والبرتغاليون الذين جاءوا إلى إفريقيا (أفروا أنفسهم) بدلاً من أن يحولوا الأفارقة إلى دينهم وعاداتهم، وعلى الرغم من منع الاحتكار الذي وضع على التجارة بواسطة أمر البابا فإن البرتغاليين صاروا يعملون كوكلاء لمصالح غير برتغالية وبهذه الطريقة أو غيرها عبروا الشواطئ مبتعدين عن البلد الأم بحيث يكونون مستقلين عن مراقبة لشبونة، ونتيجة لهذا ولأسباب أخرى فشلت خطط ومشاريع طموحة لتطوير إفريقيا، ولكن كانت هناك فرص جمع بعض الأموال من المنطقة، وما لبث ساحل الذهب حتى تحول إلى مركز تجاري ناجح في كل المنطقة الساحلية، وبحلول القرن السادس عشر فإن قلاع (المينا وشاما وأكسيم) كانت تورد عشر الذهب العالمي وكان الذهب (الدقيق) يشتري تبادلاً بالقماش الملون والخرز والقذور والحلي، وحدث أن البرتغاليين قد منعوا من المتاجرة مباشرة مع الدواخل في منطقة ساحل الذهب، على أن اختراقهم لبينين في دواخل نيجيريا سنة ١٤٨٣ م ساعدهم عليه عنصران حيث كان الوصول إلى هناك بالسفن ووجود فائض من الرقيق في بينين يتمثل في سجناء احتلالهم للدلتا النيجر، وكان المشترون الأساسيون هم (الفانتى) في ساحل الذهب، وفي سنة ١٤٨٦ م أسس البرتغاليون قلاعهم الخاصة في (قواتو) قرب بينين، وفي سنة ١٤٩٣ م أقاموا مستعمرة على (فيرناندو بو) وهذه ولاية إسبانية الآن وبدأوا واحدة أخرى في (ساوتومي) وزرعوا حقول السكر على هذه الجزر وعلى

الجزيرة الأطلنطية الصغيرة المجاورة المسماة (برينسيب)، وهذه ماتزال برتغالية، وكذا (النوبون) وهي إسبانية الآن، ولا بد أن هذه المساعي قد تطورت ويمكن أن تكون أدت إلى الزراعة في البلاد نفسها لو لم تظهر البرازيل في هذه المرحلة التاريخية كأكبر وأصلح وهي أرض واعدة للمستعمرات الزراعية البرتغالية، وفي النصف الأخير من القرن التالي تمكنت هولندا من القضاء على الحكم الإسباني في إفريقيا، وصارت تهتم أيضاً بغرب إفريقيا، وحدث في هذا الوقت الاحتلال الإسباني لكثير من جنوب ووسط أمريكا والكاريبي، ولذلك زاد الاحتياج للأيدى العاملة في المناجم، وفي الزراعة في هذا العالم الجديد، ذلك أن السكان المحليين الذين وجدوهم كانوا قلة وعملياً غير صالحين للعمل المكثف، وكذلك فإن العمال الأرقاء الأفارقة وجد أنهم الحل المناسب لمشاريع قوة أوربية إمبريالية تواجدت في ساحل غرب إفريقيا، وتواصلت مع شعوب تحس بأن الرقيق بضاعة تجارية مفيدة، وتذكر هذه القوة أن الرقيق الإفريقى يناسب الطقس الحار في أمريكا الجنوبية، وكان الزعماء الغينيون يبحثون منذ سنوات على وسيلة لرفع مستوى تلك التجارة، وهكذا فإن الرقيق وفر حلاً مثالياً لمشكلة اقتصادية ما كان يمكن أن يجدوا لها حلاً وقتئذ، ولقد ارتاح الزعماء الأفارقة وشركاؤهم الأوربيون بتلك التجارة، وبدأت الرحلات المرعبة في تجارة لحوم البشر^(١) وهنا أعطت الحكومة الإسبانية حصة محددة في الرقيق للتجار البرتغاليين

(١) هذا الوضع يتكرر الآن خلال نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين مع فارق واحد وهو أن الأفارقة صاروا يهربون من بلادهم إلى أوربا عبر الصحارى والبحار بحثاً عن لقمة العيش، ويموتون غالباً في البر أو البحر قبل الوصول إلى أوربا، ومن يصل منهم توكل إليه أقدر الأعمال إذا كان مرغوباً، وإن لم يكن أعيد ذليلاً إلى البلاد التى جاء منها، ومن هنا يمكن القول: إن حال هؤلاء في بلادهم وفي ظل حكم ما يسمى وطنى صار أسوأ من حالهم أثناء الاستعمار، ولم يفعل الحكم الوطنى شيئاً غير الاضطهاد وسرقة أموال الناس، ومثال على ذلك ما حصل من أحد الجنرالات الذين حكموا نيجيريا في وقت ما ويدعى (اباشا) استمر حكمه خمس سنوات، ثم أطيح به وهرب إلى أوربا ومات هناك، وقد اكتشف بعد موته أنه هرب خمسة مليارات من الدولارات إلى بنوك أوربا، أى أنه كان يهرب بمعدل مليار كل سنة أثناء حكمه، بينما الناس يموتون من الجوع حتى إن نيجيريا في ظل الحكام العسكريين الذين تسالوا على حكمها أطلق عليها اسم (أغنى بلد وأفقر شعب). المترجم.

خلال أغلب فترة القرن السادس عشر، وكانت حكومة البرتغال لها نظرياً احتكار النقل على الرغم من أن القرصنة قد بدأت، وكان البحار البريطاني الشهير (جون هاوكينز) قد احترف ذلك سنة ١٥٦٨م، وشهد هذا القرن بداية التجارة بالعربون، وخلال القرن السابع عشر صارت هولندا منافساً حقيقياً في تجارة الرقيق والاستعمار في مواجهة البرتغاليين والإسبان والإنجليز بعد أن احتلت جزءاً من البرازيل، بينما شارك الإنجليز والفرنسيين في لصووية البحر الكاريبي من أجل أن تفقد إسبانيا التوازن في القوة البحرية، وفي مرحلة ما كاد الهولنديون أن يحتلوا كل مراكز التجارة البرتغالية في غرب إفريقيا عندما سيطروا على أغلب مراكز التجارة بحلول سنة ١٦٤٢م من (أركوين) إلى (لواندا) وصاروا في وضع يمكنهم من السيطرة على رحلات نقل الرقيق إلى البرازيل، وكان البحار الهولندي العظيم في عملية لصووية البحر تلك يدعى (ماورس أوف ناساو) وعند حلول سنة ١٦٤٨م استعاد البرتغاليون أجزاء من المناطق التي فقدوها، وبحلول سنة ١٦٥٤م تمكنوا من إخراج الهولنديين من البرازيل، ومع ذلك ظل الهولنديون هم القوة المسيطرة على تجارة غرب إفريقيا لمدة عقد تال، كما أنهم حصلوا على احتكار جزئي في أمريكا الإسبانية وكذلك الحال مع الفرنسيين والإنجليز في حيازة الهند الغربية حيث الحاجة ماسة للعمالة في مزارع السكر والتبغ والخروب، وفي آخر هذا القرن صار الفرنسيون والإنجليز يعتمدون بالكامل على سفنهم التجارية في نقل وتجارة الرقيق إلى ممتلكاتهم في الكاريبي، أما هولندا فقد أدخلت سفنها بأعلامها في المحيط الهندي، وذكر تشارشل في كتابه قائلاً: إن الأسطول الهولندي العظيم بحمولته ضاعف دورانه حول رأس الرجاء الصالح عدة مرات في السنة، وإنجلترا التي صارت تسمى باستعادتها أسكتلندا (المتحدة) وهي تولى اهتمامها مثلها مثل البرتغال لهذا النهوض المفاجئ في القوة البحرية، علماً بأن طنجة وهي جزء من مهر (كاثرين)^(١) صارت إقطاعية إنجليزية مما اقتضى اهتماماً

(١) هي أميرة براجنترا (١٦٣٨ - ١٧٠٥) وزوجة شارل الثاني ملك إنجلترا وابنة جون الرابع ملك البرتغال، شمل مهر زواجها مدينتي بومباي وطنجة، لكنها عاشت منعزلة عن البلاط، بسبب خيانات شارل الزوجية، لم تنجب أطفالاً، اتهمت بالتآمر على الملك بدس السم له سنة ١٦٧٨، ولكن الملك نفسه حماها، ولم يقتنع بالتهمة. المترجم.

جديداً بتوازن القوى فى غرب إفريقيا، وهكذا فإن بريطانيا بقوة مائة وخمسين سفينة دمرت الأسطول الهولندى فى (لوديستوفت) سنة ١٦٦٥م، ولكن فى السنة التالية كان الهولنديون بقيادة الأدميرال العظيم المدعو (دى روثير) قاموا بهجمتين كبيرتين وطردهوا السفن الإنجليزية إلى (نهر التايمز)، وعاد البريطانيون لينتصروا بعد شهرين أى فى أغسطس ١٦٦٦م إلا أن هذا الانتصار البريطانى انقلب فيما بعد، بحيث وقع فى أيدي الهولنديين والفرنسيين سنة ١٦٦٧م عندما أبحر الهولنديون عبر ميناء (قشاثام) وأحرقوا سفن الحماية، إلا أنه عندما حل السلام خلال سنة ١٦٦٨م، وعندما أرهقت الحروب الجانبين حدث أن فقدت هولندا بالتقصير بعض سيطرتها التجارية فى غينيا، وكان هذا العصر أيضاً واحداً من عصور الاكتشافات الكثيرة فيما لم يعرف عن إفريقيا الأطلنطية، ففي سنة ١٦١٨م أبحرت سفينة بقيادة القبطان (جورج تومسون) إلى مسافة أربع مائة ميل صعوداً فى نهر (جامبيا) حيث قتل تومسون فى معركة على جانب النهر، وبعد ذلك بسنتين عاود الرحلة القبطان (ريتشارد جيسون) واستطاع أن يصعد عبر النهر، وأبلغ أن السكان يعيشون فى هدوء وحياة مطمئنة وأن هناك موسيقى ورقصاً وحياة ليلية صاخبة، ومن المحتمل أن يكون جيسون قد وصل خلال أواخر الفصل المطير بعد أن يكون الحصاد قد تم، وأن الرجال فى استجمام والمناسبات الدينية كالختان والزواج وغيره قد بدأت بعد الإجهاد، حيث كان الإسلام قد اخترق المنطقة منذ مدة، وكان السيد جيسون يعبر عن إعجابه بالمرابطين على أن أهم رائد خلال تلك الفترة قد ترك معلومات قيمة هو السيد (وليام بوسمان) المنحدر من أصل إفريقى، وأسرته الآن شهيرة فى المجتمع الغانى، وعندما كان عمره أربع عشرة سنة كان يعمل مع شركة غرب الهند الهولندية، وبعدها أعد كتاباً فى وصف ساحل غينيا نشر فى لندن سنة ١٧٠٥م، وقد اشتمل على تفاصيل عن قلاع (المينا وساحل الرأس وأنومابو) كما كانت فى تلك الفترة، ولقد قال بوسمان: إن قبيلة (فانتى) كانت تحتكر نصف تجارة ساحل الذهب مع الأوربيين، ثم أشار إلى كيف كان الناس فى ساحل الرقيق (داهومى الآن)، يبدوون الكثير من الاحترام للسلطة وللأكبر وللوالدين، وأن

النساء يظهرن الاحترام والخشية أمام أزواجهن، كما تحدث بوسمان عن تجارة الرقيق فقال: إن سوق بيع الرجال هنا مثل سوق الحيوانات عندنا وأن الرقيق الذين يتم اختيارهم توضع أختام على صدورهم بحيث لا يستبدل الوسيط الأقوياء منهم بآخرين ضعفاء أو كبار السن، أما المرأة الرقيق فإن ثمنها أرخص بالربع أو الخمس من الرجل، وأن إطعام هؤلاء الأرقاء بالخبز والماء يكلف ستين في اليوم للفرد الواحد، وعندما يصعد هؤلاء الرقيق إلى السفن فإن الباعة ينزعون كل ملابسهم، وأن مستوى كل حمولة بين ستمائة وسبعمائة فرد، ويذكر بوسمان ربما منحازاً أن السفن الهولندية أنظف من غيرها، وفي البحر يتم إطعامهم ثلاث مرات في اليوم، ويوضع الرجال في مكان والنساء في مكان آخر، وإضرابات هؤلاء الأرقاء كانت معتادة، ويلاحظ أن تطور شمال إفريقيا قد أحدث زيادة في تجارة الرقيق وفي ذلك الوقت شملت التجارة الأبنوس والتجار كانوا من هولندا وإنجلترا والبرتغال وفرنسا والدنمارك وبراندربورج والسويد، وكانت حكومات هذه البلدان تساند أولئك التجار، وكانت شركات النقل في البداية تواجه بعض الخسائر؛ إذ إن ثلاث شركات إنجليزية وأربع شركات فرنسية أعلنت فشلها ثم في سنة ١٦٦٠م نجحت شركة التاج البريطانية حيث حققت مكاسب جيدة لعدة سنوات قبل أن تواجه بعض المشاكل، ولذلك استبدلت سنة ١٦٧٢م بالشركة الملكية الإفريقية، كما تأسست شركة غرب الهند الفرنسية سنة ١٦٦٤م من أجل أن تحاول احتكار نقل الرقيق بين الساحل والمناطق الفرنسية، وعملت هذه الشركات في نظام ثلاث رحلات حيث تنقل المواد التجارية من أوروبا إلى الساحل، ويتم شراء أشياء قليلة والعدد المتوفر من الرقيق عندما يكون هناك احتياج كبير، وينقل من الساحل إلى العالم الجديد (أمريكا)، كما ينقل إنتاج العالم الجديد إلى أوروبا أي (رحلات الساحل وأوروبا وأمريكا)، وقبل ذلك يوضع رقيق منطقة الساحل في سفن قديمة تكون راسية أو في حظائر معدة للعبيد، ثم ينقلون إلى قلاع مقامة على الأرض، وكل هذه التنقلات والتحويلات نتيجة للخلافات الأوربية على الساحل وكذلك بسبب القرصنة، ولقد اتضح لصناع السياسة الإمبريالية الإسبانية والإنجليزية

والهولندية والبرتغالية والفرنسية وحتى لتلك الأقل قوة أن غرب إفريقيا لم تكن صالحة للاستعمار، ذلك أن كل تجارة غرب إفريقيا وبشكل خاص التجارة فى الرقيق تعتمد على الشراء والنقل، وليس للعمل فى مكانها، ويكون النقل إلى العالم الجديد الأمريكى الكولونيالى، والبرتغال وحدها التى بدأت فى فرض إرادتها فى هذه البلاد، وخلال القرن الثامن عشر أخيراً استولت إنجلترا على القيادة من هولندا فى تجارة الرقيق، وأخذت الشركات الإنجليزية حصص إسبانيا من سنة ١٧١٣م إلى سنة ١٧٥٠م، أما الفرنسيون فقد جعلوا نهر السنغال قاعدة لهم سنة ١٦٣٠م وأنشأوا قلعة فى (ساينت لويس) سنة ١٦٥٩م وفى سنة ١٦٧٧ استولوا على (أرقوين وغورى) من الهولنديين، وصارت الغابة الصغيرة فى جزيرة غورى وقرية صيد السمك فى داكور المرفأ الرئيسى للفرنسيين، ولكنهم كانوا أقل نجاحاً من القوى الأوربية الكبرى، فيما عدا خلال فترة قصيرة فى نهاية القرن الثامن عشر، إذ لم يحصلوا على أكثر من ثمانية آلاف من الرقيق فى السنة، ولم يحدث أن تمكن التجار الفرنسيون من الوفاء بطلب الأيدى العاملة فى (ويست أندى) وتحديدًا فى هايتى، وكانت أكثر منطقة إفادة هى ساحل الذهب، حيث استولى الهولنديون على إحدى عشرة قلعة بما فى ذلك (المينا) من البرتغاليين، أما البريطانيون فقد استولوا على ساحل الرأس من الهولنديين وهو ما سيكون بعد سنوات قلعة للحاكم، وأقاموا هناك تسعة مراكز تجارية حصينة، وعلى الرغم من أن تجارة الرقيق كانت المبرر لوجود هذه المراكز المسلحة الكثيرة، فإن تجارة الذهب من ساحل الذهب مازال تعطى أكثر من ستة ملايين دولار فى السنة حسب المقاييس الحديثة، وفى سنة ١٧٠٠م، وعند هذا سيطرت هولندا على نصف تجارة الذهب فى ساحل الذهب تقريباً وبريطانيا حوالى ثلثه سنة ١٧٨٥م، عندما زاد أهل ساحل الذهب تحصيل الرقيق إلى عشرة آلاف فى السنة، وكانت بريطانيا تسيطر على نصف سوق الشراء وارتفاع حصة بريطانيا هذا فى غرب إفريقيا راجع إلى ارتفاع أهمية بريطانيا فى التجارة الأوربية، وكانت مواقع تجميع الرقيق الكبيرة فى حظائر أو سفن قديمة أقيمت أو هى رست فى غينيا العليا، إلى أبعد فى الجنوب بأرض (أبوى) ولا يمكن عمل مثلها فى شرق أو جنوب (كيتا)، على أن الزعماء الداهوميين والنيجيريين أرادوا تجميع الرقيق مؤقتاً فى مباني طينية بالقرب من قصورهم ومنعوا

جعل مراكز دائمة للبلدان الأوربية، سواء أكانت شركات أو أفراد ممن يتعاملون معهم في تجارتهم تلك، وكانت بداية البرتغاليين الواعدة في بينين قد تحولت إلى تجارة مشبوهة، وفي سنة ١٧٥٠م استبدلت شركة التاج الإفريقية بشركة تجارة غرب إفريقيا، وهذه جمعت كل التجار الأفراد في المنطقة الراغبين في الانضمام إليها ولم تكن الشركة تقوم بالتجارة هي نفسها؛ إذ تركت ذلك للنشاط الفردي الخاص وتولت النشاط في كل الموانئ والقلاع بموافقة البرلمان في لندن وعونه، وهكذا تركت هذه الشركة تجارة الشاطئ لتجار أفراد بدلاً من المشاريع التي كانت تشرف عليها الحكومة التي تكون في التحليل النهائي قابلة للخسارة، وهكذا صارت بريطانيا في وضع ممتاز وفوق كل الأمم الأوربية في الساحل، ثم خلال حرب السبع سنوات سيطرت بريطانيا على كل المراكز الفرنسية في غرب إفريقيا على الرغم من أن (غوري) أعيدت لفرنسا طبقاً لاتفاقية باريس سنة ١٧٦٣م وخلال السنة التالية فإن السيطرة البريطانية على كل المناطق قد تأكدت بتأسيس مستعمرة التاج التي أطلق عليها اسم (سينيجامبيا)، أي السنغال وجامبيا، وفي هذا الوقت كان هناك فقط مستعمرات للبرتغال في إفريقيا في الجزء الجنوبي من القارة، وليس من الصدق أن يقال: إن هناك استعماراً في غرب إفريقيا خلال ذلك الزمن المتقدم، وإنما الموجود كان يمثل محطات تجارية، بينما كان الوجود العسكري للدفاع المجرد عن مصالح تجارية خارجية، ومع ذلك فإن (سينيجامبيا) كان بها حاكم ملكي ومجلس معين ونظام قضائي، وفي الفترة من سنة ١٧٧٨ إلى ١٧٨٣م، وهي الفترة التي انشغلت فيها بريطانيا بالثورة الأمريكية تمكنت فرنسا من إعادة احتلال (ساينت لويس) وكذلك أغلب المراكز الفرنسية السابقة الواقعة على الساحل كما هو الحال بالنسبة للمراكز التقليدية البريطانية بما في ذلك مدخل نهر جامبيا ولكن حسب اتفاقية سلام ميرسليا سنة ١٧٨٣م استعادت بريطانيا حقها في نهر جامبيا ومنحت شركة التجار السيطرة على المنطقة، وكانت المميزات التي حصلت عليها فرنسا من بريطانيا بشأن النقل العابر في مناطق ما قبل الاحتلال اتضح أنها مسألة مؤقتة^(١) وبسبب كساد العمل في داخل بريطانيا والرغبة في الأيدي

(١) هذا يؤكد أن الخداع في عقول الإنجليز والخبث في سياستهم ليس جديداً مع الصديق والعدو على حد سواء

- المترجم -

العاملة سنة ١٧٨٥م سيطرت بريطانيا على المزيد من تجارة غرب إفريقيا بحيث زاد على ما حصلت عليه عن كل البلدان الأخرى، أى ما عدده ثمانية وثلاثون ألفاً من الرقيق، فى حين كان العدد الإجمالى السنوى يبلغ خمسة وسبعين ألفاً حصلت منها فرنسا على عشرين ألفاً، وكانت فكرة الحلول الاستعمارية فى تطوير تجارة غرب إفريقيا فى أذهان الكثيرين ولكن بما أن الازدهار فى بريطانيا يتجه إلى الازدياد بذلك العدد من الأيدى العاملة الرخيصة بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية الثلاثة عشر صارت فلسفتها ضد المزيد من تحمل المسئوليات فى الخارج، وبذلك فإن التجارة وحدها هى الهدف وليس السيطرة والحكم، ولكن الوضع حتى بالنسبة للتجارة لم يكن ثابتاً، ففي سنة ١٨٠٧م ألغت بريطانيا بالقانون عملية تجارة الرقيق، وذلك جزئياً لأسباب إنسانية وغالباً لأسباب أملاها وضع بريطانيا الاقتصادى، وهنا ربما تكون هذه هى اللحظة المناسبة للتمعن فى أسباب هذه الدورة أو التحول الذى كشف حالة (كما فى حالات أخرى من تاريخ العالم) لعبت دوراً هاماً فى حل مشكلة الأيدى العاملة والتطور، ولقد كان الرقيق مظهراً عاماً فى مجتمع إفريقيا كما هو فى أغلب المجتمعات خلال مراحلها ما قبل التعليم، ويحدث أن أطفال المستعبدين يواجهون العبودية، وكذلك فإن هناك من يستعبدون كعقاب على الجرائم أو تسديد الديون وغالباً ما كان الأطفال يؤخذون لضمان الوفاء بدين الوالدين، ومن ذلك أن سجناء الحروب لا يتمتعون بالحقوق، ولهذا فهم عملياً مستعبدون مدى الحياة، والعمل الإجبارى أيضاً استعباد حتى فى عمل الخير، ولولا هذا ما أهرامات قد بنيت ويحدث أن يعتق المستعبد لإثبات أن هناك نوعاً من الرأفة، على الرغم من أن العقاب عن جرم كالسرقة كان مرعباً، وأغلب الرقيق الذى نقل إلى شمال أمريكا واجه أسلوباً مماثلاً عدا حالات قليلة مثل بعض الأماكن فى فيرجينيا حيث إن أغلب ملاك الحقول كانوا معتدلين، وهم يستخدمون قلة من العمال، وهنا يجد الإفريقى المهجر نفسه بين مجموعة صغيرة تعمل لدى سيد مالك، وهذا السيد المالك وأبنائه عادة ما يختلطون مع المرأة المستعبدة كما فى إفريقيا، غير أن الأطفال من هذا الاختلاط يكونون أحراراً،

وفى أمريكا فإن الأطفال من هذا النوع لابد أن يتموا إلى الطبقة العليا من المستعبدين، أى عبيد البيوت وهم خدم محليون فقط، ولا يستخدمون فى الحقول، وطالما أن كل تاريخ الاستعباد يهيج الكثير من مشاعرنا ويثير غضبنا اليوم، فإننا يجب أن نكون موضوعيين فى دراستنا له، ولقد كتب الكثير عن هذا الموضوع بحيث أعطى الانطباع أن الإفريقيين الذين استعبدوا وباعوا مواطنيهم بآلاف إنما عملوا ذلك بشيء من الغباء دون أن يدركوا ما كانوا يفعلون، وفى الحقيقة أن الدليل الأكثر وضوحًا عن هذه التجارة، إنما هو بدايتها التى مارسها تجار رقيق أفارقة، ومن المؤكد أن هناك دائمًا مستعبدين كثر يعرضون للبيع، بل كان البائع لديه أكثر مما يريد المشتري فيما عدا فى مناطق محددة فى فولتا العليا حيث كان الفرنسيون يلاقون صعوبة فى الوفاء بالاحتياج المطلوب حسب الكوته، أما الأوربيون إلا فى حالات نادرة فى السنوات الأولى لم يكونوا يقبضون على الرقيق بأنفسهم وإنما يشترون ناتج ما يحصل عليه الأفارقة فى اصطياد الناس (العبيد) ولكن بتشجيع تلك التجارة وتقديم الأسلحة النارية للقبائل المتخصصة فى بيع الرقيق مثل (أفيك - ويوروبا - وفون - وأشانتى) بذلك ساعد التجار والملاحون الأوربيون على جعل تلك التجارة تكبر وتنمو حيث صارت أسوأ مما كانت عليه فى السابق، ويأتى الرقيق من المناطق العليا عبر طريق (مانكليد)، والمقارنة بالضرورة مع طريقة نقل الحيوانات تكون هذه مقبولة، وعلى الساحل يفرض الوسطاء بين تلك القبائل الكبيرة المتخصصة فى صيد العبيد والمشتريين الأوربيين طريقة التعامل، كما هناك سماسة صغار لبيع العبيد يتعاملون فى بيع أعداد قليلة، وفى أحسن الأحوال أقل من أصابع اليدين، وكانت تلك تجارة فوضوية فى الحالتين أى تغيير الأسعار وطرق التعامل فى البيع، وكان زعماء القبائل يحصلون على ضريبة لتصدير الرقيق، كما أن ملك (داهومى) يفرض بيع الرقيق الخاص به أولاً وبأسعار مبالغ فيها وكان هنال (فرض يدفع) وفساد وكثير من البلبلة بحيث لا يمكن قياس حدود العامل التجارى، وكانت المصانع الأوربية قد أقامت منشآتها على سواحل الذهب والفضة منذ القرن السابع عشر، على الرغم من أنها لم تعط هذه

الحقوق المحدودة فى مناطق أخرى إلا بعد مرور قرن تال، كما أن تجارة الرقيق عادة لا تتم بدفع النقد، وإنما تتم مقابل مقايضات بالحديد والنحاس المصنّع والملابس والخرز والخناجر والبنادق والمواد الكحولية، وتختلف القيمة تبعاً للندرة أو الكثرة فى الرقيق، وكذلك فى المواد الأوربية، وكان الذكور الرقيق الذين يؤخذون تكون أعمارهم بين العاشرة والخامسة والثلاثين سنة، أما الإناث ففى الغالب تكون أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين سنة، والمشترون يتفحصون جيداً الذكور والإناث ولا يأخذون إلا الصالح منهم، والرحلة فى الغالب صعبة ذلك أن عمل الرقيق من الرجال يكون يدوياً، أما النساء فلا يمكن اعتبارهن صالحات إن لم تكن الواحدة قادرة على إنجاب أطفال أصحاء، حيث إن الأطفال أيضاً فى المستقبل يكونون رقيقاً، وكان فى نهر الدلتا خلال بداية القرن الثامن عشر يختلف ثمن الرقيق من ثمانين دولاراً للذكر العادى ومائة وسبعين دولاراً للذكر القوى متوسط العمر أو القدرة المناسبة، وعلى الرغم من أن أى إحصاءات كاملة لم تتوفر، ولكن جمع معلومات قليلة يعطينا فكرة مبدئية عن تجارة تلك المرحلة، مثلاً فى القرن السادس عشر تم تصدير حوالى مليون من الرقيق، وكانت الوفيات فى هكذا حالات تختلف بين عدد قليل إلى حوالى خمسة أسداس (فى حال النقل داخل السفن ويحدث الوباء) ويقابل فى بعض المصادر أن الوفيات فى الرحلة الواحدة تصل إلى نسبة عشرين فى المائة، بينما يموت آخرون خلال النقل سيراً على الأقدام إلى الساحل، وكذلك يحدث الموت داخل السفن القديمة أو مخابئ التجميع أو القلاع، ولهذا فإن كل شعب غرب إفريقيا كان ضحية حيث إنه فى تجارة الرقيق هذه يكون قد فقد حوالى عشرين مليوناً عبر أربعة عقود استمرت فيها تلك التجارة، وكانت فيها أيضاً الحرب دائرة من أجل القبض على الرقيق، وخلالها يموت كثيرون غير الذين تقطع أطرافهم، فإذا قدرنا أن الرقم حوالى ثلاثين مليون ضحية، وإذا حسبنا مدة تجارة الرقيق من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أى ثلاثمائة سنة، وإذا نظرنا إلى هلاك الأطفال فإن العدد يصل إلى سبعين فى المائة (وهذا يعنى أن متوسط حياة الفرد قد هبط إلى حوالى ثلاثين سنة)، مما

يؤدي بنا إلى الاعتقاد أن ثلاثين مليون ضحية خلال عشر سنوات، يعنى حوالى ثلاثة ملايين ضحية فى كل جيل، والسكان الآن فى بلدان غرب إفريقيا الساحلية (دول الساحل باستثناء الجزء الشمالى من نيجيريا) يبلغ عددهم ستين مليون نسمة، فإنهم لم يكونوا أكثر من عشرين مليوناً خلال تلك الأيام، وهذا يعنى أنه فى المتوسط قد بقى رجل واحد من كل خمسة وامرأة واحدة من كل عشر، ولذلك فلا بد أن تكون نسبة السكان أقل خلال القرن السادس عشر ويكون العدد فى تجارة الرقيق بعد هذا القرن حينما كانت حركة المواصلات فى قممتها مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر فى (ويدا)، وهى أشهر ميناء لتصدير الرقيق من بقية المناطق تكون المصانع الإنجليزية تحصل على ما بين أربعة عشر ألفاً إلى خمسة عشر ألف سنوياً من الرقيق، وخلال سنة ١٦٨٠م طبقاً لرواية المؤرخ (أمدرى دو كاس)، فإن تجارة الرقيق عبر الطريق الشرقى كانت فى غاية الخطورة وخصوصاً خلال الفصل الرطب (الشتاء) كما ذكر (بسمان) أن حوادث الظلام كانت كثيرة بحيث تضيع كميات كبيرة من المعدات وكثير من الرجال يغرقون إذ تكون أمواج البحر عالية ووضع السفن مضطرباً فتسقط القوارب المليئة بالناس وتتفتت إلى أجزاء خلال دقيقة، ومن أجل تعويض هؤلاء الذين يموتون يكون الوسطاء فى (الويدا) على استعداد لأن يوفروا ألفاً من الرقيق خلال كل شهر، فإذا لم تكن هناك سفن فإن (الويدا) ربما يتكدس لديها أعداد هائلة من الرقيق، وفى هذه السنة ١٧١٦م كانت للفرنسيين سنة استثنائية فقد اشتروا ستة آلاف عبد رقيق، أما الإنجليز والبرتغاليون فقد اشتروا حوالى سبعة آلاف والهولنديون حوالى ألف وخمسمائة، وحدث أنه فى هذا الوقت صار (الداهميون) يطلبون أسعاراً عالية لبضاعتهم من الرقيق، وكانت البضائع التى تستعمل فى شراء الرقيق تتمثل فى أشياء مثل قضبان الحديد والنحاس والبارود، أى أن هذه هى عملة الشراء، وكان سعر الرجل فى (ويدا) أربعين دولاراً خلال منتصف القرن السابع عشر، لكن السعر ارتفع سنة ١٦٦٩م بسبب ارتفاع ثمن البارود فى أوروبا، وكذلك بسبب التنافس مع القراصنة حتى وصل إلى مائة وعشرين دولاراً للذكر البالغ،

وحدث أن تطور التجارة أدى إلى استخدام شركات تجارية شرعية تقوم بهذه المهام على حسابها مع السماسرة الأفارقة، وكان لفرنسا في قلعة (ويدا) ثلاثة وعشرون مديراً خلال السنوات (١٧٠٤ - ١٧٧٩) وبالمقابل فإنه بين سنوات (١٧٠٠ - ١٨٠٧) عندما تخلى الإنجليز عن قلعتهم في (ويدا) كان بها أربعة عشر مديراً أحدهم هو (ليونيل أبسون) الذي قضى ثلاثاً وعشرين سنة في خدمة هذه المحطة، ونجد تفاصيل حياة وعادات هؤلاء الرجال المثيرة في مذكرات القبطان (جون أدامس) وهو من (فيرجينيا) قال: إن أعداد هؤلاء الناس الذين عاشوا على هذه التجارة يبيع مواطنيهم البؤساء كانوا كثر حيث شبع العمال الأفارقة على هذه التجارة، فعندما تغادر ثلاث شحنات من الرقيق ميناء (ويدا)، فإن الشاري عليه أن يدفع مبلغاً يساوي ثمن اثني عشر عبداً أي حوالي ألف وخمسمائة دولار للمدعو (يوفوقاه) أي ممثل ملك داهومي، هذا خلال القرن السابع عشر أما إذا كانت الشحنات اثنتين، فإن الشاري سيدفع ما يساوي ثمن تسعة من العبيد، وبعد الدفع يقوم (اليوفوقاه) أي ممثل ملك داهومي بإعطاء الإذن لسفينة المعدات التجارية لترسو على الشاطئ، وبذلك يكون التاجر قد أثقل كاهله بالدفع لجمع غفير أغلبهم غير صالح وغير ضروري من العمال والحمالين والخدم الذين يفرضهم ممثل الملك، كذلك فإن المشتري عليه أن يدفع مبالغ محددة أخرى لممثلي القبائل وللحراس الذين يقفون ليحرسوا معداته التي يقايض بها، وإنه يجب أن يدفع لكل من يقوم بأي عمل بما في ذلك المتطفلون والأطفال والنساء اللواتي يغسلن وهؤلاء من الصعب منعهم ويقوم (اليوفوقاه) باستخدام جواسيس للتأكد من أن كل الطلبات قد تم الوفاء بها، وبعد قرن كامل لم تتغير الأمور ففي سنة ١٧٩١م ذكر تاجر الرقيق الإنجليزي (جونسون) في مجلته يقول: إن المبالغ التي دفعها بشأن الرقيق في (ويدا) بحساب الدولار في الوقت الحاضر كانت مبالغ طائلة وقبل أن يبدأ تجارة المبادلة يشترط (اليوفوقاه) ممثل الملك الداهومي قماشاً ومشروبات كحولية وسلاحاً لعبيدين وكان على أن أبعث اثنين من الرقيق الأبيض للملك مع أقمشة زائد خمسة وعشرين بندقية مع البارود وأشياء

أخرى قيمتها تساوى ثمانية وثلاثين أوقية من الذهب، ويذكر جونسون أنه اشترى رقيقاً من ستة من السماسرة، وهؤلاء لا يمكن مبادلتهم بالسلاح؛ لأن السلاح والذخيرة لا يعطى إلا للملك ومثله المدعو (يوفوقاه)، وذكر تاجر فرنسى أنه إذا ما وجد لدى أى أسود ما يزيد على قبضة اليد الواحدة من البارود بالكشك الذى يقيم فيه يعد ثائراً ويبيع كرقيق حيث يذهب ثمنه للملك، والأسعار مهينة للرقيق فى بعض المناطق على أن سوق (ويدا) يمكن أن تكون هى الحالة البارزة فعلى الرغم من أن فوائد الأوربيين فى النقل كبيرة، لكنها لم تكن كبيرة جداً كما يزعم بعض الكتاب فى الحالتين حيث يحسبون الأرقام على أساس ثمن الرقيق وهو على الساحل وثمان بيه فى سوق المزاد العلنى (بالمسيبى) فى أمريكا، ولهذا فإن هذه الأرقام تتجاهل ما يدفع على كل رأس فى النقل وما يدفع للبحارة، وأن بعض الكتاب يتجاهلون هذه التكاليف، ولهذا فإن أرباح تجار الرقيق الأوربيين نسبية (باستثناء السنوات السابقة فى هذه التجارة)، ومع ذلك فهى أقل من أرباح أولئك الأفارقة الذين يصدرون الرقيق على أن الموائى الأخرى هى أقل تعقيداً من (ويدا) فيما يتصل بالمدفوعات، ولكن التجارة فى كل مكان فى إفريقيا لها تقاليد غريبة تظهر للعقل الحديث ثورة على ذلك الذى يتاجر فى لحم البشر، وهذه ملاحظات كتبها الملازم (إدوارد بولد) من البحرية الملكية عن التجارة فى (قواند بوبو)، وهذا ميناء غير بعيد من (ويدا) والملاحظات جاءت فى كتاب هذا البحار بعنوان (دليل إفريقيا للتجارة والملاحة) يقول: يجب أن يتذكر القارئ أن الأسعار التى تذكر عادة إنما تعنى العديد من الرقيق (أى بالجملة) والتعامل فى هذه التجارة والأسعار عند الوصول على أنه من المحتمل أن يكون على الشاطئ؛ لأن المواطنين قد لا يأتون ببضاعتهم إلى السفن، وأنت عندما تصل الشاطئ بعينات من بضاعتك وتعلن الأسعار أمام تجمع من الوسطاء تلك الأسعار التى يجب أن تكون عالية (رغم أنك تكون مرغماً فى بعض الأحيان إلى أن تخفض) وعندما يتم الاتفاق على الأسعار بين الشريكين فإن قطعة من قماش وزجاجات قليلة من الكحول لابد أن تعطى لكل واحد من الوسطاء، وتلك عادة تفتح بها تعاملات التجارة،

ويصف (بولد) كذلك طريقة بيع ناب الفيل الذى من الواضح أنه أيضاً يخضع لضرائب معينة فيقول: إن صاحب سن العاج يقوم بعرضها للبيع بواسطة سمسار، وهذا السمسار يحدد ثمنها على ضوء حجمها الذى لا يمكن إلا أن يكون باهظاً، ومع ذلك فأنت لابد أن تساوم بصبر حتى يقبل السمسار المبلغ الذى يمكنك أن تدفعه، وهنا فإن هذا السمسار يطلب منك أن تبقى بعضاً من الثمن لديك بحيث تدفعه له فيما بعد من العملة المستعملة وهى قطع حديدية تسمى (أكيز) وبين ساحل داهومى ودلتا النيجير هناك القليل من الرقيق رغم أن القبطان (آدامز) وهو من فيرجينيا بأمريكا لاحظ أن البيع التقليدى للرقيق (الذى لم يكن مقبوضاً عليه فى حرب) فى (بورتو نوفو) و(بادامرى) و(ابجيبو) فى بداية القرن التاسع عشر أعطى أهمية خاصة (لللاجوس) فى تجارة هذا النوع من الرقيق كما هى الحالة فى (بورتو نوفو) عندما وصل إليها تجار الرقيق البرازيليون الذين استقروا بشكل دائم على الشاطئ، ولهذا فإن الطلب الزائد على الرقيق جعل حرب (يوروبا) فى أوجها وكتيجة لوجودهم صار لكثير من العائلات الإفريقية أسماء برتغالية فى كل من توجو وداهومى، وفى جزء من نيجيريا (حول لاجوس)، وكان بعض المقيمين من الملونين الذين يطلق عليهم اسم (مولاتو) أى: (المختلط) ولكل تجارة مباشرة، وأحياناً تجارة العلاقات العائلية مع المشترين فى (باهيا) وفى الموانئ البرازيلية الأخرى وبشكل خاص، ومثال على ذلك البرازيلى المدعو (فرانسييسكو فيليكس دا سوزا) الذى ترجع أصوله إلى عائلات (توجولية وداهومية) مازال تطرق ذاكرته فى كل وقت، وكذلك ذلك الرجل الذى يقال: إنه أنيق وتزين وجهه لحية قصيرة (سوا شولكير) المدفون تحت أرض الحجرة الرئيسية فى بيت العائلة فى (ويدا) قد مارس تجارة الرقيق لحسابه الخاص وكسمسار فى (باداقرى) نيجيريا الحديثة وكذلك فى (أنيكسو) التوقو الحديثة، وكان صانعاً لدى ملك (أبومى) المدعو (أداندوزاه) ولقد كتب أحد المؤرخين يقول: إنه بينما كان يحاول تسديد ديونه سجن فى (أبومى)، ولكنه استطاع أن يدخل فى نوع من التحالف مع الأمير (قانبى) الذى صار فيما بعد ملكاً، وكان التحالف (معزراً بالدم)، ولهذا أفرج عنه هذا

الأمير الملك فيما بعد حيث كان هذا يؤيد أنصار الأمير بحيث مكّنه من أن يستولى على الحكم في (أبومي) خلال سنة ١٨٨١م ورد الأمير على ذلك بأن عين (دا سوزا) في (واهيذا) موظف جمارك بلقب (شاشا) وبمهمة الإشراف على تجارة الملك مع السفن الزائرة، وكان هناك فرص واضحة للغنى من خلال هذه المهام بعدها حصل على الموافقة باحتكار صناعة زيت النخيل هذه الصناعة التي كانت حائلا بين داهومي والإفلاس بعد قرن ونصف عندما استقلت، وتحدث عدد من الكتاب تفصيلا عن هرب (دا سوزا) المثير من (أبومي) حيث إنه قطع كل المسافة إلى الساحل وهو قابع في برميل مغلق، وفي ذلك الوقت كان الرقيق ينقل بالجملة وهم ناس خليط فيهم الغليظ والشرس العدواني، وكان أكبر موزع للرقيق في (بورتو نوفو) أثناء زيارة القبطان (أدامس) لميناء (لاجوس) وهو رقيق من قبيلة الهاوسا كان في فرنسا، أما التاجر الأساسي فهو (جورج لاوسون) من قبيلة (فانتى) وكان قد أبحر من (أكرا) كوكيل على سفينة نقل الرقيق وعاد إلى غرب إفريقيا من لندن سنة ١٨١٢م، وحدث أن عائلة (لاوسون) الآن هي من عليّة القوم هناك وهي جزء من النخبة الحاكمة في (أنيكسو) المدينة الحديثة التي ساعد كثيرا (لارسون) من أجل أن تظهر على الخريطة واشتغل (لارسون) بتجارة الرقيق وصناعة زيت النخيل وخدم كل النظم حيث قدم كثيرا من المعلومات الكاذبة لضباط البحرية، ولقد ذكر أحد المؤرخين أن مدينة (أنيكسو) كانت كما هي الآن مقسمة إلى جزئين (مدينتين) واحدة بحرية وهي غنية بالسّمك والأخرى أرضية يحكمها برازيلي أخذ اسم برتغالي مختلط (بيدرو كوجو) وكلمة (كوجو) تعنى الطفل الذي ولد في يوم الاثنين، وبيدرو هذا تعامل في تجارة الرقيق واشترى أقطان (مانشيستر) من شركة في ساحل الذهب، أما (تماما) فقد نجح في أن يكون أكبر تاجر رقيق في (بورتو نوفو) بواسطة (دومينغو مارتينو المولاتو) الذي تمكن أيضا من تجارة وصناعة زيت النخيل وحصل على عقد من شركة (فوستر وسميث) بساحل الذهب، حيث إن تجارة الزيت والرقيق صارت ضرورة بالغة (كما هي تجارة مفيدة جدًا) وسابقًا خلال القرن التاسع عشر عندما ألغت بريطانيا تجارة الرقيق بالقانون وأصبح التاجر لا بد له أن يحصل على غطاء حدث أن المستكشف (ريتشارد لاندر) في مذكراته قد أشار إلى أن تجار الرقيق كانوا يتحايلون ويتحاشون الكشف حتى إن أي سفينة حينما تصل يقوم بحارتها بإفراغ الحمولة الخفيفة والقبطان الذي يتفاوض مع الراغبين في البيع والشراء ثم

تبحر على طول الساحل إلى أن يتم الاتفاق على التبادل وتكون السفينة فى إبحار مأمونة فإذا ما قرب منها رجال البحرية البريطانية لا يلاحظون ما يستجوب التفتيش ثم تعود السفينة إلى المكان الذى أنزلت فيه البضاعة والقبطان الموجود على الشاطئ فإذا لم تكن البضاعة جاهزة أبحروا مرة أخرى عبر الشاطئ حتى يحين الموعد المحدد فتعود السفينة لتحمل ما تم تجهيزه من الرقيق، كما أن سرعة كل شيء أصبحت مهمة، ولذلك ظهرت السفن السريعة الإسبانية والبرتغالية والأمريكية وبسبب المنع القانونى ارتفعت أسعار العبيد حيث وصل ثمن الواحد بين مائتين وعشرين دولاراً إلى ثلاثمائة دولار فى (ويدا) وفى (لاجوس) سنة ١٨٣٠م، وفى سنة ١٨٤٠ زاد الثمن فوصل مستوى سبعمائة وخمسين دولاراً وأكثر إلى ألف ومائتى دولار للفرد الواحد فى (باهيا) ثم وصل أعلى من ذلك خلال فترة المزاد العلنى، وفى سنة ١٨٤٤م ذكر أحد الكتاب أن ضريبة الاستيراد يتوجب أن تدفع فى البرازيل لكنه مع ذلك لم يعط أى تقدير ولا إشارة إلى مقدار الكسب، ومن أجل أن نعرف ذلك فإن تكاليف الرحلة فى المسافة الطويلة لابد أن يتحدد مقدماً للفرد الواحد من جملة الرقيق بين الوسيط أو السمسار الإفريقى فى البيع ومحصل الضرائب الرسمى ذلك أن عدد الذين يموتون فى رحلة البحر يصل إلى عشرين فى المائة، وعندئذ فإن هذا يجب أن يعد من الخسارة، وهنالك بطبيعة الحال مستوى معروف عن البيع القانونى فى أوربا إذ يصل غالباً إلى مائة فى المائة للفرد الواحد إذا ما تم تجاهل ما يمكن أن يحدث من أخطار احتجاز السفينة مثلاً وضياع الحمولة كلها أو دفع الغرامات والاعتقال والسجن إلخ، وأحياناً تكون الفوائد أقل من مائة فى المائة فى بعض الحالات الصعبة، وأحياناً أخرى تختلف تماماً، ويذكر أحد المؤرخين أن سعر البيع فى البرازيل وصل مبلغاً يساوى ألفاً وثمانمائة دولار للرأس الواحد سنة ١٨٤٦م، لكن هذا السعر هبط إلى ألف ومائتى دولار فى السنة التالية، ويظهر تاريخ تجارة الرقيق أساساً فى الإحصائيات التى تعتمد على تكاليف نقل وتجارة والقبض على العبيد لكن هذا الموضوع يحتاج إلى كثير من البحث والتدقيق فى تاريخ تلك المراحل وحدوث التغيرات والوفيات وتأثيراتها، ويمكن علمياً اعتبار تلك الفكرة القائلة بأن تجارة الرقيق هذه قد أثرت على غرب إفريقيا، وأنها كلياً غير عادلة إذ فى ذلك الوقت كانت أساليب زراعة

إفريقيا بدائية، وبالكاد تسد حاجة السكان المحدودة في المنطقة، وهؤلاء السكان يتناقصون بسبب الأمراض أو بسبب الحروب من جانب أتاس لا يعرفون أين ستقع، والانخفاض الشديد في عدد السكان المتسبب من تجارة الرقيق التي ارتفعت فجأة خلال القرن التاسع عشر، وفي الحقيقة أن إفريقيا اليوم نسبياً أقل سكاناً إما بسبب الهجرة أو بسبب آخر يتعلق بالتجارة تلك، حيث إن رقم ثلاثين مليوناً خلال مدة تزيد على ثلاثة قرون إذا ما قورنت بفقدان أوروبا الذي وصل خمسين مليون مهاجر خلال السنوات ١٨٨٠-١٩٣٠ وفي فترة التجارة ربما أكثر من الآن كان اعتماد إفريقيا على أوروبا في واردات الأدوية والعلوم الأخرى بما في ذلك الأساليب المتقدمة في الزراعة والتجارة وفرص الثروة في بعض البلدان ذلك أن تجارة الرقيق أدت إلى الحصول على أشياء مثل المعدات والمصنوعات الأخرى التي تساعد على التطور بما في ذلك تعليم أبناء الأفارقة المسترقين قياساً بتكاليف المعيشة ومتطلبات الناس بالطبع التي تغيرت كثيراً منذ عهد الرقيق قد زادت حالة الحرب خالقة نوعاً من الفوضى الإقطاعية، فإذا كان مسرح أشقياء الناس واسعاً، فإنه لا بد قد حدث بسبب تلك التجارة، وانعدام الأمن في حرب الرقيق لا بد أن فيه تأثيراً على حياة إفريقيا الحديثة وهكذا فذلك يستحق الدراسة، ويظهر أن تجارة الرقيق شجعت على الاعتقاد بشكل واسع أنك لكي تكون غنياً فهي أسهل من أي عمل آخر، على أن الحال في المجتمعات المتقدمة يجعل الغنى السريع موجباً للاشتباه وعدم القبول حتى لو كان قد حصل بطريقة آمنة ومعقولة، وليس هناك ما يشابه هذا الوضع في الساحل مع الاعتقاد بأنه قد يكون على تقاليد بيع الرقيق قليل من التعب، ومرة ثانية فإن تجارة الرقيق قد أحدثت بعض التقدم في ممالك الزوج بغرب إفريقيا مع استثناء الممالك البربرية الكبيرة الواقعة على هضوب الصحراء مثل (أشانتى ويوروبا وداهومى وبينين) ذلك أن هذه الممالك نهضت وتقدمت تحديداً على تجارة الرقيق، وكانت حصة الطبخ التي من أجلها باع الأفارقة أخوتهم للرواد من الدنيا الجديدة قد وفرت بعض الخير النسبي.



الفصل السادس

الممالك الغينية

الفصل السادس

الممالك الغينية

ممالك ساحل إفريقيا أو (غينيا) لها ظروف مختلفة، فقصة (يوروبا) بدأت في وقت ما بين سنة ٦٠٠ و ١٠٠٠ طبقاً للأسطورة فقد جاء المهاجرون من الشمال والشرق وهم نسبياً من أصل (حامى) وأسسوا قبيلة (أيفى) وبعد سنوات حدث أن فرعاً من (أيفى) يسمى (أونى) حاز على سيطرة روحية على القبيلة، وفي الوقت المعاصر كان هذا هو السبب في أن سيداً من (أونى) وهو السير (أديسوجى ديريمى) صار أول حاكم لنيجيريا الغربية بعد الاستقلال، وخلال منتصف القرن الثامن عشر تعززت القوة السياسية لفرع من (أونى) يسمى (آلافين) بحيث صار من الناحية الروحية مساوياً لقوة (أونى) نفسها، وبالتالي سيطرت قبيلة (آلافين) على (أقبالاند) أى الجزء الجنوبي من غرب نيجيريا الحديثة إضافة إلى جزء من (داهومى) الحديثة وجزء من التوقو إلى منطقة (أنيكسو) وهذا التأثير أعطى القبيلة حقوقاً تجارية في (باداقرى وبورتو نوفو وبينين) وعبدان الآن هى المدينة الرئيسية (ليوروبا)، وكانت فى السابق معسكراً للمرتزقة من الرجال الذين احترفوا حياة الحروب حيث كانت هناك حروب فى كل فصل جاف (غير مطير) وكل قوة خاصة تعطى مهمة تؤديها، وكان من المعتاد بالنسبة للقادة الذين يهزمون أو يفشلون فى الحروب أن يتحروا عقاباً لأنفسهم، ومع بداية القرن التاسع عشر صار زعماء المقاطعات فى الأطراف يتخلصون من سلطة قبيلة (آلافين) بالامتناع عن دفع الجزية، وبسبب هذه الخلافات والانقسامات أصبحت المملكة عرضة للاعتداءات حيث سقط جزء منها فى يد (الفولانى) وقد ذكر أحد المؤرخين قائلاً: إن الزعماء الجنوبيين تمردوا وقاموا بعدد من الحروب المهلكة التى استمرت حوالى قرن من الزمان وهكذا وقع الخراب والجفاف

فى إمبراطورية كانت قوية، كما أن موانئ (لاجوس وبادافرى) امتلأتا بغنائم الحرب البشرية حتى إنها صارت لبعض الوقت موانئ الرقيق الرئيسية فى كل غرب إفريقيا، كما أن زعماء المقاطعات المستفيدين من تجارة الرقيق صاروا أكثر رغبة فى مشاركة المكاسب مع قبيلة (آلافين) مما زاد فى دائرة التفكك فى المملكة، ولم يتوقف التهديد الدائم من الشمال إلا بمجيء البريطانيين حيث أنقذوا ما تبقى فى الإمبراطورية من الانهيار، ولقد تكونت (بينين) عندما حدث أن مجموعة من الزعماء الذين كانوا فرضوا سيطرتهم على الشرق حدث الخلاف بينهم وطلبوا من المملكة تعيين ملك عليهم، على أن (بينين) كانت خلال القرن الخامس عشر قد انفصلت عن الإمبراطورية، وكان أهل بينين كما عرف عنهم قد أتقنوا معرفة سبك النحاس والبرنز وهو الفن الذى طاول القمة فى شهرته بهذا البلد، ومع وصول البرتغاليين خلال سنة ١٤٨٥م كانت بينين تمثل مركزاً تجارياً، ومع وجود المال والمعدات والأسلحة النارية توسعت حكومة المدينة، وفى القرن السابع عشر احتلت (بونى) وحتى (لاجوس)، وحدث أن حالة الحرب بما فى ذلك حملات الرقيق أضعفت الدولة، ولذلك انهارت المملكة ومع نهاية القرن التاسع عشر صارت أقل من مدينة مشهورة بالدماء فى كتب المغامرين أو المستكشفين، ولقد أسس (الفونس) مملكة (داهومى) وعاصمتها (آبومى) خلال سنة ١٦٢٥م عندما انتقل (داكو) ابن ملك (آلادا) إلى الشمال فى (أهواوا) مع مؤيديه مستولياً على سلطات الحاكم المحلى المدعو (أويسو) ثم صار يتقدم إلى أراضى الزعيم (دانه) المجاورة وقد انزعج هذا من تقدم (داكو) فقال فى ذلك الوقت: إن (داكو) قريباً سيدق على بطنى، وهكذا فقد احتل (داكو) أراضى (دانه) وأطلق على قصره اسم (بطن دانه) كما أطلق هذا الاسم على الإمبراطورية الحديثة عندما انضم إليه ابنه الذى سيخلفه فى توسيع ممتلكات الأمة (كما أعلن)، ويشجع بذلك خلفاءه؛ لأن يفعلوا نفس الشيء فى وقتهم، وطلب من أولئك الخلفاء أن يؤدوا اليمين ملتزمين بهذه الرغبة، وهكذا حدث فقد أدى اليمين الخلفاء التسعة، ومن الملاحظ أن جميع مقاعد هؤلاء الملوك الداهوميين ماتزال موجودة فى القصر الملكى الذى جعل

الآن متحفًا، وفي القرن الثامن عشر فى ظل حكم الملك (أقاجا) احتلت المملكة الساحل، وذلك من أجل أن تكون قادرة على بيع الرقيق مباشرة للأوربيين، احتلت (ويدا) وأرغمت (بورتونوفو) على دفع الجزية وقد وقف الأوربيون بالضرورة فى الحرب مع زعماء الساحل الذين كانت لهم مع هؤلاء الزعماء معاهدات، وتحالف (أقاجا) مع شعوب الساحل وهم (الساحيون ويوروبا) هؤلاء الذين حاربوا (أبومى) ثم عقدوا معه اتفاقًا، وفى سنة ١٧٤٧م كان (تيقايسو) الذى خلف الملك (أقاجا) قد وقع اتفاقًا مع الأوربيين لبيع لهم مباشرة عن طريق وكيله (يوفوقاه) الرقيق ووافقت (أبومى) على دفع الجزية وبالتالي سحب (آلافين) قواته وواصل (تيقايسو) اصطیاد الرقيق بنشاط ملحوظ حيث كان يبعث جيوشا إلى الشمال المتخلف وإلى الغرب حيث تحالف مع (اكاييم) و (الكواهو) ضد مملكة (أشانتى) لكن هذه انتصرت ودخلت أراضى (الفون) من أجل الانتقام طاردة (تيقايسو) إلى الخلف حتى حدود (اتاكايام) أى توجو الحديثة، وفى القرن التاسع عشر حدث أن منطقة (يوروبا) دخلت فى وضع فوضوى ولهذا أنكرت عليها (أبومى) حقها فى الجزية، بل إنها تدخلت فى أراضيتها وكذلك احتلالها المؤقت (لباداقرى) على أن (داهومى) لم تستعد أهميتها السابقة أبدا على الرغم من إنها أبدت مقاومة لمدة ستين ضد الاحتلال الاستعماري تحت قيادة ملكها (بيهانزين) ولا بد أن (شانتى) صارت تبرز خلال القرن الحادى عشر أو الثانى عشر عندما جاء مؤسسها المدعو (أكان) من الشمال، وقد اعتمدت لغة (تسيوى) التى كانت سائدة فى البلاد وأخذت ببعض العادات المحلية ولأن (الأشانتى) شعب مقاتل فقد تقدم هابطًا عبر وادى الفولتا وخلال معبر (أكواييم) ليصل إلى الساحل حيث انعطف غربًا، وفى خلال القرن السادس عشر انضم إليه شعب (جا) من (كالابار) وهو الذى زحف سيرًا أو بقوارب هندية مسافة ثمانمائة ميل عبر الشاطئ بعد حدوث شغب وصراع قبلى، أما الأشانتى الذين وصلوا الساحل فقد أسسوا دولة (فانتى) شمال أكرا الحديثة ومملكة (الدينيكرا) القوية جدًا، وحدث أن كل دول (أكان) هذه قد دخلت فى حروب مستمرة بينها، وأخيرًا توحدت تلك الدول

الصغيرة القبلية معا تحت زعامة رئيس يدعى (كوماسى) من أجل أن تقاوم (دينيكرا) وحوالى سنة ١٧٠٠م قام بنجاح الزعيم (أوسى توتو) الذى تقول الأسطورة: إنه ولد من السحاب بقيادة التحالف ضد (دوما) بتوجيه من (كاهنه الأكبر) المدعو (أنوكى) عندما أعلن (أوسى توتو) أنه سيجعل التحالف متماسكا قويا حتى يهزم (دينيكرا) العظمى، كذلك وطبقا لرواية أسطورة (أشانتى) فإن مقعدا ينزل من السماء ليكون نموذج التضامن الأخوى الأشانتى، وإلى هذا اليوم لم يجلس أى ملك على هذا المقعد، وإنما يجلس فقط بجانبه، ومنذ هذه الفترة البطولية صار زعيم (الكوماس) معروفا على أنه زعيم (الأشانتى) ولقد هزم (الدينكيرا) ومن الطبيعى أن يتقدم (الأشانتى) لاحتلال العديد من الدويلات الصغيرة القبلية، وأن يقيم نظاما قويا يقبض على المنطقة، وبذلك يمكن استمرار بيع الرقيق وإرساله، ومن ثم الحصول على الأسلحة المناسبة من أوروبا، وحدث أنه خلال واحدة من الحروب المحلية قتل (أوسى توتو) وكان خلفه (أبوكو وار) قد وسع الإمبراطورية فى اتجاه الجنوب والشمال، ثم زاد إليها فيما بعد الزعيم الآخر المدعو (أوسى كوجو) مناطق أخرى فى الشمال البعيد إلى حدود غانا الحديثة، حيث فرض جزية تتمثل فى أعداد من الرقيق والبقر، ومن كل هذه الدول الساحلية لم تبق واحدة ذات أهمية غير (الأشانتى) عندما بدأ عصر الاستعمار، وقد احتلت (كوماس) أخيراً بواسطة قوات نيجيرية يقودها ضباط بريطانيون، أما (الأشانتى) فقد حصلت على اعتراف خاص بإدارتها فى ساحل الذهب، ولهذا بقيت كمملكة إلى أن استقلت غانا وعندما حصل الجنوب أخيراً على قدرته أجبر المملكة على الانكماش بالتهديد وبالقانون .



الفصل السابع

صناعات الخرائط وتحديد الأهداف

الفصل السابع

صناع الخرائط وتحديد الأهداف

لقد كان العائق الكبير أمام كل الأوربيين للعمل خلال الفترة المبكرة فى إفريقيا غياب الخرائط المناسبة والصحيحة ذلك أن الإفريقيين أنفسهم لم يعملوا خرائط لبلادهم، ولذلك فإن الاعتماد على الخطوط التى وضعت على ما جاء فى تسجيلات رحلات (ليو أفريكانو)، ومختلف الأطالس الأخرى هى التى كانت مستعملة مع تغييرات بسيطة خلال القرن الثامن عشر الميلادى وكانت فى غاية السوء ذلك أنه حتى خطوط الشواطئ لم تكن صحيحة المتصلة بامتداد المناطق الساحلية كذلك، فإن خريطة (دى أنفيلس) المعدة فى القرن الثامن عشر عن إفريقيا كانت أكثر قليلاً فى التفاصيل من خريطة (أوتيلوس)، وهى أيضاً عن إفريقيا وقد مضى عليها قرنان من الزمان وما زال نهر النيجر يظهر على أنه يجرى من مصادر مرتفعاته المختلفة فى اتجاه الغرب وفى خريطة (أرتيلوس) يظهر على أنه يتدفق عند قرب خط الاستواء ليصب فى متسع يسمى (بحيرة النيجر) غير أنه كان متفقاً على أن جريانه يقع على بعد ستين ميلاً شمال بحيرة تشاد، وقد أطلق عليه اسم (بحيرة بورنو) وكان يمر عبر بحيرة تسمى (فوبير) قبل أن يتفرع إلى فرعين واحد فى السنغال والآخر فى جامبيا، أما (دى أنفيل) فقد جعله يتدفق من بحيرة تشاد ويجرى غرباً تقريباً فيما يعرف الآن بحدود النيجر ونيجيريا إلى تومبوكتو، ثم يدخل بحيرة متخيلة تسمى (مابيريا) وتسمت فيما بعد باسم السنغال، ويعتقد وقتئذ أن تومبوكتو كانت مدينة عظيمة ولقد قال البعض: إنها تقع على النيل والبعض الآخر قال: إنها تقع عند السنغال ولا أحد كانت لديه أبسط فكرة عن أين يوجد الكونغو وعندما وجد (ليفينجستون) نهر (لوالابا) فى

الكونغو الأعلى اعتقد أنه النيل، وفي الشمال فإن نهر السنغال اعتبر لعدة قرون أكثر أهمية مما هو عليه في الواقع وكانت سيطرة المسلمين على بربرة يعود اللوم فيها إلى جهل الأوربيين بالداخل الإفريقي ذلك أن المغاربة المطرودين من إسبانيا أسسوا عددًا من الإمارات على طول ساحل البحر الأبيض في إفريقيا، وكان القراصنة يهاجمون ممرات جبل طارق وخليجان مالطا ليقبضوا على المسيحيين ويستعبدوهم^(١) وكذلك هاجموا سواحل إسبانيا نفسها، ومن الواضح أن القراصنة المغاربة غالبًا كانوا بقيادة البربر ومعهم الزنوج والعرب وقد نهبوا شواطئ أيرلندا وأيسلندا وسكوتلندا وإنجلترا وفرنسا والدنمارك، وكانوا قد استقروا في بعض الأماكن حيث تركوا عشائر من أصل إفريقي وهؤلاء في اسكتلندا يسمون الآن (المغاربة أي مور أو موريسوت أو موريسان)، وفي فرنسا هذه الذكريات المتصلة بأولئك القراصنة تعيش الآن في أسماء من أصل إفريقي مثل (موريسوت أو موريكود) وفي اسكتلندا اوجد البربر المزمارة، وربما نوعًا من الفضة وجواهر الحجارة المستديرة التي تعود إلى المناطق العليا في العصور الوسطى، وحدث أن مغامرين من بلدة (سالي) وهي الآن بلدة محاذية لمدينة الرباط في المغرب على المحيط الأطلنطي احتلوا جزيرة (لوندي) في إنجلترا وقناة (بريستول) وهاجموا بسفنهم الميناء الكبير المسمى (كورك) في أيرلندا، ومن المؤكد أن القوى الكبرى كان يمكنها أن تكسر قبضة القراصنة على السواحل، ولكن كانت دواخل إفريقيا لعدة قرون غير معروفة بما فيه الكفاية بحيث تقوم تلك القوى بتحدى العرب والبربر، وكانت الدواخل منيعة من جهة الأطلنطي، كما كانت تجارة الرقيق مربحة جدًا ولذلك فإن القبائل الكبيرة التي كانت تمارس تجارة الرقيق تخشى أن يصل الرجل الأبيض، ويضع قدميه في أرض إفريقيا ويباشر تلك التجارة من مصادرها مما

(١) من الواضح أن الهجمة على الإسلام لم تكن جديدة، وهي التي يقودها السيد بوش الابن الذي يصف الإسلام بالفاشية، ومعه كل الأوربيين بما في ذلك رجال الدين، وهذا بابا الفاتيكان المدعو (بينديكتوس الرابع عشر) يرجع في استدلالاته إلى القرن الرابع عشر ليقول: «إن النبي محمد لم يأت إلا بالشر للإنسانية» وهذا كله يؤكد أن العداء المصطنع مستحكم في عقول هؤلاء القوم. المترجم.

يؤدى إلى التأثير على مكاسبهم، وبالتالي يعطل حصولهم على المعدات والمواد اللازمة للحروب، وكان الوسطاء قد جعلوا المناطق البعيدة نسيياً عن الشواطئ خطراً على الرجل الأبيض الغريب مع وجود خطر آخر متعلق بالسفر عبر الصحراء ذلك هو الأمراض التى كانت منتشرة، وفى أواخر سنة ١٨٤١م أشرفت الحكومة الإنجليزية على بعثة طبية مزودة بالمعدات الكافية اتجهت إلى النيجر لكن تلك البعثة فقدت ثمانية وأربعين من مجموعها البالغ مائة وخمسة وأربعين رجلاً خلال شهرين، وكذلك فإن بعثة (ماك قريقورى) خلال سنة ١٨٣٢م فقدت تسعة وثلاثين رجلاً من مجموعها البالغ ثمانية وأربعين رجلاً بسبب الأمراض، وبتأسيس الجمعية الإفريقية لاستكشاف الدواخل فى إفريقيا خلال ٩ يونيو ١٧٨٨ ميلادية وباجتماعها الأول الذى ربما كان يمثل الخطوة الأولى فى عملية وضع السواحل الإفريقية على الخريطة، وكانت واجبات الجمعية الأولى أن تجد نهر النيجر، وأن تبين مساره فى اتجاه المحيط، وبعد بعثتين إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط اللتين فشلتا تقرر القيام بمحاولة أخرى من الساحل الغربى، وهكذا سافر الميجر (هوتسون) متجهاً إلى (جامبيا) لكنه فقد حياته عند المصب الأعلى للنهر، وهذا بالتأكيد كان له مفعول سيئ على جماعة المستكشفين، ولذلك فإنه فى سنة ١٧٩٥م عندما قدم الدكتور (مانجو بارك) عرضاً للخدمة بواسطة سفينته التى كان عمرها عشرين سنة تم قبول العرض فوراً وطلب منه أن يتجه إلى جامبيا صعيداً من أجل أن يجد نهر النيجر ويسير معه إلى أن يصل مدخله (فمه) وهكذا غادر (الدكتور مانجو بارك) إنجلترا فى مايو سنة ١٧٩٥م وغادر الساحل فى شهر أكتوبر وبعد تسعة أشهر مضنية عبر مناطق وبلاد الفولانى حيث قابل أخيراً نهر النيجر فى منطقة (سيقو) يوم ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٦م، وكان وصفه لتلك الرحلة جزءاً هاماً ومثيراً جاء بعنوان (السفر عبر المراكز الداخلية فى إفريقيا) قال: لقد شاهدت بسعادة بالغة نهر النيجر يلمع تحت شمس الصباح واسعاً مثلما يكون عليه نهر التايمس فى (ويستميتر) وهو يتدفق فى اتجاه الشرق، وكان (بارك) فى سفره مع (فريدمان) ومعهما صديق كان رقيقاً وقد حصل على حرثته عند العودة، ولم يكن لديهم ما

يكفى من الطعام لأكثر من يومين وقليل من التبغ للمبادلة، ولقد استمر (بارك) فى رحلته خلال شهور من الرعب والتعب، وكان على وشك الموت لولا مساعدة زنجى رقيق كان فى طريقه للبيع مع الأوربيين فى جامبيا، ولقد رجع (بارك) إلى أوربا بعد غياب دام ثلاث سنوات ونصف السنة ليعلم عند عودته أنه كان قد اعتبر ميتاً، ورغم التعب والحرمان والمرض خلال سفره فقد تمكن لحسن الحظ من إنجاز وحفظ مذكراته التى وردت فى كتاب تفاصيله جعلت معظم مغامرات القرن العشرين محتشمة الشيء الذى أظهر (بارك) بأنه رجل قوى الأعصاب يسيطر على نفسه فى الملمات كما حدث عندما قابل فى (كارتا) الملك كورابارى الذى أنذره بالآل يستمر عبر منطقة (بامبارا)؛ إذ إن الحرب كانت مستعرة هناك ومجيئه من بلاد الأعداء ربما يعرضه للموت، لكن (بارك) لم يصبر فقط وإنما أقنع الملك بأن يزوده بالمرشدين بما فى ذلك ثلاثة من الأمراء، وكل أولئك الرحالة الأوائل واجه (بارك) الكثير من الصعاب والمشاكل والأخطار، لكنه كان يقنع مرافقيه على التقدم وهؤلاء كانوا يخشون الاستعباد لمجرد أنهم بعيدون عن حدود قبائلهم ولو قبض عليهم العدو فسوف يباعون كرقيق، وكان شكل (بارك) الأبيض وشكل جسمه يسبب التخوف أو الاستغراب أينما حل، ففى (بينوان) كان الناس الذين يردون الماء من الآبار يرمون دلائهم، وأولئك الذين فى الخيام يستعدون بخيولهم، بينما الرجال والنساء والأطفال يركضون إليه، وعندما قبض عليه وحقق معه وهدد كانوا يخلعون ثيابه للتأكد من بياض جسمه كما أنهم يعدّون أصابع رجله، وذات مرة أراد الحاكم المحلى أن يختبر مقدار احترامه للإسلام، فقدم له لحم خنزير برى مشوى، ولو كان قد أكله فإن ذلك كان ربما سيؤدى إلى قتله، ولقد كان فى الواقع سجيناً يتعرض للتعذيب وكان أغلب الذين يعذبونه من المغاربة وقد واجه أبلغ عمل همجى يمكن أن يقع على وجه الأرض، وحدث أنهم سلبوا منه كل شيء غير شيء واحد وهو (البوصلة) التى كانت معه حيث خافوا من أنها قد تكون شيئاً سحرياً، وفى محاكمته أمام زعيم القبيلة استشار الزعيم رجاله الكبار فى السن ما إذا يستحق الموت أو أن تقطع يمينه أو أن

تسمل عيناه، وحتى عندما كان مريضاً فإن أولئك الذين كانوا يعذبونه استمروا فى ذلك بانتظام، لكنه على أى حال فى النهاية أفرج عنه بعفو من الملكة المحلية، ومن هناك باشر رحلته عبر أراض تجوب فيها السباع، ومن هناك وصل النيجر وهنا فى (سيقو) لم يجد (بارك) ترحيباً من الحكام المحليين، ولذلك قرر أن يعود إلى الساحل، وقد لاحظ أن زعيم القبيلة عندما سمع الحديث عن النهر أى هدف رحلة (بارك) استفهم قائلاً: ألا توجد فى بلادكم أنهار؟ وليس الأنهار مثل بعضها؟ وفى عودته أتعبته المستنقعات والحيوانات المتوحشة والمرض الذى أعاق كثيراً مسيرته، وأخيراً وصل الساحل فى ملابس ممزقة، أما كتابه فقد نشر سنة ١٧٩٩م، وكتب مقدمته الميجر (جيمس ريفيل) الجغرافى المشهور خلال تلك الفترة، كتب يقول: فى العموم إنه من النادر الشك فى أن نهر النيجر ينتهى فى بحيرات بالقسم الشرقى من إفريقيا، وهكذا فإن البحيرات يظهر أنها تقع فى (وانقارا) وغانا، ولقد كانت ترجمة (رينيل) الخاطئة نتيجة لتراجم أخرى خاطئة؛ إذ لم يكن معروفاً وقتذاك من أى بلد يأتى الذهب لا من (وانقارا) ولا من مملكة الممالك (غانا) التى اختفت منذ زمان، ولكن فصل نهر النيجر عن السنغال وجامبيا بسبب قوة اندفاعه فى مراحل السابقة كان خطوة فى الاتجاه الصحيح، وكان (رينيل) يرى أن (وانقارا) و(غانا) تمثلان حوض شمال إفريقيا فى حين أن مياه نهر النيجر تتوسع كثيراً فى بحيرات أرضية تتبخر منها، ولم تكن هذه النظرية فى كليتها جديدة على أنها كانت مقبولة فى نطاق واسع وكان (ليو أفريكانو) بقوله: إن (وانقارا) كلمة من لغة الهاوسا وقد حدد لها مكاناً مخصصاً شوش به على الجغرافيين لعدة قرون، وكان قد عرف أن نهر النيجر يصب من أو عبر (وانقارا)، وفى مذكرات (رينيل) أن أحد المؤرخين -يعتقد أنه الإدريسى- قال: إن (وانقارا وليو) هما مكان واحد وأنه وافق على الاعتقاد السائد أن مدينة الهاوسا فى (كانو) هى غانا القديمة، وكتب (رينيل) مؤكداً أن غانا فى القرن الخامس عشر كانت الأعظم فى وسط إفريقيا، وأصبحت الآن مقاطعة فى (كاسينا)، وبينما كان (بارك) يواجه الصعوبات عند الساحل غادر شاب ألمانى يدعى (فريدريك هونيومان) القاهرة فى أبريل ١٨٠٠م،

جاءت منه معلومات بعد المغادرة أنه وصل مرزق فى منطقة فزان، وعلم فيما بعد أنه وصل النيجر فى بلاد النوبى حيث مات، وأما مذكراته فلم تر النور، وقامت الحكومة البريطانية على خجل بعد كثير من محاولات المؤسسات الخاصة بتمويل رحلة تقوم بالإبحار عبر نهر النيجر إلى البحيرات المتبخرة، وقرر (بارك) أن يقود الرحلة بحيث يسير إلى (سيقو) وهناك يقوم بصنع قارب يبحر به نازلاً مع النهر عبر (كاتسينا) فى أرض الهاوسا والنوبى إلى مملكة (الوانقارا)، وإذا ما انتهى النهر هناك فإنه إما سيعود صعوداً مع النهر وعبر جامبيا أو أن يعود عبر الصحراء أو عبر النيل، أو أن يبحث عن طريق جديد يؤدى به إلى خليج بينين، والحقيقة أن (بارك) نفسه لم يتوقع أن يقوم بأى من هذه الأشياء؛ لأنه كان مقتنعاً بأن النيجر والكونغو هما واحد ونهرهما واحد، وهذا خطأ لكنه تخمين أكثر ذكاء من فكرة (رينيل) كما كان يعتقد أنه سيصل الأطلنطى بقاربه ذاك، ولقد أمرت الحكومة (بارك) بأن يستوضح حالة التجارة وأن يعمل ما نسميه الآن (بحث سوقى)، وكان (بارك) مصحوباً بزميلين آخرين وخمسة من صناع القوارب الذين يتوقع أن يصنعوا له القارب الذى يريده، وأن يتقل من (قورى) وما بعدها مع اثنين من الملاحين وضابط من الجيش وخمسة وثلاثين جندياً يتزود بهم من حامية (قورى) وعدا دليل واحد من قبيلة المادينقو لا أحد من المحليين يلحق بالقافلة الاستكشافية، وهكذا غادر (بارك) لندن فى يناير ١٨٠٥ م مصحوباً برفاق وبالمساعدة الحكومية، وكان سعيداً أنه سيسلك طريقاً مر بها سابقاً، ولكن الرحلة واجهت كوارث فقد حدث أن الجنود أصيبوا بمرض الحمى والدوسنتاريا وماتوا، وبذلك خيم اليأس على كل الفريق وكان (بارك) بعزمته يدفع الجميع إلى التقدم للنجاة من الموت وأرسل أمامه أخباراً إلى (سيقو) ليبلغ (مونسونق) عن احتمال وصوله وليستفسر ما إذا كان نهر النيجر صالحاً للملاحة مؤكداً أنه فى هذه الحالة ستصل البضائع الأوربية إلى (سيقو) وتكون أكثر رخصاً مما كانت عليه بغير الوسطاء، وذكر أن الفريق يرغب فى صنع القارب بحيث يمكنه أن يصعد مع النهر، وبينما كان الرد منتظراً مات اثنان آخران من الفريق، وحينما كان يجرى الاستعداد

للتقدم فقد (بارك) اثنان آخران من رجاله أحدهما نائبه (الدكتور أندرسون)، ولقد مات كل الفنيين المراققين الذين أوكلت اليهم مهمة صنع القارب قبل أن يصلوا إلى (بامباكو)، أما بالنسبة للجنود فقد دفن منهم فى الطريق ثلاثة أرباعهم وفى منطقة (ساسندنق) حيث انتهى عمل القارب، أخيراً أرسل (بارك) فى نوفمبر سنة ١٨٠٥م آخر رسالة وهى تقول: إنى لآسف أن أقول: إن الأربعة وأربعين أوريبيا الذين غادروا جامبيا فى صحة جيدة بقى منهم الآن خمسة رجال فقط أحياء، ولكن رغم أن بقية الأوريبين الذين معى قد يموتون وأنا شخصياً نصف ميت، فسوف أواظب على السير، وإذا لم ألتج فى الوصول إلى هدف رحلتى فإننى على الأقل سوف أموت فى النيجر، وهكذا فقد أوصله قدره إلى ما قال، فمات هناك وكانت رسالته تلك وآخر خطاب إلى زوجته قد حملهما إلى الساحل صديقه المخلص ودليله المدعو (ماندينقو) وهو الذى أرسل فيما بعد ليكمل المهمة التى بدأها (بارك)، وفى التقصى والتحقيق اللاحق وجد أن (بارك) ورفاقه الثلاثة الأحياء قد أبحروا هبوطاً فى نهر النيجر لمسافة ألف ميل حيث وصلوا شلالات (باصا) وفى موقف تاريخى عندما وجدوا جوانب النهر مزدحمة بالمواطنين الغاضبين، ولم يتمكنوا من النزول على الأرض، وربما اتضح لهم أن هذا القارب لن يصمد أمام المياه الهائجة واصلوا الإبحار هبوطاً إلى أن هلكوا، ولقد اعتقد بعض الذين كتبوا فيما بعد أن توحش المواطنين المسلحين على جوانب النهر كان يمثل حركة إيماء بإنذار للرجال البيض بشأن وجهتهم، ومن هنا فإنه لابد من النظر إلى سلوك أولئك المواطنين خلال السنوات التالية للحكم على أسباب ذلك الحدث، وفى هذه الجهود العظيمة كان (ماندينقو) الوحيد الذى عاش برغم رحلة الإبحار الطويلة ومع الأسف لم يبق أى تسجيل لهذا الجزء من الرحلة، ومازال الأمر غير معروف أى السؤال الحائر الذى يقول: أين ينتهى نهر النيجر؟ ومن أجل أن يجمع هذا الجهد المأساوى الضائع فقد اعتقد فى أوربا أن (باصا) تبعد عن تومبوكو بثمانين ميلاً، والواقع أن المسافة ثمانمائة ميل هبوطاً، ولاحقاً لم يعرف أن حظ (بارك) السيئ فى رحلته قد أوضح احتمال أن يكون النهر يصب فى البحر وليس فى البحيرات

الداخلية، ولكن الاعتقاد تعزز بأن (بارك) كان على صواب عندما قال: إن النيجر والكونغو هما واحد، وفي سنة ١٨١٦م أرسلت الحكومة البريطانية رسمياً بعثتين استكشافيتين لمعرفة اتصال النيجر بالكونغو بواسطة الإبحار صعوداً في نهر الكونغو، ومحاولة الإبحار هبوطاً في نهر النيجر وحدث أن البعثتين توصلتا لنهاية مبكرة وسريعة، وبعد سنتين قاد القبطان (ف.ج. ليون) بعثة من طرابلس، لكنها لم تتجاوز فزان ومع ذلك أثبتت أن نهر النيجر يصب في النيل من جهة الجنوب من (دنقلا) وكان من الصعب اجتياز ذلك الخط الطويل الذي تتضاءل أمامه الشجاعة ومحدودية نجاح البطولة، وفي سنة ١٨٢١م قامت الحكومة البريطانية بإرسال بعثة أخرى من طرابلس يقودها الميجر (ديكسون دينهام) يساعده الضابط البحري (هوق كلايرتون) والدكتور (والتر أودنى)، وقد عطلت هذه البعثة مواقف معادية في مرزق لعدة شهور لكنهم أخيراً تمكنوا من المغادرة في اتجاه الجنوب، حيث وصلوا بحيرة تشاد وقد استقبلوا هناك من طرف الشيخ (الكانيمي) الذي أرسل إلى الملك جورج الرابع قائلاً: إنه يقبل أربعة أو خمسة تجار لا أكثر، وحدث أن رجلاً يدعى (تايرويت) كان يرافق البعثة خلال مايو ١٨٢٤م ترك ليكون قنصلاً في (كوكا) وهي عاصمة الشيخ (الكانيمي) وكان (ديرهام) الذي اعتقد أن نهر النيجر وتشاد كانا جزءاً من مجرى واحد قد انبهر باكتشاف بحيرة عظيمة أكبر وقتئذ مما هي عليه الآن، ولكن طالما أنه لا يوجد نهر حقيقى يتدفق منها أو إليها، فإن الاعتقاد كان قد صار احتمالاً، وكانت هناك فكرة أخرى تقول: إن النهر يجرى تحت الأرض، أما (أدنى وكليبرتون) فقد اتجها غرباً ليستكشفوا الهاوسا ويبحثا عن النهر هناك في حين أن (دورهام) ركز اهتمامه على بورنو ولقد توفي (أدنى) في (مورمور) قرب (كاتاتوم) وكان عمره اثنتين وثلثين سنة، بينما وصل (كليبرتون) إلى (كانو) حيث قيل له: إن نهر النيجر الذي يعرف باسم (كوورا) هو الآن في دورة انخفاضه ويتدفق في اتجاه البحر من مكان يسمى (راكا) الذي يقع في أرض (يوروبا) ويستعمله أصحاب السفن الأوربيون، وأن ذلك على مسافة شهر سيراً، ولكن المعلومات من الناس كانت قليلة، إذ اعتقدوا

أن (كليبرتون) كان يتجسس لمعرفة الأرض من أجل الغزو، وذلك مما يفسر لماذا قيل له: إن النهر يصب في بحر تستعمله سفن الأوربيين وذاك شيء يمكن أن يكون حقيقة، ويمكن أن يكون غير حقيقى، والواقع أن دلتا النيجر ليس فى أرض (يوروبا) وليس هناك مكان يسمى (راكا) وتوجه (كليبرتون) غرباً إلى (سوكوتو) وهى عاصمة (محمد بيللو) الملقب (بساركين مسلم) أى المسلم المتدين الذى سمع عن البريطانيين، وقد أبلغ (كليبرتون) أنه يرغب فى التجارة معهم وطلب تعيين قنصل بريطانى وإرسال طبيب إلى (سوكوتو) ووعد كليبرتون بالمساعدة بعد أن يصل (ياورى ونوبى) بحيث يمكنه دراسة النيجر، ولكن العرب المقيمين وهم الأعداء الطبيعيون للأوربيين هناك والذين يسعون لاستغلال التجارة عبر الأرض مع إفريقيا الأطلنطية استطاعوا أن يقنعوا ابن بيللو المدعو (عثمان دان فوديو) بأن يلغى ما تعهد به والده، ومن جهة أخرى كان إصرار (كليبرتون) المستمر على أن يكون ثمن اتفاق الصداقة مع بريطانيا هو الموافقة على إنهاء تجارة الرقيق لكن هذا الإصرار جعل (محمد بيللو) يقف ضد كليبرتون حيث إن تجارة الرقيق وقتئذ كانت الحرفة الأساسية لقبائل الفولانى ورغبة من كليبرتون فى أن يعرف مقدار القبول أو الرفض من جانب القبائل فى غرب السودان حاول أن يستمر عبر تشاد، ولكن أدرك أنه لا يستطيع التقدم وهكذا عاد إلى بورنو حيث وجد (دينهام) وتوجهها معاً شمالاً عائدين عبر الصحراء إلى إنجلترا، وكان (كليبرتون) متأثراً أكثر من (دينهام) بنتائج الرحلة على الرغم من أن (دينهام) كان قائد البعثة فقد كان رجلاً إنجليزياً تقليدياً شجاعته واحتماله فى العادة يعتمدان على التأبه حيث جاء كتابه مليئاً بعبارات غير مهذبة عن المشاكل التى وقع فيها أو واجهته فمثلاً حدث أنه رفض أن يرفع يده بالتحية العسكرية لزعيم بورنو وهى حادثة جعلت رحلته مثيرة وعدائية، لكنه مع ذلك قرر أن يصحب القوات البورنية فى حملة حربية، وقد رأى الحراب السامة القاتلة أمام عينيه، والسهام المرشوقة فى الوجوه أثناء القتال، وفى تلك الحملة أسر مع البورنيين وفى الأسر عذب ونزعت ملابسه إلا أنه استطاع أن يهرب عارياً عبر الغابات مواجهاً الموت بسبب الأفاعى لولا

أن أنقذه أحد البورونيين الذى تصادف مروره وهو يمتطى فرساً فنقله إلى (كوكا)، وبقي هناك خلال فصل الشتاء يشارك البورونيين فى حلقات التصارع والرقص وصيد الجاموس فى الوقت الذى كان فيه ينتظر رفيقه (كليبرتون)، ولقد استكشف بحيرة تشاد بالكامل، وبعد (دينهام وكليبرتون) صارت مشكلة نهر النيجر على وشك الحل حيث إن تلك المشكلة الكبيرة والطويلة بشأن النهر ماتزال قائمة ولم يستكشف تفصيلاً، وهذا النهر يطلق عليه المهتمون بالجغرافيا كلمة لاتينية تعنى (الأسود) وفى الواقع أن له عديد من الأسماء؛ لأنه يمر عبر أمم إفريقية مختلفة ومازال هناك كثير من الغموض حول مجرى هذا النهر، ولا توجد صورة واضحة حول ما إذا كان ينتهى فى وسط إفريقيا أو شرق إفريقيا، أو ما إذا كان واحداً من المصبّات على شواطئ إفريقيا الأطلنطية، وفى سنة ١٨٢٥م كان كليبرتون قد أرسل مرة أخرى للبحث التفصيلي عن نهر النيجر وجاء إرساله هذه المرة عبر الجانب الأطلنطى، وكان عليه أن يستكشف مجرى النهر الأسفل، ومن المأمول أن يجد فرصة لتنفيذ الاتفاقية التى وقع عليها (بيللو) الخاصة بتحريم تجارة الرقيق، وكان هذه المرة مع (كليبرتون) أربعة من الأوربيين ولم يتمكن أحد من إقناع خادم هذا السيد الأرسطوقراطى المدعو (ريتشارد لندر) بحيث لا يكون أحد هؤلاء الذين يرافقون كليبرتون والذين يغادرون إلى المجهول، والحقيقة أن نتيجة هذا العمل سيكون عالم العلوم والسياسة والتجارة مدينًا له بالكثير حيث كانت تلك الموانئ التى أشار إليها كل من (بيللو وراكا وفوندا) غير معروفة لأهل الساحل والملاحين، ولهذا بدأت المجموعة رحلتها عبر الصحراء من (باداقرى) غير أن أحد أفراد المجموعة قد اعتبر ميتاً لأنه نزل فى (ويدا) من أجل أن يقوم بزيارة استطلاعية واختفت أخباره منذئذ، وكان اثنان قد ماتا فى بداية الرحلة مباشرة وهكذا لم يبق من المجموعة إلا (كليبرتون ولندر) وحدث أن الرجلين فى سفرهما وصلا النهر عند منطقة (ويسا) عبر (أويو)، وهناك عرفا حقيقة موت (بارك) المستكشف السابق، وكانت رحلتها عبر الغابات المطيرة قد أنهكتها وخصوصاً بالنسبة لكليبرتون على الرغم من أن (كانو وسوكوتو) كانتا تخلصان من الأمراض لكن (كليبرتون) ظل معلولاً.

وفى (سوكوتو) استقبلا من المحليين بيروود ظاهر؛ إذ كانت أخبار قد سبقتهما تقول: إن البريطانيين يخططون لإسقاط حكم الفولاني، وحالة الريية هذه والشك قد أدت إلى موت (كليبرتون) فى أبريل سنة ١٨٢٧م، وهو فى عمر يناهز الستة والعشرين سنة وكان رفيقه (لندر) أيضاً مريضاً وليس لديه باق من مال أو معدات، وبعد موت كليبرتون أخذ طريقه إلى (كانو) متجهاً فى طريق يمر بين (النيجر وبينو) إذ كان يأمل أن يبحر هابطاً عبر نهر النيجر إلى خليج بينين؛ لأنه يعتقد مثل رفيقه الذى مات (كليبرتون) أن النهر ينتهى هناك، ولكن حدث فى مكان يسمى (دونورا) أن سد طريقه أناس من قبيلة معادية، وكان عليه فى هذه الحالة أن يعود من حيث أتى فوصل أخيراً عبر الصحراء إلى (باداقرى)، وهناك فوجئ بأنه أمام أعظم اكتشاف جغرافى فى هذا الزمن وسعد بذلك؛ لأنه يكافئ ما عاناه من تعب، ومن (باداقرى) ركب سفينة متجهاً إلى إنجلترا مزمعاً أنه لا بد أن يعود إلى إفريقيا من أجل أن يكمل عمله وعندما وصل لم يجد كثير اهتمام، وقد استغل بشكل سيئ من حكومة ذلك الوقت، واعتماداً على نفسه تجهز ليغادر إلى الساحل مصحوباً هذه المرة بأخيه (جون) بعد أن حصل على وعد بأن والدتهما ستحصل على معونة قدرها خمسة وعشرين جنيهاً كل ثلاثة أشهر طالما كانا بعيدين، ثم إن مبلغ مائة جنيه ستدفع لهما إذا ما عادا، وحدث أن الشابين اللذين تجاوزا أخيراً سن المراهقة تمكنا من الوصول إلى (بوسا) حيث يوجد الأمير الذى مازال يعلق على ملابسه الفخمة ميدالية أعطاهما لسلفه ريتشارد لندر، ومن هناك اتجها بقارين صغيرين وفى مناطق قريبة من النهر كان هذان الشبان أول أجنبيين تمكنا من مشاهدة الطقوس الدينية التى تؤديها القبائل النهرية فى النيجر الأسفل، ولكن كلما اقتربا من البحر يزداد موقف الناس العدائى ضدهما حيث كانت المناطق فى فوضى بسبب حرب تجارة الرقيق، وهنا قبض عليهما محاربو (الآبو) إذ إنهما عندما توقفا بقاريهما أحاط بهما المقاتلون الذين كانوا أيضاً بقواربهم، وبذلك أصبحا معتقلين وقد استولى المحاربون على كل ما لديهما وكان المهاجمون يرتدون ملابس بعضها أوربى مع قبعات ويتكلمون لغة (البيديجين)، مما

أعطى الشابين أملاً في النجاة، وعرفا أنهما بالقرب من الأطلنطى وفي قرية بها أمير تسمى (داكتا) في منطقة (براس) أفرج عنهما ومنحهما الأمير مبلغاً قدره ثلاثمائة دولار كدين يدفعانه فيما بعد، وإذ وجد الشابين سفينة بريطانية اعتقدا أن القبطان سيوافق على دفع المبلغ للأمير وعندما طلبا منه ذلك رفض في البداية وعندما مرض هذا القبطان ويدعى (ليك) ومات نصف بحارة السفينة بمرض الحمى غير موقفه من الشابين، ووعد بأن يدفع المبلغ للأمير لكنه خلف وعده وأبحر بسفينته، وكان الشابين قد نجيا من الموت وحققا نجاحاً كان له أثر طيب أثناء رحلتهم وقررا أن يعودا إلى إنجلترا.

وفي هذا الوقت كان أعقد لغز في جغرافية إفريقيا لم يحل الشيء الذي احتاج لنصف قرن قبل أن يتمكن (هنرى ستانلى) من حله وكانت رحلته ممولة من جريدة (أخبار نيويورك) وبعد ذلك تابعت اكتشافات أخرى، ففي سنة ١٨١٨م قام المستكشف الفرنسى (جورج موللين) بتتبع مجرى أنهار (السنغال وجامبيا وريوقراندى) حتى وصل مصادرها، ثم إن الميجر (جوردن لايتون) كان أول أوربي منذ عهد المرتدين العاملين في قوات مراكش يصل تومبوكتو التى كان موقعها لغزاً جغرافياً آخر حيث سافر (لايتون) من طرابلس عبر غدامس وبعدها وصل المدينة المحرمة في أغسطس سنة ١٨٢٦م وفي طريقه أصيب بجرح خطير إثر مواجهة مع التوارق، وفي بداية طريق عودته من تلك الرحلة قتله حاملو معداته، ومع الأسف اختفت ملاحظاته معه، وخلال السنة التالية قام مواطن فرنسى من أصل متواضع يدعى (رينى سايلى) برحلة من (ريو نونيس) رغبة في منافسة (لايتون) في رحلته وكان متذكراً في شكل ولباس عربى وفي رحلته كان (جيني) يجذف هبوطاً عبر نهر النيجر إلى تومبوكتو، واستغرقت رحلته سنة كاملة، ثم عاد بطريق الصحراء عبر (آراوان وتاغازا) إلى (تافيليت) مع قافلة تتكون من جمال تنقل العبيد والعاج والذهب والصمغ وريش النعام وأقمشة (كانو)، وكانت رحلة الصحراء عصيبة متعبة.

لكن القافلة في النهاية وصلت فاس حيث اختفى الشاب فى بيت القنصل الفرنسى إلى أن وجد طريقاً إلى فرنسا، ثم قام (ريتشارد لايتون) بثالث رحلة إلى

غرب إفريقيا سنة ١٨٣٢م، وهذه المرة إلى ما يمكن اعتباره واجباً أقل صعوبة من رحلتيه السابقتين الماضيتين يرافقه اثنان من الأصدقاء القادرين أحدهما يدعى (ماك قريقورى ليرد) والثانى يدعى (ر. ك. أولد فيلد)، وبعثة كبيرة تتكون من أكثر من مائة شخص، وكان عليه أن يبحر صعوذاً بدلاً من الهبوط عبر نهر النيجر على أن الحروب والأمراض جعلت من رحلة النهر كابوساً وكان (ليرد) مصاباً بمرض شديد وقد توقف المرافقون انتظاراً لما يحدث له فى حين تابع (أولفيلد ولاندر) تقدمهما للاستكشاف وتخطيط منطقة (بينو) وفى طريقهما واجها قبائل معادية حيث قتل (لاندر) فى (هياما) متأثراً بجراح من ضربة رمح.

وعند منتصف القرن كان غرب إفريقيا يواجه ربما أكبر تحرك، بل من المؤكد أنه جيل كامل من المستكشفين العظام مثل الألمانى (هينريخ بارث) والبعثة البريطانية الرسمية بقيادة (جيمس ريتشارسون) ويشمل مشروع (بارث) ورفيقه الدكتور (هانس أوفرويق) اتفاقيات تبحث مع الزعماء فى السودان الغربى، وفى منتصف الطريق عبر الصحراء تفرق ثلاثتهم على أمل أن يلتقوا مرة ثانية، (فبارث) اتجه مباشرة ليدرس أغاديس قبل أن يواصل جنوباً إلى الهاوسا بحيث يلتقى مع (أوفرويق) ويزورا (كاتسينا وكانو)، وكان فى هذا الوقت قد نفذ ما مع (بارث) من مال، لكن أمير (قرودينقلى) وافق على أن يكفله ورفيقه (أوفرويق) إلى أن يصل (بورنو) وفى الطريق علم (بارث) بموت رفيقهما الثالث (ريتشاردسون)، ولهذا صار هو المسئول عن رحلة الاستكشاف، ولم يكن سلطان بورنو غير راغب فى التجارة مع بريطانيا؛ لأنه كان فى حاجة لفوائد التعامل بحيث يمكنه شراء الأسلحة والمعدات من أجل أن يصطاد العبيد، وبيعهم لقوى أخرى، لكنه مع ذلك كان يشك فى سياسة بريطانيا الجديدة القاضية بتحريم تجارة الرقيق، وهكذا فإن رحلة التجارة هذه لم توفق البعثة فى تحقيق شيء منها عند بورنو، أما (بارث) فقد اتجه جنوباً ليستكشف (بينو) عبر (كوكا وأداما و وكانوم وماندارا وبقارمى) ووصلها من جهة (يولا) لكنه وجد قبيلة الفولانى هناك عدوانية فتراجع مسرعاً وخلال تراجعه عبر (بينى) فى اتجاه الشمال اكتشف بحيرة تشاد، وشاهد لأول

مرة تجارة الرقيق فأزعجه ذلك، وكان فى نيته أن يتجه شرقا إلى النيل، ولكن نفاد ما لديه من مال جعله يرجع إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا.

ثم وعلى غير توقع أبلغ بأن هناك رسائل من اللورد (بالميرستون) وزير خارجية بريطانيا ومعها كمية من الدولارات، وأمر من وزير الخارجية إلى (بارث واوفريق) بأن يعودا لزيارة تومبوكتو وتلك فرصة تهيأت ذات مرة لهذا المستكشف الألمانى، وفى هذه الرحلة حدث ما لم يكن متوقعا وكان حدثا مروعا حيث مات (واوفريق)، ولهذا فإن (بارث) استمر بلا رفيقه ومعه دليل واحد فقط، وعبر (زيندير وكاتسينا وكانو وسوكوتو وقواندو) وفى أثناء هذه السفرة اكتشف النسخة الوحيدة الباقية من كتاب (تاريخ السودان)، وعبر النيجر من خلال منطقة (ساي) ليجد نفسه فى أرض تشتعل فيها الحروب بين التوارق والعرب من جانب، ومن الجانب الآخر من أطلق عليهم (بوفيل كروسبى) اسم الفولانى المتعصبين، وهكذا سار فى طريق صعب وخطر فى اتجاه الشمال إلى أن وصل تومبوكتو متخفيا بلباس عربى وكان فى غاية المرض وهنا كشفت شخصيته وصار معرضا للقصاص، ولكن من حسن حظه أن بعضا من تقاليد تومبوكتو ماتزال باقية ذلك أنه من خلال معرفته بالإسلام بجانب دفاعه الكبير عن عقيدته أثار إعجاب المشفقين وحدث أن الشيخ البكاى زعيم عرب مدينة (الكونتا) تعهد بحمايته، وكان التوارق والعرب يسيطرون على مدينة (الكونتا) على الرغم من أن سيطرتهم كانت فى ذات الوقت يتنازعها معهم الفولانى، وهكذا فإن البكاى وحده الذى أنقذ حياة (بارث) برغم الضغط الشديد الذى مارسه الفولانيون بما فى ذلك إنهاء النزاع فى (الكونتا) إذا ما سلم لهم (بارث)، وأثناء وجود (بارث) فى تومبوكتو ورغم جراحه وحالته غير الطبيعية فقد جمع معلومات عنها أكثر مما كان فعل أى رحالة قبله أو أثناء وجوده، ثم إنه فى (كونتا) قرر أن يهرب بحيث يعفى البكاى من المسؤولية عليه وعلى حياته، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت وعندما كان (التوكودور) بزعامة الحاج عمر على أبواب تومبوكتو أرسل البكاى رسائل عبر

الصحراء يطلب من الملكة فيكتوريا^(١) المساعدة ولم يجد ذلك الطلب استجابة من الملكة البريطانية، ولكن بعد وقت لاحق قامت الإدارة الفرنسية في السودان بإقامة نصب تذكاري (لبارث) تذكيراً للناس بشجاعته حيث كان (بارث) قد عاد إلى الهاوسا واستراح لبعض الوقت، ثم واصل إلى بورنو عبر الصحراء ووصل لندن في ديسمبر سنة ١٨٥٥م بعد خمس سنوات من الترحال على القدمين أو بالقوارب والجمال، حيث غطى مساحة أكثر من أى رحلة أجنبي أو محلي في النصف الشمالي من إفريقيا، وفي لندن فإن (بارث كما لندر) لم يلاق كثيراً من التكريم غير أن رئيس الوزراء (بالميرستون) صافحه، وكذلك اللورد (كلاريندون) ومنح ميدالية من الجمعية الجغرافية ومبلغ من مصروفات الرحلة لم تكن دفعت، لم يتب الرأى العام لإفريقيا في وقت (كلابيرتون ولاندر) وبعد أن ماتا عاد (بارث) إلى لندن، ولم تذكر الصحافة

(١) فكتوريا ولدت سنة (١٨١٩ - ١٩٠١) وهى ملكة إنجلترا (١٨٧٣ - ١٩٠١) وصارت إمبراطورة الهند سنة ١٨٧٦م، خلفت عمها (وليان الرابع) وبارتقائها انتهت العلاقة بين عرش بريطانيا هانوفر، وكان اللورد (بليرستون) لأوب رؤساء وزاراتها وكان صديقها ومستشارها الخاص، تزوجت سنة ١٨٤٠م ابن خالها الأمير (البرت) الذى أحبه وأنجبت منه تسعة أبناء وبنات، ربط زواجهما الأسرة المالكة البريطانية بالأسر المالكة فى روسيا وألمانيا واليونان والدنمارك ورومانيا، وفى سنة ١٨٤٠م توترت العلاقات بين إنجلترا ومحمد على الكبير زعيم مصر بسبب سياسة بلمرستون العدوانية ضد مصر عقب حرب الشام الثانية، ولقد أدت مصالح بريطانيا التجارية إلى نشوب ما عرف بحرب الأفيون مع الصين سنة ١٨٤٠م، وأرغمت الملكة فكتوريا وزير خارجيتها بلمرستون على الاستقالة فى ديسمبر سنة ١٨٥١م؛ لأنه كان يهمل رأياها فى الشؤون الخارجية الهامة، أبدت حرب القرم سنوات ١٨٥٤ - ١٨٥٦م، عند وفاة زوجها الأمير ألبرت سنة ١٨٦٠م، اعتزلت الحياة الاجتماعية ثلاث سنوات، ولقد تناوب على رئاسة الوزراء فى عهدها كل من (وليم جلادستون زعيم حزب الأحرار) و(بنيامين دزرائيلى زعيم حزب المحافظين)، وإذا امتد حكمها طويلاً، فقد بلغت بريطانيا أوج رخائها وتوسعها الاستعماري، أدت قوانين الإصلاح البرلماني (١٨٦٧ - ١٨٨٤) إلى كثير من الإصلاحات السياسية والتشريعات الاقتصادية التى أزالَت المفاصل الاجتماعية التى كانت تعانىها الطبقة الكادحة، لقب إمبراطورة الهند صنعه لها (دزرائيلى) سنة ١٨٧٦م، احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م، وفى سنوات فكتوريا الأخيرة حدثت حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) التى انتهت بضم بريطانيا للترنسفال وأورانج إلى إمبراطوريتها التى كانت لا تغرب عنها الشمس، والآن صارت تابعة للولايات المتحدة الأمريكية وتآمر بأمرها. المترجم .

عنه شيئاً في ذلك الوقت، ثم نشرت ثلاثة أجزاء من كتابه وعنوانه: (رحلات الاستكشاف في شمال ووسط إفريقيا)، لكن لم يجد الكتاب أى رواج فقد طبع منه ألفان ومائتان وخمسون نسخة فقط بيع منها بصعوبة ألف نسخة، وكان هذا الكتاب بأجزائه يمثل موسوعة من التفاصيل التاريخية والجغرافية والإثنية، وكذلك التجارية والسياسية الهامة عن بلدان مقسّمة إلى أجزاء ولغات وأمم، فيها أسرع وسيلة للسفر تكون على ظهور الجمال.

وكانت حياة المؤلف في خطر دائم بالحروب أو الأمراض أو الغرق، وكانت أجزاء الكتاب توضح بشكل دقيق ليس فقط تلك المساحة المجهولة من وسط النيجر وبينو العليا وإنما المدن والقرى والجبال والأنهار الصغيرة تلك التي لم يسمع عنها من قبل، وهنا فإن (بارث) للأفارقة المعاصرين يسبق جميع معاصريه من المستكشفين، وكتبه تشمل معلومات أكثر كثيراً من كتاب (بورتن وستانلى وبارك ولاندر معاً)، وهذا بالطبع لا يقلل من قيمة وجهود رجال ساهموا ربما أقل ومع ذلك تضمنت جهودهم شجاعة فائقة ولكن تميز (بارث) يبقى في الأذهان.

وفي سنة ١٨٦٣م كان (ريتشارد بورتن) المعروف بعمله في شرق إفريقيا قد كلف من طرف وزير الخارجية البريطانية اللورد (روسيل) على رأس بعثة إلى الملك (جاليلي) ملك داهومي الذي كان يحكم (كانا)، وكانت البعثة لغرض تشجيع التجارة القانونية ومنع تجارة الرقيق على أن هذه البعثة لم تحقق كل النجاح، ولكن ملاحظات (بورتن) عن رحلته كانت مفيدة، وقد وصف الملك ومحظيوه الذين يقدمون له (المبصقة الذهبية) عندما يبصق وينطرحون عندما يعطس، ويدعون له بالصحة عندما يأكل، وعندما كتب الرحالة ملاحظاته القيمة تلك كان يرافق الملك في ذهابه إلى عاصمته (أبومي)، حيث كان يشاهد ويسجل بعض العادات الشنيعة، لكنه لم يتمكن من ولم يسمح له بمشاهدة المذابح التي تحدث مع الرجال والنساء لأبسط الأسباب، واستثناء لجميع مستكشفى غرب إفريقيا كانت هناك امرأة واحدة تدعى (مارى كينقزلى) خلال الفترة الأخيرة بدأت رحلاتها أى في سنة ١٨٩٣م، وهى

مخلوق غريب الأطوار أرادت أن تكون لكل الرجال (جنود وبحارة وزعماء وحمّالون)، وكانت أكثر إثارة وتسلية تجاربها التي ربما حدثت في (أوقووى) وفي النهر الرئيسى فى الجابون، ذلك أنها وقعت فى مصيدة فيلة وواجهت غوريلات ومتمردين وعاشت ثلاثة إنجازات كبيرة فى تلك المنطقة وذلك الوقت .



الفصل الثامن

إلغاء سيراليون وليبيريا

الفصل الثامن

إلغاء سيراليون وليبيريا

إن التجارة والسياسة خلال أغلب سنوات القرن التاسع عشر فى إفريقيا أصبحت فى موضع ثانوى كنتيجة لتحريم تجارة الرقيق التى فرضتها أوربا تدريجياً فى السنوات اللاحقة لمبادرات بريطانيا العديدة، كما أن الحملة الحقيقية ضد الرقيق فى أوربا والتى كانت جزئياً مسئولية تحريمها بكل بساطة الجوانب الإنسانية، ومن المفاجئ كون تجارة الرقيق لم تصدم مشاعر الإنسان العادى كما هى الآن، ولقد ذكر كاتب من غرب إفريقيا يقول: إن الرجال والنساء الذين تعودوا على مشاهدة زملائهم ينفذ فيهم الحكم على إثر سرقة بسيطة أو صغيرة يساقون إلى السجون نظير عدم دفع دين أو يجبرون على العمل فى البحرية وينقلون جماعات للتوطين فى المستعمرات، فإنه بالتأكيد لا يمكن أن يزعجهم ما يتعلق بالإجراء غير القانونى وغير الإنسانى وغير العادل الذى يتعلق بتجارة الرقيق والعبودية الزراعية، وفى الواقع فإن الأوربيين لم يروا أو لم يعرفوا شيئاً غير تجارة الرقيق الذى لم يعد له احتياج فى أوربا أى عمل الرقيق الإفريقى، على الرغم من أن السفن والذين يشرفون على تجارة الرقيق قد بدأوا وأنها حمولاتهم فى الموانئ الأوربية مثل (ليفربول وناتسى وأمستردام)، ويعبأ الرقيق فى السفن عندما يكون الرقيق موجهاً من إفريقيا إلى أمريكا، وكان العبيد الذين يبقون فى أوربا هم فقط أولئك الذين جيء بهم ليعملوا كخدم فى البيوت، وهؤلاء يعودون إلى بلدانهم فى حالات الراحة أو التقاعد، كذلك فإن بعض الرقيق يباع فى المزاد العلنى بسوق لندن وليفربول وبريستول وأماكن أخرى، ثم إن مجتمع الطبقة العليا من البيت المالك وما دونه يحتفظون بالخدم السود وهؤلاء الخدم عندما يحصلون على بعض التعليم ولو كان قليلاً لا يواجهون غالباً أى صعاب فى الاندماج بالطبقة المتوسطة

والعائلات الإنجليزية من الطبقة الدنيا بالزواج، ولقد كانت كل القوى الأوربية الكبرى وبعض القوى الصغيرة منغمسة في تجارة الرقيق على الرغم من أن الإسبان الذين يملكون الرقيق في مناطق أمريكا الإسبانية لم يكونوا يمارسون كثيراً هذه التجارة، علماً بأن الكنيسة عملت بقوة ضد تجارة الرقيق، وإن قد وافقت أو قبلت تملك العبيد، وكانت قضية تحريم تجارة الرقيق قد وضعت قيد التنفيذ خلال قرب نهاية القرن الثامن عشر بإشراف كل من (قرلنفيل شارب وتومس كلارسون ووليام ويلبيرفورس) سنة ١٧٧٢م، وعلى ضوء قضية بشر كانوا رقيقاً هربوا من أمريكا أعلن قاضى القضاة (مانسفيلد) أمر تحريم تجارة الرقيق فى إنجلترا، وفى سنة ١٨٠٧م كانت حملة (ويلبيرفورس) وجماعته قد آتت أكلها حيث صدر قانون جعل تجارة الرقيق محرمة على المواطنين البريطانيين، وقامت الدنمارك بإصدار قانون مشابه سنة ١٨٠٤م، وتبعتهما الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٠٨م، والسويد سنة ١٨١٣م وهولندا سنة ١٨١٤م، وتأسست محكمة فى (فرى تاون) سنة ١٨١٨م، وخلال عشرين سنة من تأسيسها تمت محاكمة وإدانة مائة واثنين وثلاثين سفينة، وبعد سنة ١٨٣٨م عندما صدرت مادة قانونية تنص على المعدات إضافة إلى البشر صار ممكناً محاكمة البحارة الذين على السفن حتى لو لم يكن هناك رقيق وتتضاعف العقوبة إذا ما وجدت معدات أو استعملت السفن كمخازن للرقيق، وكان هناك مائتان وأربعة وثمانون حكماً خلال عشر سنوات ربعها كان فى الفترة التى أعقبت صدور مادة النص القانونى الخاص بالمعدات، وكان تنفيذ تجارة الرقيق صعباً وبطيئاً ففى سنة ١٨٤٥م وحدها تم حجز ثلاثين سفينة، وكانت البحرية الملكية قد أقامت قاعدة بحرية لفرقة مكافحة تجارة الرقيق فى ميناء (كلارينس) أى (سانت إيزابيل الآن) وهى عاصمة (فيرناندو بول)، وذلك من أجل تنفيذ القانون الصادر فى سنة ١٨٠٧م بشدة وحزم اعتباراً من سنة ١٨٢٤م، وكذلك أعطيت محكمة (فرى تاون) صلاحيات تمكنها من إصدار الحكم بالإعدام فى تلك الحالات، ونتيجة لهذه الإجراءات قامت الدول الأوربية بتحريم هذه التجارة، ففى فرنسا حرمت تجارة الرقيق سنة ١٨١٨م وكانت البحرية الملكية قد أنشأت قاعدة لفرقة مكافحة تجارة الرقيق فى ميناء (كلارينس)

تسمى الآن (سانتا إيزابيل) عاصمة (فيرناندو بول) وذلك من أجل تنفيذ القانون الصادر سنة ١٨٠٧م بدقة وشدة اعتباراً من سنة ١٨٢٤م، وكانت محكمة (فرى تاون) ذات صلاحية تعطيها ونتيجة لهذه الإجراءات قامت الدول الأوربية بتحريم هذه التجارة، ففي فرنسا حرمت تجارة الرقيق سنة ١٨١٨م وفي البرازيل سنة ١٨٢٥م والبرتغال سنة ١٨١٥م وإسبانيا سنة ١٨١٧م، وكانت الإجراءات شديدة، ولكن بعض الدول لم تلتزم بتنفيذها كما يجب وعملياً بريطانيا وحدها التي اتخذت إجراءات صارمة، واستعملت سلاح البحرية لإجهاض تلك المحاولات، ولقد تم التحريم في وقت لم يعد هناك رقيق في جزر الهند الغربية البريطانية، ولكن كانت هناك أسواق أخرى للرقيق وتحديدًا في الولايات المتحدة الأمريكية، احتاجت إلى زيادة أو ما هو أكثر من ذي قبل في هذه التجارة، وعلى الرغم من وجود الدوريات البحرية التي تنفذ قانون التحريم فإن أرقام تجارة الرقيق قد ارتفعت في الواقع من خمسة وثمانين ألفاً سنة ١٨١٠م إلى مائة وخمسة وعشرين بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، وحدث أنه في سنة ١٨١٧م خولت إسبانيا والبرتغال البحرية الملكية البريطانية حق القيام بإيقاف سفنها وتفتيشها من أجل منع تجارة الرقيق وأعطت بريطانيا بالمقابل صلاحية لهاتين الدولتين بأن تقوموا بضبط قوارب أو سفن قراصنة الرقيق البريطانيين، ثم إن فرنسا قامت أيضاً بالاتفاق مع بريطانيا على نفس الإجراءات بعد أربع عشرة سنة من بداية هذا التدبير، ولكن في الواقع أنه برغم هذه الاتفاقات التي كانت متبادلة مع هذه الدول فإن البحرية الملكية البريطانية وحدها التي كانت تقوم بتفتيش السفن، ولولا فرقة التفتيش تلك ومقرها في (فيرناندو بول) ما كان لأحد أن يتصور إلى أي حد كانت تجارة الرقيق ستصل بحلول سنة ١٨٤٠م، إضافة إلى حالة الوفيات في حرب تحصيل الرقيق والضبط الذي يحدث في الموانئ والمخازن والنقل أي أن الإفريقي الذي يولد في منطقة تجارة الرقيق سنة ١٨٢٠م لابد أن يكون ضحية في واحدة من حملات اصطياد الرقيق، ولقد وافقت فرنسا على المادة القانونية التي صدرت وتنص على تنفيذ العقاب حتى في نقل المعدات سنة ١٨٣٣م

وفعلت ذلك إسبانيا سنة ١٨٣٥م والبرتغال سنة ١٨٤٢م، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم توافق على اتفاقية التفتيش المتبادل إلا سنة ١٨٦٢م، ومع ذلك فإن البحرية الملكية البريطانية توقعت أنها أوقفت ربع سفن تجارة الرقيق سنة ١٨٤٠م، وكانت السفن المقبوض عليها تجر إلى الشاطئ وبحارتها ينقلون إلى (فرى تاون) وكانت إعاشتهم تسبب كثيراً من المشاكل، وبالتالي كانت الوفيات بينهم تصل في المتوسط إلى خمسة في المائة عند القبض عليهم، وكانت كذلك الوفيات تحدث بنسبة عشرة في المائة من أولئك الذين يكونون في السفن التي تحجز حيث إنه بين سنوات (١٨٢٥-١٨٦٥) تم القبض على ألف ومائة وسبعة وثمانين سفينة رقيق، وبذلك تم تحرير مائة وثلاثين ألف إنسان حي، وكان السيد (ويلبرفورس) مازال ينشط في التجمع المعادى لتجارة الرقيق في تلك الفترة، وكانت دوريات هذا التجمع لا تقوم فقط بإيقاف السفن الخارجة من المنطقة، وإنما أيضاً القادمة إليها متجهة إلى موانئ الرقيق، وفي هكذا حالة يتم تفتيش أوراق تلك السفن على الرغم من أن الأوربيين تجار الرقيق على الموانئ يسهل عليهم الحصول على أعداد كبيرة من العبيد حتى بعد فترة تحريم هذه التجارة كما كانوا قبل المنع، وإن كان من الصعب عليهم الحصول على الأموال اللازمة والمعدات المطلوبة للمبادلة، وإن وجدت كانت تحجز عند التفتيش عادة، وكمثال على ذلك فقد حدث أن المدعو (جون فرانسيسكو دوس سانتوس) التاجر البرازيلي الذي يقوم بالتصدير إلى كل من (باهيا وريو) أعداداً من العبيد لتستقر في (التوقو وداهومى) كان يقول للمتعاملين معه سنة ١٨٤٢م: إنه يقبل أى عملة، وكان تجار الرقيق يتفادون المناطق المعروفة جيداً مثل شاطئ (ويدا) وينقلون حمولاتهم البشرية إلى مناطق في مواعيد سرية على طول الشواطئ، والتبادلات كما يذكر أحد المؤرخين تتم بسرعة كبيرة وفي هذه الحالات يكون الدفع بالدولار بدلاً من المبادلات السابقة التي كانت بالبضائع، وهكذا زاد الطلب على العملات، ولقد اتضح من تفتيش أوراق سفينة قبض عليها سنة ١٨٤٤م أنها نقلت كميات من العملة تقدر

بألف وثمانمائة وأربعين دولاراً ذهبياً لمقاول الرقيق المدعو (دا سوزا)^(١) وعمليات أخرى صارت تستور: إلى سوق شاطئ الرقيق خلال سنة ١٨٤٧ م بواسطة التاجر الألماني القبطان (لورينز ديدرتشين) وهو تاجر يعمل مستقلاً ومقره في (فلينبورج) بداية من سنة ١٨٤٣ م، وما بعدها حيث كان يأتي بالعملة من المنطقة التي تسمت فيما بعد (بشرق إفريقيا الألمانية) وتلك العملة تسمى (كورينز) وهذه تساوى الواحدة منها مائتى شلن أى دولارين بسعر سنة ١٨٤٧ م، ولكن وبسبب وفرة هذه العملة (الكورينز) فقد هبط سعرها حتى صار يساوى ستة وستين سنتاً للكورينز الواحد سنة ١٨٤٩ م، وذلك عندما أبلغ (سانتوس) السلطات في منطقة (ويدا) أن المواطنين المحليين صاروا يقبلون في خضم هذا الوضع عملات سعرها غير مستقر، حتى إن أحد المؤرخين قال: إن الاختلاف في أسواق الرقيق يعتمد على طوبوغرافية المنطقة في بعدها عن بحيرة لاجوس، مع أن الأمواج العالية تجعل الهجوم على المخازن صعب بشكل كامل إن لم يكن مستحيلاً كذلك فإن الغابات الكثيفة تحجب جداول المياه بحيث يمكن لتاجر الرقيق أن يشحن ما لديه في أى مكان وإى وقت دون خوف، وهكذا فإن هذه الأحوال تفسر كيف أن (الفون) أنشأوا ميناء ثانوياً للرقيق في (كوتونو) خلال نهاية القرن التاسع عشر مما يفسر الحافز الذى يحصل عليه الوسيط الصغير الذى يعمل بين (أنيكسو ولاجوس) من مكاسب معيشية كوكيل أو منافس لكل من (دا سوزا ودومينكو) ثم إن هذا الأخير (دومينكو) بذل الكثير من المحاولات بين سنوات ١٨٤٥ - ١٨٥٠ م لنقل مخازنه في اتجاه غربى أبعد من (بورتو نوفو) إلى (آجودا) وهذه الآن جزء من (ويدا) والمنتج الآن المعروف الذى يوفر ويكون بديلاً عن تجارة الرقيق للأفارقة الغربيين وشركائهم الأوربيين في التجارة هو زيت النخيل وهو الشيء الذى قلل من تجارة الرقيق وإلى أن احتلت بريطانيا لاجوس سنة ١٩٠٠ م لم

(١) علمًا بأن حظر تجارة الرقيق قد مر عليه اثنتان وثلاثون سنة، عندما صدر قرار المؤتمر الدولى في فيينا سنة ١٨١٥ م، وألزم القرار الدول المشاركة في المؤتمر منع تلك التجارة، ولكن أغلب التجار الأوربيين لم يلتزموا به، وكذلك بعض الدول الأوربية. المترجم.

تكن الشركات الأوربية التى تتعامل فى تجارة الرقيق تزيد على ستة فى المنطقة من (بورتو نوفو) إلى (بينين) ونجد أحد المؤرخين يذكر أن وكيل شركة (فيكتور ريجير) فى (ويدا) ورجال (تومسون هوثون) فى (ويدا) و(نيكسو وباداقرى) قد انضموا خلال سنوات ١٨٤٩-١٨٥٠ مع (شركة ليفريسلى) التى تعمل وكيلا لشركة ساحل الذهب (بانر بروذرز) لم يكونوا قادرين على إلغاء اتفاقاتهم مع البرازيليين كما فعلوا فى النهاية مع (باداقوسى ولاجوس) ولذلك أجبروا على استمرار التجارة معهم، وفى بريطانيا خفضت الرسوم على واردات زيت النخيل سنة ١٨١٧م، وبذلك ارتفعت كميات الواردات منه حتى وصلت ستة عشر ألف طن سنة ١٩٤٠م وثلاثين ألف طن سنة ١٨٥١م، وكلما انخفضت الرسوم زادت الأسعار، ففى ليفربول بيع طن الزيت بمبلغ عشرين جنيهاً سنة ١٨١٩م، ثم فى أواخر الأربعينات وما بعدها وصل السعر للطن الواحد اثنين وأربعين جنيهاً كما زاد إلى أن وصل ثمانية وأربعين جنيهاً للطن الواحد سنة ١٨٥٤م، ومن ثم وصل مجموع المستورد التجارى ثلاثين مليون دولار بحسب قيمة العملة الحديثة، ولكن فى مناطق خارج بريطانيا كانت الكميات قليلة وكان الأفارقة لعدة سنوات يمانعون فى الاعتماد على هذا المنتج التجارى الجديد أو على المنتجات الزراعية التقليدية الأخرى، ولذلك وصل لندن زعماء أفارقة بالتتابع يرجون الموافقة على إعادة تجارة الرقيق، وكان من الضرورى تفهم ممانعة الإفريقى التخلّى عن تلك التجارة المربحة بدون بديل مربح آخر يدعم مخططات التطوير والإصلاح، ولهذا أرسلت المبشرية البريطانية ممثلين إلى الساحل ابتداء من سنة ١٧٩٢م، وألحقها ببعثة تبشيرية أخرى سنة ١٧٩٩م، وفى سنة ١٨٠٣م أرسلت كذلك جمعية الإنجيل البريطانية بعثة تالية، واجتمعت هذه البعثات معاً وبالاتفاق مع قوات مكافحة تجارة الرقيق بداية فى (سيراليون) بحيث تقدم الدعم للجمعيات الإفريقية، وتم الاحتفال سنة ١٧٨٨م بمناسبة استكشاف مناطق الدواخل الإفريقية وقد وجد المستكشفون للمناطق الداخلية فى كثير من المواقع أضراراً بسبب تجارة الرقيق، وهكذا تجمعت أصوات كل العاملين من أجل الإنسانية للمطالبة برحيل

الاستعمار وتجسدت قناعتهم من خلال محتويات كتاب صدر بعنوان (تجارة الرقيق فى إفريقيا وعلاجها) الذى صدر سنة ١٧٣٩م، وكان ذلك بفضل جهد السير (توماس بوكستون) الذى خلف السير (ويلبر فورس) فى زعامة اللجنة البريطانية لتحريم تجارة الرقيق، وبذلك سرح قرار اللورد (مانسفيلد) سنة ١٧٧٢م خمسة عشر من المسترقين فى بريطانيا، ولقد خلقت مرحلة انتهاء الثورة الأمريكية سنة ١٧٨٣م من جملة ما خلقت مشكلة الزوج القدامى الذين خدموا مع القوات الملكية البريطانية المهزومة، على أن عملية تشجيعهم لاستعمار منطقة (نوبا سكوتيا) لم تكن موفقة بسبب الطقس وأمور أخرى، كذلك مشروع المستعمرة الزنجية الأخرى فى (الباهاما) الذى لم يتقدم لكثير من الأسباب، ولقد كانت مؤسسة (قرانفيل شارب) المتخصصة فى مكافحة تجارة الرقيق فى لندن أول من أيد وانجذب إلى فكرة إعادة الإفريقيين الأمريكان إلى إفريقيا بتخصيص أراض لهم فى (سيراليون)، وهى بلاد قليلة السكان نسبياً على الرغم من أن أغلب الأفارقة البريطانيين بقوا فى إنجلترا وكانوا قد اندمجوا مع السكان المحليين، كذلك فإنه على الرغم من أن المستوطنين البهامويين قرروا عدم العودة إلى إفريقيا غير أن بعض البريطانيين السود وأغلب السود فى (نوبا سكوتيا) فى النهاية تطوعوا من أجل الذهاب إلى (سيراليون)، وهناك كانت توجد مؤسسة تسمى (نوبا سكوتيا) قائمة باعتبارها نادياً رسمياً فى بلدة (فرى تاون الحديثة)، وكان السيد (هنرى سميستهام) الذى يعرف باسم جامع الفراشات الإنسانى قد زار غرب إفريقيا، وأوصى بأن يكون امتداد شاطئ غرب إفريقيا المعروف بالكلمات الإسبانية باسم (ليون رانج) أى (مدى الأسد) مكاناً مناسباً للمستوطنين، وكان الهدف المباشر للمؤسسات الإنسانية أن تساعد على إخلاء زوج لندن، وكان البعض قد هربوا من مزارع جزر الهند الغربية عندما سمعوا بقرار قاضى القضاة (مانسفيلد) الصادر سنة ١٧٧٢م القائل: إن الرقيق محرم فى بريطانيا، ولذلك فإن القن يصبح حراً عندما يصل الجزر البريطانية، أما البعض الآخر من الزوج فقد كانوا خدمًا أو عمال حقول زراعية وهؤلاء هم الذين بقوا وتقاعدوا فى بريطانيا، طبقاً لمعلومات مؤسسة (قرانفيل

شارب) وصاحبها بحار من قدماء الثورة الأمريكية وقد تحاشى مشروع (نوبا سكوتيا) ووصل إلى إنجلترا سنة ١٧٨٦م، وفى هذا الوقت صار السيد (جوناس هانواى) رئيساً للجنة الفقراء التى وفرت أراضي فى (سيراليون) توزعها على أولئك الذين يرغبون فى الذهاب إلى هذا البلد، ولقد قامت الحكومة البريطانية بتقديم مساعدة مالية مناسبة بما فى ذلك سفينة لسفر المهاجرين مجاناً، وذكر الزعيم الإفريقى العقيد السابق فى الجيش الأحمر المدعو (جورج بادمون) فى كتابه الذى نشر قبل وفاته مباشرة أن الجماعة الإفريقية كانت واثقة فى قدرة الزوج على استيعاب وفهم الحضارة الغربية، وكان المؤسسون غير مهتمين بالتجارة أو استغلال الأفارقة كما كانت أول مجموعة استعمارية^(١) تتكون من أربعمئة وواحد وخمسين زنجياً متطوعاً كانوا رقيقاً، ستة وسبعون رغبوا الوضع الجديد، ولقد تم نقل المومسات البريطانيات من السجون وتحديداً من سجن (بارتسموث) وعدد قليل من الرجال البيض بما فى ذلك جراحون وقساوسة وغيرهم، وطبقاً لما قاله مؤرخ سيراليونى، فإن أكثر من خمسين شخصاً ماتوا خلال النقل من (بورتسموث وبلايموث) بسبب الظروف الحياتية فى السفينة التى وفرتها الحكومة البريطانية، وترك على الشاطئ فى بلايموث حوالى أربعين شخصاً على اعتبار أنهم لا يصلحون للمستعمرة، ثم إن ثلاثة وعشرين آخرين هربوا، وأخيراً أبحر أربعمئة وأحد عشر شخصاً كانت سفيتهم بقيادة القبطان (ثومسون) وحدثت أثناء الرحلة كثير من الأمراض وعندما رست السفينة على الشاطئ فى مايو ١٧٨٧م كان هناك من الركاب ثلاثمئة وسبعة وسبعون شخصاً أحياء ولقد منح هؤلاء المستعمرون أرضاً اشترت بواسطة (شارب وأصدقائه) من الملك المحلى (ثوم) وكانت مساحتها فى حدود عشرين ميلاً مربعاً، كما وفروا مخزوناً من الأغذية يكفى لمدة ستة أشهر، وأطلق على الميناء اسم (خليج جورج)، وعلى المستعمرة اسم مدينة (قرانفيل)، ولكن الموقع لم يكن صحيحاً، ومن الواضح أنه لا أحد كان يعرف أن فصل الشتاء على الأبواب، وأن الزراعة لم تكن ممكنة لعدة شهور،

(١) يقصد المؤلف بتعبير استعمارية أنها معمرة أى من أجل الإصلاح. المترجم .

كذلك لم يكن هناك وقت كاف لبناء البيوت، ولقد بقى القبطان (ثومسون) مع المستعمرين مدة أربعة أشهر، ثم عاد ليبلغ عن تلك المشاكل، ويعلن عن موت ستة وثمانين شخصاً آخر بما فى ذلك بعض النساء، أما المستوطنون الآخرون فقد صاروا يؤجرون قدراتهم البسيطة فى تعليم الكتابة والحساب للزواج المحليين، وخلال السنة التالية أرسلت سفينة بمعدات جديدة وبعض الحيوانات وتسعة وثلاثين مستعمراً جديداً أغلبهم من البيض، وفى هذا الوقت ظهرت علامات مشجعة على تكون قرى سكنية، ولكن فى نوفمبر ١٧٨٩م تفرق المستوطنون على إثر هجوم من طرف رجال القبائل، وتم إحراق المستوطنات، وفى سنة ١٧٩١م أصدر البرلمان فى لندن قراراً بتأسيس شركة (سيراليون) ضمت إليها شركة (خليج جورج) التى كانت تأسست السنة الفائتة وتقرر أن تغطى أرباح هذه الشركة مصروفات حكومة المستعمرة كما عين (هينرى تورنقون) وهو مصرفى معروف رئيساً للشركة ووكيلها الدكتور (فالكون بيرج)، وتم إرسال المستشارين الفنيين، ولقد وجد (فالكون بيرج وزودته) المستوطنين متشائمين مشاكسين، وفى هذا الوقت كان عدد أربعة وستين فقط من المهاجرين الأصليين باقين، ولذلك فإن هؤلاء قد نقلوا إلى موقع أفضل وهو عاصمة (سيراليون) الحالية (فرى تاون)، وخلال نفس السنة تم نقل مائة وتسعين من المستوطنين البيض الجدد وكان الغرض من نقلهم أن يساعدوا على خدمة المستوطنة، ولكنهم لم يلاقوا المعاملة الحسنة والتفضيل، بحيث يتم خلق دولة إفريقية قابلة للحياة، وبعد هؤلاء جاء أكبر عدد هام من المهاجرين من (نوبا سكوتيا) فى دفعة واحدة عددهم ألف ومائتا مستوطن متطوع على أن هذا العدد الكبير لم يكن يعرف أى شيء عن نسبة الموت السريع الذى حدث عندما جاء آخرون مع العريف السابق (تومس بيترز) الذى وصل لندن ليطلب من مدير الشركة وسكرتير الدولة السيد (قرانفيل) ضرورة عمل أى شيء لرفاقه المحاربين القدامى بالبحرية فى (هاليفاكس) بمقاطعة كندا، وبناء على ذلك أرسل بعض المختصين بتحريم تجارة الرقيق لمساعدة المستوطنين، وكان السيد (توماس كلارسون قد ذهب إلى (نوبا سكوتيا) مع مساعده السيد (هارتثورن) لمقابلة

المستوطنين هناك والبحث فى أمورهم ،ولقد أشادا بما وجدوا عليه المستوطنين فى (نوبا سكوتيا) من عزيمة وإصرار وكان أغلب الرجال أحسن حالا من الناس العاملين فى الحياة العامة فى إنجلترا، وبالتالي طلبا من أولئك المهاجرين أن يحترموا جنسهم ولا يقبلوا العمل كخدم عندما يعودوا إلى إفريقيا، كان أسطول السيد (كلارسون) الصغير الذى يتكون من خمس عشرة سفينة تحمل ألف ومائة وتسعين متطوعا قد أبحر فى ١٥ يناير ١٧٩٢م مات منهم خمسة وستون فى الطريق، أما الباقون فقد وصلوا بين ١٨ فبراير و ٩ مارس وكان ذلك فى وقت ما قبل تحريم تجارة الرقيق، ومباشرة قبل الوصول مرت قافلة من تجار الرقيق متجهة إلى (أنو مابو) و(نوبا سكوتيا) فى حين تجمع الباقون من المستوطنين السابقين فى الموقع الجديد، وقد تم توزيع الأرض عليهم غير أن المساحة الموزعة قد خفضت دون الموعددين بها أى عشرون هكتارا للعائلة الواحدة فصارت أربعة هكتارات فقط، وتقرر دفع الإيجارات لمساعدة الحكومة المحلية فى المستوطنة التى نظمت على أساس وحدة واحدة لكل عشر عائلات، وهكذا فإن كثيرين من أفارقة ساحل غرب إفريقيا نظروا إلى هذه الإجراءات بشك وريبة فى تلك المستوطنة، وحدث أنه فى سنة ١٧٩٤م أن هاجمت سفن فرنسية المستوطنة وحرقتها مما أرغم الحكومة البريطانية على نقلها وتعيين حاكم نشط لها هو (زاخارى ماكاولى)، وهذا اتخذ إجراء سريع بحيث أنشأ نظام حكم ذاتى بواسطة سكان المستعمرة، ثم إن حركة أخرى حدثت سنة ١٨٠٠م عندما تمرد المواطنون ضد سيطرة رجال الحكم الذاتى وكان على الحكومة البريطانية من أجل أن تساعد نظام الحكم الذاتى أن وافقت فى نفس السنة على أن تدفع ميزانية تعويضية سنوية، كذلك إن المستوطنة فى نفس السنة ١٨٠٠م زاد عدد المقيمين فيها بوصول المسترقين الذين تمردوا وصاروا يعيشون فى وضع غير قانونى على قمم جبال منطقة (جامايكا) والذين تم نقلهم أخيرا إلى (نوبا سكوتيا) وفى سنة ١٨٠٨م وافقت بريطانيا على إعطاء المستوطنات الصغيرة وضعًا قانونيًا يسمى (مستعمرة التاج)، وأخيرا انتهى تردد الليبراليين فيما يتعلق بإيجاد المستعمرات فى إفريقيا بعد جدال طويل وموفق حول منطقة (روكيل) وإمكانية أن تصلح قاعدة بحرية جيدة،

وفى هذا الوقت بدأ نقل العبيد المحررين إلى سكان (كرويل) المقيمين، وفى سنة ١٨١٧م تأسست كلية (الخليج الرابع) ليس فى مكانها الحالى الواقع على (قمة كليف) أى المنحدر الأعلى، وإنما داخل المدينة وتقرر أن تبدأ معها كلية لاهوتية وبذلك كانت أول جامعة فى المنطقة جنوب الصحراء، وهى أول جامعة فى إفريقيا حيث إن (فرى تاون) كان حينئذ الموقع الأمامى الصغير للحضارة الغربية فى إفريقيا وكان المستوطنون ينظر إليهم فى لندن على أنهم بريطانيون سود واجبههم تحضير وتنصير البرابرة المحيطين بهم والمساعدة على بعث حضارة إفريقيا أو ما يشبه ذلك وكان أغلب المسئولين السابقين قد أعجبوا بهم خصوصاً عندما يقارنونهم بالمستوطنين البيض، ولقد كتب السيد (بيرنوت تومبسون) إلى خطيبته فى إنجلترا سنة ١٨٠٨م قائلاً: إن أوضاع الأوربيين سيئة أكثر من الوصف ذلك أن السود بشكل ما أكثر التزاماً فيما يتعلق بالدين فى هذه المستعمرة، وبينما نجد أن المقيمين البيض يثرون وهم سكارى من جانب نجد هؤلاء السود يرددون بانتظام التراتيل الدينية بخشوع، وهنا كما هى (فرى تاون)، فإن المدينة التى أسسها الفرنسيون وتسمى (ليبرفيل) صارت بعدئذ عاصمة للقابون وأخذت اسم (مونروفيا) وهو اسم الرئيس (جيمس مونرو) بعد تحرير العبيد والواقع أن اسم (ليبيريا) يرجع إلى سنة ١٨١٦م فى الوقت الذى تأسست فيه الجمعية الأمريكية للمستعمرين، وتمثل إدارة للرجال المحررين بإشراف مؤسسة الرعاية البيضاء لمحبة البشر والقاضى (بوشرود واشنطون) وهو من فيرجينيا وشاركه شقيقه الجنرال (جورج واشنطون)، ثم خلفهما رجل القانون (جون لاتروب) وهو من (ميرلاند)، وكان بعض الناس يرون الفرصة فى تنصير إفريقيا بواسطة الأفارقة الأمريكان، وقد وجدت عدة دراسات لهذه الفكرة، بينما يرى البعض الآخر من الناس أن هناك رغبة لدى بعض الحكومات للتخلص من الزنوج الموجودين بها مما يساعد على تنفيذ الفكرة الأمريكية، وفى السنة الماضية (١٨١٥م) قام صاحب سفينة زنجى يدعى (باول كوفى) بنقل ثمانية وثلاثين زنجياً إلى (سيراليون) نظير مبلغ قدره ثلاثة أو أربعة آلاف دولار، وفى سنة ١٨١٩م حصلت جمعية على إذن من الحكومة بحيث تقوم بتأسيس إدارة مستقلة للزنوج فى غرب إفريقيا، وعلى هذا الأساس

تم إرسال اثنين من الرجال البيض وهما (صامويل ويلز وأبينيزير بوجيس) إلى إفريقيا من أجل شراء الأرض بناء على نصيحة من الحاكم (ماك كارثي) الذي قابلاه في (فرى تاون) اشتريا أرضاً في جزيرة (شير برو)، وخلال السنة التالية تم نقل ثمانية وثمانين زنجياً مهاجراً تحت إشراف الدكتور (صامويل كروزر) إلى وكيل الجمعية مع اثنين آخرين من البيض عينا بقرار من الرئيس (مونرو) لكن المسؤولين في جزيرة (شير برو) نكثوا الاتفاق ولهذا السبب مات الاثنان البيض ومات من الزوج المستوطنين اثنان وعشرون في حين نقل الباقي بواسطة (دلتيل كوكرو) إلى (فرى تاون)، وحدثت بعد ذلك هجمات عديدة قام بها مستوطنون حصلوا على أسلحة من الكوبيين والإسبان وقاموا بتعذيب القادمين الجدد، ثم حدث في أول سبتمبر أن هاجم حوالى ألف مسلح المستعمرة ولم يتراجعوا إلا بعد أن أطلقت عليهم القذائف المدفعية، وهكذا أصبح الأول من سبتمبر يوم عطلة عامة منذئذ في (ليبيريا) وبعد ذلك وصلت بارجة حربية بريطانية تسمى (الوصى على العرش) يقودها ضابط بحرى يدعى (قوردون) ومعه أحد عشر متطوعاً بقوا في منطقة (بوش رود) للمساعدة في الدفاع عن المستعمرة ومات منهم ثلاثة ربما بسبب الحمى الصفراء، وأخيراً جاءت البارجة الحربية الأمريكية المسماة (سيانى) وهى تنقل قادمين جددًا، وبذلك توسعت المستعمرة إلى قرب (رأس ميسورادو)، ثم إن عددًا من المستوطنات الأخرى أقيمت على الساحل حيث تم شراء المزيد من الأرض بواسطة جمعيات محبى البشرية بما فيها جمعية مستعمرة (مايرلاند) التى كان رأسمالها مائتى ألف دولار وقامت مستعمرة هذه الجمعية بإرسال عدة مئات من المستوطنين الجدد بإشراف (جون روس وورم) المولود في جامايكا، وهو أول زنجى يتخرج من جامعة أمريكية، وقد وصل الساحل في سنة ١٨٣٦م وكانت ولايات نيويورك وبنسلفانيا وجورجيا وميساسيبى ولوزيانا قد رعت تلك المشاريع رغبة في التخلص من الزوج المحررين الذين كانوا يمثلون مصدر حسد لغيرهم من الأرقاء، ولقد استمر تدفق المهاجرين الذين تولت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مسئولية تزويدهم بالغذاء، وكانت المستعمرة الرئيسية قد أطلق عليها اسم (ليبيريا) والعاصمة التى نمت في (رأس

ميزورادو) أطلق عليها اسم الرئيس الأمريكى (مونرو) فى ذلك الوقت، ولقد استمر حاكم ليبيريا الأبيض حتى سنة ١٨٤١م ويدعى (ج ج روبرتس) وهو مستوطن عمره اثنين وثلاثين سنة، كان قد وصل المنطقة سنة ١٨٢٩م، حيث صار أول إفريقى أمريكى رئيساً للجمالية الناشئة، وحدث أنه بالإضافة إلى المشاكل الأخرى المتعلقة بتأسيس مستعمرات أخرى واجه روبرتس هذا مشاكل أعقد من تلك التى واجهته فى سيراليون حيث كان هناك تحدى لصلاحياته من طرف التحالف المتكون من المحليين والأوربيين تجار الرقيق، وفى سنة ١٨٤٥م ظهر إشكال دبلوماسى يتمثل فيما إذا كانت ليبيريا تحت الحماية الأمريكية أم لا؟، هذا حدث بعد خلاف مع سيراليون بشأن ميناء بحرى أدى إلى حجز ناقلة ليبيرية بواسطة بارجة حربية بريطانية، وكان رد واشنطنون مريباً ترك إلى حد ما هذا الأمر لأهله فى مواجهة إصرار بريطانيا على أنها لن تعترف بمنطقة تجارية كما لو أنها كانت دولة مستقلة، وهكذا فقد قرر المستوطنون سنة ١٨٤٦م إعلان بلادهم ذات سيادة، ولكن كان لابد أن تمر سنة قبل أن يعلنوا استقلالهم فى ٢٦ يوليو ١٨٤٧م بعد اجتماع تم فى مونروفيا ضم ممثلين عن المستوطنات الأربعة التى كانت قائمة وقتئذ وهى (ميسورادو ووقراند باسا وسينو وميرلاند) على أن الأخيرة لم تنضم إلا بعد عشر سنوات، ومع ذلك فإن علماً يشابه العلم الأمريكى، ولكن بأحد عشر خطاً ونجمة واحدة، كان قد اعتمد وتم انتخاب نواب عن الشعب لمدة أربع سنوات كما نص الدستور وشيوخ لمدة ست سنوات، أما الرئيس فقد نص فى هذا الدستور على أن ينتخب مرتين ولمدة أربع سنوات لكل مرة، ثم تقرر زيادة مدة الرئاسة إلى ثماني سنوات، وفى السنة التالية لإعلان الاستقلال اعترفت بريطانيا بالأمة الجديدة وتدرجياً تبعتها بلدان أخرى، إلا أن الاعتراف الأمريكى لم يحدث إلا سنة ١٨٦٢م، وفى سنة ١٨٤٨م قام الرئيس (روبرتس) بزيارة ناجحة لأوروبا وخلالها حصل على تأييد من رئيس الوزراء البريطانى (بالميرستون) ومن الملكة (فيكتوريا)، وكذلك الملك (ليوبولد الأول) ملك بلجيكا ثم هولندا والدنمارك ولوكسمبورج وبروسيا ودول اسكاندينافيا وبلدان ايسيريا وبعض الدول فى أمريكا اللاتينية أعلنت اعترافها أيضاً، ومن البداية إلى أوقات غير

بعيدة كانت الحكومة هي المحتكر لثروات تلك المستعمرات، كانت مونروفيا تتقدم فى غرب إفريقيا ببطء، حتى صارت من أنجح دول غرب إفريقيا على أنه كانت هناك تهديدات كثيرة ضد بقاء هذا البلد كدولة مستقلة، وإن لم يحدث شيء غير مشاكل الحدود مع فرنسا حيث فقدت ليبيريا شريط أرض كبيراً فى منطقة جبل (نيمبا) لصالح غينيا الفرنسية (اتضح فيما بعد أن تلك المنطقة غنية بالترسبات الحديدية، وتبعاً لذلك فإن مطالب ليبيريا بالمنطقة صارت مستمرة، لذلك فإن ليبيريا لها خلافات حدودية مع بريطانيا استمرت إلى أن بدأت لجنة الحدود فى العمل سنة ١٩٠٣م، وكان ابن ليبيريا المميز الدكتور (إدوارد ويلموث بليدن) المولود فى جزيرة الهند الغربية الدنماركية قد سافر إلى نيويورك لإكمال تعليمه الثانوى، إلا أنه لم يتمكن من الانتساب لأى مدرسة بسبب التفرقة العنصرية فى هذا الوقت، لكن الجمعية الاستعمارية فى نيويورك وفرت له فرصة السفر المجانى إلى ليبيريا حيث وصلها سنة ١٨٥٠م، وفوراً صار رئيس تحرير جريدة أخبار ليبيريا خلال السنة التالية على مجيئه، وكان عمره تسع عشرة سنة، ثم عمل مدرساً فرئيساً لكلية ليبيريا على الرغم من أن مستوى هذه الكلية كان منخفضاً، ثم أصبح عضواً فى الحكومة (وزيراً للداخلية) وبعد ذلك أرسل سفيراً إلى لندن على فترتين وهو لغوى مدهش رغم أنه لم يكمل تعليمه، فقد كان يتحدث اللغات (الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والعبرية واللاتينية والعربية)، كذلك كان يعد حجة فى الدين الإسلامى ومن سنة ١٨٧٢ إلى ١٨٧٣م استخدم من طرف الحكومة البريطانية ليتفاوض مع القادة المسلمين المحاربين فى المناطق الداخلية بمستعمرة (سيراليون)، وبعد بعض الوقت صارت سيراليون متقدمة إلى درجة أنها كانت تساعد تلك البلدان التى لم تستعمر فى الساحل، وكان أغلب أهل الساحل قد أخذوا أسماء إنجليزية طلباً للحماية، وكان التهجير يحدث بحيث ينتقل الناس من مكان إلى آخر وحدث أن بعض المهجرين كانوا مزارعين يتمتعون ببعض التعليم، وبذلك فهم متقدمون نسبياً عن المستوطنين السابقين، وكان السيراليونيون والبرازيليون فى الغالب تجاراً وصناعاً، وقد أبقوا على الرقيق المحلى وصار الكثير منهم أغنياء خصوصاً وسطاء تجارة الاستيراد والتصدير، وكان هؤلاء يستاء منهم ويحترمهم فى

نفس الوقت زعماء (الأديجو) بسبب تقدمهم المعرفي، وبتأسيس وسيلة نقل بحري منتظم إلى خليج بينين وخليج يافرا سنة ١٨٥٢م، تمكن أصحاب المصانع الصغيرة من نقل زيوتهم بانتظام إلى بيوت التجارة في بريطانيا التي بالمقابل يحصلون منها على طلباتهم من البضائع والمصنوعات التي يبيعونها للوسطاء البرازيليين والسيراليونيين، كذلك فإن بعض السيراليونيين يعملون في التصدير أيضاً، وفي سنة ١٨٥٠م استوردت (لاجوس) بين أربعة وخمسة آلاف طن من زيت النخيل سنوياً، وفي سنة ١٨٥٧م وصلت هذه التجارة القمة بسبب الحرب في الداخل وبسبب إحياء تجارة الرقيق وكانت بعض المواد محتكرة للتجار الألمان وتحديدًا الشركة الألمانية (أوسوالد) حيث كان الجوال الكبير من القيقب يساوي سبعة وثلاثين دولاراً سنة ١٨٥١م حسب قيمة العملة الحالية، وبهذا المبلغ يمكن شراء سبعة وثلاثين جالوناً من زيت النخيل في سوق لاجوس، وفي سنة ١٨٥٩م صار جوال القيقب يساوي أربعة عشر دولاراً واستوردت شركة (أوسوالد) أكثر من مائتي ألف جوال من زنجبار خلال عقد بداية من سنة ١٨٥١م، أما الشركة الفرنسية (ريجيس) فقد استوردت ما قدره نصف تلك الكمية، وعلى الرغم من أن هذه التجارة كانت نسبياً صغيرة، فإن الأرباح في زيت النخيل كانت عالية حيث كان السعر في ليفربول سنة ١٨٥٤م، قد وصل ستمائة دولار للطن الواحد، ثم وصل سبعمائة وعشرين دولاراً عندما انفجرت حرب (كريميا)، وبالمقارنة فإن الزيت سنة ١٨٥٥م كان يكلف ثلاثمائة دولار في لاجوس يذهب ثلاثة أرباعه حسب تقدير القنصل البريطاني إلى الوسيط وأطراف أخرى، ثم إن السعر قد تراجع إلى مائتين وسبعين دولاراً سنة ١٨٥٩م، وهذا يزيد فوائد الأوربيين .



الفصل التاسع

غرب إفريقيا البريطانية ما قبل الاستعمار

الفصل التاسع

غرب إفريقيا البريطانية ما قبل الاستعمار

بحلول القرن التاسع عشر كانت مجالات المصالح قد بدأت تظهر واضحة منذ صارت فرنسا تسيطر على مدخل السنغال، أما بريطانيا فقد ركزت على الأسهل الوصول إليه والأكثر فائدة تجارية، ذلك هو النيجر حيث كانت بعثة (ماك قريقورى ولاردو لاندرو) الاستكشافية خلال سنوات ١٨٣٢ - ١٨٣٤ أعظم حقيقة مدهشة عن تزايد الاهتمام البريطانى الرسمى على النهر كمصدر هام للتجارة وكانت البعثة الاستكشافية اللاحقة سنوات ١٨٤١ - ١٨٤٢م قد أشارت فى وقت مبكر إلى الخسائر الكبيرة فى الأرواح عندما قصدت إنشاء محطة وحقل نموذجى فى (لو كوجا) عند ملتقى (بينو مع النيجر)، وقد قامت بذلك تحت ضغط وبرغبة من اللجنة العلمية والإنسانية فى لندن التى يرأسها السير (فوويل بوكستون) على الرغم من المعارضة النشطة التى يظهرها تجار زيت النخيل الأشرار الذين كانوا يعارضون أى تأثير على الوضع القائم، وكانت العداوات القبلية وهجوم مرض الحمى قد ساهمت فى التقليل من نجاح المغامرة التى أنجزت تخطيطاً دقيقاً نسبياً عن وادى النيجر كنموذج عظيم فى (الدلتا)، وخلال هذه السنوات كان السيد (جون بيكرافت) وهو إنجليزى إسباني إفريقى أول من زار المنطقة كبحار وتجار حيث إنه من سنة ١٨٢٧ إلى سنة ١٨٣٤ كان فى (فيرناندو بول) يعمل مع الفريق الذى ينفذ قانون منع تجارة الرقيق، وبقي يساعد الزنوج المحررين هناك، وبين سنوات ١٨٣٦ - ١٨٤٢ وجد نفسه يستكشف أنهر (بينين وكالابار والنيجر) وإلى أبعد من منطقة (باسا) وفى سنة ١٨٤٢م قررت إسبانيا التى كانت قد استولت على (فيرناندو بول وآنوبون) تأجير الجزيرة لبريطانيا وطلبت من السيد (بيكرافت) أن يكون مديراً لها فوافق، وفى سنة ١٨٤٩م صار القنصل

البريطاني في خليج (بينين وبيافرا) صاحب حضور قوى وأمانة وإحساس بالعدل حيث جعل كلمته هي القانون، وحدث أن كل الفوضويين في التعامل بتجارة الزيت وهم أشرار ومنعدمو الرحمة زعماء الدلتا قد خضعوا لقراراته ولأوامره؛ إذ من المعروف أن وراء هذا القنصل إذا اقتضى الأمر مدافع السفن البريطانية كما حدث فيما بعد، وكان بالتالي دوره في نيجيريا فترة ما قبل الاستعمار كبيراً، وفي سنة ١٨٥٢م وصلت أخبار من (بارث) تقول: إنه تمكن من معاينة نهر (بينو) من جهة الشمال، وكان هذا أكثر من أى شيء آخر قد شجع على إرسال ثالث بعثة استكشافية بريطانية رسمية إلى أعالي النيجر، حيث قام (لايرد)، وهو مالك سفن بتوفير السفن في حين وفرت البحرية الملكية البريطانية الملاحين، وتم رسم الخرائط وتقرر أن يكون (بيكروفت) رئيساً للبعثة، ولكن مع الأسف قبل البدء مات، ولهذا تولى الطبيب البحري الدكتور (وليام بالفوربايكي) تلك المهمة ومباشرة قبل أن تسافر البعثة سنة ١٨٥٤م اكتشف مصلاً يحمى إلى حد ما من المانع الرئيسي عن اكتشاف غينيا ذلك هو مرض الملاريا، وبالتالي استطاعت البعثة أن تحقق كشفاً جديداً دون أن يموت أحد من أفرادها، ومن هنا فإن الاهتمام المتزايد بغرب إفريقيا أحدثه اكتشاف الأدوية والأمصال القاضية على الأمراض مما شجع البعثات التبشيرية كثيراً، ولذلك كانت البعثة التبشيرية الأولى على الساحل الأطلنطي في إفريقيا هي الكاثوليكية غير أن نشاطها تضاعف بحلول منتصف القرن التاسع عشر في الوقت الذي صارت فيه البعثات التبشيرية البريطانية البروتستانتية نشطة، كذلك فإن نشاط البروتستانت الأمريكان ازدهر في ليبيريا، وفي سنة ١٨٦٠م ظهرت البعثة الفرنسية الكاثوليكية مرة أخرى، أما الكاثوليك البرتغاليون الذين لم يتوقفوا أبداً وسعوا نشاطهم خلال القرن التاسع عشر والإنجليكان المبشرون بالإنجيل في البلدان الخارجية الذين كانوا قد تواجدها سنة ١٧٠١م كان اهتمامهم الرئيسي بالتعليم وكانوا نشطين بشكل خاص في ساحل الرأس (غانا الحديثة) من سنة ١٧٥٢م إلى سنة ١٨١٦م، وكانت أنشطة جمعيات التبشير البريطانية وجمعية لندن وجمعية الإنجيل الخارجية البريطانية خلال بداية القرن التاسع عشر تعمل على تنفيذ إلغاء تجارة الرقيق، كما أن جمعية بعثة

الكنيسة قد بدأت مثل جمعيات أخرى فى القرن الثامن عشر، وصارت تباشر نشاطها بنجاح سنة ١٨٠٦م بواسطة بعثة دائمة فى سيراليون، ولقد شهدت بداية القرن التاسع عشر العديد من البعثات الإنجيليكانية وغيرها تتأسس فى غرب إفريقيا، وفى سنة ١٨٢٧م تأسست كلية الخليج الرابع فى مدينة (فرى تاون) من أجل تعليم رجال الدين الأفارقة، ولهذا فإن أول قسيس إنجليكاني إفريقى تم تعيينه سنة ١٨٥٢م، وحدث أن بعثتين كاثوليكييتين رافقتا البعثة التبشيرية إلى النيجر سنة ١٨٤١م، بما فى ذلك (صمويل كروثر) وهو عبد محرر نشط من منطقة (يوروبا) قد رست سفينته مع رفاقه المحررين فى (فرى تاون) وبين سنوات ١٨٣٩ - ١٨٤٢م، فإن أولئك الذين عادوا من سيراليون إلى (أبيوكوتا) بما فيهم عدد من الإنجلييين والويسليين أيضاً قد أنشأوا وحدة تبشير فى (أبيوكوتا) سنة ١٨٤٤م، وبعد ذلك مباشرة أنشأ (الويسليون) وحدتهم التبشيرية الدائمة، وفى سنة ١٨٤٨م مات أول من كان قد اعتنق المسيحية فى (أبيوكوتا)، وقد حدثت مظاهرة وشغب قبلى عندما كان يدفن حيث اعتدى هؤلاء على المسيحيين، وفى سنة ١٨٥١م أنشئت بعثة تبشيرية فى (لاجوس)، وبعدها بستين أنشئت أخرى فى (أبادان)، وفى سنة ١٨٦٤م صار القسيس (كروثر) أسقفًا للنيجر والأبروشية هناك ماتزال تحمل اسمه، وفى هذا الوقت أنشأ المعمدان بعثة فى (بورث كليرنس فى فيرناندو بول) خاصة بالعبيد المحررين، وهذه توسعت إلى الكامبيرون وقد أخرجت هذه البعثة (إنجيل بيجين)، وفى سنة ١٨٥٨م طرد الإسبان الكاثوليك الممعدانيين من (فيرناندو بول)، إلا أنهم عادوا خلال نفس القرن ليشرخوا النيجيريين العمال المهاجرين ويعلموا أطفالهم، وفى سنة ١٨٤٦م قامت الكنيسة الأسكتلندية بتأسيس مقر لها فى (كلابار)، أما البعثات التبشيرية الألمانية فى الساحل وفى الداخل فقد كانت تزدهر حيث كانت جمعية بعثة (باسل) قد بدأت فى (كيثا) سنة ١٨٢٨م وامتدت غرباً، وفى سنة ١٨٤٨م بدأت أيضاً جمعية (بريمان أعمال إنجيلية بين قبائل (أيوى) وفى هذا الوقت كان (الويسليون) يتحدون (الإنجلييين) فى أرض قبائل (الفولانى)، وكان أكبر زعيم (للويسليين) هو (ثومان فريمان) وهو ابن عبد إفريقى

محرر ومن أم إنجليزية تعلم فى إنجلترا، وقد استقر بداية فى ساحل الرأس سنة ١٨٣٧م وبعدها بستين أسس بعثة تبشيرية فى (كوماس)، ثم تحول إلى (بيوكوتا)، حيث استمر يعمل إلى أن مات سنة ١٨٩٠م، ولقد وفرت مدارس البعثات الكوادر ومواقع المدارس ووفرت المدرسين، وكان أول موقع فى ساحل الذهب جهز بالمستخدمين من (سيراليون)، ونرى اليوم أن العديد من أخلاف هؤلاء يشكلون العائلات البارزة فى (أكرا) مثل عائلات (ثومسون وهوتون وهاميسكى زهايفورد زدى قرافت وجونسون) وكثيرين غيرهم، وكان السيراليونيون بشكل خاص قد ساعدوا على تقدم ونمو التجارة البريطانية فى ساحل الذهب بعد سنة ١٨٤٣م، كما أنهم مع قبائل الفانتى ساعدوا على إرساء السلطة البريطانية فى لاجوس ثم عبر كل المنطقة التى صارت فيما بعد تسمى نيجيريا، وكرد جميل فإن جنود نيجيريا احتلوا الأشانى خدمة للملكة البريطانية، وقبل انتهاء القرن التاسع عشر كان هؤلاء النخبة قد هيئوا المنطقة لأول حكم ذاتى، ولكن خلال العقود التالية على إجراءات بريطانيا بخصوص تحرير العبيد سنة ١٨٠٧م كانت المستوطنات وردود فعلها مازالت بعيدة مع استثناء تلك التى فى سيراليون، كما أن التزام بريطانيا تجاه المستوطنات فى غينيا كان يشمل سيراليون ومستوطنة التاج على مساحة حوالى ثلاثمائة ميل مربعة وأربعة آلاف عائلة محررة، وكذلك القلاع فى غينيا وهى قلعة ساحل الذهب وبقية كل القلاع كانت تدخل ضمن مسئولية شركة التجارة، ومع هذا فقد حدثت معارضة شديدة حتى بالنسبة لذلك الالتزام المحدود، حيث إن فوائد التجارة لم تكن تعوض نسبة التكاليف من أجل إبقاء والدفاع عن مواقع الأقدام تلك على الساحل، وحدث أن رأى العام صار يؤثر فى سياسة الحكومة، وهذا رأى العام كان يطالب بالإبقاء على سيراليون فقط، باعتبار أن ذلك أولاً يعد التزاماً أخلاقياً، وثانياً لأنه قاعدة بحرية، على أن سيراليون هذه يتوقع أن تعتمد على نفسها، وتمت الموافقة بصعوبة بالغة على إعانتها مالياً وكانت تلك الإعانة ضئيلة، أما المستعمرات البريطانية فى الشرق وفى منطقة الكاريبى فقد اعتبرت مفيدة ومهمة غير أن المنظمات الإنسانية كانت تجادل فى شأن

وضع المستعمرات، وبدأت اللجان تجتمع لتناقش ذلك المفهوم، ولقد حدث تحرك بسيط للسيطرة عندما قامت قبائل (الأشانتى) باحتلال منطقة ساحل الذهب، ولذلك فقد أثرت الحرب على التجارة على أن بريطانيا وهولندا والدنمارك هذه الدول التى لها قلاع فى ساحل الذهب قبلت هيمنة الأشانتى على أرض الساحل، حتى إن الدنمارك قد استقبلت وفداً من الأشانتى ببعض الترحيب فى قلعة (كريستيانبورج)، ولقد أثبتت قبائل الأشانتى أن رجالها محاربون أقوياء وليسوا تجاراً ولذلك تراجعت التجارة بعد محاولات غير ناجحة ومفاوضات مع المهيمين الجدد بما فى ذلك إرسال وفد رسمى إلى (كوماس)، وهكذا قامت بريطانيا بإلغاء شركة التجارة سنة ١٨٢١م، وبأشرت الإشراف الرسمى على كل القلاع البريطانية فى ساحل غينيا، وفى سنة ١٨٢٤م تم تعيين السير (تشارلز ماك آرثى) وهو مدافع نشط ضد تجارة الرقيق، تم تعيينه محافظاً فى سيراليون، وهذا تمكن من توسيع الحدود بموجب اتفاقيات شراء من أجل إسكان الجالية التى تبلغ عشرين ألفاً وخلال عشر سنوات من حكمه كمحافظ ارتفع ثمن المستعمرة البريطانية من أربعة وعشرين ألفاً إلى خمسة وستين ألف جنيه حيث كان قد ضم جزيرة (لوزمن كاناكرى عاصمة غينيا الحديثة) من أجل أن يمنع تجارة الرقيق مستخدماً إياها كملجأ وقد أطلق عليها اسم (الحامية)، وفى لندن منعه من احتلال (باساجا) أى غينيا البرتغالية الحديثة، وكذلك (شيربو) سيراليون الحديثة، ولكن عندما ألغيت شركة التجارة سنة ١٨٢١م كان (ماك كارتى) فى (فرى تاون) حيث صار محافظاً على كل المستوطنات فى سيراليون وفمبيا وساحل الذهب، وبعد ثلاث سنوات عندما كان يقود مائتين وخمسين جندياً أوروبياً مع رجال من قبيلة (فانتى) قتل فى معركة ضد الأشانتى، وفى سنة ١٨٢٦م تمكنت بريطانيا والدنمارك معا من هزيمة الأشانتى فى منطقة (وودووا) وبموت (ماك كارتى) خسر الليبراليون المعركة فى البلاد فى حين كسب أصحاب الأعمال المناوئون لبرنامج المستوطنات ود الحكومة، وعندما صار السير (نيل كامبيل) محافظاً جديداً سنة ١٨٢٧م منع توسيع الحدود البريطانية إلى أبعد مما هى عليه، وأوقف أى تحالف مع الزعماء المحليين بحيث لا يدخل فى

صراعات وعمليات عسكرية مع هذا الطرف أو ذاك، أما قلاع ساحل الذهب فقد أعيدت إلى سيطرة التجار بإعانة مالية تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة آلاف جنيه في السنة، وبدراسة بداية المستعمرات البريطانية في غرب إفريقيا كان المراقبون دائماً يندهشون عن الكيفية التي وسعت بها بريطانيا سلطاتها ولا بد لنا أن نقول شكراً لنشاط وأعمال التجار برغم التردد الرسمي حول موضوع الاستعمار والبخل الذي لا يصدق في موضوع الميزانيات، وفي سنة ١٨٣٠م قام تجار ساحل الذهب عن طريق لجنتهم في لندن بإرسال (جورج ماكلين) للإشراف على قلاعهم وهو ضابط سابق كان قد حارب ضد الأشانتي في منطقة (دودووا) وكان رجلاً منظماً وذا خبرة استعمارية سابقة وقد وجد حينذاك قبائل الأشانتي على حالها السابق في خلق المشاكل في حين كانت القبائل الساحلية في عداء مع بريطانيا؛ لأن هؤلاء يقولون أن بريطانيا في البداية اعترفت بقبائل الأشانتي، ثم اتفقت معهم ضد الأشانتي ولم تلبث أن تركتهم، وهكذا فإن (ماك كارثي) وجد أن صلاحياته لا تتعدى القلاع في ساحل الذهب وجيمس تاون أي مركز الميناء في أكرا، أما سلطته على القلاع البريطانية في (أنومابو وديكسوف) فهي اسمية فقط حيث كان احتلال الهولنديين (للمينا) بالاتفاق مع الأشانتي، كما أن قبائل (الدانيس) في منطقة (كريستيامبورج) وهي على مسافة اثنين ميل من جيمس تاون كانوا يجادلون من أجل الاستيلاء على (أكرا)، وكذلك ينازعون على الحدود الأرضية، وفي ظل هذا الوضع المعادي، وكذلك في حالة الجهل والإثارة والمرض فرض (ماكلين) نوعاً من النظام وأقام محاكم عدل، ولذلك توسعت صلاحياته إلى حد ما، فشملت كل الأراضي الواقعة بين (الفولتا والبرا)، وطبقاً لبعض المصادر كانت قد امتدت إلى حوالي أربعين ميلاً أرضياً، وبذلك زادت الصادرات عبر القلاع البريطانية من سبعين ألف جنيه سنة ١٨٣١م، أي مليون وخمسمائة ألف دولار إلى أربعة ملايين وثمانمائة وخمسة وسبعين ألف دولار سنة ١٨٤٠م، أما الواردات فقد ازدادت من مليون وتسعمائة وخمس وستين ألفاً إلى ستة ملايين وثلاثمائة وخمسة وأربعين ألف دولار، وهكذا فإن (ماكلين) كان رجلاً رائعاً

لا يجامل الحمقى فى لندن الذين صاروا أعداء له وحاول بعضهم التآمر عليه، ونتيجة لذلك فقد تعرض لكثير من النقد، وفى سنة ١٨٤٢م اختيرت لجنة برلمانية للتحقيق معه لكنها برأته وأثبتت عليه، وإن قد قررت أن الصلاحيات الكبيرة التى كان يمارس بها الحكم غير قانونية، وقد أوصت بأن يؤمر بضرورة التفاوض من أجل اتفاقيات عادية وعادلة مع القبائل الساحلية، وهكذا اعتمدت الحكومة تلك التوصيات، وفى السنة التالية عينت الحكومة البريطانية نائب محافظ فى ساحل الذهب بصلاحيات أقل من المحافظ فى (فرى تاون) أى تحت إشرافه، وتم التفاوض مع زعماء القبائل فى خصوص حقوق التجارة والإدارة المحلية وتنفيذ القانون، ولذلك وافق الزعماء الأفارقة على إنهاء كل الممارسات غير القانونية الفوضوية والبربرية وخصوصاً قتل الناس بلا ذنب، والتضحية بالبشر، لكن تلك الاتفاقيات لم تعط بريطانيا حقوقاً على أى أراض أو حدود ماعدا القلاع البريطانية نفسها، وكانت الظروف فى هذا الوقت واضحة التصور ذلك أن (ماكلين) صاحب الخبرة والتأثير والسلطة كان ينظر إليه من جانب التجار كضحية للانتهازين فى لندن ولم تؤد التغييرات السياسية المكررة فى بريطانيا إلا إلى المزيد من الشعور بأن تدخلات الحكومة كانت هوية خطيرة، ولعله من الإنصاف القول: إن التجار وماكلين رغم أن ذلك أقل دقة، أنهم كانوا غرباء عن الناس الذين يتعاملون معهم، ولقد مات ماكلين فى الساحل سنة ١٨٤٧م، وصار أهل الساحل الآن أكثر تخوفاً من زيادة التدخلات؛ إذ إن ذراعهم اليمنى قد مات، وكانت المعركة بين الحكومة ورجال المصالح ولهذا فإن الحكومة أرسلت العديد من كبار موظفيها، وفى سنة ١٨٥٠م تعين لساحل الذهب محافظه الخاص به مع تعيين مجلسين تشريعى وتنفيذى وهو ما أقنع التجار بحيث يحدث التعاون، ولقد ساعد ازدهار التجارة جناح الليبراليين فى بريطانيا وقامت الحكومة بشراء القلاع الهولندية فى (كريستيانبورج وكيتا).

وفى سنة ١٨٥٢م اجتمع الزعماء المرتبطون مع بريطانيا، واتفقوا على تحديد ضريبة من أجل تطوير التعليم والخدمات الطبية والطرق؛ إذ إنه بالنسبة للحكومة

البريطانية، فإن الميزانية ماتزال غير كافية حتى لصيانة القلاع التجارية، ومع ذلك فإن أولئك الزعماء لم يكونوا موفقين فى جمع الضرائب، وبسبب بعض النواقص المالية ترك مشروع التطوير، ولقد استمرت العداوة بين الأوربيين وقبائل الأشانتى الذين لم يكونوا قادرين على تصدير إلا القليل من الرقيق عبر ساحل العاج وداهومى، أما الرقيق الزائد وغير القابل للبيع فيضحي به، وفى هذا الوقت كان (بيكروفت) أكثر الناشطين ضد تجارة ونقل الرقيق حيث قاد بعثة إلى داهومى سنة ١٨٥٠م وفى لاجوس أبلغ أن المدينة صارت مركزاً رئيسياً للرقيق على أنه لم يدخل (ويدا) بسبب حروب قبائل يوروبا)، ومن الأخبار التى وردت عن قوة قبائل (الأبومى) قررت بريطانيا أن احتلال داهومى سيكون كثير التكاليف، بينما أبلغ (بيكروفت) أن لاجوس كانت ضعيفة وطالب بتدخل عسكرى، وفى (فيرناندو بول) كان القنصل البريطانى المحترف قد عرض عليه من جانب قبائل (الأكيتوى) تحالفًا يقول: إنه إذا ما قدم للملك المعزول (أوبا) المساعدة ضد المقتصب (كوسوكو)، وأعيد إلى الحكم سوف يمنع تجارة الرقيق، وعندما علم (كوسوكو) بتلك المفاوضات شن هجومًا على قبائل (أيسوكوتو) الذين يؤيدون الملك المعزول وكان هذا الأخير قد هرب إلى (سانتا أيزابيل) ليتفادى القبض عليه، وخلال السنة التالية احتل السلاح البحرى الملكى البريطانى لاجوس وأعاد (أكيتوى) إلى الحكم، وبذلك تطورت التجارة البريطانية فى المنطقة، ولكن رغم الحملات النشطة ضد تجارة الرقيق فقد استمرت تلك التجارة، ومن المفاجئ أن احتلال لاجوس كان سهلاً ميسراً، وكانت لندن فى البداية مترددة غير راغبة فى التدخل فى الصراع على السلطة، ولم يكن فى المخطط أكثر من إنقاذ الملك (أكيتوى) ونقله إلى مكان آمن ولكن فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥١م أبلغ (بيكروفت) بأمر حصار (ويدا) وطرده (سوكوتو) من لاجوس.

وكان الأمر فى الحالتين يستهدف القضاء على تجارة الرقيق، وبذلك دخل (بيكروفت) بحيرة لاجوس مستخدماً قارباً صغيراً فوجد الملك (كوسوكو) عنيداً فى موقفه، وهنا طلب بارجة حربية وقوة إنزال لتهاجم المدينة يوم ٢٦ سبتمبر فقام الملك

(سوكوتو) بسد الممر المائي مستخدماً جذوع النخيل والرمل المبلل حيث وضع مدفعيته على طول الشاطئ في جبهة الحرب، وهكذا كان على البارجتين الحربيتين أن تنزلا الجنود للمواجهة الميدانية، وحدث أنه قتل المدافعون من رجال (كوسوكو) منهم خمسة عشر وجرح خمسة وسبعون قبل أن تدفع نيران البارجتين (كوسوكو) ورجاله إلى جزيرة (ايدو) وبعد انتهاء المعركة وقّع الأمير الذي أعيد إلى الحكم اتفاقية مع القنصل البريطاني سنة ١٨٦١م، ضمت بموجبها بريطانيا جزيرة لاجوس وهى بحيرة تظهر كمستنقع على مساحة اثني عشر ميلاً مربعاً تقريباً.

ومن أجل تعزيز سلطة القانون ومن أجل مراقبة تجارة الرقيق والدفاع عن الميناء عند الضرورة ضد غزوات الداهوميين كانت الاتفاقية قد قضت على الفوضى السائدة فى تجارة لاجوس، وأعطت التاج كل الامتيازات والمكاسب الحدودية وملحقاتها وكذلك فوائد وعوائد الميناء، ولكن دواخل لاجوس ماتزال فى حالة هيجان حيث إن الزعيم (كورومى) قائد قبائل (إيجايا) كان قد مات سنة ١٨٦٢م، بينما كانت مدينته تحت الحصار من طرف قبائل (يوروبا) وتواجه مجاعة وكان على قبائل (إيجايا) أن تبيع العديد من مواطنيها لحليفها (أبيوكوتا) مقابل الحصول على الطعام حيث كان مواطنو (أبيوكوتا) يتلقون المساعدة من أمريكى قناص، ولذلك فإن حالة الحرب قد عطلت التجارة ولم يتمكن نائب المحافظ على ضوء هذه الحالة من تحقيق هدفه فى تحويلها شمالاً إلى المنطقة الصديقة التى يحكمها الملك (ماسابا) .

وفى سنة ١٨٦٣م هاجمت قبائل داهومى قبائل أبيوكوتا لكن المهاجمين هزموا خلال السنة التالية، وفى سنة ١٨٦٤م غزت قبائل الأشانتى أراضى الفولانى، وكان المحافظ قد أرسل برقيات إلى لندن وقدم خططاً من أجل القيام بهجوم مضاد، ولكن لندن فى الحقيقة رفضت تخصيص ميزانية للعملية العسكرية، ولهذا فقد حدثت نكسة هائلة لنفوذ بريطانيا وحدث أن تلك هى المرة الرابعة خلال نصف قرن التى نكثت فيها بريطانيا بوعودها لهذا الجانب أو ذاك، وكانت قد تباطأت فى حرب الفانتى والأشانتى، وبذلك خسر الأشانتيون كثيراً وتوقفت التجارة القانونية كما أن سياسة

اللورد (نيو كاستل) التعيسة كانت واضحة في لاجوس، ومع ذلك فإن مكتب المستعمرات في لندن كان يصر على أنه حتى في تحصيل الرسوم لا يبرر أى توسع على طول الساحل، وكانت جماعة مقاومة الاستعمار مرة أخرى في وضع يسمى صرخة الحرب، ولهذا فإنه في سنة ١٨٦٥م حدث أن طلبت اللجنة المختارة من الحكومة البريطانية الانسحاب من كل المستعمرات فيما عدا سيراليون، بينما تتخذ الترتيبات لحماية المصالح التجارية البريطانية في كل من (جامبيا وساحل الذهب ولاجوس)، بحيث تبقى هذه تحت محمية (فرى تاون) .

كذلك طلبت اللجنة من الحكومة البريطانية بالألتولى الإشراف على مناطق أخرى في إفريقيا، وهذه المقترحات وجهت أيضاً من الأفارقة في المناطق البريطانية بشأن الإسراع في الاستعداد للحكم الذاتى، وتمت الموافقة على مقترحات تلك اللجنة، ولكن البريطانيين عرفوا تدريجياً فيما بعد أنه لا يوجد بديل إذا ما أرادوا تطوير التجارة في منطقة ما بغير إدارة جيدة مسئولة عن كل المستعمرات، وأحدثت هذه المواضيع مناقشات شديدة مع قبائل (ايقبا لاند) وعاصمتهم (أبيوكوتا) وفي سنة ١٨٦٤م كانت هذه القبائل قد رفضت قبول قنصل بريطانى لديها، وعندما مات الزعيم (آلاك أوكوكينو) في نفس السنة حدث ما نسميه نحن الآن انتصار فريق الحرب في (أبيوكوتا) وزاد تأثيره، ولذلك حدث في سنة ١٨٦٤م أن تمكنت قبائل (الأقبا) من القضاء نهائياً على الغزو الفولانى وبالتالي تحول انتباه (أولوقون) الزعيم الحربى لقبائل (أقبا) إلى قبائل (أب دان وأجيبو) وبسبب هذه الحروب تم استيراد كميات كبيرة من الأسلحة يقدر ثمنها بأكثر من ألف وثلاثمائة إلى لاجوس وبيعت في أسواق (يكورودو)، وفي سنة ١٨٦٥م هاجمت قبائل (الاقيا) منطقة (يكورودو) ولهذا اضطر المسئول الإدارى السيد (قلوفير) أن يتدخل في الصراع بشدة وتصميم، وهنا حدثت الممانعة المروعة في الصرف من جانب مسئولى الإمبراطورية في إفريقيا أى من جانب البرلمان في (ويستمينيستر)، وأمرت اللجنة البرلمانية بضرورة إعادة لاجوس لحكم المواطنين المحليين، وهكذا بقى المسئول الإدارى (قلوفير) أقل قدرة وصلاحيات وكانت النتيجة الأساسية لهذه الأحداث التآرجح في السياسة البريطانية

إبقاء حدود لاجوس غير معروفة وصارت حدوداً عرقية تتحول مع تحول الناس على أن مطالب اللجنة البرلمانية تلك لم تنفذ بالكامل أبداً، وفي سنة ١٨٨٤م تم ضم مستعمرة الحكم الذاتى فى لاجوس إلى إدارة ساحل الذهب^(١).

وخلال السنوات اللاحقة امتدت السيطرة البريطانية غرباً إلى (كاتانو) وقبل ذلك فى سنة ١٨٧٩م إلى (ابا) وبعدها فى سنة ١٨٨٤م إلى أماكن أخرى، ولم يوقع أى مرسوم فى شأن ذلك الإجراء، فى هذا الوقت انتهت خدمة المسئول الإدارى السيد (قلوفير) فى سنة ١٨٧٢م التى استمرت ثماني سنوات، وحدث أنه قد تم تعيين خمسة عشر مسئولاً إدارياً خلال السنوات اللاحقة الثلاث، وكان هناك منذ تأسيس مستعمرة نيجيريا سنة ١٩٠٠م إلى أن استقلت سنة ١٩٦٠م ثمانية محافظين ومحافظين عامين، وفى لاجوس كان هناك مجلس استشارى يتكون من قاضى وسكرتير المستعمرة وضابط هو قائد القوات فى جزر الهند الغربية وقائد شرطة منطقة الهاوسا، وبعد انتهاء مدة خدمة (قلوفير) تم تعيين ممثل تجارى عن شركة (ارثويتر)، وطلب هذا الممثل الإدارى إضافة اثنين من السيراليونيين إلى المجلس التنفيذى فى ساحل الذهب بحيث يمثلان لاجوس.

ولكن حدث سنة ١٨٧٤م أن الغى المجلس الاستشارى فى لاجوس وكذلك التمثيل فى (أكرا) ولم يعد إحياء المجلس الاستشارى ذاك إلا فى سنة ١٨٨٦م عندما تشكل من خمسة أعضاء رسميين أحدهم تاجر أوربى والآخر تاجر وطنى والثالث رجل دين وطنى وآخرون، وفى هذا الوقت كانت لاجوس تمثل مجموعة تجارية نشطة، ولقد بين الإحصاء الذى أجري أن ٣٧٪ لا يعملون فى التجارة أو فى الحرف الأخرى وكان من ضمن تجار (يوروبا وأيقون) أعداد كبيرة من البرازيليين والسيراليونيين الذين ذكرت المصادر الرسمية أن البالغين منهم سنة ١٨٧١م أكثر قليلاً من ألفين، وفى ساحل الذهب نتج عن قرار بريطانيا سنة ١٨٦٥م الانسحاب إلى

(١) هكذا هى سياسة الإنجليز فى كل مكان دخلوه وهى تتمثل فى الخلط والتقسيم مما يخلق المشاكل والصراعات، وكانوا قد اشتهروا بسياسة (فرق تسد)، ولعل الدائرة الآن تدور عليهم ليحصدوا ما كانوا قد زرعوا فى بلدان العالم الثالث . المترجم.

القلاع تأسيس اتحاد تعاونى فولانى من أجل أداء الأعمال الإدارية التى تركتها بريطانيا، وتبعاً لذلك قامت بريطانيا سنة ١٨٧م بتبديل كل قلاعها الواقعة غرب ساحل الرأس بقلاع هولندا الواقعة شرق (المينا) بحيث يتمكن البلدان من تركيز إدارتهما المحدودة والضعيفة كل فى منطقته.

وبالنسبة لأهل الساحل كان هناك خوف من أن مقترحات اللجنة البريطانية ستؤدى إلى انسحاب كامل، ولهذا جادل الكثير من التجار من أجل استمرار الإدارة البريطانية فى دعم القلاع، وكان تبادل القلاع ذاك قد شد انتباه ورد فعل المواطنين؛ لأنه يترتب عليه تبادل السكان فى تلك المناطق، وحدث أن أعداء قبائل الأشانتى استاءوا لأنهم حولوا إلى مناطق نفوذ الهولنديين؛ لأن هؤلاء متحالفون مع قبائل معادية لهم، وفى (كوميندا) رفض الأهالى أن يسمحوا للهولنديين بدخول قلاعهم التى نقلوا إليها وقاموا بالهجوم على (المينا) التى يوجد بها سكان من حلفاء الأشانتى وبعض أصدقاء الهولنديين، وفى سنة ١٨٧٨م أعلنت قبائل الأشانتى صرخة الحرب ضد البريطانيين لكن اعتمادهم على مساعدة الهولنديين كان ضعيفاً، وفى السنة التالية اقترحت هولندا على بريطانيا بيع كل قلاعها وكانت سياسة لندن فى هذا الوقت قد تغيرت، وبالتالى وافقت على الشراء وعارضت هذا الوضع قبائل كثيرة منها (كوفى وكاركارى) مدعومين بسكان منطقة (مينا)؛ لأن شراء بريطانيا للمينا سوف يجعلها موقعاً رئيسياً للأشانتى وكانت قبائل (الفانتى) تأمل أن تحارب بريطانيا قبائل الأشانتى، ولكن بريطانيا وهى تحسب للحرب حساباتها المالية عملت على التفاوض بدلاً من الحرب على أنها لم تكن راغبة فى الاحتفاظ بسيطرتها المحدودة لمدة أطول، وفى هذه المرحلة التقى المثقفون من قبائل الفانتى مع زعماء (المانكيسيم) خلال شهر أكتوبر ١٨٧٩م واتفقوا على صياغة دستور الاتفاق التعاونى لقبائل الفانتى بحيث يمثل أساس بناء الدولة ودفاعها عندما تخرج بريطانيا، ومن المفاجآت أن الإدارة البريطانية فى الساحل لم يكن موقفها مثل سياسة لندن المتأرجحة، ولهذا فقد استاءت كثيراً من سياسة البيع.

ولقد قام المسئول الإدارى على عجل باعتقال الذين أصدروا دستور الفانتى بحجة التأمر ضد بريطانيا ولكن مكتب المستعمرات أمر بالإفراج عنهم وخلق ذلك الإجراء فتنة وهنا

انتفضت قبائل الأشانتي وارتفعت صيحة الحرب، ومن ثم ارتفعت قبائل الفانتى من النتائج، ولكن مرض الزحار والجدرى قضى على الغزاة خلال شهر واحد وبالتالي انتهى التهديد، وفى هذا الوقت رأت بريطانيا ضرورة القيام بعمل عسكري، وفى نهاية السنة عين الجنرال السير (قلنير والسلى) حاكماً وقائداً عاماً لساحل الذهب، ووضع تحت تصرفه ألفان وخمسمائة جندي أوربي وعدد غير محدود من القوات المساعدة الإفريقية معظمهم من نيجيريا.

وكانت أول معركة تقع مع قبائل الفانتى قد دارت فى الفترة بين ٣١ يناير و٤ فبراير واتضح خلال ذلك أن ملك الأفانتى وكثير من رجاله قد هربوا من المدينة على إثر الغزوة البريطانية التى لم يكن مقررا لها الاحتلال والبقاء ولا لمزيد من الحروب والقتال وقام قائد القوات بحرق المدينة التى كانت مبانيها مقامة من الطين ثم غادر ونتيجة لهذه الحملة العسكرية وافقت بعض القبائل على دفع تعويضات مقدارها خمسون ألف أوقية من الذهب ووافقت أخريات على توقيع اتفاقيات من أجل إنهاء تجارة الرقيق، وعندما تولى (ديزرائيلى) وزارة المحافظين فى (ويستمينستر) كانت سياستها أكثر نشاطاً^(١) وتقرر أن تضم المناطق المحمية فى غرب إفريقيا إلى التاج

(١) دزرائيلى بنيامين إيرل بيكنسفيلد (١٨٠٤ - ١٨٨١) من أصل يهودى، نفث روحاً جديداً فى حزب المحافظين البريطانى بمناصرته مبدأ الديمقراطية والتوسع الاستعماري، وكان أشد رجال السياسة الإنجليز غموضاً، وأكثر احتقاراً للطبقة الوسطى التى نشأ منها، وكان أبوه (إسحاق دزرائيلى) ناقدًا أدبيًا اعتنق النصرانية، ولهذا تنصر الابن كذلك، وهو فى الثالثة عشرة من العمر، انتخب عضواً فى البرلمان سنة ١٨٣٧م، ولقد قوى زواجه السعيد سنة ١٨٣٩م روحه المعنوية وثقته بنفسه، وهكذا عقدت له زعامة المحافظين سنة ١٨٤٨م، وعين وزيراً للخزانة فى وزارته اللورد (دوربي) قصيرنى العمر، واختير رئيساً للوزراء سنة ١٨٦٧م، وأقر فى عهده حزب المحافظين قانون الإصلاح البرلمانى سنة ١٨٦٨م الذى منح حق الانتخاب لعمال الصناعة، اتسمت وزارته الثانية سنة ١٨٧٤ - ١٨٨٠م بطابع العدوان فى الشؤون الخارجية حيث استولت بريطانيا على جزر فيجي سنة ١٨٧٤م والترنفال سنة ١٨٧٧م، وشنت حرباً على الأفغان وقبائل الزولو سنوات ١٨٧٨ - ١٨٧٩م، وهو الذى تمكن من شراء أسهم قناة السويس التى عرضها الخديوى اسماعيل للبيع بسبب ضائقة مالية، فقوى هذا الشراء مركز بريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط، وقد أجبر تركيا على التنازل عن جزيرة قبرص لبريطانيا سنة ١٨٧٨م، وأضعف هيبة روسيا فى البلقان بانتصاره الدبلوماسى البارع فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م، كان مقرباً من الملكة فيكتوريا التى توجت إمبراطورة على الهند سنة ١٨٧٦م، (دزرائيلى) الابن كان كاتباً روائياً اشتهر ببعض أعماله وممارساته السياسية فى الحكم. المترجم .

البريطاني والإدارة في لاجوس وتفصل عن الحكومة في سيراليون، ولقد عارض رئيس الوزراء دزرائيلي الاتحاد التعاوني لقبائل الفانتى على أساس أنه يتجاوز اتفاقات سنة ١٨٤٤ - ١٨٤٥ م على أن بريطانيا سوف لن تطلب حقوقاً في الأرض، ولكنها تصر على السيطرة التشريعية، ومن قرار دزرائيلي يمكننا أن نرى ببساطة أنه في النهاية قرار استعماري ولقد عانت كثيراً الإدارة في لاجوس، كذلك من التذبذب الذي سبق حكم دزرائيلي، ولكن عندما كانت الوزارة في ويستمينيستر تفشل كان الأفراد ينجحون في بعض الوقت، ففي (فرى تاون) كان أحد الإداريين قد أقام غطاء من الإدارة الاستعمارية الممتازة خلال ظروف غاية في الصعوبة هو السيد (توماس ثيكل)، وهذا أوربي إفريقي جاء إلى المنطقة من أجل التجارة وكان قد علم نفسه، وخلال عشرين سنة شغل مناصب مختلفة وفرض إجراءات في المجالين المدني والقانوني ضد الزعماء السيئين وضد صلاحيات الكهنة الوثنيين، وفي الفترة الأخيرة من حياته كان قد ساعد على تعزيز موقف بريطانيا ضد فرنسا في المناطق الغربية، ولقد قلل من عمليات التهريب وساعد على خفض مستوى السرقات المخيفة والسرقة بالعدوان التي كانت تضرب تجارة المستوطنات وكانت (باداقرى ولاجوس)، قد فشلتا في دفع مصاريف إدارتهما وقد زادت أسعار زيت ولب النخيل خلال الستينيات وارتفع التصدير عبر لاجوس إلى سبعة وعشرين ألفاً للطن الواحد سنوياً ولكن تلك الأسعار بعدئذ هبطت، ففي ليفربول هبط السعر من سبعة وثلاثين دولاراً للطن سنة ١٨٦٨ م إلى ثلاثة وثلاثين بعد ستين من هذا التاريخ وهبط كذلك ثمن لب النخيل من خمسة عشر جنيهاً إلى ثلاثة عشر جنيهاً على أن هذه الأسعار لم تؤثر كثيراً على المزارعين النيجيريين وإنما كان الخاسر الكبير هم التجار إذ هبط الربح في الطن الواحد من الزيت من عشرين جنيهاً سنة ١٨٦٥ م إلى حوالي ثمانية جنيهاً سنة ١٨٨٢ م والربح في لب النخيل كان فقط ثلاثة أو أربعة جنيهاً، ومنذ أن مدد كبار التجار ائتماناتهم أفلس صغار التجار، وفي بيان رسمي ذكر أن من مجموع أحد عشر تاجراً من سيراليون

يتعاملون مع بيوت مال أوربية سنة ١٨٨٦م لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة خلال العقدين الماضيين، أما من أتى فيما بعد فهم جدد من سيراليون وساحل الذهب أو من أحفاد أسر محلية الذين كانوا قد رهنوا أراضيهم لبيوت مال تجارية أوربية، وذكرت جريدة (لاجوس تايمز) الصادرة في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨١م أن هذا يحدث عادة كإيداع لدى بيت مال تجارى باسم خيالى عبر أشخاص آخرين، أما بالنسبة للشركات البريطانية فلم يبق منها إلا مؤسسة (بانز بروذرز) حيث انتقلت من تلك الشركات اثنان إلى الدلتا وثلاث توقفت نهائياً فى حين دخلت شركات ألمانية منافسة فى المنطقة بما فى ذلك شركتان ماتزالان موجودتين إلى الآن، وبحلول سنة ١٨٨١م كان هناك مائة واثنى عشر تاجراً أوربياً وغيرهم فى المستعمرة أو المحمية من بينهم خمسة وأربعون ألمان يعملون بالتجارة ومهندسون يشرفون على سفن تجارية فى موانئ لاجوس وبورتونوفو، وفى سنة ١٨٨٥م ضمنت الشركات الألمانية والفرنسية أكثر من نصف المصدر من لب النخيل فى لاجوس وثلث الصادر من تجارة زيت النخيل، وكان ما يؤرق الإدارة البريطانية فى غرب إفريقيا كما فى أماكن أخرى من الإمبراطورية هو كيفية توفير الأموال من أجل القيام بالأعمال الضرورية، وهذا فى الواقع أكد ما كان يطالب به نائب القنصل (قلوفير) عندما انفجرت الحرب مرة ثانية فى سنة ١٨٧١م بين كل من (أبادان ويوروبا وأقيا يوروبا) فى منطقة (أبيوكوتا)، وتوقفت التجارة فاتجه (قلوفير) بتفكيره إلى (بورتونوفو) حيث ماتزال التجارة مزدهرة وعلى هذا الأساس ساندته مجتمع التجار وقدموا إليه عرائض من أجل أن يضم المدينة، لكن السفينة الحربية الألمانية أرسلت إلى (بورتونوفو) حيث وجهت تهديداً للملك (ميكبوه) لمنعه من وضع أسواقه تحت السيطرة البريطانية، وإلى لندن أرسل (قلوفير) يقول: إن السيطرة على (بورتونوفو) سوف تمكنه من إيقاف عدوان قبائل (أقيا) وإجبارهم على قبول السلام ولكن محافظ (فرى تاون) السيد (بوب هينس) رفض مساعدة (قلوفير) على سياسته تلك وأمر السفينة الألمانية أن تنسحب ولكن (قلوفير) تجاهل أوامر المحافظ وما كان

من هذا إلا أن أبحر إلى لاجوس وقرر نقل (قلوفير) وفيما بعد تبين لخلف (قلوفير) أن سياسة سلفه كانت صائبة، حيث إنه قد واجه ما كان معتاداً في الإدارة الاستعمارية من ممارسات، وبالتالي طلب الموافقة على توسيع حدود المنطقة بحيث تشمل (بورتونوفو) وإغراء الملك الجديد الذي يظهر أنه يتطلع للمساعدة ويبدى مرونة واسمه (توفا) بحيث يعطى جزءاً من عوائد الجمارك ودون أن ينتظر الموافقة النهائية ذهب إلى قصر الملك (توفا) سنة ١٨٧٥م يرافقه القائد (هيوبت) الذي يبحث عن قرينة حول تجارة الرقيق تعطى البحرية حق احتلال المدينة، لكن النقاش مع الملك لم يكن ناجحاً كما يجب، ولكن ما كان موجوداً في منطقة شاطئ الذهب يعطى مؤشراً أن الملك كان منغمساً في تجارة الرقيق، وقد أرسل محافظ ساحل الذهب هذه المعلومات إلى لندن حيث من المحتمل أن يصوت البرلمان في هذا الوقت على ميزانية للمساعدات الإنسانية ومنع تجارة الرقيق، وكان المحافظ (أستراهان) وصغار التجار من الجالية البريطانية في كل من (أكرا ولاجوس) على قناعة بأن كل الساحل يجب أن يحتل على الرغم من أنهم يخشون إذا ما عارضت الاحتلال قبائل (ايقون وايوى) في (بورتونوفو ومنطقة البحيرات) سوف يطلبون المساعدة من المحاربين في قبائل (الفون والأبوني) وباحتلال الساحل تكون منافذ تجارة (الفون) بالكامل تحت السيطرة البريطانية، مما يجعل هذه القبيلة تشغل الأوربيين في حرب طويلة كثيرة التكاليف.

وفي حين أن بريطانيا قللت من إمكانيات الملك (توفا) فقد أجرت سفينة بخارية بريطانية لتستخدمها كسفينة حربية تقصف عدة قرى لاستسلامها في منطقة (بحيرة نوكوى)، ولقد تم تعيين رئيس خاضع لبريطانيا في (أبا) وهذه كانت نظرياً تحت السيطرة البريطانية بحيث تقفل التجارة إلى لاجوس، وكان تصرف الملك (توفا) قد أعطى نائب المحافظ في لاجوس المبرر الذي احتاجه من أجل القيام بعملية عسكرية وقد حصل على موافقة المحافظ في (أكرا) بحيث ينفذ مخطط قطع سبل تجارة (بورتونوفو) مع (كوتوفو) وقد أبحر المحافظ إلى (بورتونوفو) في

سبتمبر سنة ١٨٧٩م، وهناك قرر غرامة مقدارها خمسون جنيهاً وطلب من الملك (توفا) أن يرفع الحظر عن تجارة لاجوس.

وفى هذا الوقت أطلقت سفينته طلقات تحذيرية لتجعل الملك (توفا) يوافق على رفع الحظر ودفع الغرامة، وقد استغل المحافظ هذه الفرصة ليعلن مد الحماية البريطانية إلى شاطئ (نوكونى) وفى (باداقرى) تشكل وفد مناسب من زعماء (أيوى) ليقابل المحافظ ويطلب الحماية البريطانية وقدر المحافظ أن السيطرة على (بورتونوف) سوف توفر عوائد تقدر بثلاثة ملايين دولار تقريباً حسب مقاييس هذا الوقت وذكر فى رسالة إلى وزير شئون المستعمرات (هيك بيش) قائلاً: إن لاجوس يمكن أن تكون ليفربول الشاطئ غير أن وزير شئون المستعمرات لم يوافق المحافظ على هذا رأى على الرغم من أنه سمح له بالاحتفاظ بمنطقة (كاتانو) بسبب أهميتها التجارية، بينما تجارة لاجوس ماتزال مقطوعة بسبب نزعة قبائل (يوروبا) الحربية.

ولقد كتب محافظ لاجوس سنة ١٨٨٣م يقول: ما يسمى حرب هو فى الحقيقة قليل من القتال يحدث دائماً والقبض على العبيد هو الهدف لدى كلا الجانبين المتقاتلين ذلك أن اصطيداد البشر هو الغرض من عمليات القتال من أجل بيعهم، وكل هذه القبائل تجارتها فى كثير أو قليل مع قبائل (آبادان) على الرغم من أنهم فى حرب مع هؤلاء ذلك أن أعظم منتج يباع يمكن أن تقدمه قبائل (آبادان) هو الرقيق حيث إنهم يبيعون لقبائل (أقباس) العبيد الذين يقبضون عليهم من قبائل (أجيشاس) ويبيعون لقبائل (أجيشاس) العبيد الذين يقبضون عليهم من قبائل (أقباس) وعملاء البيع الوسطاء هم من قبائل (أقباس واجيوس وأجيشاس) وعندما يحدث التفاوض مع قبائل (آبادان) من أجل السلام، فهذا يعنى أن هذه القبائل ستأتى بما لديها إلى الأسواق لا أكثر ولا أقل، وبالتالي فإنه لا يمكن لأى تاجر من قبائل (آبادان) أن يتعدى أسواق قبيلته، وعلى الساحل يقوم هؤلاء بتبادل الرقيق مع تجار لاجوس بالبضائع الأوربية، ومع ذلك فإنه لا يمكن لأى تاجر من لاجوس أن يدخل أراضى هذه القبيلة متجاوزاً مكان البيع على الساحل حيث يتم

التبادل وقبائل (أجيوس) تدفع أسعاراً عالية للعبيد الرقيق لأنهم يستخدمون هؤلاء في أعمال الحقول.

وبعض الباحثين المحدثين بما في ذلك البروفيسور (أدى آجاي) تسابقوا على دراسة تلك الظواهر وتبين لهم بوضوح أن نمو اقتصاد المستعمرات البريطانية في لاجوس يعتمد على تدخل بريطانيا المباشر في شئون (يوروبا) .

وفي سنة ١٨٨٤م وافقت لندن أخيراً على ذلك العرض البائس من أجل أن تستولى على منطقة الجداول وقد ذكر أحد المؤرخين في هذا الوقت أن فيضا من الالتماسات والمذكرات من كل من لاجوس وساحل الذهب وغرفة التجارة في مانشيستر وليفربول كانت تشتكى من التخلف الاقتصادي في المستعمرتين الواقعتين تحت الحكم المشترك، وأن ذلك أدى عملياً إلى خلق انقسام بين (ساحل الذهب ومستعمرة ومحمية لاجوس) وحدث في هذا الوقت أن عاد الفرنسيون إلى (بورتونوفو) مما جعل عملية الأحداث تتحرك بسرعة كبيرة الشيء الذي استهلك عشرين سنة حتى يعود الوضع إلى ما كان عليه في عهد المحافظ (قلوفير) سنة ١٨٦٤م مع أن فرص احتلال أسواق جنوب داهومي قد ضاعت نهائياً، والواقع أن أشياء كثيرة كانت قد ضاعت وفي جو فترة التحضير لمؤتمر برلين كانت أيضاً فرصة دمج المستعمرتين الساحليتين قد ضاعت بسبب التقصير ومعها الفرصة التاريخية اللاحقة في مستعمرة نيجيريا التي كان يمكنها أن تمتد عبر جاراتها الصغيرات (داهومي) والمنطقتان الأخريان المعروفتان باسم (التوقو وغانا) ولا بد أن يقع اللوم ما يسميه بعض الكتاب (البلقنة) على أعضاء حكومة المحافظين البريطانية الذين افتقدوا الشجاعة في أفكارهم وكذلك على بعض القناصل في (فرى تاون) وبشكل خاص القنصل (هينيس) الذي أضاع أعماله الجيدة في (سيراليون) بأعماله الفاسدة في مستعمرات غرب إفريقيا الأخرى.



الفصل العاشر

مبادرات الألمان والفرنسيين

الفصل العاشر

مبادرات الألمان والفرنسيين

الطريق إلى برلين

بدأت أكثر فأكثر تظهر طموحات قوة استعمارية على الساحة ليس فقط في مناطق (أيقون وأيوى) ولكن بشكل خاص أبعد إلى الشمال خلال منتصف عقود القرن التاسع عشر تلك هي فرنسا حيث انتعش الاهتمام الفرنسي تدريجياً بعد (واترلو)^(١) إذ إنه على امتداد أكثر من قرن في الصراع مع بريطانيا كلف فرنسا أغلب مناطق إمبراطوريتها في أمريكا وتحديداً (لوزيانا وهايتي)، وكذلك في آسيا وقد بقيت إفريقيا ساحة مفتوحة حيث كانت سياسة فرنسا الخارجية كما هي سياسة بريطانيا الخارجية متناثرة وغير جدية لسنوات عديدة، ومع ذلك ففي سنة ١٨٣٠م احتلت فرنسا جارتها الجزائر، وإلى قرب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٩م لم يكن لفرنسا أكثر من مصالحها التجارية في غرب إفريقيا في حين أن ألمانيا وقتئذ كانت جاهزة تبحث عن مكان ترفع عليه أعلامها، ولقد كان تحدى هاتين الأمتين قد أجبر أخيراً بريطانيا أن تدرك أنه حتى وجودها السابق في الساحل التجاري لا يمكن المحافظة عليه ما لم تحاول خلق إدارة تجارية استعمارية بما يحتاج ذلك الترتيب، ولقد كانت عودة فرنسا

(١) واترلو اسم يطلق على معركة يونيو ١٨١٥م وهي آخر معارك الحروب النابليونية التي وقعت جنوب بلجيكا، وقد واجه فيها نابليون الأول أوروبا المتحالفة، وكان يأمل أن يهزم القوات البريطانية البروسية قبل أن يلتحم مع النمسا، وفي أثناء القتال ضد القوات البريطانية بقيادة القائد البريطاني ويلنغتون انسحب هذا الأخير إلى موقع جنوب واترلو، وهناك انتظر هجوم الجيش الفرنسي، وحدث أن أمر نابليون بالهجوم يوم ١٨ يونيو فقاومه الإنجليز بنجاح، وتصدت له قوات بلوخر التي أفلتت من الفرنسيين الذين تفرقوا فيما بعد وانهزموا، وهكذا تخلى نابليون عن العرش في ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥م وأصبحت فرنسا مهزومة في هذا الوقت. المترجم.

المحسوسة إلى الساحل بعد سنة ١٨١٥م قد تمثلت في إعادة احتلال جزيرة (غورى) بسانت لويس وقلعة (البريدا) فى (جامبيا) أما محاولات زراعة القطن فى السنغال الأسفل فقد فشلت، وحدث أنه بين سنوات ١٨٣٨-١٨٤٢م أن وقع الضابط البحرى (بويت ويليامير) اتفاقية تجارية مع الزعماء فى رأس (بالماس وأبسام الكبرى وسينى) الأولى تقع الآن فى ليبيريا والتي تليها تقع فى داخل غانا وتقع بسام الكبرى فى ساحل العاج، وهذه كانت لعدة سنوات عاصمة ساحل العاج الاستعمارية، أما القلعة الفرنسية فى (ويدا) فقد أعيد احتلالها سنة ١٨٤٣م مباشرة بعد تحصين (أسيى وبسام الكبرى) ولقد نقلت المراكز التجارية إلى مناطق أخرى فى ساحل غينيا وتحديدًا فى (بوتونوفو ووكوتونو وأنيكسو) وعندما حدثت اضطرابات وعدم استقرار بعدئذ تم التخلي عن محطات (فون وأبوى) وأخيرًا أعطت بريطانيا لفرنسا محطاتها التجارية فى السنغال بينما أعطت فرنسا لبريطانيا (البريدا) فى قابيا وهكذا صار لكل بلد سيطرته على الجزء الخاص به فى نهر قابيا العليا وكان فى هذا الوقت قد اتجه الاهتمام الفرنسى إلى حد ما بعيدًا عن الساحل، مما أعطى بريطانيا مساحات هائلة فى مناطق لم تكن تجذب انتباه قوة أوربية وهى منطقة السودان الغربى وتلك هى المساحة الكبرى الواقعة غرب أرض الهاوسا والتي ظهرت بها أربع دول رئيسية فيما بعد وهى (الفوتا أو تيكورور ومملكة بامبارا ساقو وكارتا وسامينا) والبلد القوى (بامبارا)، إنما هو جمع بقايا (مالى) التى توحدت بعد هزيمة تلك الإمبراطورية بواسطة قبائل (أسكياس) الذين كان يقودهم (بيقوه كولولابى) خلال الفترة من سنة ١٦٦٠ - ١٧١٠م، ثم إن مملكة (بامبارا ساقو) صارت قوية حتى إنها أجبرت قبائل البربر فى تومبوكتو على دفع الجزية، أما (كارتا) فقد كانت منفصلة من مملكة (بامبارا) إذ تحاربت المملكتان الشقيقتان أثناء القرن الثامن عشر وحدث على إثر ذلك العنف فى الصراع أن دفعت حدود (مارتا) غربًا فى اتجاه السنغال الأعلى، أما (ماسينا) فقد كانت تمثل مملكة المانديق والثيوقراطية التى أسسها على النيجر الأعلى (أحمادو ليو) وهى التى يتكون أغلب شعبها من (الفولانى) الذين يحكمهم زعيمهم الخاص (جالو) الذى كان قبل (أحمادو ليو) يدفع الجزية فى البداية لإمبراطور مالى ثم لباشا تومبوكتو ثم من أواخر

القرن السابع عشر وما بعده صار يدفع لبامبارا ملك (ساقو)، وخلال القرن التاسع عشر حدث أن كثيرين من الفولاني في (ماسينا) صاروا مسلمين بقيادة (أحمدادو ليو) الذى دخل الحرب مع (عثمان دان فوديو) وهو مصلح إسلامى قضى على قبائل (جالو) الوثنية وهزم المحاربين الذين جاءوا من (ساقو) لمساعدة زعيم (جالو) الذى كان يدفع لهم الجزية وبعد هذه الانتصارات أقام (أحمدادو ليو) فى (ماسينا) دولة إسلامية متشددة وتوالى على الفولاني عدد من الزعماء كانوا تاريخياً سبب الفارقة بين شعب الفولاني الرائع وكان المواطنون (التوكولور) الذين يتكلمون اللغة الفولانية، قد هزموا نظام قبائل (الولوف) وأعادوا قيادة (الفولاني) وهؤلاء منحدرين من أصل المرابطين وكانوا مسلمين منذ قرون، وخلال منتصف القرن التاسع عشر وسع المسلم التيجانى الحاج (عمر) حدود مملكة الفولاني إلى تومبوكتو وعمر هذا الذى تحرك بتوسع هو رجل تقى متعصب وابن بالتبني للسلطان (سوكوتو بيللو) الذى قاد الجهاد ضد الدول الوثنية فى السودان الغربى، حيث هزم (كارثا) سنة ١٨٥٤م، وبدأ بعد ذلك مسيرته الطويلة عبر السودان الوثنى، وكان قد حدث فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ السودان أن برزت فرنسا، وفى تلك المسيرة رفضت (ماسينا) الاشتراك فى الحرب ضد (سيقو) لكنه هاجم (كاسو وقالم) فى المنطقة الوسطى من السنغال والتقى بطابور متقدم من القوات الفرنسية فرد على أعقابها، وكان عمر قد احتل (سيقو) سنة ١٨٦١م واحتل (موسينا) خلال السنة التالية ١٨٦٢م، وكان عمر هذا رجلاً متعصباً مخلصاً ومفكراً متكلماً غير متسامح مع الوثنيين، ولكن كثيراً من خططه كانت دون المستوى اللازم للاحتلال والسيطرة وهكذا فإن كل من (بامبارا وسيقو وفولاني ماسينا) انتفضوا ضد فرض فولاني تكرور عليهم، وقواتهم الاستعمارية ولقد قدرت حشود هؤلاء بثلاثين ألفاً بين راكب وراجل وقد هزموا قوات عمر الذى قتل هو نفسه فى كهف (وربما يكون قد انتحر) وفى سنة ١٨٦٤م ثار من المسلمين ضربت أعناق ثلاثمائة معلم مسلم فى (ماسينا)، وكانوا مربوطين بعمائمهم واحداً بالآخر، وحدث أن أبناء عمر وأبناء إخوته الذين كان قد جعلهم خلفاء فى المناطق التى استعمرها

واجهوا العديد من الثورات بعد موته أو قتله، ولكن بحلول سنة ١٨٧٢م تم القضاء على الثورات وأعيد تأسيس إمبراطورية (الفوتا) ووضعت كل السلطات فى يد (أحمدادو بن عمر من ابنة سلطان سو كوتو) لكن حكمه أثبت أنه غير شعبى وخلال العقد اللاحق أى فى سنة ١٨٨٤م أجبر على نقل قيادته إلى (نيورو فى مقاطعة كارتا)، وفى سنة ١٨٩٢م أجبرته القوات الفرنسية على الهرب إلى (ماسينا) وفى سنة ١٨٩٣م تراجع إلى قرية صغيرة قرب (سوكوتو) حيث مات بعد خمس سنوات، وهناك فى منطقة التواصل بين شمال نيجيريا والسنغال يوجد بيت الحاج عمر إلى هذا اليوم وصار حفيده المدعو (سيدو نوروتال) زعيماً سياسياً ودينياً فى السنغال الحديث وكان سفير نيجيريا بعد الاستقلال فى لندن السيد (عبدالمالك) وهو حفيد (إبراهيم نياس) وإبراهيم هذا كان أحد زعماء المرابطين الكبار وهو الذى سيطر على جزء من المنطقة الانتخابية التى تسمى (بوريد بالسنغال)، ولقد خلف إمبراطور الفولانى تكرر أحمدادو ابناً يدعى (سامورى) الذى وحد شعب (الماندينكو) حوله ومارس تجارة الرقيق بشكل كبير حيث كان يبيع الغنيمة الإنسانية فى الصحراء وهى المكان الذى كان فيه العرب مازالوا يشترون العبيد، ولم يسمعوا أبداً بقانون تحريم تجارة الرقيق، ولقد ولد (سامورى) من زواج بين (أحمدادو) ومحظية وثنية ثم تربى فى حضن تاجر وثنى واعتنق الإسلام وهو فى سن العشرين من العمر، ومن سنة ١٨٧٠م عندما كان يبلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة إلى سنة ١٨٨٢م لم يكن له من عمل غير تجارة الرقيق، ولكن منذ هذا الوقت حدث له ما حدث لوالده قبله من غزوات الفرنسيين، وهكذا فهو إلى سنة ١٨٩٨م كان مشغولاً بالدفاع عن مملكته بشدة وعناد ضد الغزاة البيض لكنه حوَصر حتى جوع ولما قبض عليه رحل إلى القابون فى نفس السنة ١٨٩٨م، ومات هناك سنة ١٩٠٠م، والآن فى غينيا الشمالية حيث تعيش قبائل (الماندينكو) أو (المالكى) ينظر إلى (سامرى) كبطل قومى، أما المؤرخون فيرون أنه قائد عسكري وإدارى ممتاز، وأول رئيس لغينيا (أحمد سيكوتورى) يفخر بقرابته (لسامورى)، ويعتبر نفسه حفيد ذلك البطل، ومع ذلك فإن فى (سامورى) جانب

سلبى لأنه حبس ابنه إلى أن مات لمجرد أن هذا الابن نصحه بالاستسلام للفرنسيين، كما أن الكاتب المعاصر (آمادو هامباتا با) ذكر أن (سامورى) كان يشوى الناس كما يشوى الفول السوداني، أما المناطق التى كان قد احتلها فإن أهلها مازالوا يعتبرون اسمه لعنة أو إهانة حيث كان الإسلام بالنسبة لسامورى سلاحاً أكثر منه اعتقاداً حسب ما يرون، وكانت فرنسا قد أسست إدارة مستقلة لكل من (قورى والسنغال) على الساحل وصار (قورى) قاعدة لقيادة البحرية الفرنسية تحمى كل المراكز التجارية الفرنسية فى ساحل غينيا، وكان محافظ السنغال الجنرال (لويس فايديلهيربى) قد وسع نفوذه فى منطقة النهر، وكان اسم المستعمرة الفرنسية الرئيسية فى إفريقيا آتيا من اسم نهر السنغال الذى أخذ كنيته من (زيفاقا) أو (زيناقا) وهم الشعب البربرى الذى كان يعيش على الجانب الأيمن من النهر ومنهم القبيلة الكبيرة التى تدعى (الوولوف) وهذه ذكرها لأول مرة (دا مستو) وأطلق عليها اسم (زيلوفى) ويظهر أن عبارة (وولوف) آتية من كنية القبيلة التى يطلقها عليهم جيرانهم (الماندى) وهى تعنى (أسود البلد)، وكانت قبائل (الوولوف) أساساً قد تجمعت فى مملكة (الوالو) بالدلتا وكان ملوك البلاد يحتفل بهم وبذكرياتهم منذ نهاية القرن الثانى عشر، وأن مؤسس المملكة يدعى (ناجاي) وكانت عاصمة البلاد حتى القرن الثامن عشر فى (جوربيل) وهى دولة سودانية متقدمة نسبياً يسكنها قسمان من الناس أى طبقتان (الأحرار والعبيد) وأول اتصال لها بالإسلام كان فى القرن العاشر والثالث عشر، ولكن خلال سنة ١٤٥٥م وجد (دا مستو) أن الأسلمة شكلية فقط وكانت مقاومة الإسلام والحروب ضد المغاربة وضد قبائل (الفوتا والثورو) خلال القرن التاسع عشر قد شجعت قبائل (البراكا)، بحيث وقعت معاهدات مع فرنسا من سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٩٠م بعضها وقعته الملكة الأم، ومع الاستعمار حدث إسلام (الوولوف) إذ صار حوالى خمسة وثمانين بالمائة منهم مسلمون ومع استثناء الوثنيين المتغطرسين كانت إمارة (الوولوف) المستقلة (كابور) مسلمة منذ القرن السادس عشر بقيادة ملكها الذى كان اسمه التشريفى دائماً (فال) وفى سنة ١٨٦١م تحت قيادة (لات جور) استأنفت (كابور)

مسيرتها ولكن الفرنسيين طردوا (لات جور) حيث اختفى فى منطقة (سالوم)، وهناك اعتنق الإسلام سنة ١٩٦٤م على أنه استطاع بعد فترة أن يعقد سلاماً مع الفرنسيين سنة ١٩٦٨م، وعاد إلى (كابور) مصحوباً بالداعية المسلم (مومار أنتاسالى) والد (آمادو بامبا) مؤسس طائفة المريدين، وكان المحافظ المدعو (فايدليهرب) يعمل على تنمية المصالح الفرنسية فى إفريقيا السوداء حيث إن فرنسا لها وجود دائم كثيراً أو قليلاً فى (ساينت لويس وجزيرة قورى) منذ القرن السابع عشر وعند نهاية القرن الثامن عشر كان سكان (ساينت لويس) يبلغ عددهم سبعة آلاف مواطن بما فى ذلك مائة أوربى، وتلك أكبر مجموعة أوربية فى الساحل شمال نهر الكونغو وأغلبهم من الرجال يعيشون مع عشيقاتهم الإفريقيات اللواتى يعترف بأطفالهن ويسمون (مولاتو) أى ربع زنجين ويعرفون الآن (بالساينت لويسيون) نسبة إلى منطقة (ساينت لويس) وفى سنة ١٨٢٥م صار فى (ساينت لويس وقورى) معاً سكان يبلغ عددهم عشرة آلاف مواطن منهم اثنا عشر ألفاً من الرقيق المحلى حسب تقدير المسئول الإدارى السيد (قوليت)، وفى سنة ١٨٣٣م أعطى المرسوم الملكى الفرنسى كل الرجال الذين ولدوا أحراراً فى المناطق الفرنسية الجنسية الفرنسية الكاملة وهذا يسرى فى المراكز الفرنسية كما فى فرنسا، وفى سنة ١٨٤٨م نتيجة لثورة الليبراليين التى جاءت بالأمير الرئيس نابليون الثالث إلى الحكم ألغت فرنسا أخيراً تجارة الرقيق، وفى نفس السنة حصل السنغال على حق انتخاب نائب سنغالى فى المجلس التشريعى ولكن هذا الامتياز ما لبث أن ألغى سنة ١٨٥٤م وكانت هذه السنة التى أرسل فيها السيد (فايدليهرب) إلى (ساينت لويس) التى كان سكانها يبلغ عددهم اثنى عشر ألفاً وثلاثمائة وستة وثلاثين منهم مائة وسبعون أوربياً فقط، وكان الفرنسيون والأوربيون كما هم الآن يحكمون المدينة، وفى هذا الوقت رفع (فايدليهرب) بنادقه السنغالية ليهدد جيرانه فى الأراضى الداخلية بما فى ذلك هضاب (توتا وتورو)، وقد احتل (داكار) وهى عبر المضائق من (قورى) سنة ١٨٥٧م وأسس (بينيت لابراد) وهذا الآن واحد من موانئ غرب إفريقيا الهامة، وفى هذا التاريخ اخترقت بعثة استطلاعية

الداخل حيث وصلت إلى أبعد من (فوتا جالوه) في غينيا الحديثة وهناك تم تأسيس عناصر الإدارة مع بعض المدارس ولا بد أن (فايدليهرب) قد أخذ معظم الفوائد من ذلك النمو لأنه كان أول فريق المحتلين منذ بداية الإدارة الاستعمارية، ولقد ذكر رفيقه السيد (ريتشارد مولارد) عنه أنه كان موظف الإمبراطورية الموهوب الذي يتمتع بإحساس في السيطرة غير محدود وهو قنصل محترف بصلاحيات إمبراطورية، وبعد أن غادر (فايدليهرب) سنة ١٨٦٥م ركبت السلطة الفرنسية مرة أخرى لمدة خمس عشرة سنة وكان مواطنو السنغال وقتذاك قد بلغ عددهم مائة وخمسين ألف مواطن منهم خمسة عشر ألفاً في مدن (ساينت لويس وقورى وداكر) وكانوا من السود والملونين وفرنسيين بيض، وبعد سنة من هذا الوقت عندما تركت فرنسا (بورتو نوفو) اقترح (تشاسيلوب لوبات) أن تخلق فرنسا لبريطانيا محطاتها التجارية في ساحل العاج وفي غينيا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تحتل جزر (لوس) مقابل (جامبيا) وأيد بشدة محافظ سيراليون السيد (كيندى) هذا المقترح ورحب به السيد (أيرل قرينفيللى) المسئول في مكتب المستعمرات، لكن الاتفاقية البريطانية الهولندية الخاصة بتبادل القلاع سنة ١ٸ٦٧م أزاحت الإنجليز إلى محطات (ماكورى في باسام الكبرى وأسينى) ونزعت من المشروع بعضاً من جاذبيته الأولية، وفي الوقت الذي باع فيه الهولنديون كل قلاعهم في ساحل الذهب لبريطانيا سنة ١٨٧١م بما في ذلك (ديكسكوف وشابا) اللتان كانتا بالقرب من (باسام الكبرى وأسينى) كانت الحرب الفرنسية البروسية قد أوقفت المباحثات بشأن غينيا وجامبيا، ولو كانت قد تحققت تلك المقترحات لكان يمكن أن تنتج سيراليون بفعالية أكبر ولحلت المشكلة المستمرة للجيب البريطاني في كل من جامبيا والسنغال، وحدث أن هزيمة فرنسا سنة ١٨٧١م سببت فترة خلل في الشؤون الخارجية الفرنسية ولكن خلال العقدين الأخيرين من القرن احتلت فرنسا تدريجياً مساحات في إفريقيا بما يماثل مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وهكذا بدأت المباحثات بشأن جامبيا وغينيا وساحل العاج، وبشأن التبادل سنة ١٨٧٥م ثم استؤنفت خلال السنة التالية، ولكن في ذلك الوقت كانت المصالح

الفرنسية في المنطقة قد كبرت ولهذا فإن فرنسا ساومت بأكثر عناداً من أجل ذلك ولأسباب أخرى، وفي سنة ١٨٧١م كان الزعيم (لات جور) قد أعيد بواسطة فرنسا إلى الحكم في (كابور) وبعد أربع سنوات ساعد هذا الزعيم فرنسا في حملتها العسكرية ضد المقاومة التيجانية في منطقة (فوت تورو) لكنه من سنة ١٨٧٧م إلى سنة ١٨٨٢م وقف ضد المشروع الفرنسي المتعلق بالسكة الحديد المار عبر (طابور) من (داكار) إلى (ساينت لويس)، وأخيراً حمل السلاح لكنه هزم في نفس السنة، ثم إنه قبل مؤتمر برلين كان النفوذ الأوربي بشكل خاص محدوداً على الساحل فقط مع أميال قليلة من الأرض، وكانت أكبر مستوطنة أوربية في شمال الكونغو في ذلك الوقت هي لاجوس التي ظهرت على الخريطة سنة ١٨٨٥م على هذا الحجم، أما على الأرض فإن النفوذ البريطاني توسع إلى أبعد من بحيرة (لاجوس) وفي المركز الغربي أقامت قيادتها في (باداقرى) كذلك فإن الإدارة البريطانية أيضاً توسعت عدة أميال في منطقة المستنقعات على أن انحسار النفوذ الأوربي في الساحل كان مماثلاً لذلك الذي في ساحل الذهب حيث كانت اتفاقية طرق التجارة إلى (كوماسي) مثلاً غير مضمونة بأي وجود أوربي دائم، وفي البداية عند مناطق الفرنسيين كانت الهجومات في الدواخل على نفس النمط وقتية واستثناء للقاعدة العامة كانت منطقة (فولتا)، ولقد أنشأت البعثات التبشيرية عدة كنائس في مناطق مختلفة لكن الحياة كانت صعبة، وعدد الخسائر بسبب الأمراض كان كبيراً، حيث بلغ ثمانين في المائة، وفي سنة ١٨٨٦م لم يكن في كنيسة (أيوا) في الفولتا أكثر من خمسمائة مواطن بروتستانتى، وفي هذا الوقت صار الوجود الألماني محسوساً في منطقة الساحل حيث تأسست خمس شركات ألمانية، وفي سنة ١٨٨٧م وسعت بريطانيا حدودها في ساحل الذهب ثمانية عشر ميلاً في اتجاه الشرق من (كيتا) إلى (أفلاو) وذلك مركز الحدود الغانية الآن، وكانت بعض المناطق التي هي الآن داخل داهومي الحديثة محطات تهريب أسلحة وخمور كبيرة، وقد لعب الألمان دورهم في الحصول على الفوائد من رحلات التهريب تلك، وخلال الثمانينات من القرن صارت القرية الصغيرة (لومي) مركزاً

لتجارة زيت النخيل من منطقة (أقوديم) الداخلية، وكان لب النخيل أيضاً يحضر من مناطق بعيدة مثل (سالاقا) من خلال طرق أرض الهاوسا بين (كوماسى والنيجر)، وكذلك كان هناك سوق زيت فى (باقيدا) يأتيها عبر (هاكو) وهى التى تعرف الآن باسم بحيرة توقو (بورتو سيقورو) والآن فإن القرية الرئيسية فى (هاكو) تقدمت نسبياً، وكانت العملة الإنجليزية ودولار جنوب أمريكا مستعملة فى التبادل عند موانئ البحيرات، وهناك تدفع جزية للتجار الإنجليز والبرازيليين، ولقد نمت (ويدا) إلى حد كبير حيث بلغ عدد سكانها حوالى عشرة آلاف خلال السبعينات فى ظل خمسة من الزعماء اعترفوا بالقلاع الأوربية كحدود إضافية فى مقابل حقوق تدفع (لأبومى)، أما السفن فقد كانت تجمر ك كما كان الحال فى القرن الماضى تبعاً لعدد السوارى، وكان الملك (قاليلى) هو التاجر الأساسى فى بلاده وتثبت القيودات أنه كان مشهوراً بسوء المعاملة فى الدفع، وعندما صار البرازيلى (سانتوس) وكيلًا فى (ويدا) سنة ١٨٧٢م للشركات البريطانية أمر بأن يقطع الائتمان الخاص بالملك، وفى سنة ١٨٧٦م رفض طلب الأمير (كوندو) الأمر الخاص بتوريد الأقمشة وهذا صار فيما بعد ملكًا يجب أن يحصل على مدفوعات العائلة المالكة، وبالتالى رد منتقمًا بحجز الوكيل (سانتوس) وكل ممتلكاته، وفى هذه الحالة جاء الوكيل الأوربى فى ساحل الرقيق (تورنبول) ليتوسط لكنه احتجز هو الآخر ولحسن الحظ أنه تمكن من إرسال خبر للكوماندوز (هوويست) قائد الفرقة البحرية الملكية فى منطقة (باتيس)، وفى الحال أبحر (هوويست) إلى (ويدا) وهناك صوّب مدافعه ليفرض إخلاء سبيل التاجرين الوكيلين وفرض على الملك غرامة قدرها خمسمائة عبوة من زيت النخيل، وفى يوليو من نفس السنة حاصر الساحل من (بورتو سيقورو إلى بورتو نوفو) وفرض دفع كل الديون من طرف العائلة الملكية واستمر الحصار ثمانية أشهر وعندئذ تدخلت الشركة الفرنسية (ريجيس) لتدفع نصف ديون الملك وتقنعه بأن يطلب من مواطنيه دفع النصف الآخر خلال فترة اثنى عشر شهرًا وكانت الشركة الفرنسية قلقة خوفا من ضياع إنتاج النخيل الذى لا يمكن نقله بسبب الحصار كذلك خوفا من قطع طرق

التجارة^(١) فيما إذا دفع الملك العنيد هؤلاء البريطانيين إلى استعمال القوة من أجل تحصيل الديون، وقد قبل القائد البريطاني (هوويت) عرض الشركة الفرنسية وكانت النتيجة أن الملك لم يدفع شيئاً على الإطلاق ولا دفع مواطنوه النصف الآخر من ديونه ووقع العبء على الشركة الفرنسية الحريصة على تجارتها، وكان لهذا الحادث عواقب تاريخية حيث أقنع الحصار الفرنسيين، كم كانت تجارتهم العابرة معرضة للحجز في غياب اتفاقيات مكتوبة، وكم كانت قدرة القوة البريطانية على الرغم من أن هناك اعتقاداً بأن بريطانيا تزحف على (ابومى) من أجل تحصيل الخمسمائة برميل زيت، وكان ذلك الاعتقاد قائماً على ملاحظات غاضبة تفوه بها لأحد ضباط البحرية الفرنسية القبطان (سوليفان) التابع للقائد (هويت)، ومن خلال السجلات يظهر أن بريطانيا كانت ترتب لقبول مبررات معقولة دون أن تفرض الغرامة، وهذا الخوف من حرب تعطل التجارة في المنطقة أكد حاجة فرنسا للحصول على حقوق هامة في الأرض وهكذا قررت الخارجية الفرنسية مساندة التجار الفرنسيين أى تجار بلادها ولذلك قدم العميد البحرى الفرنسى سنة ١٨٧٨م مشروع اتفاقية إلى ملك (ويدا) يعطى فرنسا أربعة عشر ميلاً مربعاً فى (كوتونو) مع جميع الحقوق الجمركية، ويظهر أن الملك (قلىلى) لم يطلع ولم يوافق على تلك الوثيقة المشبوهة والتي لا تحوى أى تعويض عن الضرائب التى سيفقدوها، ولقد تعزز الوجود الفرنسى بتعيين القنصل الفرنسى فى (كوتونو) ويدعى (أردين دى ألتيل) وهذا كان نائباً للقنصل المقيم فى (فرى تاون) وحدث أنه فى هذا الوقت قد تطور الصراع بين بريطانيا وفرنسا وبين البلدين وممثليهما بسرعة، وكان القنصل الجديد (دى ألتيل) مقتنعاً بأن بريطانيا سوف تستولى على (بورتونوفو)، ولذلك اقترح تجديد اتفاقية حماية

(١) هكذا هى الحال فى معاملات الغرب الاستعماري منذ ذلك الوقت حتى الآن خلال هذا العصر الذى تحكمه أمريكا ليس بالسوط والكراباج، بل بالصواريخ والطائرات بدلاً من مدافع ذلك الزمن، وعلى أى حال فإن تفكير هذا الغرب لم يختلف، ففى سبيل المصالح يخالف كل المثل والأخلاق والمواثيق، وما يحدث الآن لا يختلف عن عهد الملك (كوندو) رغم مرور مئات السنين. المترجم.

(بورتونوفو) مع فرنسا تلك الاتفاقية التي كانت قد وضعت على الرف في باريس، وكانت السياسة في وقت اتفاقية (كوتونو) قد تغيرت ولم يحصل القنصل الفرنسي على مساندة عسكرية حتى إن ميزانيته قد نفذت كما كان الاعتقاد في باريس وقتئذ أنه يكفي الاحتفاظ (بكوتونو) لمدة ما حتى يتم المشروع الجديد أي مبادلتها بجامبيا، وكان شرط فرنسا أن يبقى ساحل الرقيق خالياً من مراكز الجمارك البريطانية في مقابل ترك (كوتونو) لها على أن جزءاً من غينيا سوف يلحق بسيراليون، لكن المشروع لم ينجح وقبلت سياسة القنصل الفرنسي بشأن حماية (بورتونوفو)، وبالتالي وقعت اتفاقية مع الملك (توفا) في أبريل سنة ١٨٨٢م، وأصبحت سارية علنية بعد شهرين والخشية من انتباه البريطانيين لم تهدأ إذ في (بورتونوفو) القنصل (باريستي) أبلغ وزارة الخارجية في بلاده أنه يعتقد أن نائب المحافظ (مالوني) قد ينتقل من لاقوس، وأن السير (صامويل روو) يمكن أن ينضم إليه بقوات من (اكرا) من أجل إحباط تلك المحاولات، وهكذا قام وزير الخارجية الفرنسية الجديد (ليكلينك) بإعلان الحماية رسمياً خلال السنة التالية وبذلك تم تعيين التاجر الفرنسي المدعو (كولونا دا اليكا) مقيماً في (كوتونو) ورفع العلم الفرنسي على (بورتونوفو) وتوقفت (كوتونو) عن دفع الضرائب لأبومي، وفي (بورتونوفو) تقرر أن يحصل ملك (أيقون) على عشرة آلاف فرنك سنوياً كتعويض عن فقدان حقوقه هناك، وفي يونيو ١٨٨٤م قام العقيد الفرنسي (دورات) باحتلال (كوتونو) بواسطة قواته السنغالية بناء على تعليمات من حكومته بحيث يسبق البريطانيين ثم اتخذت فرنسا موقفاً أكثر صرامة تجاه نجاحات التجار الألمان في منطقة جناحهم الغربي، وكان الألمان قد نظروا بارتياح إلى نمو النفوذ البريطاني في ساحل الذهب، وهكذا في الحال تسارع الاتجاه المناهض للاستعمار كثيراً؛ إذ بالإضافة إلى غرقت التجارة في كل من (بريمين وهامبورج) كان هناك فرعان من قوى الضغط وهما (ويستديتش وكولونياليفيرين)، وفي منطقة ذات مصالح للطرفين التجاريين فرنسا وألمانيا حدث أن تحركت فرنسا بشكل أسرع في حين كانت حكومتا باريس وبرلين مرتبكتين تقدم مالك السفن الفرنسي المدعو (سايبيريان فابري) بطلب للحكومة الفرنسية من أجل حماية زعماء (أنيكسو ومورتو سيقورو وقراند

بوبو)، وهؤلاء الزعماء كانوا قد شجعوا ليقعوا عهداً بعدم دفع الجمارك المستحقة لبريطانيا إذا ما جاء الأسطول الفرنسي، وعلى الرغم من أنهم وقعوا لكن باريس ترددت ولم تتصرف، وإن قد وافقت أخيراً على طلب (فراند بوبو) دون الخريبات، وكان موقف فرنسا من المستوطنة البرازيلية والبعثة الكاثوليكية مريباً، ولكن من أجل أسباب سياسية اعترفت بريطانيا وألمانيا بالمستعمرة كفرنسية وكان لفرنسا وجود حقيقى فى السنغال، حيث صار المزارعون ينتجون القطن والزيت والتمر وجوز الهند والقهوة، وبعد صحوة فرنسا من هزيمتها أمام بروسيا وكما فى الماضى بعد والترلو، وكما الآن فى الفترة الديجولية وكرد على سقوط فرنسا سنة ١٩٤٠م برزت موجة من الوطنية، وقد أخذت تلك الوطنية حوالى عقدين من الزمان لتجمع قواها، وهكذا فقد وجدت هذه الروح الوطنية مخرجاً لها فى إفريقيا حيث يوجد موقع لها فى السنغال قد يوفر لها فرصة بناء إمبراطورية، وحدث أنه فى سنة ١٨٧١ استعاد المواطنون الفرنسيون السود حقوقهم فى انتخاب من يمثلهم وقد تم تأسيس مجلس عمومى فى المستعمرة ومجلس بلديات فى (ساينت لويس وقورى) سنة ١٨٨٠م، وفى سنة ١٨٨١م أقيمت قيادة عسكرية على نهر السنغال الأعلى أى فى (كايسى) مالى الحديثة وهى أعلى نقطة ملاحية كما احتلت باماكو سنة ١٨٨٣م أما (سيقورو وتومبوكتو) فسقطتا بيد القوات الفرنسية خلال التسعينيات، وفى سنة ١٨٨٧م فصلت (داكار) إدارياً عن (قورى) وبذلك صارت مستعمرة السنغال تقارن بمستعمرة بريطانيا فى سيراليون على الرغم من اهتمام القوتين الاستعمارييتين فى ذلك الوقت بتلك المصالح فقد كان بالنسبة لبريطانيا يتمثل فى الانتداب الثنائى الذى يؤدى إلى الاستقلال، ولكنه بالنسبة لفرنسا كان يستهدف تكامل غرب إفريقيا مع فرنسا ولهذا كانتا مختلفتين ويلاحظ كاتب معاصر قائلاً، كان ذلك بقدر ما نوعاً من الاستيعاب فى السنغال أو كل غرب إفريقيا الفرنسية ولكن إلى سنة ١٩٤٤م لم يكن هناك وجود للحقوق السياسية فى إفريقيا السوداء الفرنسية والواقع أنه فى السنغال كان المواطنون يناضلون للاحتفاظ بما حصلوا عليه ضد إدارة تحاول حرمانهم من تلك الامتيازات التى كانت قد أعطتها للسنغاليين فى بداية التدخل الاستعماري، وهكذا فإنه إلى أن انفجرت الحرب العالمية

الثانية كانت هناك حالة متناقضة فى سياسة الاستيعاب الفرنسية، وكان السنغاليون يطالبون بأن تطبق بشكل أكثر ليبرالية، ولقد كان هذا هو السبب فى نشاط الفرنسيين الأفارقة خلال السنوات القريبة خصوصا فى السنغال وإن لم يكن موجهها إلى الاستقلال ولكن إلى زعم مساواتهم فى الحقوق الأساسية مع الفرنسيين فى الحقوق وهى التى تعنى فى الواقع سياسة الاستيعاب التى قدمت إليهم، ومع ذلك ففى الجنوب كان (بيرجر) يستكشف إمكانية عقد اتفاقية مع ما يعرف الآن بساحل العاج وجمهورية فولتا، وكانت بعثة أخرى قد اتجهت إلى منطقة تشاد عبر صحراء واسعة حيث وضعت فرنسا يديها على المراكز الأمامية، وهذه أغلبها صحراوية وهى التى سماها المستكشف (فايديلهيرب) باسم (القمرية)، والتى قال عنها اللورد (ساليزبورى) الأرض البسيطة، ولقد كانت أغلب أعمال الاحتلال تقوم بها مجموعات صغيرة من الضباط الفرنسيين مستخدمين جنوداً أفارقة، ولكن الأمل الكبير فى خلق جحفل عظيم لتعويض فرنسا من حيث القوة العسكرية ضد جارتها وعدوتها ألمانيا لم يتحقق، وكان فقط السنغاليون فى البداية يستخدمون بواسطة فرنسا فى الحرب، وكذلك أثبتت قبائل (الموسى) فى فولتا العليا بأنها زاد عسكري طبيعي، وفى التسعينيات حث زعيم الحزب الاستعماري المولود بالجزائر (أوجين أيتين) فرنسا على أن تقيم حكومة استعمارية من الجزائر إلى داهومي .



الفصل الحادي عشر

دلتا النيجر مقدمة إلى نيجيريا

الفصل الحادى عشر

دلتا النيجر مقدمة إلى نيجيريا

أظهرت إفريقيا السوداء فى العصر الحديث قوة واحدة يمكن فعلاً أن تقارن بالقوى الأساسية فى أوروبا وأمريكا اللاتينية وبلدان آسيا، تلك هى نيجيريا وليس مصطنعاً أن قصة ما قبل الاستعمار عن دلتا النيجر تفوق فى التعقيد والتقلبات خلال القرن التاسع عشر كل غرب إفريقيا، والدلتا كانت المنطقة المذهلة فيما يتعلق بتجارة الرقيق وبحسب كلمات عالم نيجيرى هى الركن الأساسى الاقتصادى فى كل محافظات الساحل، لكنها نجت من هذه الوصمة وصارت أغنى منطقة من خلال التجارة الشرعية وهى القناة للمشروع الاستعمارى الرئيسى^(١) فى غرب إفريقيا، وفى نفس الوقت فإن الثورة الاقتصادية المتسببة من عملية تحريم تجارة الرقيق أدت إلى تغيير سياسى عميق داخل الحكومات القبلية وكدراسة حديثة، فإن الدلتا تمثل دنيا القرن التاسع عشر فى المجال الأوروبى الإفريقى وفى إفريقيا الأطلنطية، وفى هذه المنطقة ذات التربة الغرينية مع منطقتها الداخلية كانت تمثل وضعاً مناسباً لزراعة النخيل على أن الأنهار والقنوات تشكل حواجز طبيعية بين الزعامات النهرية الغنية أو الغنية نسبياً فى مجتمع نصف عسكري وحكومات فى بداية النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت كذلك قوية واستبدادية، ولذلك فقد كان التجار الأوربيون يفضلون العمل من على ظهر سفنهم الشراعية بدلاً من العمل على الأرض جاعلين بشكل محدود مخازنهم فى سفن قديمة، حيث يضعون الرقيق وبعض بضائعهم التى يبادلون

(١) تجدر الإشارة إلى أن تعبير استعمارى أينما ورد يعنى التعمير أو الإصلاح وليس الاستعمار بالمعنى العام أو المفهوم الحالى للكلمة. المترجم .

بها، على أنه فى بداية القرون الأولى كان الزعماء الأفارقة يوافقون على هذا الترتيب، ولقد كانت الحياة عموماً صعبة بالنسبة لهؤلاء الغشاشين النشطاء سواء فى تعاملهم مع الرقيق، وفى الأشياء الأخرى من معاملتهم التى تحمل الاسم الذى وصل إلينا عبر التاريخ وهو (عصابات زيت النخيل)، وكانت نسبة الأموات عالية بسبب الأمراض وكذلك بسبب تناول الخمور والقتال، ولقد كتب أحد المؤرخين النيجيريين قائلاً: إنها أولاً كانت تجارة جاءت بالإنجليز إلى نيجيريا وكانت التجارة التى أبقتهم رغم صعوبة الطقس والأمراض وهى التى دفعت بالمبشر والمستكشف والمغامر، ولقد ضرب قانون تحريم تجارة الرقيق غرب إفريقيا مثل الكارثة الطبيعية وكان الجدل الفلسفى الدائر ليس فقط كونه لم يكن مفهوماً لدى الزعماء الأفارقة وأنهم يعلمون فى تلك الفترة أن حملة تحريم تجارة الرقيق تسير قدماً وكانت النظرة الإنسانية باطنية لكسب المريدين فى وقت كانت تجارة الرقيق بمبادرة إفريقية أما تحريمها فكان موقفاً أوروبياً^(١) وفى تطبيق قانون التحريم اعتبره الأفارقة موقف عداء وقد حاصروا القلاع الأوربية فى شكل طواير غاضبة تطالب وتهتف بتجارة الرقيق، والحقيقة أن العديد من الممالك مثل (أبومى وولاجوس وبونى) كان وجودها بسبب اقتصاد تجارة الرقيق وقد ذكر القبطان (هوق كروو) فى مذكراته قائلاً: إن تصرف ملك (أبونى) تجاه إجراءات سنة ١٨٠٧م كان يتمثل فى قوله: إننا نعتقد أن تجارة الرقيق لا تتوقف بالنسبة لنا لأنها ذات فوائد اقتصادية أما القساوسة (سكون صمويل وكروثر) اللذان كانا مع البعثة الاستكشافية فى النيجر سنة ١٨١٤م، فقد أبلغا من طرف الملك (أبى أوساى) فى منطقة (آبو) يقول: إننا نعتقد أنها إرادة الله التى تقول: إن الناس السود لابد أن يستعبدوا، كما أن الضابط (ليفينيج) وهو من الفرقة البحرية فى (فيرنانو بول) قال: إنه يرى أن بريطانيا لابد أن تكون فى حالة حرب مع البلدان التى ماتزال تمارس تجارة الرقيق، وأضاف إننا نحن الذين مارسنا هذه التجارة لبعض الوقت، وأرى أن هؤلاء يدركون بوضوح لماذا نحن قلقون من أجل ذلك ويجب أن نمنعها الآن أما (بييل) ملك (بونى) فقد أصر عندما كان يوقع اتفاقية سنة ١٨٤١م مع بريطانيا على وضع

(١) مع الأسف المؤلف هنا ينكر أن الأوربيين هم الذين بدأوا تجارة الرقيق تلك وشجعوا عليها إغراء وإجباراً، ولم يوقفوها إلا بعد أن اكتفوا بالرقيق اللازم لمشاريعهم، وربما نتيجة صحوة ضمير بعد قرون من الاستغلال. المترجم.

جملة فى الاتفاقية تقول: إنه إذا ما باشرت بريطانيا مرة أخرى تجارة الرقيق يجب أن تسمح لبلاده بأن تفعل نفس الشئ، وعندما أصبحت تجارة الرقيق عملياً غير شرعية على الرغم من أنها مازالت تمارس كانت التجارة مع إفريقيا الأطلنطية وخصوصاً فى الدلتا ميسرة طبقاً لمسح استثنائى قام به القبطان البحرى (ف و اوين) الذى يستعمل حتى الآن، وهذا القبطان كان من أكثر الرحالة بين سنوات ١٨٢١ - ١٨٢٥ م تنقلاً، وقد أثار وجوده فى (بونى) شكوك وغضب الملك (أوبو) الذى اشتكى قائلاً: إن أخاه الملك جورج الرابع لم يطلب الإذن لهذا الضابط كى يسبح حول مملكته، وكان الضابط (أوين) قد فوجئ بأن التجار المحليين كانوا قلقين جداً؛ لأنه لم يسترض الملك (أوبو) وكتب يقول: إنهم أرادوا تحقيق نزوات الملك فقط كما لو أن المزايا الآتية من حركتهم التجارية ليست مشتركة، وأوين على الرغم من أنه لم يكن معجباً بإفريقيا فقد كان متميزاً فى سماع القصص والأحداث وتسجيلها للأجيال القادمة التى تتعلق بزعامات الدلتا، وهو يرى من جانبه أن المسائل تحل بالتفاهم؛ لأن عمله كان للمساعدة وليس فقط للإبحار حول الساحل واختراق الداخل بالسفن البخارية ذلك أن مساحة دلتا النيجر تبلغ مائتين وسبعين ميلاً فى العمق على البحر ويمكن القول: إنها تمتد أكثر من مائة ميل فى الأرض وأن مداخل النيجر الرئيسيين المعروفين هما مدخل (فوركادوس ونون) وهما يلتقيان فى منطقة واسعة عميقة بخارية تمثل جداول وهى (براس وبونى وكوابو وكروس)، وكما هو الحال الآن فإن منطقة الساحل فى غرب إفريقيا تمثل أقل تجانساً من المنطقة الغربية ذلك أن المدن مثل (آقار وتومبوكتو وجينى) التى نمت بسبب التجارة عبر الصحراء مع العرب والبربر جميعها متشابهة، أما المدن مثل (لاجوس وأكرا وكالابار) التى أقيمت على التجارة البحرية الأوربية فهى تختلف كثيراً، وتحديدًا فإن كل قبيلة نهريّة وبحرية فى النيجر تختلف فى اللغة والثقافة وفى النظام الاجتماعى والسياسى، ولأنهم يعيشون على أرض الدلتا فإنهم جميعاً ميالون إلى العزلة، على أن مجتمع الدلتا حسب رأى مؤرخ نيجيرى يعيشون بالصدفة، وأن أفراد هذه المجتمعات التى قامت على تجارة الرقيق هم أنفسهم تقليدياً

منظمون على أساس الرابطة والتحرر، علاوة على ذلك فإن الزايد من الرقيق الذى بقى فى القرية الأطلنطية بسبب منع النقل أكد أن الرقيق أكثر من الأحرار فى هذه المملكة الصغيرة، وفى بعض الأماكن كان الزعماء من بين أولئك الذين كانوا مستعبدين أى أرقاء، وفى سنة ١٨٤٨م ذكر (كوهل) أن عدداً قليلاً من الناس فى (بونى) كانوا من الأحرار كما أكد هذا الرأى (بورتن) سنة ١٨٦٣م أما (هيو) (قولدى)، فقد كتب فى أواخر سنة ١٨٩٠م يقول: إن الرقيق أكثر بكثير من الأحرار فى (كالابار) وعلى الرغم من أن التزاوج بين العبيد والأحرار يأتى بتحرير السلالة فإن وصمة عار العبودية عادة تبقى وفى كلمات للعالم (أونوك دايك) أن الطبقات المحررة الباقية تتمتع بالقوة أكثر من نسبتها العددية، وإلى حد ما فإن هذه الحالة قد حدثت فى الواقع خلال فترة ما قبل تحريم الرقيق فى القرن التاسع عشر وقد ظهرت فى كثير من هذه المواقع نظم ملكية قوية وتحديداً فى (دارى وكاليارى والأخيرة تعرف فى أوربا باسم (كالابار الجديدة وأيبانى تعرف كذلك فى أوربا باسم بونى)، وفى أماكن مثل (براسى وكالابار القديمة) كان هناك انقسام فى السكن بين العشائر المتنافسة حيث إنه لكل عشيرة زعيمها المتطلع إلى السلطة والمال؛ بل إنه فى العشيرة الواحدة هناك بيوت، ولكل بيت رئيس كسب مالا من تجارة الرقيق فى البداية، ثم بعد ذاك من التجارة الشرعية، ومثل هذا التاجر يتكون بيته من عائلته وعبيده المحليين ويكون البيت الصغير مثلاً يتكون من ثلاثمائة فرد، أما بيت العشيرة الملكية فيعد بالآلاف، وقد لاحظت البعثة الاستكشافية الشهيرة المعروفة باسم الأمل سنة ١٨٤٧م أن ملك (ايو) لديه عدة آلاف من العبيد الرقيق وأربعمئة زورق لكل زورق منها قبطان وبحارة وكانت تلك البيوت تحكم بيد من حديد، ولقد ذكر التاجر (كونت دى كاردى) فى ملحق دراسته عن غرب إفريقيا (لمارى كينجلى) قائلاً: إن العقوبات التى توقع على العبيد الرقيق تتمثل فى قطع الأذن بمختلف الطرق التى تبدأ من قرض جزء منها إلى قطعها كلها إلى نزع الأسنان إلى قطع أصابع الإبهام إلى حشو الفلفل الحار فى الخياشيم وفى العيون والأذنين إلى ربط الضحية ودفعه فى النهر عند مكان

منخفض وتركه فيه بحيث يفرق عندما يرتفع المد فى النهر أو تأكله التماسيح أو سمك القرش أو ربطه بالحديد فى مكان سيده لىبقى أطول مدة يضرب بمدك البنادق أو العصى، وبحسب ملاحظات (أنوك دايك) أن الرعب والاستبداد ظاهرة عادية فى هذه النظم بحيث تبقى الجماهير خاضعة، ويضيف: إنها إما السلطة المطلقة من جانب المستبد أو من الجانب الآخر نظرياً ولكنها فى الواقع الاثنان، السلطة المطلقة والاستبداد^(١) وبعد نصف قرن من الزمان، فإن نفس الأسلوب ربما كان يمكن أن يتبع فى عهد السلطة الاستعمارية بشكل مختلف وحسب الأولويات ولقد لاحظ (هوتشيتسون) قائلاً: خلال فترة التسعينيات فإن الأرقاء عادة ما يمارسون قوة كبيرة هم أنفسهم ويحصلون على بعض المال، كذلك ذكرت الأنسة (كينقلى) أن الفرصة للأرقاء أن يرتفعوا إلى سلم السلطة بالتدرج حيث تكون هناك بذور للديمقراطية خلال وجود الحكومات المطلقة فى حين أن الملك لابد أن يتحاشى التدخل فى شئون البيت ما لم يكن مجبراً على ذلك، وهذا ما يجعل السلطة أقل مركزية، وأن هذه الممالك الأطلنطية تشتري المنتجات غالباً من المناطق العليا فى الدلتا، فيكون حينئذ هناك وسيط وهناك فى الأراضى العليا مجتمع يتميز بالسرية تتزعمه قبائل (أروتشوكو) وهذه تحصل على العبيد بالقوة للبيع ويجمعها اسم (أوراكل) حيث يقوم سحرة (الأوراكل) بإعلام القرية التى يغضب عليها الرب بأنها يجب أن تقدم العبيد كأضاحى، وبالتالي يباع هؤلاء العبيد لوسيط على الساحل، وهذا يبيعهم لأصحاب السفن، وأشار البروفيسور (أونوك دايك) قائلاً: إن سيطرة (الأوراكل) معترف بها ونادراً ما تحدث معارضة لقوتهم فهذه القبائل تحصل على الرقيق بالحرب وبالخطف من أولئك الذين لا يسلمون أنفسهم لها، أما تجارة الزيت فقد تطورت وصارت (بونى) مركز التجارة الأساسى، وبناء على ذلك فإن قوتها اعتمدت على

(١) ربما لم يختلف الحال فى هذه البلدان حتى بعد مرور قرون عديدة فالاستبداد مازال يمارس على نطاق واسع والدكتاتورية المطلقة هى سمة الحكم فى إفريقيا الآن، ولعل العرب الذين كانوا أصحاب حضارة وعلم وثقافة لم يرثوا شيئاً منها، وإنما ساروا على نهج وأسلوب هؤلاء الأفارقة مع الأسف. المترجم.

قوة جيشها المتمثل فى زوارق الحرب التى تمسح نهر النيجر وأكبر تلك الزوارق يحمل مائة وأربعين رجلاً، وبها مدافع نحاس وحديد، أما الزوارق الصغيرة فهى تحمل ثمانين محارباً وبعض المدافع، كما أن كل بيت فى (بونى) يمكنه أن يجمع فى حدود عشرة زوارق، ولذلك فإن هذه القوة النهرية أمّنت (لبونى) سيطرة على أراضي المجتمع الزراعى، وهكذا تقود الروابط هذه المجتمعات بتبادل البنات فى الزواج، وكذلك بوجود أبناء المجتمع الزراعى فى (بونى) للتعلم لدى تجار (بونى) فن ممارسة التجارة وكانت الخلافات أو الصراع بين المجتمعات التجارية والزراعية ينظمها قانون السوق بعقوبات صارمة تنفذ غالباً على الفور، وفى حالة القتل فإن العقاب يكون شنقاً فى العلن، والقانون يتحدد بتلك الطريقة، وعادة ما ينتقل ملوك الساحل إلى الدواخل لحل الخلافات، ولا بد أن يدفع ثمن منع المشاكل أو الخلافات من جانب التجار الأوربيين فى شكل ضريبة تسمى (كومى) وهى تساوى جنيه إسترليني عن كل ثمانية أطنان من الزيت الذى يتم شراؤه، وهكذا تتصرف هذه الفئة المسيطرة التى سيكون منها أجيال أخرى فيما بعد، وكان أعظم مشروع إمبريالى طموح فى غرب إفريقيا يتمثل فى نيجيريا بمعتقداتها الدينية وممارساتها وشعبها غير المتعلم وأشياء أخرى متصلة بلغاتها وسكانها وأنواع زراعتها وطرق تجارتها وأسلحتها المحلية ونوع محاربي حكومتها وأسرار مجتمعاتها وحرفها النهرية وفشلها فى ركوب البحر واستكشاف الدنيا، إن هذا المجتمع يشبه كثيراً المجتمع البريطانى القديم خلال الغزو الرومانى فى القرن ما قبل الميلاد وشركائه فى المغامرة التاريخية التى أوشكت أن تبدأ عندما كانت خطوات بداية الثورة الصناعية سائدة، وهذه الظروف الناعمة نسبياً بين الثقافات المتمايزة بشكل مثير من المحتمل أن تعكس فائدة على الجانبين، وكانت الجمعية الاستكشافية البريطانية فى المنطقة سنة ١٥٥٣م حيث أبحر (ريتشارد واينهام) من بريستول فى شهر أغسطس إلى نهر بينين ليتاجر فى الفلفل، ولكن خلال تلك الفترة كان الوباء قد أربع البحارة الذين أسرعوا بالعودة تاركين بعض المستكشفين عند النهر، أما (وايندهام) فقد مات عند الدلتا، وعاد فقط أربعون من رجاله البالغ

عددهم مائة وأربعين رجلاً إلى بريستول ، وهم الذين كانوا أحياء ، ومع ذلك فقد جمعت الأموال ونظمت رحلة جديدة خلال السنة التالية بقيادة (جون لوك)، وفى هذه الرحلة كانت الخسائر فى الأرواح قليلة والفائدة كانت ألف فى المائة وهكذا فإن الفائدة كانت متعادلة مع الخطر والزمن، ثم إن (جيمس والتش) أبحر سفناً سنة ١٥٥٨ - ١٥٥٩ م لغرض أن يشتري الفلفل والعاج وزيت النخيل، وكانت الجمعية الاستكشافية البريطانية فى المنطقة قد تطورت بسرعة خلال فترة تجارة الرقيق، ثم إنه عندما أصبحت الصناعة تحل محل التجارة فاز المشروع الإنسانى المعروف بإلغاء الرقيق، لكنه مع ذلك أحدث مشكل مدوى لأهل دلّتا النيجر، وكانت الموانئ التجارية التى رأى أن تحل محل تجارة الرقيق هى الذهب والعاج والخشب والفلفل والأرز والصمغ، ولكن حدث أنه فى النهاية صار الاقتصاد يعتمد بالكامل على زيت ولب النخيل ولقد تطورت هذه التجارة بسرعة كمادة سوقية أقبل عليها التجار من ليفربول وهم الذين أضرّوا كثيراً فى بريطانيا بسبب منع تجارة الرقيق، وهكذا عرفت منطقة الدلتا باسم نهر الزيت ولم يكن التغير الكلى فورياً حيث إن (بونى وبراسى) استمرت فى ممارسة تجارة الرقيق وهما تستخدمان قوارب صغيرة لهذا الغرض ففى سنة ١٨٣٣ م أبلغ مدير (فيرناندو بول) السيد (نيكولس) عن بيع ستة وثلاثين عبداً عند الدلتا، وكانت التجارة الشرعية قد أوقفت فى منطقة (كالابار القديمة) خلال تلك السنة عندما رست هناك سفينة رقيق فرنسية، وكذلك فى سنة ١٨٥٥ م أوقفت التجارة القانونية فى (بونى) عندما وصلت عشر سفن إسبانية لتأخذ حمولة من الرقيق وكان ربانة هذه السفن يستعملون العنف ضد المعارضين وكثيراً ما قتل أولئك الذين يمارسون التجارة الشرعية، وفى سنة ١٨٢٧ م تمت السيطرة على (فيرناندو بول) ومنها نظمت حملة منع تجارة الرقيق، و(فيرناندو بول) هذه استؤجرت من إسبانيا بناء على توصية من المدير (أوين) وكان (أوين) هذا له يد علياً فى معارضة بعض الإجراءات بشأن (فرى تاون) خوفاً من أن يكون ميناء (كلارينس) بديلاً للمدينة البريطانية على الساحل، ولقد نجحت (فرى تاون) فى معارضة توصيات اللجنة البرلمانية المختارة

المتعلقة بنقل الإدارة إلى (فيرناندو بول) وكان مالك السفن الإسبانية فى الجزيرة السبب الأساسى فى ممانعة بريطانيا أن يقوم التجار بنقل نشاطاتهم إلى هناك، بينما السفن البريطانية والأمريكية وبلدان أخرى كانت ترسو وتحصل على الصيانة اللازمة فى ميناء (كلارينس)، وقد أوصى العقيد (إدوارد نيكولس) الذى خلف (أوين) بقبول العرض الإسباني سنة ١٨٣١م الخاص ببيع الجزيرة بمبلغ مائة ألف جنيه وهذا فى الواقع جزء صغير جداً من قيمة التجارة فى الدلتا، وعندما استسلم وزير المستعمرات اللورد (قود ريتش) لقوى الضغط فى (فرى تاون)، ورفض العرض الإسباني احتج التجار البريطانيون ملاحظين أن تجارة زيت النخيل فى المنطقة قد تطورت من قرابة خمسة وتسعين ألف طن سنة ١٨٢٧م إلى مائة وأربعة عشر ألف طن سنة ١٨٣٠م، ولقد استمر الشجار بين (فرى تاون وفيرناندو بول) عدة سنوات، ومنذ سنة ١٨٢٨م سمحت سيراليون لوارداتها من مناطقها البعيدة أن تتلاشى وبذلك كان (أوين) قد اعتمد فى توريد المواد الغذائية على (إفرايم دوك) زعيم منطقة (كالابار القديمة) وكان (نيكولوس) منزعجاً عندما قررت بريطانيا رسمياً سنة ١٨٣٣م أن تنسحب من (فيرناندو بول) حيث كان (بلميرستون) قد حاول إحياء عرض إسبانيا المقدم سنة ١٨٢١م، ولكن الرأى فى مدريد كان قد تغير، وبمنظرة بسيطة إلى ما يجرى فى (فيرناندو بول) واستخدامها فيما بعد كمقر للقنصل البريطانى توضح مدى السيطرة الرسمية فى المنطقة وكيف كانت العلاقات الأوروبية وإفريقية وكيف أن جزءاً منها كان فوضوياً؛ إذ إن تجار الدلتا أو عصابات تجارة زيت النخيل كما يعرفون هم أناس يعتمدون على الواقع أى إطلاق حرية التصرف دون خجل وهم لا يحترمون القانون وبلا شك هم يمارسون الغش من أجل استمرارهم، وقد لاحظ كاتب أمريكى معاصر هو (ج-و- روسل) قائلاً: إن تجارة الدلتا تدمر الصحة وتأخذ أرواح تسعة أعشار من يتعاملون بها كما أنها تسمم أخلاق أكثر الباقين على قيد الحياة ومن أجل معالجة بعض هؤلاء الفوضويين قام العقيد (نيكولوس) خلال إقامته الطويلة التى زادت على خمس سنوات (١٨٢٩ - ١٨٣٥) بعقد اتفاقيات مع الزعماء أغلبها بدون إذن من

لندن لمحاربة تلك الممارسات، ولأكثر من أربعين سنة تركز النشاط فى (بونى)، وهنا كان الملك القوى (أوبو) قد مات سنة ١٨٣٠م تاركًا العرش لابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة المدعو (وليام أدابا) تحت وصاية الزعيم (مادو) وهذا عبد رقيق سابق جعله الملك قبل أن يموت رئيسًا على البيت الملكى، وكان اسم هذا البيت (بيريكولى) لكن المؤرخين الغربيين اعتمدوا الاسم الأوربى حيثئذ وهو (بيبل)، وعندما مات الملك (أوبو) نقلت الرئاسة والوصاية إلى ابنه الأكبر (آلالى) الذى كان معارضًا للوصى على البيت الملكى (مادو) ثم إلى مجموعة (آلالى) المحيطة بالملك الطفل الذى لم يكن يشاطر والده فيما يتعلق بهذا الوصى الذى كان عبدًا رقيقًا، وعندما بلغ الملك الطفل سن الرشد سنة ١٨٣٥م كان (آلالى) مايزال يمسك بكل السلطات، وكان يخطط لأن يصير أقوى من الملك فيما إذا حاول إلغاء نفوذه، وفى سنة ١٨٣٥م دخلت السفينة الحربية البريطانية مياه (بونى) واحتجزت أربع سفن إسبانية خاصة بنقل الرقيق، وحدث أن (آلالى) غضب بسبب هذا الحدث لكن قائد السفينة الحربية هبط على الساحل ليشرح له أن الحجز كان قانونيًا طبقًا لاتفاقية التفتيش المتبادل البريطانية الإسبانية الموقعة خلال السنة الماضية، وقد تطوع تاجر إسبانى بأن يقوم بترجمة نصوص الاتفاقية للزعيم (آلالى) لكنه عندما صار يقوم بالترجمة غير تمامًا نصوص الاتفاقية وحجب عن (آلالى) الحقيقة بحسب قيودات مكتب الشؤون الخارجية فأرغى وأزبد زعلا وضرب بقوة على الطاولة وأمر باعتقال قائد السفينة الحربية البريطانية ومن كان معه من البريطانيين، وهكذا ربطوا بسلاسل وعند وصول أخبار حجز قائد السفينة، ومن معه أبحرت سفن حربية بريطانية إلى مياه (بونى) لترغم الزعيم (آلالى) على التراجع، وهكذا استسلم هذا الزعيم ووقع اتفاقية تضمن لبريطانيا الأرواح والأموال فى المنطقة ويظهر أن تلك هى المرة الأولى التى تستخدم فيها ست سفن حربية على نطاق واسع لتحمى التجار الإنجليز على الرغم من أن واجبها كان اعتراض وحجز سفن تجارة الرقيق، وخلال السنة التالية ١٨٣٧م قام العميد البحرى السير (باتريك كامبل) قائد المجموعة البحرية بأمر القائد (كرايجى)

بأن يتجه إلى (أبونى) بحيث يخطط لإسقاط الملك (آلالى) ويقوم بدعم (دابا) الذى كان على اتصال بالمكتب الرسمى البريطانى القائم بتنفيذ قرار منع تجارة الرقيق، وكان التجار الإنجليز موافقين على الإطاحة بالملك (آلالى) والذى كان يوصف بأنه متوحش استبدادى قاتل وحقود، وعندما وصل القائد البريطانى (كرايجى) يوم ٥ أبريل مع حاشية من حشد مثير وجد الملك وحيداً فى انتظاره على الشاطئ، أما رئيس البيت الملكى فقد كان خائفاً من المجيء، ولكنه أراد أن يقابل القائد البريطانى فى البيت الملكى مع بعض المشرفين على البيت وبعض التجار الإنجليز الذين يمثلون بشكل ما حزب الملك أو قل يتعاطفون معه، وعند عودته عقد القائد البريطانى اجتماعاً مع الأوربيين على ظهر سفينته، وفى ٩ أبريل ومن أجل إظهار القوة تحركت القوة البحرية عبر النهر، وفى حضور مجتمع (أبونى) بما فى ذلك الملك (آلالى) قال القائد البريطانى له: إنه على ضوء ما حدث منه حيث أهان ضابطاً بريطانياً، فإنه فى الحال لن يبقى فى أى وضع من النشاط غير كونه تاجراً وتسلب جميع سلطاته وهكذا صار (آلالى) يتذلل وقد أجبر على أن يوقع وثيقة تنازل تجعل (دابا) يباشر كل الأنشطة والحكم، وكان (آلالى) قد حاول أن يضمن نوعاً من الاستقلال لمملكته بالدبلوماسية، وبعد التنازل تم التوقيع على اتفاقية جديدة مع (بونى) التى كان حجم تجارتها وقتئذ مع بريطانيا يبلغ سبعة ونصف مليون دولار سنوياً، وقد أرسل رئيس الوزراء البريطانى اللورد (بالميرستون) هدايا للملك الجديد الذى حاول أن يضع نهاية للقتل والإثارة فى موطنه، وذلك بالتخفيف من الائتمان الذى يسمى ضمان، وفى اتفاقية سنة ١٩٣٧م مع (بونى) تقرر القضاء على تجارة الرقيق، ولكن لم تتم المحافظة على هذا القرار؛ لأن بريطانيا لم تتمكن من دفع التعويض المنصوص عليه فى تلك الاتفاقية حسب المادة التى أخلت بها الخزانة البريطانية فى عهد رئيس الوزراء (بالميرستون) وبعد ذلك تمكن القائد (توكر) من توقيع اتفاقية جديدة سنة ١٨٤١م، وهذه الاتفاقية زادت من الرشوة التى تدفع للملك (دابا) من ألفين إلى عشرة آلاف دولار جنوب أمريكى، وهذا بالتالى زاد الصعاب المالية على اللورد (آبردين) الذى خلف اللورد

(بالميرستون) فى الوزارة لكنه رفض دفع ما تم الاتفاق عليه أى الزيادة، وفى سنة ١٨٤٤م انفجرت الحرب بين الملك وبين التجار، ولذلك قبض الملك (دابا) على عدد منهم وقد رماهم فى السجون وهدد بأن يشويهم أحياء وكانت السفن قد دمرت والمدافع تم الاستيلاء عليها فى المدينة القريية (جوجو) ثم إن (فاناتا) المتعصب وهو طبيب مشعوذ نظم مجموعة من الشباب الأشقياء ليحرقوا كثيراً من الجداول، ويقتلوا كل بريطانى كما يدمروا كل الممتلكات التى تقع تحت أيديهم، ولقد ذكر السيد (دايك) وهو الذى شهد الأحداث قائلاً: إن رجالاً ملثمين صعدوا على البواخر الراسية فى الميناء فى حين أن رجال البحرية الذين تدخلوا وجدوا أن الأفارقة والتجار الأوربيين كما لو أنهم فى سباق من أجل التدمير والتقاتل دون أن يراعوا أى اتفاق أو معاهدة وكان قائد البحرية السير (تشارليز هوتام) قد أمر بترك الطرفين يتقاتلان على طريقة كل منهما، ولكن خلال سنة ١٨٤٧م عندما عاد (بالميرستون) إلى وزارة الخارجية قرر أن تكون أرواح وممتلكات البريطانيين والحفاظ عليها أولى مهماته وكان هو نفسه قد اطلع من جانب لجنة التجارة على مدى أهمية وقيمة التجارة مع (بونى)، وهكذا طلب من قيادة البحرية أن تأمر السير (تشارليز هوتام) بضرورة حماية المصالح البريطانية، وأن يفرض دفع الديون الإنجليزية المستحقة للتجار الإنجليز، وبناء على ذلك أرسل السير (تشارليز هوتام) ضابطاً وهو القائد (بيرتش) لاحتلال (أوانتا) بالقوة، وحيث إن الذى أحدث الشغب لم يكن مواطناً بريطانياً فإن محاكمته قد تحدث مشاكل، ولهذا فقد أمر وزير المستعمرات اللورد (قرى) قيادة البحرية بأن تنقله إلى أبعد مكان من (بونى) بحيث لا يسمع عنه أحد وإلى حد ما فإن (سكان أوانتا) صاروا يحسون بكراهية للأجانب، ولهذا استغل الملك (دابا) هذا الشعور فى التعامل مع البريطانيين ودفع المشاغبيين إلى إثارة المشاكل فى البحر بين (كالابار الجديدة وبونى) بحيث يحرم البريطانيين من منفذ إلى تجارتهم وممتلكاتهم فى القنوات وصار يعمل على استسلام (كالابار الجديدة) لمملكة (بونى)، ولكن وكتيجة لاتفاقية سنة ١٨٤٨م، فقد أجبر الملك (دابا) على إرسال حراس من عنده على السفن التجارية

البريطانية إلى (كالابار الجديدة) وأن يتحمل مسئولية حماية المواطنين البريطانيين وممتلكاتهم الذين يمارسون التجارة فى منطقة النهر على أن الإبحار فى النهر لا يجوز إلا خلال النهار وبذلك خضع الملك لنصوص الاتفاقية السابقة التى تنص على أن يحصل على تعويض مقداره ألفا دولار فقط، وكانت فى ذلك الوقت صادرات بريطانيا التجارية من النيجر تبلغ ثلاثين مليون دولار أمريكى والى كل من (لاجوس وساحل الذهب وجامبيا وسيراليون) جميعها كانت تسعة ملايين دولار^(١) ولقد كان رئيس الوزراء البريطانى (بالميرستون) مقتنعا أن التجارة فى الدلتا لا يمكن حمايتها بالكامل إلا باستعمال القوة بين وقت وآخر ولذلك قام بتعيين قنصل سنة ١٨٤٩م، وكان هذا القنصل هو ذلك التاجر الإفريقى الإشبانى المدعو (جون بيكرافت) الذى ساعد خلال تسع مرات سابقات البحرية الملكية على التفاوض مع الزعماء الأفارقة فى قضايا حساسة، وكان (بيكرافت) الرقم البارز فى تاريخ الدلتا والمقيم الدائم منذ سنة ١٨٢٧م، وقد عينه السيد (نيكولس) مسئولاً عن إدارة الخدمات فى منطقة (فيرناندو بول) بعد إخلاء الإدارة سنة ١٨٣٤م حيث كان (بيكرافت) شريكا فى مؤسسة (تينانت) التى أفلسست سنة ١٨٣٧م، وعندما أعادت إسبانيا سيطرتها على (فيرناندو بول) سنة ١٨٤١م طلبت من (بيكرافت) أن يكون محافظها هناك وقال عنه (بيكولس) إنه رجل يحظى بالاحترام، وله تأثير أكثر من أى رجل فى منطقة الساحل ومع ذلك فإن تعيينه كقنصل كان متنازعا عليه بين العقول الاقتصادية والبرلمانية، تلك العقول التى طلبت سنة ١٨٦٥م انسحاب بريطانيا رسمياً من كل غرب إفريقيا عدا (سيراليون)، وكان مرتب (بيكرافت) أربعة آلاف وخمسمائة دولار فى السنة، ولقد مرت ستان قبل أن يتم تعيين موظف معه يساعده، وكان يسافر مع السفن الحربية، وفى

(١) هذا الذى تفرضه بريطانيا خلال منتصف القرن التاسع عشر يذكرنا بما حاولت فرضه والإبقاء عليه خلال النصف الثانى من القرن العشرين فى اتفاقية قناة السويس على مصر، لكن جمال عبدالناصر لم يكن مثل ملك (دابا)، ويذكر أن مصر قبل تأميم تلك القناة كانت تحصل على عائد لا يزيد على ثلاثة ملايين دولار سنوياً، والآن عندما أصبحت القناة ملكاً للشعب المصرى بفضل مواقف جمال عبدالناصر الشجاعة والجريئة، صار كل دخل قناة السويس للشعب المصرى، وقد بلغ المليارات سنوياً. المترجم .

سنة ١٨٥٣م حدث أن بعض أعباء منصبه ساعده عليها تعيين (بينجامين كامبل) قنصلاً فى خليج بينين بلاجوس، وكان الرجل الذى ينحدر من سلالة أوربية إفريقية هو الذى وقف كعملاق فوق معاصريه الأوربيين والأفارقة فى الدلتا قد عين قنصلاً لجلالة الملكة البريطانية فى خليج بينين وبيافرا فى يونيو ١٨٤٩م، وامتدت صلاحياته إلى لاجوس وداهومى، وفى قرار إنشاء القنصلية كانت هناك جملة تقول: إن بريطانيا ليس لها طموحات أرضية فى المنطقة فقام (بالميرستون) بشطبها بيده وكتب المؤرخ النيجيرى (أنوك دايك) قائلاً: فى خلال هذه الفترة كان (بالميرستون) وزير الخارجية الوحيد الذى كانت له نظرة ذكية عن تطور الأحداث فى خليج بينين وبيافرا حيث كان مقتنعاً بأنه مع نمو التعادل فى وسائل المرور والمواصلات، فإن تدخل بريطانيا لا يجب أن يتأخر وكان هو الذى حاول شراء (فيرناندو بول) واستعجل دفع التعويضات عن تجارة الرقيق فى (بونى)، وبعد سنتين من تعيين قنصل له فى الخليج سنة ١٨٤٩م كان قد أمر باحتلال لاجوس، وفى سنة ١٨٥٠م قام (بيكروفت) بقيادة بعثته غير الناجحة إلى منطقة (آبومى) من أجل أن يحاول إنشاء علاقات تجارية وينفذ قرار منع تجارة الرقيق، ثم قام ببعثة إلى (ليبيريا وأبو كوتا)، وأمر بفتح (أوقو) للملاحة الآمنة والمساعدة فى مشروع زراعة القطن، وفى هذه الأثناء واجه سوق منتجات النخيل تذبذباً وهو الذى يهتم بريطانيا حيث كانت كمية التصدير منه قرابة أربعة عشر ألف طن سنة ١٨٣٤م، فهبطت إلى أحد عشر ألف طن خلال ثلاث سنوات، ثم ارتفعت إلى خمسة وعشرين ألف طن سنة ١٨٤٥م، ثم هبطت إلى ثمانية عشر ألف طن خلال السنة التالية، وكان إحياء تجارة الرقيق غالباً السبب فى تذبذب سوق تجارة منتجات النخيل، فى حين أن الهبوط سنة ١٨٣٧م بسبب رد فعل الدواخل على ما حدث للملك (آلالى) ذلك أن زعيم شمال الدلتا تضامن مع الملك، أما هبوط سنة ١٨٤٥م فكان سببه تلك الحرب التى قام بها (دابا) على (أندونى) التى ضمها إليه عندما كانت الأسعار جيدة كما فى سنة ١٨٤٥م وكان زيت الدلتا ثمنه سبعمائة وخمسون ألف جنيه أى حوالى اثنى عشر مليون دولار أمريكية، وفى سنة ١٨٦٤م بلغ ثمن كمية ستة وعشرون ألف طن زيت الدلتا مبلغ ثمانمائة ألف جنيه،

وبالمقارنة بما تم الحصول عليه من العاج والخشب معا كان أقل من خمسين ألف جنيه، وكانت منتجات إفريقيا فى الغالب ماتزال تشتري بالمقايسة وهكذا ارتفعت منتجات بريطانيا إلى غرب إفريقيا من مستوى يقل عن مائتين وخمسين ألف جنيه خلال الثلاثينيات إلى ضعف هذا المبلغ خلال الأربعينيات، وارتفع ثمن القطن من خمسة وسبعين جنيهًا إلى مائتين وستين جنيهًا فى حين انخفض ثمن بيع المشروبات الكحولية بنسبة ثلاثين بالمائة وتجارة ليفربول من الدلتا تراوحت ما بين اثنى عشر وخمسة عشر ألف طن سنويًا وقد بلغت حمولات تجارة السفن إلى (بونى) سنة ١٨٤٠م قرابة أربعة عشر ألف طن وفرص عمل لحوالى ألف بحار، وعلى الرغم من محاولات انتهاء الائتمان سنة ١٨٤٨م، فقد بلغت صادرات المعدات حوالى مائة ألف جنيه بيعت للوسطاء المحليين فى الدلتا قبل أن تبدأ تجارة الزيت وبلغت الديون الائتمانية للتجار الأفارقة الأفراد حوالى خمسة آلاف جنيه، وكانت أحيانًا أكثر من ذلك بالنسبة للملوك، ولقد ذكر (بيكرافت) سنة ١٨٥١م أن التجار الوسطاء فى (كالابار) حصلوا على ما قيمته سبعين ألف جنيه ائتمان من أجل شراء كماليات وسمح لهم بيسر الحصول على ائتمان آخر بلغ مائة وثلاثين ألف جنيه إذا هم أرادوا، وفى سنة ١٨٥٥م أبلغ القنصل (لانسليقر) قائلاً: إن حجم المعدات والممتلكات فى منطقة النهر تقدر بثمن ثمانمائة ألف جنيه وهذا إلى حد ما بسبب الأمن فى الدواخل، وهو الذى كان قد انتهك فى السبعينيات، ولم يكن هناك عداء للرجل الأبيض، ونظرًا لغياب عملة دولية فقد كانت تجارة المبادلات ضرورية، وفى هذا الوقت كان قد تغير الذوق العام والتقاليد والمعيشة وظهرت لوازم المائدة من كل منتجات المصانع الأوربية، وفى هذه التجارة كذلك كانت المبادلات وكانت أهم معدات التبادل تتمثل فى القماش والأسلحة والذخائر والخرز والمشروبات الكحولية والملح، وكان احتكار تجارة الأسلحة للوسطاء فى منطقة الدلتا ومن المعروف أن السلاح عنصر هام فى سياسة نيچيريا منذ اليوم الذى وصل فيه أول الرواد البرتغاليين، وكان أشهر نوع من السلاح هو ذلك الذى يأتى من الدنمارك وأنواعه التى تصنع فى بلدان أخرى والتى ماتزال تعرف باسم (بنادق الدنمارك) وبعض الأشياء

لم تكن تباع بالمبادلة، وإنما بالدولار الجنوب أمريكى، الذى كانت تصدره حكومة سيراليون، وهو يساوى فى القيمة مثل الدولار الأمريكى المعاصر ولكنه مقبول من أغلب عصابات تجار الزيت المحليين، وهؤلاء هم نفس الناس الذين عارضوا القوافل البحرية أثناء حرب نابليون؛ لأنها كانت ستضاعف عدد السفن فى الدلتا وتزيد ارتفاع أسعار الزيت، وكذلك فضلوا المخاطرة مع زيارة القوائد من خلال استمرار الديون الائتمانية ذلك أن التجار الجدد سيقدمون عروضاً أفضل من التجار القدامى، كما أن التجار المحليين معدومى الضمائر يحصلون على ائتمان من شركائهم التجار الاعتياديين وكذلك من أولئك المتطفلين، وإن كان التجار القدامى غالباً ما يردون على ذلك بحجز الكميات المرسلة إلى أولئك المتطفلين، وفى كثير من الأحيان رغم ذلك يتضامن التجار البيض بحيث يدفعون السعر إلى الانخفاض على أن التجار المحليين كانوا أيضاً منظمين وغالباً ما يكون الوقت فى صالحهم؛ إذ إن التجار الأوربيين يدركون مقدار مخاطر البقاء لوقت أطول بسبب الأمراض التى تضرب الساحل وتكاليف الإبطاء، ولقد حدث ازدهار فى التعليم خلال الأربعينيات وكانت البعثة المعمدانية قد تأسست فى (فيرناندو بول) وتكونت بعثة الأمل فى (كالابار القديمة)، وكانت المدارس قد أقيمت منذ القرن الماضى فى منطقة (كالابار)، حيث تمكن أبناء الزعماء من معرفة القراءة والكتابة الذين كانوا قد درسوا فى لندن وانتقل التعليم من جيل إلى جيل، كذلك ظهرت مدارس حديثة وكان الكامبيرون فى سنة ١٨٤١م يحصل على تعويض قدره ألفا دولار جنوب أمريكى سنوياً، وهذا المبلغ يحول إلى معدات فى شكل بنادق (ست بنادق ومائة حزمة من القماش واثنان من البراميل المعبأة بالبارود وصناديق من المواد الكحولية ومعطف قرمزي وسيف)، وكان هناك فى ذلك الوقت تقليد بيع الزى التنكرى المدهش الذى يمثل ما كانت ترتديه العائلات النبيلة فى لندن، ولهذا قال الملك (أيو) ملك مدينة (كويك) سنة ١٨٤٢م: إنه يريد لباساً هندياً تقليدياً مناسباً من قماش جيد وليس أشياء حمقاء، وفى سنة ١٨٥٢م أعلن الحاكم البريطانى عن تكوين شركة لنقل البريد إلى غرب إفريقيا، وقد حصلت الشركة الإفريقية للسفن البخارية على عقد الإنشاء واسمها (ألدير

ديمستار)، وكانت هذه الشركة تمتلك ثلاث سفن بخارية حمولة كل منها ستمائة طن وتعهدت الشركة بتسيير تلك السفن على سرعة ثمانى عقد مقابل ألفين وخمسمائة جنيه للرحلة وتبعاً لهذا نمت التجارة خلال سنة أو أكثر قليلاً حيث استفاد التجار من انخفاض أسعار الحمولات البحرية التجارية التى وفرتها تلك الشركة وكان التجار الكبار يعملون دائماً على أساس معين يتمثل فى الأرباح العالية، أما أولئك المتطفلون فإنهم يبحثون عن أرباح سريعة، ولذلك قدم التجار الكبار عروضاً للشركة بحيث يقومون باستئجار كل السفن ليحولوا دون التجار الصغار، واستعمال تلك السفن، وكذلك زعماء المناطق الذين يتاجرون فى بيع الزيت، أما صاحب الشركة الذى يتمتع بفكر ليبرالى، فقد رفض عرض كبار التجار ذاك وساعده على هذا القرار الزعيم الزنجى الأمريكى (جونيس) الذى كان كذلك يشجع الناس من أجل العودة إلى الوطن (سيراليون) وجاءت المساعدة أيضاً على ذلك الموقف من جانب بعثة الكنيسة التبشيرية، وكان غرض صاحب الشركة أن يقطع الطريق على عصابات وملوك الساحل، وأن يفتح الدواخل للتجارة المباشرة، وكان العائدون إلى سيراليون قد قوبلوا باستقبال بارد من جانب مجموعات المعارضين فى (بونى) لكن الملك (أيو) رحب بهم، وهكذا تزايدت المجموعة الجديدة فى (كالابار القديمة) بسرعة حيث إنه فى سنة ١٨٥٥م اتحد التجار الوسطاء مع العائدين الجدد وباشروا شحن الزيت مباشرة إلى بريطانيا، وكان القنصل البريطانى فى ذلك الوقت السيد (ليزلاقر) قد أمر بتدمير المدينة القديمة فى (كالابار القديمة) بواسطة مدفعية البحرية، وكان ذلك من وجهة نظره يمثل إنهاء المعاناة البشرية أى تجارة الرقيق ولكن الحقيقة أنه استهدف بذلك التجار الوسطاء، وخلال السنة التالية أبلغ التجار الكبار القنصل الجديد (هوثيرسون) أنهم تعاقدوا على شراء كل إنتاج نهر (كالابار) لمدة ثلاثين سنة قادمة، وكان كل الذى حصلوا عليه هو تسعة آلاف طن، وفى هذه الأثناء وصل كثير من أهل سيراليون وحدث التنافس التجارى الذى أدى إلى القتال، وطبعى أن التجار القدامى كانوا نشطين فى تحصيل ديونهم، وكان القبطان (كوثيرسون) قد حجز ستة عشر برميلاً من الزيت فى ميناء (كالابار القديمة) حيث كانت قد وضعت هناك فى

انتظار الشحن بواسطة السيراليونى (بيتر تيكول)، إلا أن الملك (أيو) باعها وهو مدين للقبطان (كوثيرتسون) وحدث الشغب أكثر فى (كالابار القديمة) ذلك أن السلطة كانت تتقاسمه بين مدنها الأربعة، والمشاكل عادة تظهر وتتعدد بسبب الديون والخلافات الشخصية بين عصابات تجار الزيت أنفسهم، وأحياناً مع الآخرين وخصوصاً فى منطقة (نهر وورى) أى الكامبيرون حالياً، ويذكر أحد المؤرخين أن التجار البريطانيين لم يتعلموا فقط كيف يتصرفون معاً وفى وقت واحد، وإنما أيضاً تطوير حل إشكالات نظام التجارة والخلافات الأخرى بين الأفارقة والتجار الأوربيين عندما أنشأوا (محكمة العدالة) وحاولوا إنشاء محاكم مماثلة فى مناطق أخرى لكنها لم تنجح، ولقد كان الشخص المهيمن فى منطقة الدلتا هو (بيكروفت) الذى قال عنه (نوك دايك): إنه إلى أن تم تعيينه كقنصل فى نيجيريا كان تدخل البريطانيين فى السياسة النيجيرية غير واضح سنة ١٨٤٩م مع الاستثناء الكامل لسنة ١٨٣٧م عندما تدخلت بريطانيا لتعيد الملك (دابا بوبيل) إلى الحكم وهى العملية التى جاءت بسبب التهديد للأرواح والمصالح البريطانية وبعدها امتنعت بريطانيا عن التدخل فى السياسات الداخلية لدول إفريقيا لكن (بيكروفت) عكس تماماً هذه السياسة ذلك أن عشرين سنة من الخبرة علمته أن الاحتلال الأوروبى لغرب إفريقيا لا يجب أن يتأخر كثيراً، ولذلك فإنه من اليوم الذى باشر فيه مسؤولياته كانت حركته تعتمد على ذلك الاعتقاد والحذر وتبعاً لهذا فإن السيد رئيس الوزراء البريطانى (بالميرستون) وجد حليفاً متحمساً فقام بحركة جريئة متقدمة للتدخل فى السياسة الداخلية لحكومات المدن وقد شهدت مدة خدمته كقنصل من سنة ١٨٣٩ إلى ١٨٥٤م، نهاية عدم التدخل البريطانى كما شهدت إرساء حجر الأساس فى بناء إمبراطورية فى نيجيريا، وأضاف (دايك) فى ملاحظاته قائلاً: لقد أدرك بيكروفت مقدار خوف الزعماء الأفارقة من السفن الحربية، وبالتالي كان يعتمد على إشاعة هذا الخوف والقدرة على استعماله وقال (ديكا) إنه عندما مات الملك (أرتشيبورج) سنة ١٨٥٢م أشرف بيكروفت على انتخابات الملك الجديد ولم يكن هناك من ينازع على سلطاته، وهو من جانبه كان يبادل الزعماء الثقة حتى إنه كان يسمح لهم بوضع الرجال الذين

يختارونهم فى أجهزة الحكم وبعد إنهاء الانتخابات قام بدعوة الملك ورجاله إلى الغذاء على ظهر سفينة حربية وشربوا جميعا الكئوس فى صحة الملكة فيكتوريا، وكذلك صحة الملك الجديد، أما فى الكامبيرون فقد قام (بيكروفت) بعزل الملك (أكوا) متهمه بأنه سكير وحشاش حيث وضع مكانه شخصاً آخر قال: إنه الأمير (جيم) وفى سنة ١٨٥١م قام بخلع مفتصب عرش لاجوس المتفطرس (سوكوكو)، وأبدله بالملك الشرعى القدير (أكيتوى)، ومنذئذ ركز (بيكروفت) اهتمامه على (بونى) وهى الباقية الوحيدة على مقاومة سلطته المطلقة، وفى نهاية أغسطس سنة ١٨٥٢م أبلغ تجار نهر (بونى) بيكروفت أن الملك (دابا بيبيل) منذ ثلاثة شهور ماضية يفترض أنه أصيب بصدمة أعجزته، وصار فى وضع سيئ، وبالتالي فهو غير قادر على القيام بواجباته فى البلاد، وأن هذا الملك خلال مرضه برزت شلة حاكمة تنتمى لعهد الملك المخلوع، وأنه أى الملك العاجز بدلاً من أن يختار أوصياء صالحين فضل اختيار اثنين من تلك الشلة السيئة، ولهذا السبب أرسل (بيكروفت) خلال شهر فبراير فى السنة التالية إلى رئيس الوزراء فى لندن (الميرستون) قائلاً: إن هؤلاء الذين اختارهم الملك هم أعداء (بونى)، وهذا خلق الكثير من المشاكل والتنافس، ولكن قبل اتخاذ أى إجراء فجأة تعافى الملك فى شهر نوفمبر، وتولى السلطة من جديد غير أنه حدث أن أولئك الأعداء قد ذهبوا بعيداً فى السيطرة والاستحواذ على المسئوليات، وكان على الملك أن يصدر قوانين تمنع ذبح المعارضين؛ لأنه يرى أن ذلك يؤدى إلى معارضة قوية وكذلك منع تجار منطقة (بونى) من العمل فى الدواخل ما لم يحصلوا على إذن من الملك، وحدث أن تقييد تجارة الأفارقة أضر أيضاً بالتجار الأوربيين؛ لأن أولئك الأفارقة كانوا قد حصلوا على قروض من الأوربيين، وهذه لم تدفع بعد، ولذلك رأى الملك (دابا) أن يوحد رجال مملكته حوله على إثر الإجراءات التى اتخذها وأضررت بالتجار البيض، وهكذا هاجم المحاربون كل الأوربيين أينما وجدوا على الأرض أو فى النهر كما هاجموا مخازنهم ونهبوها، ومن أجل أن يوحد كل المحيطين به قرر فوراً احتلال (كالابار الجديدة) وطلب من قاداته تجهيز ثلاثة وأربعين زورقاً فى الوقت الذى كان يزور فيه موقع رأس والدته طالما أنه قد تعافى من

المرض الذى ألم به وقد وعد بما أسماه فدية لأسلافه فى شكل رحلة وطلب من كبار التجار مرافقته فى الرحلة إلى نهر (كالابار)، حيث سيدعو من هناك الملك (أماكرى) على ظهر زورقه ويقدم له بعض الهدايا وإذا امتنع الملك (أماكرى) عن الانضمام إليه فى زورقه، فإن أحد أولئك التجار سيذهب إليه فى الشاطئ ليكون كرهينة، وكانت تلك الهدايا التى سيقدمها (لأماكرى) هى عبارة عن ضربات على الأضلاع، وكان أحد المسئولين فى بلاط (دابا) يعرف ما يريد أن يفعله مليكه بينما بقية المرافقين لا يعلمون شيئاً من ذلك ولا ماذا يقصد الملك بالهدايا ولقد اتضح أن الفدية التى تحدث عنها الملك (دابا) بعد معافاته من المرض هى تلك الحرب^(١) على أن الأوربيين ظنوا أنه ينوى الحرب، وهذا ما يؤثر على التجارة ولذلك حاولوا إقناع الملك بالتخلى عن خطته تلك، وقد وصلت الزوارق نهر (كالابار) وأمرت أن تحاصر المدينة لتفصلها عن المنطقة التى توجد بها السفن ومخازن التجار الأجانب لكن فدية هذا الملك التى تمثلت فى حرب قد فشلت، وإذا اعتبر متجاوزاً لحدوده فقد اجتمع أعضاء المحكمة العليا برئاسة (بيكروفت) وقرروا فوراً عزل هذا الملك أى (دابا) لكن زعماء عشيرته قالوا: إنه ليس من تقاليدهم عزل الملك، ثم إنه إذا ما عزل فإنه لا أحد يمكن أن يدفع ديونه، إلا أن القرار اتخذ وكسب (بيكروفت) إذ ذهب الملك ودفعت الديون وأعلن ابن أخ الملك ملكاً مكان عمه المعزول، وهكذا أطلقت سفينة بريطانية إحدى وعشرين طلقة تشريفاً للملك الجديد، وكان على الملك السابق بنصيحة من (بيكروفت) أن يطلب اللجوء السياسى فى (فيرناندو بول) وهكذا فعل وأصبح لاجئاً سياسياً هناك، ومن الواضح أن بعض الذرائع قد استخدمت لنقل الملك السابق (دابا) بعيداً عن مكانه وعشيرته، وفى نوفمبر ١٨٥٥م كتب إلى اللورد (كلاريندون) قائلاً: عندما وضعت على ظهر البارجة البريطانية متجهاً إلى (فيرناندو بول) أشيع أننى أجبرت على مغادرة

(١) كانت هذه التصرفات التى يقوم بها الملوك والزعماء الأفارقة فى ذلك الوقت (القرن التاسع عشر) وما قبله كررها خلال القرن العشرين ملوك وأفارقة آخرون مثلما فعل (جان بيدل بوكاسا) فى جمهورية إفريقيا الوسطى وعيدى أمين فى أوغندا، وكان علينا ألا نستغرب ذلك لأنهم خلف سبى عن سلف أسوأ . المترجم .

أملاكى بناء على مطالب زعماء عشيرتى، وهذا يخالف الحقيقة بالكامل ذلك أن ما تؤكدہ الرسائل التى أملكها حتى الآن هى من السيد (بيكروفت) ورجال إنجليز آخرين أننى أبعدت على غير رغبة ورضا شعبى وزعماء عشيرتى وهم الذين سوف لن تهدأ أمورهم إلى أن يؤكد لهم السيد (بيكروفت) أننى سوف أعود لأكون بينهم متى رأيت أن الوقت مناسب، وأننى الآن حر طليق وليس سجيناً، ولكن ثروة الأوربيين فى إفريقيا لم يكن لها أثر فى لندن حيث بقى الملك السابق (دابا) منفياً فى جزيرته، وبعد ذلك نقل إلى لندن ومكث بعيداً أكثر من سبع سنوات وكانت الشكاوى الأساسية ضده من وجهة نظر البريطانيين محاولاته أن يحتكر القروض الائتمانية، بينما منعت المحكمة العليا التى تقع تحت النفوذ البريطانى الملك من ممارسة التجارة؛ حيث إن دخله يجب أن يقتصر فقط على دخل الجمارك وبعض الضرائب، وكانت المحكمة نفسها تمثل السلطة العليا فى المسائل التجارية، كذلك فإن الملك الجديد فقد ألحق فى إعلان الحرب دون موافقة المحكمة، بمعنى أنه يجب أن يحصل على الإذن قبل اتخاذ أى إجراء عسكرى، وأن اللقاءات بين الأفارقة والأوربيين مستقبلاً لابد أن تتم فى مقر المحكمة وليس فى البلاط الملكى، وكان المعاصرون للملك (دابا) يرون فيه رجل الذكاء والفطنة والازدواجية، أما الدكتور (بايكى) المستكشف الذى كان قد قابل الملك فى منفاه سنة ١٨٥٤م فقد قال: إنه مريب والجميع يرون أنه انتقامى مخادع، ومن المؤكد أنه كان غنياً جداً، وقد كسب من تجارة الزيت أكثر مما كسبه أى ملك آخر من تجارة الرقيق، وقدرت ثروته بين خمسة عشر ألف جنيه وعشرين ألفاً، ثم بدأت مرحلة جديدة فى هذا الوقت تلك هى التجارة البرية لكن القنصل (بيكروفت) لم يعيش حتى يشهد هذه المرحلة، حيث مات بعد سنة من نفى الملك (دابا) ولقد لاحظ (دايكا) سنة ١٨٥٤م تلك الزيادة فى التجارة خلال هذه المرحلة وتابع ما كان يحدث من تحول فى السيطرة الاستعمارية حيث قال: إنه لا يمكن القول: إن رغبة بريطانيا اختراق نيچيريا كانت بسبب التجارة فقط ذلك أن الرجال الذين قادوا أكبر حملة تبشيرية فى ذلك الوقت كانوا بلا أدنى شك مدفوعين بأيدىولوجية صادقة، وأن الغنى

فقط الذى يقرأ صحف تلك البعثات التبشيرية والاستكشافية، ويبقى غير مقتنع بصدق دوافعهم، ومع ذلك فإنه مع التوسع التجارى هيمنت المسائل الاقتصادية والسياسية على الوضع فى نيجيريا، وعلى كل من الساحل والدواخل الواسعة، وفى هذا الوقت برز شخص آخر أراد أن يستعيد سيطرة العرش وهو يدعى (علالى)، وقد عمل على التخلص من بقايا حزب الملك (دابا) واستدعى على إثر هذا التطور القائد البحرى البريطانى القنصل الجديد السيد (لانسلاجر) ليطلب منه الإفراج عن الوصى على العرش السابق، ذلك أن المحكمة العليا أمرت بتحريره وهكذا حدثت مشاكل وشغب وكان على القنصل أن يطلب من (علالى) أن يعدل عن خطته مادام لديه متسع من الوقت، ولكن (علالى) هذا كان غير صبور وغير دبلوماسى وهو يتصرف بعناد مهما كانت النتائج فى حين أن الملك يجب أن يناقش بموضوعية وعلى أى حال فقد جعل من المحكمة العليا مهزلة، وإذا كان (بيكروفت) قد ذهب فإن عهداً جديداً بدأ حيث تنجح الوساطات، وفى هذا الوقت قرر الملك (دابو) أن يذهب سنة ١٨٥٥م فى زيارة إلى مناطق الأسواق الصحراوية لكنه حوصر لعدة أيام بسبب الأمطار الغزيرة المستمرة، ومات فى طريق عودته إلى (بونى)، ومن المفترض أن موته كان نتيجة داء الرئة، وقد زاره الطبيب البريطانى (ستيليس) لكن أدعياء الطب المشعوذين منعه من استعمال الأدوية الأجنبية، وتطايرت إشاعات كثيرة عن موته استفاد منها (علالى)، ومع الشغب بدأ القتال فى المدينة وحرقت البيوت؛ وإذ تعالت إطلاقات البنادق من كل جانب تحركت السفن التجارية فى النهر إلى مناطق بعيدة، وفى هذا الشغب قتل العديد من الناس حتى بلغ العدد كما يقال أكثر من ثلاثمائة من الموالين والمحربين، وقد هرب المسئولون، وهكذا استولى المسترقون السابقون على المملكة، وفى هذا الوقت قسمت المملكة بين الأغلبية المؤيدة للنظام الملكى بقيادة المسترق السابق (أوكو جونبو) وجماعة (علالى) الذين يسمون فدائيين؛ حيث إن هؤلاء كانوا يخشون ثأر الملك الذى وصل منطقة النهر فى ١٨ من شهر أغسطس، وبقي على ظهر سفينه المستأجرة إلى ١٥ أكتوبر، وفى هذه الأثناء كان يحاول أن يصل إلى اتفاق بين

الطرفين قبل أن ينزل على الأرض فى حين أن (علالى) كان يرفض الصعود إلى السفينة، ومن المفترض أنه يخشى القتل، ومن الواضح أن هناك خطة للقبض عليه إذا ما صعد ولهذا هرب وبعد مدة مات ويحتمل أن القنصل الجديد السيد (بورتن) قد سممه، ومع ذلك فإن مشاكل الملك العائد مازال باقية، فقد كانت تجارته فى الرقيق والزيت قد نهبت عندما أسقط وبقي شعور العداء لديه قوياً بين المسترقين والمسترقين السابقين، وإذ كانت تجارته قد نهبت فإن أى ملك فقير فى مجتمع مادي لا يكون ملكاً على الإطلاق، ولذلك فقد انتقل إلى عاصمته أى مدينة (جوجو) حيث مات سنة ١٨٦٦م، أما ابنه الملك جورج فقد كان متقدماً كثيراً عن زمانه، حيث إنه تعلم فى بريطانيا أثناء وجود والده منفياً هناك، وقد أتقن اللغة الإنجليزية وكان يمكن أن يكون ملكاً قوياً لو كانت ظروف الأربعينيات هى نفسها ظروف الثلاثينيات، وبدون تلك الظروف صار دمية فى أيدي زعماء القبائل وهو كمسيحي وغربى التفكير كان عرضة لكثير من النقد الشعبى على هذا الأساس ويذكر (جيمى كينقرلى) أنه ما لم يعد إلى كل آلهة الوثنية لأسلافه فإن السلطة السياسية والاستقرار لابد أن تضيع منه، ومن المؤكد أن هناك صدى لذلك فى الزمن الحاضر، وكانت منطقة الدلتا فى غرب أفريقيا المنطقة الوحيدة التى لم تحاول بريطانيا فى الواقع تخفيض التزاماتها فيها خلال الستينيات، ولقد أثرت التكاليف على الرغم من ارتفاع الأسعار فى لندن وحدث أن التجار السود والبيض فى منطقة النهر قد اتحدوا ضد التهديد الآتى من القادمين الجدد قائلين لهم: إنهم قتلوا المستكشف (لاندر) الذى حاول أن يخرق مناطق الدواخل كذلك حدث أن السفن التى كانت تبحر عبر قناة ضيقة قد تعرضت لقصف من المدفعية التى نصبها الأفارقة على جوانب النهر، كما قامت الزوارق الحربية بالهجوم وهكذا أمرت البوارج الحربية بعمل انتقامى رداً على ذلك الهجوم وصار من الصعب استخدام الوطنيين للعمل فى السفن التجارية، وعلى إثر تلك الأحداث ارتفعت بوالص التأمين، وفى سنة ١٨٦٠م عندما أثبت السيد (لارد) أن العمل التجارى عبر الصحراء مفيد اضطرت القيادة البحرية أن توافق على حراسات لرحلاته، لكن القائد

(أدمونستون) المسئول عن المنطقة الإفريقية قاوم الأمر مدعياً بأن الحراسات المرافقة تمثل انتحاراً، وبالتالي فإن سفن السيد (لارد) توقفت لعدة شهور وبضاعته بيعت بالمزاد العلنى فى منطقة الدلتا بأثمان منخفضة، وتركت المحطات التجارية الداخلية بدون تموين، وبالتالي قام المشاغبون بنهبها وما كان على السيد (لارد) إلا أن قاضى الحكومة بسبب عدم وفائها بما وعدت، لكنه مات خلال السنة التالية، وكان مفلساً، على أن معركة تاريخية كانت رابحة ففى سنة ١٨٦١م حصلت بريطانيا على لاجوس من الملك (دوسيمو)، وطبقاً لمعاهدة يتخلى بموجبها على هذه المنطقة، وهكذا أمر اللورد (روسيل) بتعيين قنصل هناك يدعى (براند) طالما أن نهر النيجر صالح للملاحة خلال ستة أشهر فى السنة، وتم انتهاز يعتمد على حركة التجارة عبر هذا الطريق إلى داخل إفريقيا، كذلك فتح الطريق إلى مناطق الهاوسا، وصارت فرص التجارة هائلة، ولم يكن هناك أى نهر آخر فى غرب إفريقيا فيه فرص تجارية كهذه لكن شغب المواطنين تكرر، وبذلك تم إقفال القنصلية هنا سنة ١٨٦٩م وإن قد تأسست ست شركات كبيرة خلال الستينيات بحيث تستغل مناطق الدواخل فى النيجر، وكانت أكبر شركة تجارة إفريقية برأسمال قدره أربعمائة ألف جنيه، ولقد طلبت الشركة تعويضات من الحكومة عن استطلاع الأخطار الأرضية وعارض هذا الطلب تجار ليفربول، وبالتالي فإن الموافقة على التعويض ألغيت، وخلال هذا الوقت فى (بونى) كان الملك (أوكو جومبو) وزعيم حزب المسترقين المدعو (جاجا) يواجهان معركة دولة المدينة فى أكبر معركة، وكلاهما سياسيان إفريقيان ماكران، الثانى منهما ورث القيادة من (علالى) وهو مولود سنة ١٨٢١م وفى مبدأ حياته كان قد بيع لزعيم (بونى) وعمره وقتذاك إحدى عشرة سنة، ولأنه كان صعب المراس فقد أهده زعيم (بونى) لزعيم (مادو)، وفى هذا الوقت كان (جاجا)، قد تمكن من أن يكون لنفسه سمعة طيبة، ولذلك فإنه عندما صار البحث عن خليفة للزعيم (علالى) بعد موت ولى عهده سنة ١٨٦١م، كان هو الوحيد المهيأ والمستعد؛ لأن يلتزم بديون (علالى) وهى التى تبلغ حوالى مائتى ألف دولار فى تجارة الزيت، وكان (جاجا) تاجراً ممتازاً ويتمتع باحترام الأوربيين لنزاهته ولم تتم الخلافة إلا ببطء أى فى شهر ديسمبر

١٨٦٣م، حيث تولى (جاجا) الحكم ولقد ذكر القنصل البريطانى أن هذا الرجل لم يكن معروفًا وهو من رجال الغابات لكنه نشط وشديد وذو تأثير كبير، كما إنه تاجر ناجح فى منطقة النهر، واتضح أنه يكسب فى حدود خمسين ألف جنيه سنويًا ويعيش أغلب الوقت مع الأوربيين ويظهر قساوة على القادمين الجدد إلى (بونى)، ولا بد أنه إما أن يقتل أو أن يتغلب على كل منافسيه وأقام سياسته على أساس أن الأوربيين سوف يسيطرون على التجارة عبر الأرض، واعتمد على عدد من الشباب الذين كانوا مسترقين حيث وضع البعض منهم فى مناصب هامة وزود البعض الآخر بالزوارق والقروض، وهكذا فقد كانت حاشيته ممن يوالونه، ومنذ تولى (جاجا) الحكم لم يلتفت إلى الوراء، وصار أكبر زعيم يحظى بشعبية فى (بونى) حتى قيل: إنه معبود شعبه على الرغم من أن السلطة فى (بونى) ماتزال مقسمة بين (جاجا) و (أوكو جومبو) فى حين كان الملك عبارة عن رقم، وحدث القتال بين المتنافسين سنة ١٨٦٧م، ولهذا طلب الملك جورج حضور القنصل مع سفينة حربية لإيقاف القتال والتنافس، لكن هذا امتنع عن التدخل، وفى سنة ١٨٦٨م كان هناك قتال عنيف فى منطقة (بونى) وعلى أثره تضرر أنصار (جاجا) بشكل كبير، وأظهر أنصار الملك نوعًا من التحدى لهم، إلا أن (جاجا) تحاشى المواجهة لبعض الوقت، وفى سبتمبر أبلغ كبار التجار القنصل (ليفينجستون) أن الحرب الأهلية على وشك الوقوع، وقد منحوا ثلاثة أيام لينزلوا إلى النهر، وهم لا يستطيعون نقل بضائعهم الثمينة الموجودة على الشاطئ خلال تلك الأيام الثلاثة، بل وحتى فى ثلاثين يومًا، وكانت الاستعدادات الحربية على أشدها فى (بونى)؛ إذ وضعت المدافع الثقيلة فى مواقع القتال حول المدينة وكل الزوارق الحربية جاهزة بمدافعها ويحدث الحرائق كانت مخازن ذخيرة (جاجا) قد أتت عليها النيران، وبالتالي انهزم سريعًا وانسحب باحتيال إلى قرى فى الأطراف أهلها كانوا موالين له، وكتب فى هذا الوقت إلى القنصل (ليفينجستون) باعتباره رئيسًا مسئولًا يقول: إنه يعطى الملكة فيكتوريا كل مواقعه ويرجع بذلك إلى اتفاقية الحماية، أما الثانى أى (أوكو جومبو) فقد ذكر أنه من جانبه يمكن أن يكون متسامحًا مع (جاجا) بشرط أن يسود السلام فى (بونى)، وفى هذا الشأن قام كبار التجار بإعداد شروط الهدنة، وفيما بعد وعلى ضوء

المحادثات ساندوا (جاجا)؛ لأنه كان تاجراً أميناً وموثوقاً فيه، وبعد ثمانية أسابيع من بدء القتال فى (بونى) وصل إليها القنصل البريطانى (ليفينجستون) وفوجئ بوجود (جاجا) متحصناً فى منطقة الجداول حيث يجمع قواته، وبدأ يعد لحصار (بونى) إذ كان قد اتفق مع بعض الزعماء الموالين له من أجل إقامة حكومة جديدة يكون هو ملكها، ومع حلول شهر فبراير كانت تلك الحكومة قائمة، وكان القنصل قد رفض التعهد بحماية التجار الذين يذهبون إلى منطقة (أندونى)، لكن الوضع تغير بانتهاء النظام القديم وبقاء الحكومة الجديدة، وبعد تسعة أشهر من تلك الحرب التى أعاققت التجارة كان (جاجا) هو الملك المسيطر، وعندما زاره القنصل البريطانى لأول مرة وجده غير مستعد للتفاهم حيث قال: إن لديه أربعة عشر زعيماً يؤيدونه، بينما بقى أربعة فقط يعارضون وأنه سيطر على سوق الزيت وسوف لا يسمح لأعدائه بالوصول إلى هذا السوق إلى الأبد لكن القنصل هدد باستخدام القوة من أجل فتح الأسواق، وكان يخشى أن يتجدد القتال إذا ما منع أولئك الزعماء من الوصول إلى سوق الزيت فى (بونى) وكتب إلى رئيس الوزراء البريطانى قائلاً: إن هناك سبع شركات بريطانية لديها معدات كثيرة فى (بونى) ومن المستحيل عليها الانتقال إلى مكان آخر، ولكن الملك (جاجا) كرر رفضه رفع الحصار مما اضطر القنصل إلى استدعاء بارجة حربية، وقد أطلقت النار من المدافع الساحلية، مما اضطر البارجة على أن ترد بالمثل، وقد جرح بعض الناس، وبالتالي ما لبث الملك (جاجا) أن استسلم، لكن مع ذلك عاد القتال بين الطرفين وكان التجار الإنجليز يساعدون الطرفين، حتى إن أحد كبار التجار الإنجليز كان لديه زورق حربى فى المنطقة، إلا أن القنصل أبلغ قائد الزورق أنه سوف يعتبره متآمراً هو وبحارته، إذا ما أطلق النار على سفينة بلاده، وكانت الحروب قد استمرت سنتين مما كلف التجار كثيراً من الخسائر بلغت خمسمائة ألف جنيه، وجعلت عدة بنوك تعلن إفلاسها، أما القنصل فقد مات فى (بونى) سنة ١٨٧٥م عندما كان فى طريقه إلى بريطانيا ليتقاعد، وحدث فى السنة الماضية اتفاق بين الملك (جاجا) وبريطانيا فى ظل وجود بوارج حربية غير أن الملك حصل على اعتراف بريطانى بمملكته فى (أوبوبو)، وفى سنة ١٨٧٢م كان هناك مرسوم يعطى القنصل حق معاقبة التجار الإنجليز لمدة واحد

وعشرين يوماً وتوسيع الغرامات والإبعاد من المنطقة لمدة سنة، وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستطلع سبل التجارة فى السودان الغربى بواسطة بعثة استكشافية كانت بريطانيا تدفع التجار من جانب الساحل، بما فى ذلك أحياناً التجار المسلحون الذين يبحرون بزوارق حربية عبر نهر النيجر ساعين لتأسيس مراكز تجارية، والقضاء على احتكار تجارة الزيت فى الدلتا حتى إن تجارة الملك (جاجا) المحتكرة أخيراً تم القضاء عليها خلال نهاية السبعينيات وكانت البحرية الملكية البريطانية قد ساعدت على تحطيم سيطرة الدلتا على التجارة الصحراوية على الرغم من أن المحاربين يتوقع أنهم سيعودون إلى الهجوم أثناء فصل الصيف .



الفصل الثاني عشر

البرتغال وإفريقيا الأطلسية

الفصل الثانى عشر البرتغال وإفريقيا الأطلنطية

تناولنا فيما تقدم وضع أولئك التجار المستكشفين الذين عملوا فى غرب إفريقيا ويطلق عليهم اسم الرواد، وهذا الجزء من القارة يقول عنه الأفارقة: إنه الساحل القريب من أوربا وهو يمثل طموحات أوربا، وقد سادت فيه أفكار جاءت من مكة ومن ليفربول، ويظهر أن كلاً من أهل غرب إفريقيا والساحل يدلون على تاريخ كان يسطر على مرحلة هامة من تاريخ إفريقيا ككل، وفى هذا الوقت صار من اللازم النظر إلى الجنوب والشرق، وهذه مساحة تبعد عن أوربا والإسلام، وبأقل عدد من السكان، وهنا فإن اللاعب فى هذه الدراما يختلف كثيراً عن أولئك الذين أشرت إليهم فى غير هذا المكان، وكان البرتغاليون هم القوة المسيطرة، أما البريطانيون فى هذه المرحلة فإنهم يختلفون عن كل من (جون هولت وبيكرافت وتشارلس ماكارثى وماكميلان)، وكذلك كان الأفارقة يختلفون أيضاً ذلك أنهم يتحدثون عدداً من اللغات، ويمثلون ثقافات وشخصيات مختلفة، ويتجولون محاصيل مختلفة ويتبعون عادات مختلفة تماماً، وإلى وقت متأخر نسبياً عندما تقاعست الطبقة المثقفة وانطوت على نفسها، وبالتالي فإنه لم يحدث أن إفريقيا سواحلياً استفاد من فترة الرقيق أو من أى شيء آخر، وهكذا فإن قصة شرق وجنوب إفريقيا هى ببساطة فى غاية السوء وليس كقصة الساحل وهى تتجه إلى أن تكون مختلفة متناقضة بدلاً من أن تكون فصلاً ضرورياً من رواية فى التقدم البشرى، وإذا ما نظرنا إلى الحكم البرتغالى فى إفريقيا فإن هذا يعنى أن نعود إلى الوراثة عقوداً من الزمان أى إلى سنة ١٤٨٣م عندما وجد القبطان (ديوقو) أبعد من خمسة من خطوط الطول جنوب خط الاستواء نهراً عظيماً ماؤه يميل إلى أن يكون أسمر باحمرار يتدفق عبر عشرات آلاف الأميال إلى المحيط أى أن

القبطان (ديوقو) وجد (زائير) وهى تعرف الآن باسم (الكونغو) ولهذا أقام بمساعدة رفاقه نصباً تذكاريًا على الأرض يرمز ويذكر بوصولهم ويؤسس علاقات صداقة مع رجال القبائل المجاورة، كما أرسل القبطان وفدًا من أربعة رجال يحملون هدايا إلى الزعيم الكبير، ثم أبحر هذا القبطان فى اتجاه الجنوب وعندما رجع وجد أن سفارة بلاده قد تم الاستيلاء عليها، ولهذا أخذ أربعة من المواطنين كرهائن، وأعلن أنه سيعود بعد سنة أو أقل وأبحر إلى لشبونة، وهنا عمل بكل جهد لإقناع الأفارقة المأسورين بغنى وحكمة البرتغال، وتم تعليمهم اللغة واعتناقهم الدين المسيحى وجعلهم فى مستوى الأرستقراطيين فى السكن والملبس وهكذا من سجناء مرعوبين عادوا إلى بلادهم رفقة القبطان (ديوقو) حواريين متحمسين للثقافة البرتغالية، حاملين أنواعًا من الهدايا للملك (أنزينقا نكوو)، ثم إن هذا القبطان أبحر عميقًا فى اتجاه الجنوب الأطلنطى إلى نقطة تعرف الآن باسم (خليج والفيز)، وخلال عودته اتجه صعيدًا فى الكونغو إلى ما يعرف الآن باسم (ماتالدى) وقد أوقف بسبب مياه العيون، وهناك حفر على الصخور قائلاً: هنا جاءت سفينة المستكشف الشهير (البرتغالى ديوقو)، ولقد استمر القبطان المقدام وجماعته أرضًا إلى (موانزا) عاصمة أكواخ الطين، وقد وجد هؤلاء أن القبطان كان سعيدًا بزيارتهم وتحمسوا كثيرًا لأولئك الذين عاد بهم من البرتغال متدينين بالمسيحية وطلب منهم (ديوقو) مجموعة لتدرس علوم البناء والزراعة والإنشاءات المختلفة، حيث اختار عددًا من الشباب الراغبين فى الذهاب إلى البرتغال للدراسة، وكانت رغبة البرتغال فى هذه المنطقة البعيدة المختلفة أكثر من كونها أماكن هامة على الساحل فهى دائماً كانت باقية كلغز للمؤرخين، وقد اعتقدت إدارات لشبونة فيما جاء على لسان مسئول برتغالى فى إفريقيا وهو السيد (جيمس دوفى) أنها كانت تتعامل مع ملك أكثر تطوراً وسياسي عظيم على غير ما كانت عليه الحالة فى الواقع؛ إذ ليس هناك أى قرينة تؤكد أن شعب (المانيكونقو) قد تمتع بحضارة أكثر تقدمًا مما هو عليه اليوم، ومع ذلك فإن التقارير وقتئذ تقدر السكان بحوالى مليونين ونصف، وأن حدود المملكة تصل إلى الأطلنطى والكونغو وكوانتو وداندى على الرغم من أن تقدير عدد الشعب غير حقيقى فى ظل تلك الظروف، كما أن

الحدود مبالغ فيها قبلًا، وربما هى فقط التى يدعيها (المانيكونقو) اليوم ذلك أن (الباكينقو) يقدرّون بحوالى مليون وهم يعيشون فى منطقة واسعة تشمل الأرض الواقعة شمال الكونغو، وفى سنة ١٤٩٠م وصل عدد من القساوسة والعمال المهرة والمواطنين العاديين الذين تعلموا فى الكنائس البرتغالية إلى (ماناقو)، وبعد شهر من ذلك التاريخ عمّد ملك (المانيكونقو) وأخذ اسم الملك السابق (جاو)، وتبعًا لهذا تبعه ابنه وبعض كبار السن، وكان قائد البعثة المدعو (راى دى ساسا) قد ساعد هذا الملك المحلى على قمع ثورة قبيلة صغيرة، وكذلك عملت البرتغال على إسكان (ساوتومى) بالمتدينين المنفيين والمجرمين والمغامرين طالما أنه لم يكن هناك تمثيل ملكى أو مراكز تجارية أو غابات فى أرض الكونغو، وقرب نهاية هذا القرن بدأ هؤلاء المنبوذون بالتجارة مع (سوانزا) وكانوا يشترون أساسًا المسترقين من أجل استخدامهم فى مزارع السكر فى الأرض الخضراء المعشبة التى قيل عنها فيما بعد: إنها أجمل أرض فى إفريقيا، وكان الابن الذى خلف (مانيكونقو) ألفونسو الأول غربى التفكير أرسطوقراطى على طريقة الناس فى القرون الوسطى، ومع الوقت الذى صعد فيه على مقعد الحكم سنة ١٥٠٥م لم يحقق فيه شيئًا وفشل فى تغيير حياة مواطنيه فى وقت كان فيه منع تجارة الرقيق الذى لم يساعد على تقدم المسيحية، وهكذا أصر الابن على استجلاب أكثر من اثنى عشر قسيسًا جديدًا، إلا أنه فى ظروف طقس البلاد كثيرون منهم أصيبوا بأمراض، بينما رغب البعض الآخر فى العودة إلى البرتغال، وكان آخر قسيس من تلك المجموعة قد مات سنة ١٥٣٢م، ومن أجل إنقاذ ما كان قد تحقق وحفاظًا على وعد التحالف أرسل ملك البرتغال الجديد (مانويل) مندوبًا يدعى (سامو دا سيلفا) ليكون مستشارًا لألفونسو حاملاً فى حقيته مشروعًا من أربعة وثلاثين بندًا يتطلب تنفيذها فى شئون مملكة الكونغو، وكان على (دا سيلفا) أن يكون مشرفًا على المجموعة البرتغالية هناك، وعليه أن يبعد أولئك الذين أساءوا للمواطنين والقساوسة الذين يفشلون يجب أن يعادوا إلى الوطن، وكان الملك البرتغالى (مانويل) نفسه يريد الرقيق والنحاس والعاج، وهكذا تم تعيين مندوب ملكى فى البلاد، وأخيرًا أمر (دا

سيلفا) بمغادرة الكونغو ويظهر أن ما كان متوقعاً من (دا سيلفا) أن يقوم به كان مستحيلاً، وعلى أى حال فقد مات الرجل بعد عدة شهور من عودته، ثم إن (ألفونسو) كان ذا نظر بعيد، وإن كان فى وضع ضعيف فقرر أن يكتب مرة أخرى إلى الملك (مانويل) يشرح له فيه المؤامرات والاضطرابات التى يتسبب فيها البرتغاليون الرقيق والقراصنة من (ساوتومى) فى مملكته، وطالب بأن تستحدث سلطة قضائية فى تلك الجزيرة البعيدة، كذلك طالب بالمزيد من الرهبان بحيث يحلون محل الموجودين سابقاً، وفى سنة ١٥٢٦م كان (ألفونسو) مازال يكافح ضد تجارة الرقيق ويطلب المزيد من البعثات التبشيرية الدينية، وأنه يفضل بعض أولئك الذين أشرفوا على تعليم ابنه فى لشبونة، وابنه هذا يدعى (هينريكو)، وقد عينه البابا بناء على إصرار لشبونة قاصداً رسولياً فى (أوتيكا وفيكار) بمنطقة الكونغو حيث إنه كان قد عاد إلى البلاد سنة ١٥٢١م بعد ثلاث عشرة سنة قضاهما فى أوربا لكنه مات سنة ١٥٣٠م، وصارت كل سلطات المملكة فى أيدي حوالى مائتين من البرتغاليين، وبعض الأفارقة من سلالتهم، وعندما مات (ألفونسو) بعد عقدين تقاثل ابنه (بيدرو) وابن عمه (ديوقو) على الحكم، وفى سنة ١٥٤٨م وصلت بعثة تبشيرية حيث عمّدت خلال أربعة أشهر ألفى شخص، وأقامت ثلاث كنائس إحداها اسمها (سان سالفادور) وأعطت اسماً للمدينة التى ماتزال تحمله حتى الآن، والجماعة البرتغالية كانت تقوم بنفس الحماس بخصوص دعوتها الإنجيلية وسرعان ما صار أحد أعضائها الأب (جورج فاز) يبحث عن مشتر لعدد ستين من المسترقين الموجودين لديه، وهنا تضامنت بعثة (جوتس) مع (بيدرو) الذى كان قد أطاح به ابن عمه لكنها لم توفق حيث انتصر المغتصب فى المعركة، وفى سنة ١٥٥٢م غادرت بعثة (جوتس) خائبة، ثم جاءت بعدها خلال السنة التالية بعثة أخرى لم تكن بأحسن حال، وعندما مات (دياقو) سنة ١٥٦١م انفجر الوضع وبدأ القتال من جديد بشأن خلافته، وقد تولى تلك الخلافة والحكم ابن لقيط (لدياقو)، ولكن سرعان ما قتله أخوه المدعو (بيرناردو)، وتولى هذا الحكم حيث كان على وفاق مع جالية السكان البيض وكذلك مع العرش فى لشبونة، ثم إن هذا نفسه

قتل بعد عدة سنوات فى حرب قبلية، وفى سنة ١٥٦٨م استولت قبيلتان على (سان سالفادور) وهرب (مانيكونقو) وآخرون إلى جزيرة على النهر حيث طلبوا من الملك (سابا ستيتو) المساعدة، وفى سنة ١٥٧٠م وصل القبطان (فرانسيسكو دى قوفيا) مع ستمائة رجل وهزم القبائل التى استولت على (سان سالفادور)، وفى هذا الوقت أعلن (مانيكونقو) حقه فى الحكم وامتنان الملكة للبرتغال، وصار يبعث الهدايا سنوياً، وهكذا بقيت مملكته مستقلة إلى القرن التاسع عشر، وفى سنة ١٥٩٦م أعلنت (سان سالفادور) مدينة برتغالية ومقرّاً كنسياً ولكن فى سنة ١٦١٥م، وجدت بعثة استكشافية أن السكان البيض، إما أن يكونوا قد ماتوا أو أنهم هربوا وأن المسيحية تقريباً كانت قد انقرضت وصار الملك (مانيكونقو) حاكماً استبدادياً، ولذلك انتفضت القبائل التابعة له، وفى سنة ١٦٩٠م حدث أن الكنائس الاثنتى عشرة وقلعتها والسور المحيط بها كانت خراباً، وهناك على بعد ثلاثمائة أو أربعمائة ميل إلى الجنوب فى أراضى (أنجولا) أسس ميناء (لواندا) سنة ١٦٧٦م، ومع نهاية القرن احتلت (أنجولا) مكان الكونغو الاهتمام لدى لشبونة وفى غياب زعيم قوى وعلى ضوء تجارة الرقيق الواعدة قررت البرتغال مبكراً أن تفرض حكماً مباشراً فى (لواندا) وكانت (أنجولا) ماتزال تواجه حتى الآن ببعض العداوات القاسية على حدودها التى شكلت ماضيها وطبعت مستقبلها، وكان قد هاجر من أنجولا أكثر من ثلاثة ملايين زنجى إلى أمريكا ولا بد أن أحفادهم الآن أكثر من سكان أنجولا نفسها، ولقد لاحظ (نقولا) الزعيم التقليدى لشعب (كيمبوندو) بحسد الاهتمام فى مجال التعليم الذى توفر لشعب (باكونقو)، ولهذا كان قد طلب سنة ١٥١٩م إرسال بعثة من المعلمين والتجار إلى موطنه وحصل على طلبه، وحدث أن نمو الاهتمام بأنجولا أغضب الجالية البرتغالية فى (موازنا)، وهم الذين شجعوا (مانيكونقو) لى يشكل جيشاً سنة ١٥٥٦م ويهاجم (نقولا)، ولقد قاتل الأوربيون لدى الجانبين وفى هذا القتال انتصر (نقولا)، وفى سنة ١٥٦٠م قام (باولو دياسى دى نوفاي) بقيادة مجموعة فى بعثة دينية إلى (أنجولا)، وبقي خمسة شهور على الشاطئ منتظراً الإذن بلقاء الزعيم (إمبالا) خلالها مات أحد

الرهبان الذين كانوا معه، وبعد ذلك تم الحصول على الإذن واللقاء وأقيمت الكنيسة بالمدينة الكبيرة التى قال: إنها تضم خمسة آلاف كوخ، وإذا كان قد ساعد على إنهاء الانتفاضة فقد رجع إلى لشبونة بالرقيق والنحاس والعاج، وفى سنة ١٥٩٢م (عين دى فرانسيسكو) حاكماً عاماً مفتتحاً نظام كولونىالى عمره الآن ثلاثة قرون ونصف من الزمان، وكانت الخطط الملكية طموحة لكنها سارت عكس تلك المصالح المستقرة والثابتة التى رفض أصحابها إفساد ما تحقق منها بجهد كبير، وهكذا عندما حاول الحاكم العام الجديد أن يتحدى غطرستهم قام الكهنة على الفور بطرده، ولذلك أجبر خلال السنة التالية ١٥٩٣م على التقاعد من العمل فى أنجولا، وفى سنة ١٦٠٢م تولى (رودجيرو كوتينهو) الحكم بصلاحيات أوسع من أجل أن يحقق المطلب الملكى بتوفير أربعة آلاف ومائتين وخمسين مسترقاً فى السنة للعام الجديد، وكذلك استغلال مناجم الفضة فى منطقة (كامبامبى)، ولهذا اصطحب (كوتينهو) ثمانمائة جندى معه إضافة إلى الخيول والمدفعية، وكانت تلك أكبر قوة برتغالية أرسلت إلى غرب إفريقيا، لكنه مات بمرض الملاريا خلال شهر مارس بالقرب من النهر وقد خلفه (مانويل سيرفيرا) الذى وصل (كامبامبى) إلا إنه لم يجد مادة الفضة بكمية تجارية، ثم قام الحاكم الذى جاء بعده وهو (مانويل بيريرا) بإرسال بعثة فى اتجاه الشرق لغرض الاتصال بأراضى (مونومونتوبا) وكان قائد البعثة (بالتاسار ريبيللو)، وهو الذى كان قد بنى قلعة (موكسيما)، ولقد سار هذا مسافة أربعمائة ميل وقال فى مذكراته: إنه كان يمكن أن يتم مهمته لو لم يستدع ليعود من أجل الدفاع عن (كامبامبى)، وقد مات سنة ١٦١١م محققاً قليلاً من الأعمال، وفى سنة ١٦١٧م كان (سيرفيرا بيريرا) الذى غادر سابقاً أنجولا فى ظل غيمة من الشكوك قد عاد ليجد أن المسئول عن المشروع، قد وصل به إلى حافة الإفلاس بسبب تعنته وغطرسته، لكن الكاهن الإفريقى وآخرين استغلوا فرصة مرض هذا المسئول فوضعوه فى قارب شراعى صغير، ودفعوا به إلى البحر، وبالتالى سقطت المستعمرة تحت سيطرة (لواندا) إلى سنة ١٦٤١م عندما استولى عليها الهولنديون، ولقد كتب أحد المستكشفين ويدعى (دوفى) قائلاً: إن المجموعة الصغيرة

من المنبوذين فى (أبينقويلا) الذين وقفوا ضد شهوانية وتطلعات (سيرفيرا بيريرا) عندما أهمل (لواندا) والاحتلال الهولندى كان لهم مكان فريد فى سابق تاريخ أنجولا، وكانت مجموعة المرتدين من الكونغو والمنفيين والمباعدين من البرتغال والمجرمين من البرازيليين مع زوجاتهم وأطفالهم كانوا أول المستعمرين فى أنجولا، وقد أنهكوا فى البحث عن الثروة المعدنية؛ حيث إنهم فى البداية عجزوا عن منافسة مجموعات المسترقين فى الشمال، وقد أجبروا على إثبات وجودهم فى البحر والأرض، وكانت مستوطنة (بينقويلا) منذ البداية مكانًا للتجار والمزارعين وصيادى الأسماك وتلك تشكيلة غريبة من النشاط التجارية الحرفية فى مركز (لواندا)، وهناك فقط فى (سوفالا) بعد تراجع تجارة الذهب يمكن أن يوجد شيء متواز فى إفريقيا البرتغالية كحالة (بينقويلا) خلال منتصف القرن السابع عشر، ولم تكن (بينقويلا) مكانًا لحضارة بهية، وقد بقيت لعدة قرون آتية مقرأ لعناصر من مجموعات غير مرغوبة متعصبة برتغالية، وإن كانت فى نفس الوقت قد صارت مكتفية ذاتيًا فى الزراعة وصيد السمك، وفى وضع محدود جدًا كان نمط وجودها يعكس طريقة الحياة التقليدية البرتغالية أفضل من بقية مناطق التوسع فى إفريقيا والشرق، ولقد لاحظ المستكشف (دوفى) قائلاً: إن المسيحية قد استقرت بيسر على روح (فيراتو) الرائعة، وفى السنة التالية سممت بدهاء شقيقها الذى كان مطارداً من جانب مجموعة من البرتغاليين عندما انتهك الاتفاقية التى وقعتها شقيقته هذه مع الأوربيين وبعدها احتفلت بإعلان نفسها ملكة، وقد تحالفت مع آخرين لتقاتل المتمردين من شعبها، ثم إن حروب البرتغال العشوائية تزايدت دموية وبرتابة حتى سنة ١٦٣٦م عندما استطاع المبعوثون من طرف الحاكم (فرانسيسكو) الوصول إلى سلام مع الملكة (حينقا)، وفى سنة ١٦٤١م استولت البحرية الهولندية على (ساوتومى ولواندا وبنقويلا)، وفى سنة ١٦٤٥م انزعجت البرازيل من فقدان التزود بالرفيق، فأرسلت جيشاً لمساعدة البرتغال فى إعادة احتلال أنجولا، لكن قواتها تلك ذبحت جميعها بواسطة القبائل، ثم إن جيشاً برازيلياً ثانياً هزم الهولنديين ومؤيديهم المتحمسين من الوطنيين، وفى هذا

الوقت بدأت إفريقيا فى المجالات البعيدة تنظر إلى نفسها كمستعمرة، وكان الحكام المتتالون يلاقون صعوبات فى مقاومة رغبات المستوطنين من الجيل الثانى أو الثالث الذين كانوا متحصنين بعضهم خليط (مولاتو)، ومعهم بعض معدومى الضمائر الذين يضعون أصابعهم فى كل شيء، وكانت القبائل بعيدة عن أن تكون هادئة، كذلك حدث أنه من سنة ١٦٦٥م إلى سنة ١٦٨٥م قد انتفضت كل العرقيات ضد البرتغاليين، وهكذا تم احتلال الكونغو وقد مات الملك (مانيكونقو الأول) فى هذه الحرب، وحدث أن أنجولا عاشت لمدة قرن بل تقدمت، وفى سنة ١٧٦٥م جاء حاكم جديد يدعى (فرانسييسكو دى سوسا) وكان يحمل أفكاراً جديدة تتجاوز تجارة الرقيق متصوراً لنظام احتلال يعتمد على إقامة مستعمرات فى الأراضى الصحية العالية على الرغم من أن جميع خططه لم يتح لها الازدهار، ومازال المؤرخون البرتغاليون يرون فيه نموذجاً لأفضل حاكم أنجولى، وفى سنة ١٨١٩م تولى حاكم آخر يدعى (قوفار دى لوكويريك) فقام بعمل هز به تلك المستعمرة النائمة وبادر بمشروع القهوة والقطن كما أصلح نظام الضرائب، وبأشر ببرنامج أعمال عامة، وكان رائداً فى تنظيم أعمال البريد المحلى، لكنه خلع أثناء الانتفاضة التى جاءت باستقلال البرازيل سنة ١٨٢٢م وما تبعها من اضطرابات فى البرتغال، وفى هذا الوقت كانت الطبقة العليا فى أنجولا كلها من السمر مما ساعد الدعاية البرتغالية حيث إن تمازج الأجناس فى إفريقيا البرتغالية سمة خاصة بهم؛ إذ إنهم تخلصوا من الإحساس بالعار أى (الدونية) الذى لازم المستعمرات البريطانية؛ حيث إن السمر يعتبرون جنساً بدائياً، وكانت (رواندا) قد رفضت عرضاً برازيلياً يقترح الاتحاد بين البرازيل وموزمبيق وأنجولا رغم أن أحد الزعماء كان يفضل ذلك، وإلى أن عين حاكم ليبرالى جديد يدعى (بيرناردو فيديل) سنة ١٨٣٤م عندما كانت سياسة لشبونة متأرجحة، وكانت معظم السلطة القانونية يحتفظ بها البرلمان المحلى وأن الناس الأحرار الذين جاءوا من وراء البحار صاروا مواطنين برتغاليين اسمياً، وفى سنة ١٨٣٨م كانت الإصلاحات المتبقية قد نفذت بواسطة رئيس الوزراء (سان دى باندير)، وهو الذى منع رسمياً تجارة الرقيق سنة

١٨٣٦م، ونقل الحاكم (فيديل) سنة ١٨٣٨م بسبب أنه كان يحصل على رشاوى من أجل أن تستمر تجارة الرقيق تلك، ومع ذلك فإن نقل العبيد مازال مستمراً إلى سنة ١٨٤٥م، وإلى أن تعاون الحاكم الجديد المدعو (بيدرو أليكساندرو) مع البحرية الملكية البريطانية فى القضاء على تلك التجارة .



الفصل الثالث عشر

شرق إفريقيا

(الزانجا - الأزانيا - والبرتغاليون)

الفصل الثالث عشر

شرق إفريقيا (الزنجيا - الأزانيا - والبرتغاليون)

لقد بدأ استكشاف ساحل شرق إفريقيا مبكراً أى قبل أن يبدأ الرحالة فى الاستكشاف على الساحل الغربى باستثناء (الكونغو وأنجولا)، ولكن كان هناك القليل من المعلومات التاريخية، فقد سجل (هيرودوتس) ما يمكن اعتباره طوافاً بحرياً حول إفريقيا وإن كان قد انقضى زمن جيلين قبل (بطليموس)^(١) عندما قام بحار يونانى مجهول بإعداد خريطة عن البحر الإريتري خلال النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وقد أوضحت بشكل باهت أجزاء من الساحل الشرقى الإفريقى، وكانت خريطة بطليموس تختلف قليلاً، وذكر أن السفن العربية كانت وقتئذ معتادة فى المنطقة حيث كان العرب أول الزوار المنتظمين لما كانوا يسمونه (بلاد الزنج)، وقد سافر الكاتب العربى الحسن بن حسين بن على المسعودى^(٢) نزولاً إلى الساحل خلال الفترة الأولى من القرن العاشر الميلادى على سفينة تجارية عمانية وقبل أن يتوفى فى القاهرة سنة ٩٥٦م كتب عن تلك الرحلة قائلاً: إن الزنج السود أو أرض السود^(٣)

(١) بطليموس كلوديوس: عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزياء، ومؤرخ يونانى مصرى، نشأ فى الإسكندرية خلال الربع الثانى من القرن الثانى الميلادى، اكتشف علم انتظام حركة القمر، وله أعمال هامة عن حركة الكواكب، ومكانة بارزة فى تاريخ العلوم.

(٢) المسعودى أبو الحسن بن على بن الحسين، جغرافى ومؤرخ عربى، ولد ونشأ فى بغداد، وأمضى شبابه فى التجوال فزار فارس وكرمان والهند وسيلان ومدغشقر وما وراء النهر وأذربيجان وجرجان والشام، ثم استقر فى مصر وتوفى بالفسطاط، وضع عشرات الكتب، إلا أن أشهر ما بقى منها مروج الذهب ومعادن الجواهر، وهو تاريخ عام يبدأ بالخلقة وينتهى بسنة ٩٤٧م، جمع فيه مشاهداته ودراساته فى جميع البلاد التى زارها، وله أيضاً كتاب (التنبه والأشراف).

(٣) الكلمة عربية، وليست كما أورد المؤلف بالقول: إنها فارسية . المترجم .

(وهذه كلمة فارسية ترجع إلى تاريخ غزوة شيرازي)، ومن وقت سابق فإنه كلما قامت سفينة برحلة إلى تلك البلاد كان الزنوج يجذبون الاهتمام وهكذا كانت الطبيعة أرحم على السود الأفارقة من العرب؛ إذ إن لديهم العاج والذهب والبقر والذرة البيضاء والعسل، وخلال القرن الثاني عشر الميلادي عندما كان الإدريسي المحمي من جانب الملك (روجر) ملك سيسيليا النورماندي قد زار إفريقيا ذكر أن كل قبائل ساحل شرق إفريقيا كانت تصهر وتصدر الحديد وربما كانت زيمبابوي تصدره منذ أربعة قرون سابقة، على أن حكومة المنطقة كانت غالباً قد استقرت في مملكة مقدسة، وكانت طرق التجارة عبر البحر، وذكر أحد الكتاب ما كانت تمثله الصحراء لغرب إفريقيا تماماً كما يمثل المحيط الهندي لشرق وجنوب شرق إفريقيا وكانت الجمال تعبر الصحراء بينما تمخر السفن البحار وتحمل الرياح الموسمية تجارة المحيط في الاتجاه المناسب، الشمال الشرقي والجنوب الغربي، كذلك فإن التقارير العديدة تذكر تفاصيل النشاطات التجارية في الأوقات السابقة مع العرب والهنود والفرس واليونان والصينيين، حيث إن شعوب هذه البلاد قد استقرت حضارتها في حين أن شعوب ساحل شرق إفريقيا ماتزال في فوضى، بل هي توصف بأنواع من الوحشية، وبأنواع من القرصنة غير الموافقة، ولهذا السبب فإن التجار يحصرون نشاطهم عادة في الجزر مثل (كيلو وأكسيواني وسوغر منارا وجونجي ياكاتي)، حيث كانت توجد كميات من الخزف الصيني والكهرمان والزبرجد، وكان هناك مئات من العرب باقين من خلال الاختراق العربي للمنطقة لأنها ساعدت بلغتها التي تتخللها كلمات من الباندو، وأخيراً كلمات من اللغات الألمانية والإنجليزية التي كونت اللسان السواحلي، ومنذ القرن الخامس عشر عندما أشير عموماً إلى شرق إفريقيا على أنها (أزانيا) كان الشريك التجاري الكبير هم الصينيون الذين كانوا بناء السفن الكبيرة ومكتشفى البوصلة المغناطيسية كما أنهم كانوا تجارين ممتازين، وقد رحب الأفارقة بتلك العلاقات حيث أرسل (ماليندي) رسلاً في سفن صينية إلى إمبراطور الصين مع هدية قيمة كانت عبارة عن (زرافة) وكانت أهم الصادرات الصينية (لأزانيا) أنواعاً من الحرير والأقمشة المطرزة والخزف والطلاء، والواقع أن أصل الاسم (أزانيا) لم يكن

معروفًا، وإن كان من الواضح أنه كلمة أوروبية، ومع نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قوة جديدة تجارية عظيمة حيث إن (بارتو لوميو دياسى) فى رحلته سنة ١٤٨٧ - ١٤٨٨ م حول رأس الرجاء افتتح مرحلة جعلت العلم البرتغالى لمدة قرنين من الزمان شعار القوة فى المحيط الهندى وكانت السيادة البرتغالية فى تجارة شرق إفريقيا، قد تم تحديدها بشكل مؤقت من طرف الإمبراطورية العثمانية التى احتلت مصر سنة ١٥١٧ م، وسيطرت على البحر الأحمر، ومع ذلك فإن السيطرة العثمانية سرىعًا ما صارت اسمية فى مصر وبذلك تلاشى التحدى، وكانت الجزر التجارية عمليا من صنع العرب مما يظهر جليًا كحقيقة فى واحدة منها أى (زنجيبار)، ولكن عندما أصبح أصحاب الأرض الأفارقة هم الأغلبية من السكان غرسوا تقاليدهم، وكذلك نماذج سكنهم وغير ذلك، ولقد عاد (فاسكو دا جاما) إلى المكان الذى استغله (دياسى) فى بداية سنة ١٤٩٨ م حيث أرسى سفينته خلال شهر مارس بميناء (موزمبيق)، وكان شيخ الجزيرة المعين من قبل سلطان (كيوا) يعتقد أن البرتغاليين لابد أن يكونوا تجارًا مسلمين، لكنهم سرعان ما صححوا هذا الاعتقاد، ولذلك فشلت المباحثات وغادر الزوار بعد أن أمطروا المدينة الصغيرة بالقذائف من سفينتهم، وقام (دا جاما) فى (مومباسا) بإرسال اثنين من المجرمين إلى الشاطئ يحملون كمية من الخرز كهدية لشيخ المنطقة، ولكن هذه المحاولة أيضًا كانت عاجلة، وقد حاول العرب دون نجاح تعطيل السفن البرتغالية التى اتجهت شمالا إلى (ماليندى)، وقد استولت على حمولة وهى فى طريقها، وفى (ماليندى) أجبر (دا جاما) الحاكم المحلى على تزويده بربان بحرى للمحيط الهندى، كما حصل على نوع من الاتفاق التجارى هذا الاتفاق الذى دام حتى نهاية القرن، وكانت العلاقة البرتغالية مع المواطنين الأفارقة السود خلال القرن السادس عشر والسابع عشر محصورة فى المناطق الداخلية من جوانب الشاطئ أى من (سوفالا) إلى (كويليمانا)، وكان العرب أو الملّونون مع بعض الزنوج المستعربين الذين يتكلمون السواحلية يسيطرون على الساحل عند وصول (دا جاما)^(١) وكان الملك (كيلوا) القوة الوحيدة المحتكرة لتجارة الذهب فى (سوفالا)، وحدث كثير من

(١) كان المفامرون الأوربيون ينقلون معهم السجناء والمجرمين فى رحلاتهم إلى هذه البلدان ويستخدمونهم فى أغراضهم الخاصة، كما فعل (دا جاما) وإذا ما ماتوا أو قتلوا لا يكلفونهم شيئًا. المترجم .

الشغب بواسطة العرب ضد المنافسين الجدد على الرغم من أن هؤلاء البرتغاليين كانوا قادمين، وفي خططهم تأليب السلاطين المتنافسين ضد بعضهم، وفي سنة ١٥٠٥م أرسل أسطولاً من ثلاث وعشرين سفينة إلى الهند بقيادة (فرايسكو دي أليميندا)، وفي الساحل الشرقي الإفريقي هاجم (أليميندا) (كيلو)، وقام ببناء حصن من الحجارة عرف باسم (سانتياغو) وقصف (مومباسا) فحرقت ونهبت بحلول سنة ١٥١٢م وبذلك تكاملت سيطرة البرتغاليين على الساحل، ولكن في سنة ١٥١٢م استعاد العرب (كيلو) وكان هناك تحد في (مومباسا) سنة ١٥٢٨م^(١).

وكان تبادل القصف المدفعي مستمراً بانتظام خلال السنوات اللاحقة، ولم يستطع القائد البرتغالي منع تدفق بضائع العرب المهربة إلى الهند، حيث أثر التهريب على (سوفالا) والواقع أن بعضه كان بواسطة البرتغاليين الأفراد، وأخيراً عند نهاية القرن كانت الحروب الداخلية قد أثرت كثيراً على تجارة الذهب، في حين أن التحدي العربي لسيطرة البرتغال في المحيط الهندي على التجارة أدى إلى حروب بحرية على الساحل، ولأن البرتغال رغبت في تأكيد سيطرتها على التجارة، ومن أجل أن تعالج الفوضى في الجزيرة اندفعت إلى الدواخل، وبحلول سنة ١٥٥٠م أنشأ البرتغاليون بعثة لدى القصر الملكي في (مونوموتابا) كلف بها (أنطونيو كاباك) وهو تاجر في (زمبابوي) صار مستشاراً للملك الإفريقي، ومنح من قبل لشبونة وظيفة نائب الملك في المنطقة، وفي سنة ١٦٠٧م أعطى ملك (مونوموتابا) التاج البرتغالي كل محتويات مناجمه مقابل الحماية العسكرية^(٢)، وجاء في الاتفاقية القول: (إن ملك إمبراطور

(١) ذلك عندما كان العرب يحسون بالكرامة ويواجهون المعتدين، أما الآن فقد فقدوا الإحساس والكرامة معاً مع الأسف الشديد، وهنا نحن نراهم جميعاً وهم (اثنان وعشرون دولة) مخدلين لا يرفعون حتى أصبع احتجاج على الغزوة البربرية التي قامت بها دولة (النجاشي) على بلد عربي مسلم هو (الصومال)، وأنا أقصد بهذا الكلام كل الحكام العرب دون استثناء، لقد قام الأحباش بغزو الصومال لمجرد أنه مسلم، وتحكم جزء كبير منه جماعات مسلمة تسمى جماعة المحاكم الإسلامية بتشجيع من عدوة العرب والمسلمين (الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة بوش الصغير) حدث هذا خلال شهر ديسمبر ٢٠٠٦م. المترجم.

(٢) هكذا بالضبط كما يفعل الحكام العرب الآن مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب الصليبي مقابل الحماية المهيمنة، أي: لكي يبقوا على كراسيهم وقهر شعوبهم. المترجم.

(مونوموتابا) أعطى لجلالته كل مناجم الذهب والنحاس والحديد التى يمكن أن توجد فى إمبراطوريتى طالما أبقانى فى وضعى)، وكذلك قامت البرتغال بتقديم المساعدة ضد البارونات اللصوص الذين كانوا يزعمجون الإمبراطور، لكن الحلفاء سرعان ما اختلفوا وأدى الاختلاف إلى الصراع وهذا حدث فى سنة ١٦٢٩م وعلى إثر هزيمة (المونوموتابا) فى الحرب وقع الإمبراطور اتفاقية أخرى تنص على الحماية الكاملة وحكم البرتغال والموافقة على قبول بعثات مسيحية، وبذلك تقرر أن يكون احتكار التجارة كلياً للبرتغال، وكان قد بدأ السفر فى المناطق الداخلية سنة ١٥٠٥م مع (أنطونيو فيرناندو) الذى استكشف (مانيكالاند وأجزاء من ماشونلاند) أى الجزء الشرقى من روديسيا الحالية، وقد أوصى بإنشاء مصنع تجارى فى (لوندى أو نهر سافا)، حيث يمكن إحضار الذهب من (مونوموتابا)، ولكن فى النهاية كانت (زيمبابوى) هى الأنسب وصارت (موزمبيق) أهم ميناء برتغالى يمثل حزاماً إمبراطورياً تجارياً فى الكرة الأرضية، ولقد حاول بعض البرتغاليين الاستقرار هناك أى فى تلك المنطقة التجارية حيث يكون نائب الملك وكيلاً محتكراً لبعض المواد غير المحجوزة للتاج، وهو بذلك يحتل الإدارة والقيادة، وكان البرتغاليون يشترون الذهب والعاج ويبيعون الخرز والقماش، على أنه فى أغلب الأحوال لم يكن نائب الملك مسيطراً على أبعد من خط الساحل، وكان عدد الأوربيين قد بدأ هناك بما لا يزيد على مائة شخص، ثم وصل عددهم إلى أربعة أضعاف ذلك العدد مع نهاية القرن، وفى سنة ١٥٣١م أنشأ مدير موزمبيق سوقاً فى (سينا) بمنطقة (زامبازى) وبعده بدأت المشاريع الاستيطانية الزراعية، ثم أقيمت بلدة على بعد مائتين وستين ميلاً من المكان مع مشاريع أخرى زراعية خلال العقدین التاليين وعندما اعتلى العرش البرتغالى (سيبستايو) سنة ١٥٦٨م، وكان عمره أربع عشرة سنة صار بعد فترة مهتماً بإقامة إمبراطورية فى إفريقيا، حيث أرسل فى السنة التالية جيشاً من المتطوعين عدده ألف رجل إلى موزمبيق تحت قيادة (فرانسيسكو باريتو) الذى كان حاكماً عاماً فى الهند بتعليمات محددة تنص على الوصول إلى اتفاقية مع (مونوموتوبا)، ولقد أبحر ذلك

الجيش فى نوفمبر سنة ١٥٧١م عبر النهر إلى منطقة (سينا) التى أنشئت سنة ١٥٣١م، حيث كانت مشاكل الغذاء والنظافة لم تحل بشكل كامل وتم ذبح الجالية المسلمة وقد حدث أنهم فى بعض الحالات كانوا يقذفون من خلال فوهات المدافع^(١)، وكانت بعثة أخرى أرسلت إلى (مونوموتوبا) لكنها غرقت فى (زامبازى) وقد انقضت ستة أشهر قبل أن تتمكن من العودة، أما (باريتو) فقد أرهاق جيشه التعب من مقاومة الزعماء المحليين المتمردين، وأخيراً وصل إلى (مونوموتوبا) وقدم شروطه، ثم عاد إلى الجهات السفلى فى النهر، وعندما رجع إلى (سينا) فى مايو ١٥٧٣م كان الباقون أحياء من جيشه لا يزيد عددهم عن مائة وثمانين رجلاً، حتى إنه هو نفسه مات بعد ذلك بأسبوعين من الإرهاق والحمى، ثم إن تلك البعثة قد سحبت من (مونوموتوبا)، وفى سنة ١٥٧٤م كانت بعثة أخرى أكثر نجاحاً بقيادة (فاسكو فيرنا هوميم) قد وصلت منطقة بالقرب من (آماتالى الحديثة) فى روديسيا، واتفقت على أعمال فى المناجم مع الزعماء المحليين، ولكن بعد ذلك حدث أن مائتى رجل بقوا فى الحامية فى منطقة (شيكاو)، قد نكل بهم بعد مغادرة (هوميم)، ولم يطل الوقت حتى صار الحكم البرتغالى قاصياً واعتباطياً فى كل من مناطق الشاطئ، وفى كل مكان آخر، ورغبة فى مغادرة البرتغاليين قام بعض الزعماء المحليين بإيقاف العمل فى مناجمهم، كما حاول ملك (أنقومي) طرد أغلب البرتغاليين بطرق أكثر بربرية، حتى إنه قتل عمال مناجمه الخاصة كى يعطل العمل، وبالتالي فإن لشبونة قررت تركيز عملياتها فى شرق إفريقيا عند موزمبيق التى جعلت مستقلة تابعة لنائب الملك فى إدارة الهند، وقد أقيمت قلعة (جيسوس) فى مومباسا سنة ١٥٩٣م، بحيث تعزز رقابة الشواطئ المحدودة فى (ماليندى وموزمبيق)، وهكذا ازدهرت تجارة البرتغال بين إفريقيا والهند عند انتهاء القرن على الرغم من التحدى البريطانى والهولندى لإمبراطورية الشرق الأقصى

(١) هؤلاء الأوروبيون من أجل الاستغلال والمصالح كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أبشع الجرائم ضد الأبرياء كما ذكر المؤلف أعلاه، وإذا كان ذلك يحدث منهم خلال بداية القرن السادس عشر، فما نحن لنجدهم يكررون نفس البشاعات فى عصرنا الحالى فى العراق وفلسطين وأفغانستان وكثير من بلاد العرب والمسلمين. المترجم.

باحتيال قلعة (جيسوس) من طرف العمانيين سنة ١٥٩٩م، وموت ألفين وخمسمائة برتغالى وهندي وعربي وسواحلي في تلك المحطة، ومنذئذ اتجه البرتغاليون إلى القليل من الاهتمام بموزمبيق، واعترفوا بأن الساحل في شمال رأس (ديلقادو) هو منطقة نفوذ عربية، وفي سنة ١٥٩٠م كانت أهمية (سوفالا) قد تلاشت مع استمرار التجارة في (سينا)، حيث كان البرتغاليون يدفعون إتاوات في شكل أقمشة وخرز وغير ذلك، وأقاموا مخازن وكنيسة؛ إذ كان هناك حوالي خمسين من البرتغاليين يقيمون في (سينا) ومعهم حوالي ألف من الهنود والملونين، وهناك مصنع يعمل فيه ألفان من المسترقين وبعض المنشآت في (ماسابا ولوانزا وبوكوتو)، حيث كانت البرتغال تتمتع بمزايا كثيرة في منطقة المحيط الهندي تزيد عن بقية القوى الأوربية الأخرى الموجودة في ذلك الوقت (بريطانيا وفرنسا وهولندا)؛ لأنها كانت تدفع مبالغ كبيرة للتجار العرب من أجل الخرائط والمعلومات على أن مصالحها في إفريقيا وخصوصاً تجارة الرقيق تعتمد أساساً على (أنجولا) وهي المصدر الرئيسي للبرازيل، وعلى الرغم من أن تجارة الرقيق تتطور في شرق إفريقيا، فإن البرتغاليين كانوا يتمتعون بحماية وتطوير تجارة المحيط الهندي وتحصيل الذهب والفضة من مناجم (مانيكالاند)، وفي سنة ١٦٠٨م أمر (فيلبي الثالث) بإرسال بعثة جديدة للبحث عن الذهب في (زامبازي) لكنها انتهت إلى الفشل، وفي سنة ١٦٤٣م قام (جاو الرابع) أول ملك في (براقانزا) بفتح تجارة البرتغال الهندية لكل البرتغاليين، ولقد ذكرت فيما تقدم من هذا الكتاب أن (كاثرين) عندما تزوجت (تشارلز الثاني) سنة ١٦٦١م حصلت بريطانيا على (طنجة) كجزء آخر من مهر كاثرين، ولقد حدث أن تغير القوى جاء بالعديد من الهنود البرتغاليين إلى شرق إفريقيا البرتغالية، حيث صار لهم موقع قدم في التجارة، وعندما قارب القرن على الانتهاء كان الرقيق قد أصبح جزءاً هاماً من التجارة ليزداد تدريجياً في القرن اللاحق، وفي الداخل كان تحليل الوضع السياسي قد أخذ منحى مدوياً في الاتجاه الأحسن سنة ١٦٢٨م، حيث هزم المتمرد من (مونوموتابا) المدعو (كابرا نزاين)، واستبدل بابن أخته المدعو (مانوزا) على إثر قيام (كابرانزاين) بإلغاء

الفصل الثالث عشر: شرق إفريقيا (الزنجيا - الأزانيا - والبرتغاليون)

اتفاقية كان والده قد وقعها، كما حاصر القلاع البرتغالية ومنع التجارة لكن ابن أخته (مانوزا) وقع اتفاقية جديدة متعهداً بالتبعية للتاج البرتغالي ولكل مسئول في (مونوموتابا) على أن تقوم هذه بإرسال ثلاث قطع ذهبية كإتاوة وبحسب الاتفاقية يتمتع البرتغاليون بالعمل والتنقل عبر أراضي المملكة، وأن العرب سوف يطردون من (البلاد وتبنى الكنائس ومقار البعثات التبشيرية، ولقد أدان ابن الأخت هذا جميع مطالب خاله كابرانزاين) كما أنه غير دينه فصار مسيحياً باسم (فيليبى)، ولكن مع نهاية القرن السابع عشر ضاعت كل المكاسب ولم يكن ممكناً استعادتها لقرنين قادمين، ودمرت سلطة البرتغاليين في الشرق الأقصى أساساً بواسطة البريطانيين، وتلاشت إمبراطوريتهم هناك حتى أصبحت عدة جيوب مثل (ماكيو وجو)، وفي بداية القرن الثامن عشر تم سحب حامية (سوفالا)، وكان الرعايا البرتغاليون في (سينا وتيتى) والمناطق المجاورة قد عاشوا في وضع سيئ معزولين يتشاجرون مع بعضهم ومع الأفارقة مكونين نصف مجتمع طائفى لا يعترف إلا بقانونه الخاص^(١).



(١) أحزننى - والله - منظر صدام حسين وهو يقف وحبل المشنقة حول رقبته، وقرار إعدامه في الصباح الباكر من هذا اليوم (الجمعة ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦م) يوم عيد الأضحى المبارك (١٠ من ذى الحجة الشهر الحرام)، على الرغم من أننى لم أكن فى أى يوم مع صدام حسين؛ باعتباره دكتاتوراً وقتلاً، لكن طريقة إعدامه هكذا فى مناسبة تاريخية دينية إسلامية، وهو موقف مهين لكل عربى ومسلم، بل وكل إنسان. المترجم.

الفصل الرابع عشر

زنجبار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

الفصل الرابع عشر

زنجبار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

لقد بدأ الاستكشاف للدواخل فى الشمال من طرف النيل، وفى رحلة الخمس سنوات (١٧٦٩ - ١٧٧٤م) كان المستكشف الإسكوتلاننى (جيمس بروس) قادماً من الأعلى عبر مصر ليحدد مسار النيل الأزرق من إثيوبيا، وكان فى هذا الوقت ساحل شرق إفريقيا مايزال تحت النفوذ العربى، وكان الإمام سيد سعيد حاكم مسقط من سنة ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦م قد أنشأ أسطولاً بحرياً، وأعاد التأكيد على مطالب العرب فى موانئ الساحل، ويضع قيادته فى (زنجبار)، فارضاً تحصيل الضرائب والجمارك كذلك كان سباقاً فى نشر معرفة المعادن الثمينة، وحقق بذلك بعض النجاح حيث صارت الجزيرة وجارتها (بيما) وقت وفاته تنتج ثلاثة أرباع حاجيات العالم، وفى ظل حكم سعيد هذا أصبحت (زنجبار) المركز التجارى الرئيسى فى الساحل، وهى الميناء الرئيسى لتزويد السفن بما تحتاج والسوق المصدر للرقيق والعاج إلى البلدان الرئيسية، كما أنها كانت السوق المستورد للخرز والأقمشة والسلاح والمعدات من الهند وأوروبا وأمريكا، وكان سعيد يقضى الكثير من وقته هناك، وفى سنة ١٨٤٠م جعل زنجبار عاصمة لبلاده وجمع فى بلاطه طبقة من العرب المستثمرين فى حين استجلب العرب من مسقط وعمان ليكونوا طليعة فى التجارة هناك يقترضون المال من الهنود المرابين، وكانت طرق التجارة فى الداخل من بحيرة تانجانيقا إلى الساحل مطروقة بطلائع من الناس الأفارقة المتحمين لقبائل (وانيا ماويزى)، وفى سنة ١٨٤١م امتدوا إلى أبعد فى اتجاه الغرب إلى بلاد (مولوندا وكاتانقا) يقومون بالتجارة لحسابهم مرتبطين مع الزنجباريين والسواحليين فى (بوقوبا وبوريورو)، ومع ممالك أوغندا الأخريات، وكانوا مشهورين فى كل عمل تدربوا عليه منذ صغرهم، وبما يكسبون من مال كانوا

يشترون العبيد الرقيق الذين يحرثون حقولهم فى وقت ما يكونون على سفر، وحدث أنه تدريجياً صار شعب (نيامويزى) حمالين بدلاً من تجار حيث كانوا غير قادرين على المنافسة مع رؤوس الأموال الكبيرة والمنظمات المتقدمة الزنجيبارية وبقية التجار المتكلمين باللغة العربية، وهؤلاء ينقلون المزيد من مختلف البضائع بما فى ذلك البنادق، هذه التجارة التى صارت بالتدريج مطلوبة من طرف الزعماء الأفارقة فى مناطق مثل (تابورا فى بلاد النيامويزى)، أو فى (الأصيجى على بحيرة تانجانيقا)، ولقد أحدث العرب تأثيراً سياسياً مماثلاً لذلك الأوربى فى مراكز التجارة على الساحل الغربى، التأثير الغربى غرب البحيرة فى الزنجيبار أو الساحل بالتضامن مع (النيامويزى) أحياناً لإسقاط القادة المحليين، وفى كل الأحوال لم يستخدم العرب إلا القليل من القوة فيما عدا القبض على الرقيق، وقد عملوا بطريق الإثارة والتفاوض، وفى أوغندا خلال الخمسينيات أو بداية الستينيات بدأ عرب الخرطوم الذين يشار إليهم على أنهم أتراك ينافسون فى السيطرة على الزنجيباريين، وكانت زنجيبار وقتئذ فى تحالف طويل مع بريطانيا، حيث بدأ ذلك منذ عهد سلف السلطان سعيد خلال الفترة الأولى من حروب نابليون، واستمر التحالف مرضياً للطرفين منذ ذلك الوقت، وكانت بريطانيا ترحب بأى نفوذ فى المحيط الهندى الذى يمكن أن يوقف التقدم الفرنسى، وشكراً للسلطان سعيد الذى ترى فيه بريطانيا مانعاً لأى تقدم فوضوى فى المنطقة يجعل لندن نفسها تتعامل معه فى غرب إفريقيا، وذلك يمكن أن يكون حافزاً فى تطوير شرعية التجارة ومراقبة منع تجارة الرقيق، وفى سنة ١٨٢٢م عندما كان سعيد مايزال مقيماً فى مسقط وافق على توقيع اتفاقية مع بريطانيا تحدد تجارة الرقيق فى النصف الغربى من المحيط الهندى، وهذا يمنع التجار من إحضار الرقيق إلى جزر الهند البريطانية، وعندما انتقل سعيد إلى زنجيبار سنة ١٨٤٠م كانت القنصلية البريطانية الأولى فى شرق إفريقيا قد أنشأت لدى بلاطه، وفى سنة ١٨٤٥م وقعت اتفاقية أخرى تحدد تجارة الرقيق فى محيط سلطته الإفريقية، وهكذا بدأت أطقم البحرية المكلفة بمراقبة ومنع تجارة الرقيق تنظيف المحيط الهندى بالضبط كما عملت على تنظيف شرق الأطلنطى، وفى سنة ١٨٦١م أى بعد خمس سنوات من وفاة

السلطان تولى أحد أبنائه مسقط بينما تولى الآخر زنجبار، وهكذا قسمت المملكة، وفى سنة ١٨٧٣م وافق (برغاش) الذى استولى على زنجبار على إنهاء تجارة الرقيق بشكل كامل، وقد أقيمت كاتدرائية مسيحية على موقع سوق الرقيق فى زنجبار، ولكن المستفيدين من تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا، استمروا فى تلك التجارة بشكل سرى داخل (زنجبار وبيمبا)، ولقد استمر وضع الرقيق كما كان عليه، ولم يحظر إلا تدريجياً فى الجزر خلال زمن الاستعمار وكانت تجارة العاج قد نمت ولذلك فهى إلى حد ما ساعدت على استمرار تجارة الرقيق وكان الذين يحملون العاج وغيره عادة هم من الأرقاء، أما العملة المستعملة فى شراء العاج، فقد كانت الأسلحة والذخائر (إى مبادلة) وهى التى تستعمل بالتالى فى حروب القبائل والسبب أو النتيجة من ذلك كانت الحصول على المكان والتوسع، وفى شرق إفريقيا لم يكن هنالك بديل مناسب كزيت النخيل فى غرب إفريقيا، ومن أجل الحصول على المال من تجارة الرقيق فإن مزارعي (نيامويزي وبيمبا) يحتاجون لمورد منظم من الرقيق للعمل، ولا بد أن مثل تلك الأساليب قد استمرت لبعض الوقت لو لم تكن هناك مطامع ألمانية أحدثت فجأة صراعاً استعمارياً على الأرض، وحدث أن بعثتين ألمانيتين هما (جوهانيس لودويك كرابف وجوهانيس ريسمان) كانتا أول بعثتين أوريبتين تستكشفان وسط شرق إفريقيا من جانب المحيط، وقد عادت بدراسات عن (كليمانجورو وكينيا) وكان ذلك مع أشياء أخرى من قصتهما قد أجاج خيال الناس على الرغم من عدم التصديق الواسع عن دراستهما، وبين سنوات (١٨٦٢ - ١٨٦٩م) استكشف السيد (جيرهارد روهيفيس) الأرض إلى الشمال من مرتفعات شرق إفريقيا، ومن سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٤م استكشف السيد (قوستاف ناختيقال وآخرين) السودان ما بين بحيرة تشاد والنيل، وبين سنة ١٨٦٠ و ١٨٧٢م كان السيد (كارل ماخس) أول أوروبى برتغالى منذ عهد النهضة يستكشف إمبراطورية (مونوموتاباس) المهجورة وقد سبقت البعثات الألمانية كل المبادرات لكنها تركزت فى غرب وشرق وجنوب غرب إفريقيا أما (كرابف ووريسمان)، فكان قد تابع عمله عن طريق البشرية البريطانية أما (تشارلز

نيو) الذى تسلق (كيليمانجارو) إلى أبعد وكاد يقتل فى النهاية من طرف (الماساى)، وفى الجنوب بدأ الدكتور (ليفيد ليفينقستون) رحلته اللانهائية كمبعوث طبيب وجغرافى مبكراً فى سنة ١٨٤٢م، وقد تزوج من ابنة مبشر وداعية مشهور آخر يدعى (ماريو مافات)، وقد ماتت زوجته مبكراً أما (ليفينقستون) نفسه، فقد رأى أن ينهى حياته فى إفريقيا حيث اجتاز (كالاهارى) مرتين من سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٦م واستكشف المناطق العليا من (زامبيرى) وفى سنة ١٨٥٢م سافر من (كيب تاون)، حيث وصل مناطق الجداول العليا من (لولايا) الكونغو الأعلى مسافراً من الساحل الغربى إلى الساحل الشرقى ليشاهد بحيرة (ماء العين) الشهيرة وهى التى سماها شلالات فيكتوريا، وفى سنة ١٨٥٨م كان قد عين فى وظيفة قنصل صاحبة الجلالة فى الساحل الشرقى والدواخل غير المستكشفة، حيث قاد بعثة للتحقق من إمكانية الملاحة فى (زامبيرى السفلى)، وهو الواجب الذى شغله إلى سنة ١٨٦٤م وفى سنة ١٨٦٦م، ثم سافر هذا الدكتور الإسكتلندى الجرىء مرة أخرى؛ ليستكشف الأراضى الواقعة بين بحيرات (نيازا وتانجانيقا)، وقد تسمت مدينة المنطقة بعد (ليفينقستون الأسكتلندى) باسم مدينة مولد ليفينقستون، وخلال رحلته تلك ترافق مع فريق عربى يمارس تجارة الرقيق على أن مجمل الاكتشافات فى إفريقيا ترجع إلى قدرة وتحمل هذا الرجل؛ حيث إنه استكشف مساحات واسعة جداً وهو يعانى من المرض والتعب والألم، ولقد اختفى عن العالم الخارجى خلال رحلاته تلك لعدة سنوات إلى أن اكتشف من طرف صحفى مراسل لجريدة أخبار نيويورك المدعو (هينرى ستانلى) فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧١م، وأبلغ هذا الصحفى عن أخبار (ليفينقستون) وهزيمة فرنسا فى (سيدان) وأشياء أخرى حدثت، بينما هذا الهائم ضائع كالفراشة المجهولة، وقد غادر الرجلان من المكان الذى التقيا فيه (أجيجى) صاعدين مع البحيرة إلى منطقة تبعد حوالى عشرة أميال جنوب (ماروندى الحالية) عاصمة (يوسومبورا)، حيث افترقا إذ عاد الصحفى ستانلى إلى الساحل، أما ليفينقستون فقرر أن يستمر ليستكشف (لولايا) التى كان يعتقد أنها النيل وعندما مات (ليفينقستون) سنة ١٨٧٣م نقل

جثمانه إلى الساحل وكان السيد (فيرنى لوفيت كامرون) الذى رافق (ليفينقستون)، وساعده فى أبحاثه قد وصل زنجيبار فى ديسمبر سنة ١٨٧٤م حيث علم بوفاة (ليفينقستون)، بينما كان فى رحلته عبر المنطقة ولهذا استمر غرباً حيث وصل (بينقويلا) سنة ١٨٧٥م، وهكذا فهو ربما كان أول رجل أبيض يعبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب، أما رحلة ستانلى لعلها كانت أشهر استكشاف معروف لأى إفريقى، وفى سنة ١٨٦٩م كان السيد جيمس قوردون بينيت صاحب جريدة الأخبار قد قال لستانلى وهما فى باريس إنه يطلب منه أن يقوم بتغطية أخبار افتتاح قناة السويس، ومن هناك عليه أن يتجه إلى الهند ثم إلى إفريقيا ليجد الدكتور (ليفينقستون) الذى يقوم بذلك العمل المثير، مما جعله يستقر فى زنجيبار خلال شهر يناير ١٨٧١م مقيماً مع القنصل البريطانى، بينما كان يعد لرحلاته القادمة إلى (باقامويو) على الجبال، ومن هناك غادر برفقة بحار بريطانى وآخر أمريكى يدعى (قودهيو) وهو من المقيمين فى زنجيبار إضافة إلى عدد من الحمّالين وكانت هذه البعثة من أكثر البعثات استعداداً، ولأن ستانلى معتاد على الرحيل، فقد كان يحمل أنواعاً من الأغذية الممتازة وأنواعاً من المشروبات، وقد مضت مدة طويلة قبل أن تبدأ هذه الرحلة بتسجيل ملاحظاتها، حيث مات فى الطريق المرافقون البيض، أما أغلب الحمّالين الذين معه فقد مات البعض منهم والبعض الآخر هربوا ولم يبق إلا عدد قليل كانوا مرهقين ومتسخين إلا أنه مع ذلك وصل إلى (جيجى) عند نهاية السنة، وعندما عاد ستانلى إلى أوروبا طلب منه على عجل أن يعود إلى إفريقيا للقيام بأعمال لصالح جريدة نيويورك الأمريكية وجريدة الدايلى تلجراف اللندنية البريطانية بحيث يتابع اتجاه مصب نهر (لوالابا) وما إذا كان إلى البحر ومرة أخرى بدأ الرحلة من (باقامويو) ليستمر تسعمائة وتسعة وتسعين يوماً كلفت حياة مرافقيه الأوربيين ومن أتباعه عدداً كبيراً، ولقد أنجز هذا الرجل أعظم رحلة استكشافية عرفت خلال كل تلك الأزمان وهى الرحلة التى بينت أن (لوالابا) إنما هى الكونغو وأن فى الكونغو ستين شلال ماء تهدد ملاحته مما دفع الملك البلجيكى (ليوبولد) أن يضغط من أجل عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤-١٨٨٥م،

ولقد كانت قصة العبور المدهش من (باقامويو) إلى (بوما) في جنوب الأطلنطى ربما ليس لها ما يوازيها في القدرة الفردية المطلقة في إفريقيا السوداء، حيث إنها من الناحية الثقافية مع أن رحلة ستانلى لا تقارن مع رحلة (بارت) في غرب السودان؛ إذ كانت أكاديمياً وخرائطياً وعسكرياً واستطلاعياً مفخرة، ولكن العقل البشرى قد لا يصدق أن إنساناً واحداً يمكن أن يبقى حياً في أدغال إفريقيا تلك المدة الطويلة، فلقد غادر ستانلى ومساعدوه الأوربيون الثلاثة ومائتان وأربعون حملاً من زنجبار إلى ميناء الجزيرة في ١٢ نوفمبر ١٨٧٤م لتبدأ الرحلة بعد ذلك بخمسة أيام، وكانت محتويات الرحلة تتكون من اثنين وسبعين بالة من الأقمشة وستة وثلاثين جوالاً من الخرز وأربعة حمولات من الأسلاك وأربعة عشر صندوقاً من الأحجار المتنوعة وثلاثة وعشرين صندوقاً من الذخيرة وحمولتين من المعدات الفوتوغرافية وثلاثة حمولات من حقائب الأشخاص الأوربيين وسفينة نهريّة مجزأة منقولة في اثنتى عشرة حمولة وقوارب صغيرة فى ست حمولات وصناديق أدوات صيدلية وعلاج وحمولة معدات طبخ وأكل واثنتى عشرة حمولة أخرى من الأشياء المختلفة، وفى يناير ١٨٧٥م كانت هذه القافلة الكبيرة قد وجدت نفسها فى وسط غابة كثيفة، فصار الرجال يقطعون أعراف وعيدان الشجر لخلق ممرات عبرها فى حين كانوا يعتلون مرتفعات وينحدرون فى منخفضات، وهم يواجهون غالباً بالمحاربين فيموت منهم من يموت ويهرب من يهرب، وفى ١٤ يناير وقعت معركة كبيرة فى منطقة (فيناينا) دمرت فيها إحدى الوحدات العسكرية المرافقة للبعثة الاستكشافية، بعد أن رد المهاجمون على أعقابهم، ومع نهاية شهر كامل وصلت البعثة إلى بحيرة فيكتوريا بعد أن مات أحد الأوربيين المساعدين، وهو السيد (إدوارد بوكوت) بالقرب من الساحل وسرعان ما تبعه الأوربى الثانى (فريدريك باركر)، أما ستانلى وعشرة من البحارة، فقد قاموا بجولة حول البحيرة تاركين (فرانك بوكوك) شقيق (بوكوك) المتوفى فى المكان مع معداتهم، وبعد شلالات (إريون) حيث يفصل النيل عن البحيرة وصل ستانلى ورفاقه (يوسافارا) فى الرابع من أبريل، وقد أدهشه ما رأى منذ البداية فى (كاباكا بمنطقة

الفصل الرابع عشر: زنجبار واستكشاف الجدي في إفريقيا

بوقادا) فقال: إننى أرى فيها ذلك الضوء الذى سيبدد الظلام فى هذه المنطقة الجاهلة، إنه ثمرة أمل (ليفينجستون) فى تنوير وتحضير أكبر وأوسع منطقة من وسط إفريقيا، وهذا صار ممكنا، ولقد رجع ستانلى ليلتحق بمخيم رفاقه فى (كاجيجى) يوم ٥ مايو وهناك علم بوفاة باركر وآخرين، ثم انتقل مع البقية منحدرًا عبر بحيرة فيكتوريا إلى بحيرة تانجانيقا، حيث واجه معارك مع أهل الجزيرة العدوانيين الشيء الذى كان يتوقعه كما حدث له سابقًا عند جزيرة (بومبيرية) وفى ٢٣ يوليو وصل (متيسا) فى منطقة (جينجا) وهناك استقبل بترحاب لم يجده فى غير مصر، حيث كان هناك حرس شرف وعدد كبير من أهل (متيسا) الذين يتطلعون إلى فرص التجارة مع أوربا واتفقوا على أن يزودوا ستانلى بقوة حماية فى رحلته القادمة إلى ما يسمى الآن (بحيرة إدوارد)، وفى البداية رافق ستانلى (متيسا) فى الحرب ضد (وافوما) مقدرا أن قوة (باقاندا) فى حدود مائة وخمسين ألف رجل مقاتل وخمسين ألف امرأة وخمسين ألفًا من الرقيق والأطفال يقودهم (كاتيكىرو) والملك نفسه مع أربعمئة مدفع مجرور وعشرة آلاف بحار، وهناك أربعمئة امرأة مقاتلة، ولقد أثبتت القوات البحرية التابعة (للوالوفا) فى البداية قدرتها، ولكن مع ستانلى كمستشار استراتيجى الذى لم يكن متوقعًا بدأت الأمور تتجه إلى النصر، حيث قام ستانلى خلال فترات توقف القتال بترجمة الإنجيل لرجال (متيسا)، ولقد كسب مقاتلو (الباقاندا) البحيرة فى ٢١ سبتمبر ولكن فى اليوم التالى ردوا بشكل حاسم، وكان رأى ستانلى فى رجال (متيسا) غير واضح ولهذا كتب يقول: إن رجل (المتيسا) كالطفل لا فائدة من نصحه لأن أى فرد من الأرقاء أو غيرهم مجرد أن ينافقوه يصبح مغفلاً يقبل أى شيء بينما (الواقوما) يستحقون كل إشادة لشجاعتهم وإقدامهم فى حين أن (الواقاندا) من وجهة نظرى محتقرون، ثم تنبه فى اليوم التالى فكتب يقول: لقد كتبت ملاحظات جيدة عن (المتيسا) لكننى فيما بعد أدركت أننى كنت على خطأ فى ذلك، وفى يوم ١٢ أكتوبر اعتنق (متيسا) المسيحية، وبعد يومين استسلم (واقوما)، وفى اليوم التالى قبل الفجر أحرق (متيسا) (ناكارانقا)، ثم غادر إلى عاصمته القديمة فى (أولاقيلا) ومرة أخرى يسجل ستانلى إعجابه (بكابالا)، حيث قال

في ٨ نوفمبر ١٨٥٥ م: إن (متيسا) يظهر لي أنه أذكى إفريقي يستخدم ذكاءه إلى أقصى حد الشيء الذي لم ألاحظه عند رجل في إفريقيا أو خارجها كما أن ثقافته عالية، والواقع أنه يحب المداينة وهي واحدة من مناطق الضعف، كذلك فهو من محبي النساء على أنني أعجبت بقوة شخصيته فهو إذا أشار بإصبعه فإن الزعماء الأقوياء الثلاثة يقعون على ركبهم ليتشرفوا برضاه، وحتى إنه إذا ما ابتسم فإن كل الحضور يتسمون، وإذا ما تجهم فإن وجوه الجميع يعلوها التجهم، وإذا ما صاح فإن الجميع ينكفون على الأرض ويقسمون أنهم على استعداد أن يرفعوه إلى القمر إذا هو رغب^(١) وهؤلاء عادة ما يقبضون على السباع والنمور والتماسيح ويأتون بها حية إليه، ولقد زود (متيسا) ستانلي بعدد ألفين من الحراس لمرافقته في رحلته عندما قرر أن يغادر الأراضي الصديقة في (بوقاندا) إلى منطقة غير صديقة في (بونويورو) يوم ٢ يناير ١٨٧٦ م، ولكن في ١٢ يناير حدث أنه عندما توقفت القوة المرافقة له قرب بحيرة (أدوارد) حوصرت من طرف رجال القبائل المعادية، وكان عليها أن تقاتل بحيث تتمكن من فك الحصار والعودة إلى (بوقاندا)، أما ستانلي ورجاله فقد غادروا بعد فترة متجهين إلى الجنوب الغربي نحو بحيرة (تالنجانيقا)، حيث توقفوا بعد مسيرة في عاصمة (كافورو) التي كانت تواجه تهديداً من توسع مملكة (رواندا)، ثم غادر (ستانلي) كافورو في أول شهر مارس، وعلى الرغم من أنه كان يعاني من مرض الحمى، لكنه مازال مصراً على الوصول إلى بحيرة (تالنجانيقا)، وفي ١٠ أبريل كان قد لاحظ أن الحد الفاصل بين ملتقى النيل مع الكونغو يتسع حوالي ميلين من الجانب الآخر، وتلك الملاحظة تعني أن (لوالابا) هي الكونغو، وفي ١١ يونيو بدأ ستانلي الإبحار حول بحيرة تالنجانيقا مستكشفاً وضع رجال القبائل، وفي ٢٠ يونيو مر عبر قرية فوجد أن كل ما فيها عدا عدة أكشاك قد حرق، وأن الناس قتلى في الشوارع، والجماجم تندرج تحت الأقدام، والدماء جافة تلتخ الحيطان، الشيء الذي أوضح ما يمكن أن

(١) النفاق ليس غريباً على مجتمعات العالم الثالث منذ ذلك الوقت وإلى الآن ذلك أن القانون يتمثل في لسان الحاكم الملك أو القائد أو الزعيم أو السلطان... إلخ. المترجم.

ينتظر هذه البعثة، وقد نهب رجاله بعض الأشياء الباقية فى البلدة، أما ستانلى الذى كان مهتماً بالحيرة فقد وجد أن مياهها عالية، وفى اليوم التالى ٢٩ يونيو حدث هجوم من طرف رجال قبيلة معادية، لكن ستانلى رد بإطلاق النار فقتل البعض وعاد إلى (يوجيجى) يوم ٣١ يوليو، وكانت سنوات التعب والإرهاق الاثنتان اللتان عاشهما ستانلى كانتا مقدمة لسنة أخرى مرعبة، بدأها عندما غادر (يوجيجى) فى ٢٥ أغسطس ١٨٧٦ م عبر أرض كان (ليفينقستون) أو كامرون لم يكتشفها وهى منطقة (نيا نقوى) وتبعد سبعة وثمانين ميلاً فى اتجاه الغرب من البحيرة، حيث واجه يوم ١٨ أكتوبر جماعة القائد العربى المشاغب تاجر الرقيق فى إفريقيا الوسطى المدعو (حمد بن محمد) المعروف جيداً فى التاريخ، وقد وصل ستانلى إلى اتفاق معه بحيث يصطحب البعثة عبر الغابة المطيرة التى تحيط بالمنطقة والتى تواجه البعثة فى اتجاه الغرب، وكان على ستانلى من هنا أن يتبع (لوالابا) إلى البحر ليستكشف ما إذا كانت الكونغو أو ما إذا كانت كما اعتقد (ليفينقستون) أنها النيل، وكتب يوم ٥ نوفمبر ١٨٧٦ يقول: بدأت الرحلة من (نيا نقوى) شمال شرق إلى (ناكاسيمبى) مركز (نيا نقوى) سيراً لمسافة تسعة أميال ونصف خلال ثلاث ساعات ونصف الساعة، وكان حمد بن محمد وإلياس ميتولا مصحوبين بحوالى خمسمائة من الناس وأكثر من مائتين من المقاتلين مضافين إلى مجموعتنا مما يكون قائمة من حوالى سبعمائة، وكان حمد بن محمد عربياً مغامراً مقدماً دخل مناطق إفريقيا كلها وبدونه ما كان يمكننى أن أوفق فى عبور بلاد خطيرة بها قبائل مزعجة، وأنا الآن أعتقد اننى سوف أقوم باستكشافات ثمينة متقدماً من (نيا نقوى) فى اتجاه الشرق، وفى ١٩ نوفمبر حدث أول اتصال مع (الواقينيا)، ومن هناك بدأ ستانلى وبعض مرافقيه الشجعان الإبحار عبر النهر الخطير بواسطة قارب، بينما سار بقية المرافقين برّاً، وقد حدث القتال مرة أخرى فى منطقة النهر وكان على البعثة أن تقاتل يومياً من أجل البقاء، وكذلك فى مواجهة الأمراض والمعوقات، وقد كتب ستانلى يقول، اليوم اعتقدت أننى يمكن أن أمر دون قتال لكن المعارك صارت شديدة ومع ذلك فقد أنجزت المهمة، وكانت الرحلة

مفيدة وبعد فترة من الراحة بدأت رحلة ستانلى الثالثة إلى إفريقيا، وهذه المرة كانت لخدمة ملك بلجيكا، وأذكر أننى قابلت سنة ١٩٦١م (المؤلف) ثلاثة رجال كانوا فى أعمار الثمانينيات والتسعينيات وهم ممن خدموا مع بعثة ستانلى فى ذلك الوقت كحمالين، وعرفت أن ستانلى عاد للمرة الرابعة إلى إفريقيا لإنقاذ الشخصية الألمانية الرومانسية أمين باشا أى الدكتور (شيتزر) الذى كان يعمل مع الجنرال (غوردون) فى السودان^(١) وكان هذا الدكتور قد طرد من الخدمة عندما قتل الجنرال غوردون^(٢) وقد وجده ستانلى على الحدود بين أوغندا والسودان ولم يكن راغباً فى المساعدة (الإنقاذ) ومات أخيراً فى ظروف غامضة دون أن ينجز هدفه العزيز فى إنشاء إمبراطورية ألمانية على أطراف النيل، وهنا عاد ستانلى إلى بريطانيا، حيث استعاد الجنسية البريطانية وصار عضواً فى البرلمان، وفى فترة متقدمة قام (ريتشارد بورتون) ببحث جغرافى رائع فى الشمال ومعه رفيقه (جون سبيك) وهو ضابط من الجيش الهندى الذى سار معه فى بعثته الاستكشافية إلى الصومال سنة ١٨٥٤م، وفى السنة التالية اشتركا فى حرب القرم^(٣) وفى سنة ١٨٥٦م وصل (بورتون وسبيك) زنجيبار حيث اتجها لاستكشاف بحيرة المنطقة، لكن مرض الحمى أوقفهما فعادا إلى الساحل حيث قاما فى يونيو

(١) غوردون تشارلس جورج (١٨٣٢ - ١٨٨٥م) قائد وإدارى بريطانى اشترك فى حرب القرم ثم فى حرب الصين سنة ١٨٦٠م، واشترك فى الاستيلاء على بكين، تولى قيادة الجيش الصينى الذى أنفذ لقمع ثورة (ليبينج)، عينه الخديوى إسماعيل حاكماً عاماً على السودان (١٨٧٣ - ١٨٨٠م)، وبعدها عاد ليتولى إجماع الجيش المصرى من سنة (١٨٨٤ - ١٨٨٥م)، لكن قوات المهدي حاصرت الخرطوم لمدة عشرة أشهر، ثم استولت عليها، وقتلت غوردون الذى كان يعرف باسم (غوردون باشا) وكان مقتله عاملاً كبيراً فى سقوط الحكومة البريطانية برئاسة جلادستون سنة ١٨٨٥م. المترجم.

(٢) لم يذكر المؤلف من قتل الجنرال غوردون ولا أسباب قتله ربما؛ لأنه لم يرد أن يعطى هذا الشرف لمحمد بن عبدالله المهدي الذى قاد تلك الحرب وحرر بلاده من الإنجليز وقتذاك. المترجم.

(٣) حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦م) وكذلك فى الحرب الأهلية الروسية، وصارت القرم الملجأ الأخير للروس البيض، أى الجيش الذى حارب ضد الثورة الروسية، أعلنت جمهورية سوفيتية استقلالاً ذاتياً سنة ١٩٢١م، ثم ألغى ذلك الاستقلال خلال الحرب الثانية، وطرد ستالين منها الشعب التتارى الذى اتهمه بمساعدة الألمان، تقع على الساحل الشمالى للبحر الأسود جنوب روسيا الأوربية وفيها يالطا التى اشتهرت باجتماع القادة الكبار أثناء الحرب العالمية الثانية الذين قرروا تقاسم العالم (ستالين وتشرشل وروزفلت). المترجم.

١٨٥٧م بعمل أدى إلى استكشاف منبع النيل، وقد نشر الخبر سنة ١٨٦٤م وهذا الاكتشاف قدم أول وصف للحافة القائمة بين النيل ومصب مياه الكونغو وهو أول اكتشاف يؤكد أنه لا يجرى أى نهر شمالاً من بحيرة تانجانيقا، وفى هذا الوقت مرض (بورتون) بينما استمر (سيبك) منفرداً ليجد بحيرة (أو كيربوى) التى أطلق عليها اسم بحيرة فيكتوريا، وفى نهاية شهر يوليو ١٨٥٨م قيل له: إن هناك نهراً عظيماً لابد أن يكون النيل ينبع من البحيرة فى (جينجى)، ولهذا فقد توقع أن البحيرة هى مصدر النيل وتلك خطيئة غير مفهومة عادة تتردد فى الأدب الحديث، والواقع أن المصدر يقع جنوب البحيرة أى بمنطقة الربيع المخصّب فى موقع يسمى (بورورى فى بوروندى)، واكتشاف (سيبك) للبحيرة والنهر العظيم الذى لابد أنه النيل الذى ينبع منها كان له أثر جغرافى عظيم على الرغم من أنه أثناء عودته إلى بريطانيا قوبل بعدم التصديق المعتاد من طرف أولئك الذين يستكشفون وهم جلوس على المقاعد ولذلك لم يحظ اكتشافه بما يستحق إلا أنه كتب يقول، لم أشعر بأى شك أن تلك البحيرة التى أمامى هى والددة ذلك النهر المهم وهى المصدر الذى كان مشار كثير من التصورات وكان موضوع كثير من المستكشفين، وكان (بورتون) منزعجاً جداً بشأن مهمة البعثة الاستكشافية، وسمح لنفسه بأن يشك فيما إذا كان (سيبك) قد وجد النيل، وهكذا عاد سيبك إلى إفريقيا سنة ١٨٦٠م مع زميل هو ضابط من الجيش الهندى اسمه (جيمس قرانت) وقاما بأصعب رحلة عبر بعض الأراضى، وقد تحمل سيبك المرض أكثر من رفيقه حيث وصل وحده بلاط (متيسا) ملك (كاباكا فى بوروندى)، وجاءت مذكراته فى فبراير سنة ١٨٦٢م أعظم نموذج فى ثقافة الاستكشاف، وربما هى أعظم ما عرف عن الناس فى (بوقاندا)، وفى هذا الوقت غادر سيبك ليطلع على تدفق النيل من بحيرة (فيكتوريا نيانزا) وقال: إن ذلك كان أجمل شيء يراه فى حياته ولا شيء يمكن أن يمثله، فهناك التماسيح والأسماك وأكواخ الصيادين المقامة من القش تتوزع حول النهر، وأضاف لقد طلبت من رجالى أن يحلقوا رؤوسهم ويسبحوا فى النهر المقدس مهد النبى موسى، ونجد سيبك يقول لنا فى مجلته (مجلة اكتشاف مصدر

النيل) شيئاً عن ماء العين الآخر الجميل الذى أطلق عليه اسم (شلالات ريون) نسبة إلى اللورد ريون عضو الجمعية الجغرافية الملكية، وكان السيد (صمويل هوايت بيكر) المستكشف الغنى الذى غادر القاهرة فى ١٥ أبريل ١٨٦١م ليستكشف النيل الأبيض، وقد أخذ زوجته معه السيدة (بيكر) لكنهما عطلا لبعض الوقت فى الخرطوم من جانب السلطات المصرية، وبعد بعض الوقت غادرا فى اتجاه الجنوب يوم ٣ يناير ١٨٦٣م يرافقهما بعض السباحين الذين ربطوا حبلاً فى جذوع أشجار النهر ليتمكنوا من جر قاربهما ضد الرياح الجنوبية العاتية، وخلال السفر التقيا (سيك وقرانت) فى منطقة (قوندوكوتو)، ومن هناك غادر بيكر ورجاله على ظهور الإبل إلى (فيكتوريا نيانزا) غير أن السيد بيكر بعد تجربته مع القارب كانت، إما يمشى على الأقدام أو أحياناً يركب على ظهر ثور، وصل ستانلى ورفاقه المكان الذى يسمى الآن (نيل فيكتوريا)، وكانوا فى حالة إرهاق شديد، وهنا يقدم بيكر وصفاً ممتعاً عن (بونيورو) وهى المملكة التى لم تذكر فى تاريخ أوغندا الحديث وكان الحماليون قد هربوا فى وقت انهار فيه بيكر وكان يهذى ومع ذلك فإن كآبة المجموعة قد زالت مؤقتاً باكتشاف البحيرة الكبيرة التى أطلقوا عليها اسم (البرت نيانزا) وكتب بيكر يقول: كان الطريق إلى البحيرة متعرجاً وحاداً وكنت قد تقدمت وأنا أتشبث بعيدان الخيزران القوية، أما زوجتى فقد كانت مرهقة جداً وهى تترنح فقامت بمساعدتها وهى تتكىء على كتفى وكنا نتوقف بين الحين والآخر، وبعد الهبوط المتعب خلال مدة تزيد على الساعتين مع ضعف فى الجسد بسبب مرض الحمى الذى لازمنا لوقت طويل لم يكن هناك إلا الرغبة فى النجاح التى قوت عزائمنا حتى وصلنا السفح الواقع تحت المنحدر، وبعدها سرنا لمدة ساعة تقريباً إلى أن وصلنا حافة مجرى المياه، ولقد اندفعت أنا فى البحيرة بسبب العطش والتعب والحرارة وقلبى تملؤه السعادة عندما شربت من ماء مصدر النيل، وعاد بيكر كما يقول مستخدماً قاربه عبر البحيرة إلى فيكتوريا إلى (بونيورو) وأخيراً عائداً إلى (قوندوكورو)، وإلى القاهرة ثم إلى إنجلترا، وفى (قوندوكورو)

واجه بيكر نفس الشكوك تقريباً من جانب كل المستكشفين الكبار، ومع كل ذلك كتب يقول: لقد جلست تحت شجرة، وكنت أنظر إلى أسفل ملقياً نظرة على النيل العظيم الذى يتدفق ماؤه تحت أقدامى متأملاً ما فات من مقدار كدحى حيث كنت أحث الخطى متابعاً النيل إلى مصدره العظيم، حيث ظهرت أمامى تتلاًلاً جداوله، وهنا أحسست بأن اللغز الذى كان غامضاً قد انكشف والذى كنت أنظر إلى مياهه برهبة قد زرت مهده، وأذكر أننى قضيت سنوات عمرى أحلم بأهمية هذا الاكتشاف كما كنت أتذكر ذلك السؤال المهم الذى كان يطرحه كومورو زعيم (لاتوكا) وهو يقول: نفرض أنك وصلت تلك البحيرة العظيمة فماذا ستفعل بها؟ وإذا عرفت أن النهر يتدفق منها فماذا بعد؟

وبعد هذا الكشف العظيم عاد بيكر إلى المنطقة ليقود حملة الخديوى العسكرية داخل السودان حيث كانت خطة خديوى مصر أن يوسع حدود بلاده إلى الجنوب من (كوندوكورو) أى إلى ما يعرف الآن بشمال أوغندا، وعندما رافق الجنرال غوردون بيكر كمسئول عن المحافظة الاستوائية المصرية عرف أن فرص التوسع من جانب المحيط الهندى أنسب مما كان متوقعاً من الشمال، ولهذا فإن الخديوى إسماعيل بناء على نصيحة الجنرال غوردون أرسل قوة بحرية لتحتل ميناء (كيسمايا) ولكن إذ كانت هذه ضمن حدود ملكيات سلطان زنجبار حدث أن مورس ضغط بريطانسى دبلوماسى على الخديوى أدى إلى انسحاب قواته، ومن جانب الشمال كانت طرق المواصلات طويلة، وحاول غوردون أن يجعل (بوقاندا وبونيورو) تحت سلطة القاهرة، لكنه فشل، وبذلك ترك المشروع نهائياً سنة ١٨٧٧م، وحدث أنه خلال سنة ١٨٨١م وبرز المهدي فى السودان وضع نهاية لحكم مصر فى السودان ككل، وأيضاً نهاية لقيادة غوردون نفسه، ثم قاد أحد المعاصرين لبيكر وهو السيد (جوزف تومسون) رحلة طويلة إلى البحيرات، وكان حظه مثل كل الرحالة فى تلك الفترة وعمره اثنتان وعشرون سنة؛ إذ واجه مشاكل مع مجبى الحرب قبائل (الماساى) وحدث له مثل ما

واجه أغلب المستكشفين الإنجليز، وكان (أمين باشا وكايتانو كاساي) وهما اثنان من المتعثرين من ألمانيا وإيطاليا قد أظهر الكثير من الشجاعة ودقة الملاحظة فى سفرهما عبر شرق ووسط إفريقيا وأنجزا كتاباً يظهر تلك القدرات، وكان الألمانى من جماعة نصرة الطبيعة، وكما سبق ذكره فقد كانت بعثة ستانلى من أجل إنقاذهما أى (أمين وكاساي) على الرغم من أنه عندما وجدهما يوم ٢٣ أبريل ١٨٨٨م كان هو نفسه فى وضع أكثر سوءاً منهما، وكان موت الألمانى بعد ذلك بقليل يعتقد حسب قول بعض الباحثين: إنه كان انتحاراً، وبعد ذلك قام كل من الكونت (صمويل تيليكي فون أزميك) وهو من المجر والملازم (لودويق فون هونهيل) وهو من النمسا باستكشاف ما يعرف الآن بشمال كينيا خلال سنوات (١٨٨٧ - ١٨٨٨م) واكتشفا بحيرات (رودولف وستيفانيك)، ولقد استمرت الحكومة والمستكشفون يداً بيد مع الرحالة من مؤسسة (فريدريك ديلتوى) الذى كان يرى إمكانيات الاستقرار والتطور فى شرق إفريقيا، ولقد كتب (لوقارد) إلى (قروفل) سنة ١٨٩٣م يقول: إنى على قناعة أن يد المؤسسة ممدودة للرحمة، وأن ما تقوم به إنما لإنقاذ كثير من الأنفس، واليوم يتفق أغلب المؤرخين محليين وأجانب فى إفريقيا مع ما قاله (لوقارد) على الرغم من أن البعض ربما يستاءون من كلماته الصريحة ذلك أن هذا الرجل يرى أن القوة والسرعة هى الفاعلة فى الفوضى الإفريقية، وفى بداية التسعينيات تجول هذا الضابط الصغير على نطاق واسع لمدة سنتين عبر كينيا الحديثة وأوغندا رفقة سودانيين ومقيمين محليين، وترحل أيضاً على نطاق واسع مع قبائل (الكيكويو)، ولقد أعجب بأوغندا كما وقع اتفاقات مع ملوك وزعماء وقام ببناء قلاع وجهاز مناطق للاستعمار، حيث كانت بريطانيا وقتئذ تأمل فى ضم إفريقيا إلى إقطاعياتها الإمبريالية، ولقد كانت حظوظ وتجارب هذا الضابط الصغير تعكس التطور السياسى فى تلك المرحلة وكان (فريد لوقارد) قد ولد فى مدراس سنة ١٨٥٨م لوالد كان مديراً لشركة الهند الشرقية، وقد توفى سنة ١٨٦٥م بعد سنة من عودته إلى بريطانيا، وهكذا تربى فريد بإشراف

والدته، وكان قد تقدم للخدمة المدنية ولم يوفق لكنه نجح فى كشف الخدمة العسكرية سنة ١٨٧٧م وخدم فى منطقة (باشاور) على الحدود الشمالية الغربية، ثم فى مصر بعد مقتل الجنرال غوردون، ثم فى بورما، وكان عشقه للترحال قد جعله رجل المهمات الذى يذكره التاريخ، كما أنه كان قد حاول فى مرات عديدة من روما ومن (ماساوا) أن يلتحق بالقوات التى تقاتل فى الحبشة لكنه رفض، ولذلك أبحر إلى زنجبار، وكان أول عمل له فى إفريقيا مع شركة البحيرات حيث كلف بحماية منشآت بحيرة (نيازا) من هجمات العبيد، مما أتاح له التنقل فى مختلف مناطق إفريقيا واكتساب المزيد من الخبرة والشهرة.



إثيوبيا:

تاريخ إثيوبيا فريد فى إفريقيا فالملكة (ماكيدا) كانت الحاكمة الأسبق للمملكة الجبلية التى فرضت سيطرتها من حدود أراضي (أكسيوم) إلى ما يساوى تقريباً أى أغلب أراضي إثيوبيا الحديثة إضافة إلى جزء من اليمن الحديث عبر البحر الأحمر حيث بدأت ملكة سبأ (بلقيس) الشهيرة رحلتها من أكسيوم فى اتجاه الشمال إلى القدس لتختبر حكمة سليمان الذى خدعتها أسطوره ولتنام معه بحيلة دبرها، ولذلك فإنه منذ حدث هذا التوحد صار ملوك إثيوبيا يدعون (زورا) أنهم ينحدرون من ذلك الأصل ويحمل التوراة شهادة على (ماكيدا) ورحلتها إلى سليمان الذى يتوقع أنه طلب منها ألا تمس شيئاً من ممتلكاته فى القصر مما لم يقدم لها لكنها نهضت ليلاً بعد عشاء كثير التوابل لتشرب بعض ماء غير معروض، ويفترض أن الملك اليهودى الذى كان يقضى الجزء الأول من الليل نائماً مع خادمة الملكة (ماكيدا) الزنجية، ثم نام معها لأنها خالفت الوعد الذى أخذه على نفسها، وهكذا حملت هى وخادمتها فى وقت متقارب، وتقول الأسطورة: إن (ماكيدا) جعلت ابنها من سليمان ويدعى (مينليك)

الأول ملكاً أثناء حياتها^(١) ولهذا فإن أباطرة إثيوبيا مازالوا يحملون لقب (أسد قبيلة يهودا الفاتح)، ولم يبق شيئاً من الشهرة السابقة لإكسيوم اليوم غير الحجارة الشاهقة (أبيليسكس) المنحوتة من الكتلة الوحيدة لجبال (كلية الوجود) التى تأثرت سابقاً باليهودية والإثيوبية، ولم يكن مفاجئاً أن تصبح مسيحية خلال القرن الرابع عشر الميلادى والشكر فى ذلك للبعثات البيزنطية وهى باقية اليوم كموقع قبلى قوى، وكان ظهور الإسلام قد تجاوز إثيوبيا وجعلها منعزلة فى مكانها فلا هى واجهت غزواً دائماً ولا حققت تقدماً، وهى بلاد مترامية الأطراف جبالها ملهمة رائعة ووديانها خصبة خضراء تزخر بأنواع البلبل والسباع وتاريخها يمثل بانوراما زاخرة فى الغرابة بلغتها المكتوبتين، وهى مقسمة بين لصوص بارونات إلى سنة ١٨٥٥م، وعندما تولى الإمبراطور (ثيودور ديميتد) كان وصول أول الأوربيين إلى إثيوبيا هم من قباطنة الإغريق على عهد بطليموس الثانى وبطليموس الثالث فى مصر خلال القرن الثالث الميلادى، حيث أسسوا مراكز ساحلية للتجارة باستثناء (ماكيدا) التى ذكرتها التوراة، ولقد أشارت بعض الكتابات فى أكسيوم إلى الملك المعاصر (إيزاناس) ابن (أيلاميدا) والقليل من أساطير باقية من بداية السلالة الإثيوبية، وكانت تلك الكتابات

(١) سبأ هى دولة ظهرت فى شرق اليمن أى فى المنطقة المعروفة الآن باسم صرواح ومارب فسمى البلاط باسمها وإليها تنسب الحضارة واللغة والديانة السبئية، وقد ورد ذكرها فى التوراة (كما ذكر المؤلف) فى قصة زيارة ملكتها لسليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولقد استمرت حضارة السبئيين فترة طويلة رغم انتقال العاصمة إلى مناطق أخرى، وبقيت لبلاد سبأ أهميتها طالما كان سد مأرب باقياً يودى وظيفته، وظلت للعاصمة مأرب مكانتها كمركز تجارى وثقافى هام فى جنوب الجزيرة العربية حتى قبيل الإسلام عندما تهدم السد ولم يهتم به وترميمه أحد، وعلمت أخيراً أن المرحوم الشيخ زايد آل نهيان قد تكفل بالصرف على ترميم السد أخيراً، كذلك فإن القرآن الكريم يؤكد مجيء تلك الملكة إلى الملك سليمان بالنص القرآنى فى سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الآيات ٣٠-٣٦-٤٤) النمل. المترجم

باللغة الإغريقية والجيزية والسبئية (لغة اليمن) وهى تحمل الشهادة الشمولية الحقيقية أو النظرية عن المملكة وعن (اليمن) وكيف حول البيزنطيون الإثيوبيين إلى المسيحية، وفى القرن السادس الميلادى كان ملوك الأحباش والأكسيوم باعتبارهم الملوك الأوائل يقومون بإرسال بعثات إلى بحيرة (تسانا) كل سنة بعد أخرى للتجارة بالماشية والملح والحديد مقابل الذهب بطريقة المبادلة، وفى هكذا حالات تقوم بعثة أكسيوم برحلاتها وهى مسلحة اتقاء هجمات اللصوص وغالبًا ما تتأخر الرحلة بسبب الماشية، لكنها عادة ما ترجع إلى أكسيوم وهى تحت الخطى لاستباق موسم الأمطار، كذلك خلال القرن السادس أرسل (جوستينيان) السفير (جوليانز) إلى البلاط الإمبراطورى من أجل تطوير التجارة، وقد ذكر هذا السفير أن الملك يظهر عارى الصدر حافى القدمين ملابسه مخططة بالذهب مع أساور ذهبية وياقة ذهبية، وعندما يظهر فى تنقله فهو يركب عربة بأربع عجلات مطلية بالذهب تجرها فيلة غالبًا عددها أربعة ويتقدمه فصيل من سلاح الفرسان المصرى الرومانى وهو يحمل درعًا مذهبة ورماحًا مذهبة، وحدث أنه أثناء مثل السفير (جوليانز) أن عزفت المزامير، وكانت الكنيسة الإثيوبية الأصلية مع الرومان التجار المتجولين قد استعملت اللغة الإغريقية فى حين أن اللغة المحلية قد استعملت مع بداية القرن الخامس، وكاثوليك إثيوبيا كانوا إلى وقت قريب تحت رعاية الكنيسة القبطية فى الإسكندرية، وأن أقباط إثيوبيا مازالوا يحافظون على الصيام القبطى الطويل بما فى ذلك العشرة أيام الإضافية للصوم الكبير ويتبعون قداس (ست بارك) وكما فى إنجلترا الكنيسة تعتقد وتتبع طقوسًا وثنية سابقة بما فى ذلك ذبح ثور ونعجة وعنزة كتكريس للكنيسة حيث تدق الطبول والرقص، أما أقباط إثيوبيا فيتبعون الخرافات الغذائية اليهودية المتعلقة باللحوم ويحافظون على السبت كיום مقدس كما هو الحال بالنسبة للأحد، وحدث أن اتصال الإثيوبيين بالعالم الخارجى قد انقطع خلال القرن الثامن نتيجة لاحتلال العرب للخط الساحلى وجزر البحر الأحمر ولم يعود إلا بعد عدة قرون، وفى سنة ١٢٧٠م كان قد أطيح بالحكم (الزاقوى) بواسطة مدعى يقول: إنه من سلالة سليمان والملكة (ماكيدا) وقد فرض هذا إصلاحًا

ثقافياً وبعد قرنين أخذ (زارا ياكوب - ١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) قراراً حرّم بموجبه الوثنية نهائياً وأمر كل إثيوبى أن يضع على جبهته تعويذة مكتوبة باللغة المحلية (الجيزية) تقول: (أنا أنتمى للأب) الابن روح القدس، كما أن التعويذات توضع على الأذرع وهى تقول: (أعوذ بالله من الشيطان أنا خادم السيدة مريم أم خالق الكون)، وكانت المقومة قد منعت والجواسيس صاروا يبحثون عن الوثنيين بأوامر من محقق يدعى (الحافظ على البيت) وهؤلاء الوكلاء الرهبانيون عاشوا فى وضع غريب وهم يتركون شعورهم بلا حلاقة خوفاً من أن يستخدم سحرة العالم الأقفال المخصصة لاختيار العزائم، وعلى آخر عهد (زارا ياكوب) اختفى بعض الخوف وتصلحت الكنيسة القبطية الإثيوبية مع الفاتيكان كما أن (زارا ياكوب) جدد إدارة أكسيوم، وكان مبعوث الفاتيكان السيد (فرانك) ربما هو أول غربى أوربى يدخل أراضى إثيوبيا، وتقول سجلات هذا البلد (إثيوبيا): إنه كان قد واجه حرجاً فى مناظرة دينية بواسطة كبار الأقباط، وفى القرن السادس عشر وصل رسام فينيسى يدعى (برانكاليون) وجمع العديد جداريات الكنيسة، والأسلوب المميز لرسومات الإثيوبيين، ولأنه كان يحظى بشعبية كبيرة فلم يسمح له بمغادرة البلاد إلى أن مات بعد أربعين سنة فى المنفى، وكانت أوربا القرون الوسطى فيها الكثير من الأساطير عن (بريستون جون) هذا الاسم الذى يمكن أن يقارن بما يحدث من ملك إثيوبيا الذى اعتبر حليفاً محتملاً مع المسيحيين ضد بروز قوة الإسلام، حيث إنه عندما وصلت بعض أخبار إثيوبيا إلى العالم الخارجى عن طريق البرتغال عرف أن الملك هو فى الحقيقة إمبراطور للعديد من الممالك الصغيرة، ويحمل لقب ملك الملوك، ومن العادة أن هذا الإمبراطور يسعى للحفاظ على ولاء الممالك التابعة بالزواج من بنات أولئك الملوك، وهو لكى يحافظ على البيت المتعدد الزوجات يعمّده بالمسيحية، وهناك أوكلت مهمة الأمن العسكرى للقوات الإمبريالية حيث يقوم كل قائد بمهمة خاصة، وكان القسيس البرتغالى (ألفاريز) قد أرسل إلى إثيوبيا سنة ١٥٢٠ م ويذكر أن التبرع من مملكة (جوقام) كان يتمثل فى ثلاثة آلاف حصان والعديد من البغال وثلاثة آلاف بطانية، والكثير من

الأقمشة القطنية وثلاثين ألف أوقية من الذهب، ولقد استغرق هذا التبصر عشرة أيام لدى القصر الإمبراطورى وتجاوز زائد الدخل كثيراً احتياجاته، لكنها مع ذلك لم تشمل أى نوع من النقود وكانت مصروفات الملك تتلخص فى الوفاء باحتياجات المحيطين به، وأحياناً يقوم بإعطاء الهدايا للضباط والملوك الآخرين، وهذه عادة فى الغالب تكون متبادلة، ثم إن الهدايا المسرفة تأتى من بطريك الإسكندرية الذى يعين رئيس أقباط إثيوبيا ومن سلطان مصر، والملك يهب كذلك الأديرة والكنائس على أن أغلب الخزائن الملكية تكتنز فى الكهوف والحفر والقلع، والواقع أن الملك يعيش بشكل بسيط لكنه محاط ببهارج القوة حيث يصطحب عند سفره أربعة سباع مربوطة بسلاسل ويركب خلف ستائر مقامة على أعمدة فوق ظهر بغل، وغالباً لا يراه أحد إلا خدمه والمستولون الكبار والعدالة فى بلاطه تقوم على أساس مركزى صارم رغم أن هناك فرصاً للاستئناف لدى حكام المقاطعات فى القضايا الأساسية، وكانت المحاكم الملكية طبقاً لما ذكره القسيس البرتغالى (ألفاريز) تقام فى خيم بها ثلاثة عشر مقعداً تمثل العدالة والمحلين^(١) وفى هذه الخيم يجلس القضاة القرفصاء على الأرض فى مجموعتين ويقدم المدعى القضية، ثم المتهم ويعلن الحارس وهو رجل أمدى عن الكيفية التى ستسير عليها المحكمة، وبعد ذلك يعطى كل قاض رأيه وفى النهاية يلخص القاضى الرئيسى الآراء ويصدر الحكم النهائى والسجناء فى انتظار المحاكمة يكونون مقيدون بالسلاسل، ويكون العقاب مرعباً مثلما هو الحال فى أوروبا وقتئذ على الرغم من أنه فى حالة الأرستوقراطيين، فإن العقوبة بالجلد تكون أكثر تحقيراً من التعذيب، ويقوم رجال السياط وهم أربعة بطرح السجن أرضاً ثم يقومون بالجلد على الأرض، وليس على جسد السجن، وهذه عادة هى نفس طريقة العقاب للقاضى الذى يكون مذنباً، وعلى الرغم من أن الملك يعيش فى وضع نصف انعزالى فإن كل أقاربه الرجال الذين يتوقع أنهم منافسون أقوياء على السلطة يعيشون حياة أكثر انعزالاً حيث ينفون

(١) أسماها المؤلف (المخمينون) وكان علينا أن نضع بدلها كلمة (المحلفون) وهو التعبير الشائع الآن وهو ربما ما كان يقصده المؤلف. المترجم.

إلى قلاع محروسة بشدة مع أسرهم، وبالمقابل فإن نساء وفتيات البلاط الملكي يتمتعن بحرية كاملة، ولقد وجد القسيس البرتغالي (ألفاريز) فضولاً دينياً عظيماً، وحدث له مثلما حدث لسابقه السيد (فانكيش) حيث كان غير قادر على أن يناقش القساوسة الإثيوبيين في المعرفة اللاهوتية وكان من جانبه قد فجع بطريقة الاستحمام عرايا الذي يؤديه الإثيوبيون في مناسبة عيد الظهور، وكانت السفارة البرتغالية قد رحبت بفرصة زيارة الإمبراطور التي نتج عنها استسلام الإمبراطور للكرسى البابوى وتخليه عن (ماساوا) كقاعدة بحرية للبرتغال، وكذلك قاعدتان أخريان وفي المقابل طلب الإمبراطور تزويده بصناع وأطباء كما طلب بعض الرصاص لترميم أسقف كنائسه، وكل هذا تضمنته رسالة من الملك (ليينا دينجل) إلى الملك (مانويل)، وقد صيغت تلك الرسالة بالأمهرية والعربية والبرتغالية، ذلك أن الملك (دينجل) كان في حاجة لحليف كالبرتغال، وفي سنة ١٥١٦م احتل السلطان العثماني (سليم) مصر وخضع له الحجاز، ولهذا فإن الخوف من إمبريالية إسلامية سيطر على المباحثات الإثيوبية البرتغالية، ولكن في سنة ١٥٢٧م عندما عادت البعثة إلى لشبونة لم تكن البرتغال ولا إثيوبيا جاهزة للهجوم الذي جاء من طرف قوة صغيرة منظمة بقيادة أحمد بن إبراهيم الغازي، ولقد تفرقت قوات إثيوبيا وبالتالي فإن خزائن قلاع (إمباسا) نهبت مع تلك الكنائس والأديرة وحدث أن أغلب الإثيوبيين اعتنقوا الإسلام على عجل، على الرغم من أن الملك مع قوة صغيرة مخلصه له استمر يقاوم من الجبال، وفي سنة ١٥٣٥م استطاع أن يهرب برتغاليا كان رهينة ويرسله إلى لشبونة ليقنع الملك بحيث يرسل قوة إنقاذ من الهند البرتغالية ولقد تحرك البرتغاليون ببطء، ولهذا أصيبوا بنكسة عندما استولى العثمانيون على اليمن وعدن بمناطقها الاستراتيجية على البحر الأحمر وغيره ولقد حلت سنة ١٥٤١م قبل أن يتمكن أحد أبناء (فاسكو دا جاما)^(١) من فك الحصار وإنزال أربعمئة رجل على أرض (ماساوا)، ولقد مات الملك (ليينا دينجل)

(١) كما أوردنا في صفحات سابقات فاسكو دا جاما (١٤٦٠ - ١٥٢٤) ملاح برتغالي كان أول أوربي يصل الهند بالبحر (١٤٩٧ - ١٤٩٩) ... إلخ. المترجم .

السنة الماضية وخلفه ابنه (كلاوديوس)، وحاربت القوة البرتغالية لتفتح طريقها من الأعلى عبر الشاطئ بحيث تنضم للقوات الملكية، وبذلك استطاعت أن تقاوم هجومين قامت بهما قوات كبيرة من الجيش العثماني قرب بحيرة (تسانا)، وهذا فى الواقع ما أخر (قاما) إلى الشتاء وأفشل محاولاته فى الوصول إلى مخيم (كلاوديوس) وفى هذا الوقت حصل أحمد على تعزيزات من باشا (زايد) وبذلك هزم البرتغاليين وقتل جنرالهم الجريء، ولكن بعد ذلك واجهت قوات أحمد بك تعزيزاتها المقاومة من جانب قوات (كلاوديوس) ومن جانب فلول قوات البرتغال والقوات الملكية بقيادة والددة الملكة حيث تمكن (كلاوديوس) من توحيد صفوف قواته مع القوات المنهزمة، وسرعان ما صار لديه ثمانية آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان، وفى نفس الوقت استطاع الأحياء من البرتغاليين تصنيع البارود باستخدام ما اكتشف محلياً من السلفور والملح، وقامت هذه القوة بالسير فى اتجاه بحيرة (تسانا)، وفى موقعة شهيرة قتلت أحمد بك نفسه بينما هرب الصوماليون مرعوبين، أما الأتراك فقد قاتلوا إلى أن بقى منهم أربعون فرداً وقد تم طردهم، وأمر الملك البرتغالى أولئك البرتغاليين القلة (مائة تقريباً من الأحياء) أن يبقوا فى إثيوبيا وهكذا فعلوا، وقد تزاجوا مع السكان المحليين، وكونوا بالتالى طائفة عسكرية خلصت منطقة الجزيرة كلياً من المسلمين الغزاة، وكذلك أخضعت الوثنيين الفالاس، ثم باشرت حملة إحياء دينى وثقافى لكن الأتراك أعادوا احتلال (ماساوا)، وصارت إثيوبيا مرة أخرى مقطوعة عن العالم الخارجى، وعند هذا المنعطف فإن الإثيوبيين مع اليسوعيين قد بدأوا مع المدعو (بيرموديس) الرهينة الذى أنقذ إثيوبيا عندما حصل على المساعدة من البرتغال، وقد عاد مع جماعة (دا جاما) وبيرمودير هذا أبلغ كلاوديوس أن (ليبا دينجل) وهو على فراش الموت عينه أباً لإثيوبيا، وعلى الرغم من أن كلاوديوس يعرف أن بيرموديس كان متحلاً ولكن من أجل أن يسد احتياجه الشديد لتحالف برتغالى فقد خضع للسلطة الروحية التى أعلنها هذا الكاثوليكى المزيف، ولقد أصر بيرموديس على أن تتحول الكنيسة الإثيوبية إلى الرومانية، وأن كل رجال الدين

الفصل الرابع عشر : زنجييار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

الأقباط يعاد ترسيمهم وهكذا فإن الخلاف بين كلاوديوس وحلفائه وصل نقطة التصادم، ثم إن الملك منح البرتغاليين بما فى ذلك كلاوديوس مناصب فى المناطق النائية، ثم سرعان ما أرسلت بعثة بابوية حقيقية، وفى هذا الوقت هرب البابا المزيف بيرمديوس إلى لشبونة، ولقد مرت مائة سنة تقريباً قبل أن يخترق إثيوبيا مستكشف آخر هو السيد (صمويل بيكر) وهو رجل إنجليزى ذو لحية كثة ومال وفير، ومع زوجته الشجاعة غطيا كثيراً من المساحات قبل المستكشف (بروس)، وقد وجدا تلك البلاد كما وصفت موحشة وعنيفة (والواقع أنها ماتزال كذلك حتى اليوم موحشة لآى مسافر عبرها بدون سلاح)، وفى الصيف كان على بيكر وزوجته أن يتعدا عن القرى حيث إنه فى هذا الوقت (كما قال بيكر) تكون هناك فوضى على طول كل الحدود، ونحن الآن فى سنة ١٨٦٠م فى الوقت الذى كانت فيه قناة السويس تشق وصارت بريطانيا تبدى اهتماماً بالقوى السياسية فى منطقة البحر الأحمر وما بعدها فى اتجاه ساحل شرق إفريقيا، وكان الوكيل السياسى فى هذا العهد عنصراً هاماً سواء أكانت القوى السياسية المسيطرة على الساحل مسلمة أم غير مسلمة ذلك أنه من الأهمية بمكان أن لا يحدث ما يمكن أن يهدد تدفق النقل البحرى البريطانى الذى سوف يستخدم القناة فى طريقه من إمبراطورية بريطانيا الشرقية الواسعة وإليها ويمكن أن يقال هنا: إن أى انهيار عقلى عضال يؤشر على نهاية مهنة أى إنسان ومع هذا فإن أى عمل معتدل هو فى الواقع قريب من أولئك الذين صارت أدمغتهم بالكامل معتوهة، ولكن هناك فيما يظهر بعض الاستثناءات فى هذه القاعدة وتلك هى السياسة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ناس كانوا عقلياً غير قادرين على أى مسئولية، ولكنهم حافظوا عليها على الرغم من التوقف العقلى، وحتى إنهم فى بعض الحالات عززوا منزلتهم وليس هناك فى الماضى أو اليوم فى بلد أو بلدان لم يكن فى قمة المسئولية مجنون فالملك (ثيودوروز) الذى يرجع إليه تطور إمبراطورية إثيوبيا الحديثة كان عنده خاصية حسنة واحدة أكثر من أى شخص آخر حيث كان صاحب استعراض مسرحى لشكل مجنون كلياً هائجاً معتوهاً يهدد، كذلك (فتيودور) أو كما يعرف بالإنجليزية

(ثيودوروز) كان أسمر ونحيفاً تبرز على ذقنه لحية خفيفة، بينما شعر رأسه يتشكل فى دوائر وقد وصف فى وقت ما بالقول: إنه لو كان أكثر امتلاء فى جسمه لكان يشبه السيد المسيح، ومن المؤكد أن صورته تتفق مع المعالم التى رسمها (جوسيفوس) للسيد المسيح، وفى سنة ١٨٥٣م احتل (امبارا) وبعد سنتين احتل أغلب المقاطعات المجاورة، وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والثلاثين من العمر وقد غير اسمه من (كاسا) وأعلن نفسه ثيودور الثالث ملك إثيوبيا، وكانت بريطانيا قد عينت قنصلاً مقيماً فى إثيوبيا هو السيد (ولتر بلودين)، وكانت أولى مهامه أن يوقع اتفاقية صداقة مع ثيودور الثالث حيث اعتقدت بريطانيا أن علاقتها مع هذا البلاط لا بد أن تكون قوية وقد صارت كذلك، وفى سنة ١٨٦٠م كان القنصل البريطانى مسافراً عبر البلاد عندما قتل بواسطة رجال إحدى القبائل، ولهذا تولى الملك بنفسه حملة العقاب فقتل وخصى ألفين من الرجال خلال حملته تلك، أما البريطانى الآخر ويدعى (بيل) فقد قتل وهو يسعى لمساعدة الملك الإمبراطور فى تلك الحملة، ولاستمرار العمل القنصرلى أرسلت بريطانيا موظفاً مدنياً انجليزياً هندياً هو السيد (تشارلز كامرون) ولقد أعرب الملك عن تأثره كثيراً بسبب مقتل هذين الانجليزين الصديقين كما يقول، وبعد ذاك ماتت زوجته وتدعى (تافانيك) فتزوج أخرى جديدة اسمها (تيرو) كان عمرها اثنتى عشرة سنة لكنها سرعان ما جفته، وبالتالي تحول إلى فاسق سكير، وعندما وصل القنصل البريطانى الجديد (كامرون) إلى (كوندار) سنة ١٨٦٢م، وكان يحمل معه زوجين من المسدسات الفضية كهدية للإمبراطور من الملكة فيكتوريا وأثناء مثوله لدى الإمبراطور اقترح عليه أن يبعث وفداً إلى بريطانيا لتوقيع اتفاقية صداقة، وكان الإمبراطور قد أرسل إلى الملكة فيكتوريا مشتكياً حيث قال: إنه منذ أعاد الأتراك احتلال الساحل لم يعد فى إمكانه إرسال وفود عبر هذا الساحل، وفى آخر رسالته قال: (ترين كيف يضطهد الإسلام المسيحيين) وهكذا طلب من الملكة أن تفتح طريقاً له، وعندما وصلت الرسالة لندن أهملتها الخارجية ولم ترد عليها وهذه خطيئة أخرى أضيفت إلى كثير من أخطاء الشؤون الخارجية وبعد فترة أصدر مكتب الشؤون

الخارجية البريطانية أمراً إلى القنصل (كاميرون) طالباً منه أن يتجه إلى (كسلا) في السودان للتحقق من وضع تجارة الرقيق وبحث إمكانية زراعة القطن ذلك أن ثمن القطن قد تضاعف ثلاث مرات منذ الحرب الأهلية الأمريكية التي قطعت إرسال الفائض إلى أوروبا، وربما أمكن إقناع السودانيين بالتخلي عن تجارة الرقيق مقابل ضمان الحصول على القطن، وعندما عرف الإمبراطور (ثيودوروز) أن القنصل البريطاني (كاميرون) قد ذهب وأنه يقيم مؤقتاً مع أعدائه ثار وأرغى حيث اعتقد أن غياب القنصل له علاقة بعدم رد الملكة على رسالته وقال: إن هذا البلد الخيانة فيه مثلها مثل الخبز، وطبيعي أن ثيودوروز، بالتالي اعتقد أن بريطانيا تخطط لغزو إثيوبيا عن طريق السودان، ولهذا فإن البعثة الدينية الألمانية في إثيوبيا التي تعتمد على المساعدة المادية البريطانية سرعان ما وضع أعضاؤها في سلاسل حديد، وعندما عاد القنصل البريطاني في يناير ١٨٦٤م كان هو أيضاً قد قيد بالحديد بل وعذب، وفي هذا الوقت وصل شخص كان مساعداً للقنصل يدعى (لوكيرانز) وكان يحمل رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى الإمبراطور (ثيودوروز)، ولكن تلك الرسالة لم تكن رداً من الملكة على رسالة الإمبراطور، ولهذا فإن حامل هذه الرسالة أيضاً وضع في السجن ولقد أرسل القنصل (كاميرون) وهو في السجن رسالة عن طريق العقيد (ميريوندر) الوكيل السياسي البريطاني في عدن كما أرسل رسالة أخرى إلى جريدة التايمز اللندنية يطلب بإصرار ضرورة الرد على رسالة الإمبراطور (ثيودوروز) إذ إن هذا يمكن أن يحاكم كل المساجين دون رحمة، وهكذا أرسلت لندن رسالة أعدت بعناية للتهدة وقد عنونت الملكة فيكتوريا الرسالة بالقول (إلى صديقنا العزيز ثيودوروز ملك الحبشة)، وفي هذا الرسالة ورد أن لندن على استعداد أن ترحب بسفارة إثيوبية في إنجلترا كما جاء على لسان الملكة القول: إنها علمت بأسف أن الإمبراطور ثيودوروز قد سحب ثقته من خادم بريطانيا السيد (كاميرون)، ثم أضافت: إننا على ثقة أن تلك التطورات قد جاءت عن طريق تصرف غير سليم تجاه جلالتكم الذي ربما كان يتوقع تعاملًا مماثلاً من جانبنا، وكانت الرسالة قد وصلت بواسطة متعاون مع العقيد

(ميريوندر) وهو عراقي كردى يسمى (هارموزد بسام) وكانت رسالة الملكة فى مايو، وفى يوليو كان المدعو بسام فى (ماساوا) وهذه أرض مصرية وقتئذ وقد أرسل بسام هذا مبعوثين إلى الإمبراطور ثيودورز طالباً مساعدة (كاميرون وقوندار)، ولكنه لم يحصل على رد إلى بداية سنة ١٨٦٥م، وفى هذا الوقت حصل أن حوالى ثلاثين أوربياً بعضهم متزوجون من إثيوبيات ولديهم أطفال كانوا فى المعتقل، أما فى غابات (مدقالا) مثل حالة القنصل كاميرون أو مع ثيودورز فى حقل بالقرب من بحيرة (تسانا)، ثم أرسل بسام رسالتين أخريين إلى ثيودورز لكنه لم يحصل على أى رد كذلك، ولهذا أرسل بسام إلى القنصل البريطانى كاميرون وهو فى السجن لكن هذا رد عليه قائلاً بحق الله لا تأتى إلى هنا؛ لأنه سيضعك فى قفص؛ لأن هذا الإمبراطور يرى أنه طالما بقينا بين يديه فإنه سيكون فى مأمن من الهجوم الذى يتوقعه، وبالتأكيد فإنه إذا حصل عليك أنت الآخر فذلك جيد بالنسبة له، وبحلول شهر أغسطس ١٨٦٥م استلم بسام خطاباً من الإمبراطور يذكر فيه بغير صدق أن القنصل البريطانى كاميرون قد فكت سلاسله بعد أن ندد به ومع ذلك فقد أبدى استعداداً؛ لأن يستقبل بسام إذا كان لديه ما يفيد، ورد بسام قائلاً: إنه سيذهب إلى القاهرة وينتظر إلى نهاية الشتاء، وفى القاهرة تجهز بسام بالكثير من الهدايا التى سيقدمها للإمبراطور، وكانت تتكون من ثريات ومرايا ونظارات ومشروبات كحولية، ثم أبرق إلى لندن يطلب التعليمات ف قيل له: إنه يجب أن يسلم المهمة لدبلوماسى موجود حالياً فى القاهرة يدعى (ويليام بيلجراف)، ولقد كان الهدف الوحيد الذى أرسلت من أجله القوة البريطانية إلى الحبشة هو تحرير خادم صاحبة الجلالة وآخرين حبسوا ظلماً، وحالما ينجز هذا الهدف فإن القوة ستسحب؛ إذ ليس هناك رغبة فى احتلال أى جزء من الحبشة بشكل دائم أو أن يتم التدخل فى شئون حكومة هذا البلد، فى هذا الوقت صار الإمبراطور يبعث الرسائل إلى بسام معلناً وصول الضيف الملكى إلى القلاع وهو يقول: أوه يا صديقى لا تظن أننى أحمل أى كراهية تجاهك، وكتب إلى سجينه المكبل بالسلاسل قائلاً: لقد وضعتك فى مكانك الحالى من أجل أن أعرف يوماً ما الناس فى

بلادك، ولقد بدأت المعركة فى وقت كان الإمبراطور يسأل رجاله ما إذا كانوا سيستمرون فى القتال أو أنهم سيتخلون عنه، وأخيراً عندما توضحت نتيجة المعركة وضع فوهة المسدس الذى كانت الملكة فيكتوريا قد أهده له على جبهته وضغط على الزناد، أما الملكة (تيرو زوجته) فقد ذكرت أن الإمبراطور زوجها أوصى بتعليم ابنه (آلامايو) فى إنجلترا ولهذا فهى تود أن تقيم معه هناك، ولقد وافقت الحكومة البريطانية على الطلب لكنها تجاهلت رغبة الإمبراطور قبل أن يموت فى أن تقوم باحتلال إثيوبيا، وهكذا تركت إثيوبيا فى فوضى بينما نصبت ملكة (قالا) حاكمة على (ماقالا)، وقد تم تفجير كل شيء فى (قالا) ماعدا الكنائس، وكانت الملكة (تيرو) قد مرضت، وماتت بعد فترة بينما نقل الابن (آلاماتو) ليتعلم فى مدرسة (روقى) لكنه أيضاً مات وكان عمره تسع عشرة سنة، ولقد دفن فى ويندسون، وفى بداية سنة ١٨٨٥م نزلت حملة إيطالية فى (ماساوا)، وتقدمت فى الأرض حيث تواجهت مع قوات إثيوبية خلال يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٧م وأيدت القوة الإيطالية حيث كانت فى مواجهة قوات تتكون من عشرين ألفاً من المحاربين الإثيوبيين، وفى (دوقالى) أخليت المواقع الإيطالية، وبالتالي أوقفت إيطاليا مساعدتها العسكرية لمليك الذى كان ينافس (جون الرابع)، وفى المقابل طلبت إيطاليا من ملك قبل إعادة المساعدة أن يعترف بحقوق إيطاليا فى أسمرة والأراضى المجاورة، وقدمت له هدية متمثلة فى بعض الذخائر وقد قبلها لكنه لم يفعل شيئاً لمساعدة إيطاليا فى احتلال التضاريس التى تريدها، وفى سنة ١٨٨٩م كان جون قد قتل برصاص المهديين^(١) فى الحرب مع الدراويش، وتبع ذلك بعض الفوضى حيث احتل الإيطاليون أسمرة وساعدوا مينيليك، ليكون ملكاً على (نيقوزا)، وهو بالتالى منح إيطاليا حقوق الحماية على

(١) يقصد المؤلف محمد بن عبدالله المهدي قائد الثورة المهدية فى السودان، والذي ينتسب إليه الآن حزب الأنصار بقيادة الصادق المهدي، والذي يطلق عليه أحياناً اسم حزب الأمة، وهو من الأحزاب الهامة فى السودان الحديث، وقد تولى رئسته رئاسة الوزارة عدة مرات، والأنصار كانوا يسمون الدراويش فى بداية نضالهم؛ لأنهم يرتدون ملابس مهلهلة فى شكل جلايات مازال الأنصار يرتدونها حتى الآن اعتزازاً بتاريخهم النضالى. المترجم .

كامل تراب الإمبراطورية ومنذئذ أرسل هذا الملك الإمبراطور صهره المدعو (راس ماكونان) إلى إيطاليا ليفاوض من أجل الحصول على قرض مالى مقابل رهن مقاطعة (هرارى) وبالإضافة إلى الموافقة على القرض منح الملك (إمبارتو) ماكونان اثنين وعشرين مدفعا وثمانية وثلاثين ألف بندقية كهدية، وكانت هناك قوة أخرى برهنت على اهتمامها بإثيوبيا وهى روسيا القيصرية حيث وصل البلاد خلال الثمانينيات مجموعة تتكون من حوالى مائتى رجل وامرأة تحت غطاء دينى برئاسة الراهب (باسى والقوقازى أشينور)، وكان ضمن هذه المجموعة جنود ومهندسون وقساوسة وحرفيون مستغلون تلك العلاقة القائمة بين الأرثوذكسية الشرقية والأقباط، فأنشأوا ديرا وخشية من أن تسعى روسيا إلى إقامة مستعمرة فى إفريقيا قام الإيطاليون بإعداد دراسات مكثفة عن كل المبادرات والأنشطة الروسية، بحيث يحولون دون ذلك المتوقع، وفى سنة ١٨٩٠م قدم مبعوثون روس وفرنسيون عروضاً من أجل أن يضمّنوا لبلدانهم مواقع قوة فى إثيوبيا، وبناءً على ذلك احتجت إيطاليا وخلقت كثيراً من المشاكل والتعقيدات لكن (مينيليك) سدد القرض الإيطالى وألغى الاتفاقية التى وقعت من إيطاليا وكان احتجاج الإيطاليين على عروض الروس من أجل إبعادهم عن البلاد، لكن الواقع أن الذى تمكن من طرد الروس هم الفرنسيون، وإن قد بقيت مجموعة صغيرة منهم بموافقة (مينيليك)، وفى العصر الحديث كذلك فإن إثيوبيا كانت أول بلد إفريقيا أظهرت روسيا اهتماماً كبيراً به، وكانت إيطاليا فى سنة ١٨٨٥م قد ضمنت موقعاً آخر لها فى إريتريا وفى اتجاه الجنوب حيث سيطرت على أراض بجوبا فى مدخل النهر، وفى سنة ١٨٨٨م وقع سلطان (أوريا) اتفاقية حماية مع إيطاليا، وهكذا صارت هذه مستعمرة فى الصومال، ثم امتدت السيطرة على الساحل الصومالى سنة ١٨٩١م، وفى سنة ١٨٩٣م كلفت شركة إيطالية بإدارة كل المنطقة، وفى هذا الوقت

أقام (مينيليك) علاقات مع بريطانيا فى (باربارا) ومع فرنسا التى جثمت على جيب صغير يسمى (جيبوتى)، لكن إيطاليا صارت أكثر تشددًا وهى شوكة فى جانب الإمبراطور، وفى هذا الوقت رأى مينيليك أن يستعيد السيطرة لنفسه على الشاطئ، وأن يندفع جنوبًا حتى يصل (نيانزا) أى بحيرة (فيكتوريا) وفى هذه الأثناء استطاع أن يؤسس علاقات صداقة مع لندن، وفى سنة ١٨٩٥م أعطى مؤسسة فرنسية حق إقامة السكة الحديد من جيبوتى، وكان المنافس الرئيسى على السلطة لمينيليك هو (راس منقاشا) زعيم (تيقرى) قد وقع سنة ١٨٩١م اتفاقية مع إيطاليا حيث تعهدت روما بمساعدته ضد الثوار (التيقرين)، ولكن فى سنة ١٨٩٥م اتحد (مانقاشا) مع (مينيليك) وبذلك تقدم الأميران شمالاً إلى المناطق التى تسيطر عليها إيطاليا لتحريرها وهذا المطلب اكتسب تأييداً إجماعياً وعبأت إيطاليا قواتها على عجل لتواجه محاربى (مينيليك ومانقاشا)، وكذلك فرسان (قوجام وقالا) فى وقت واحد وقد اختار الجنرال الإيطالى (باراتيرى) أن يبدأ الحرب فى منطقة (أدووا) خلال الجزء الأول من شهر مارس ١٨٩٦م مستخدماً تلك الأسلحة والذخائر التى حصل عليها من تجار فرنسيين، وكان لديه عدد كبير من الجنود، ولكن بسبب تلك الأخطاء فى الخرائط الإيطالية عن البلاد التى كانت سبباً فى توزيع القوات المهاجمة فإن الإثيوبيين بقيادة (ما كوين) حققوا نصراً باهرًا، حيث قتلوا من ذلك الجيش الذى يبلغ عدده أربعة عشر ألفاً وخمسمائة جندي قتلوا حوالى عشرة آلاف أوربى وأربعة آلاف من الجنود المحليين وبتوقيع اتفاقية جديدة فى أكتوبر قبلت إيطاليا بإذلالها معترفة بسيادة إثيوبيا كما وافقت أن تكتفى بإريتريا، أما مينيليك فإنه إلى أن مات سنة ١٩٠٨م ظل يقوم بتوسيع إمبراطوريته، وقام بتحديث إدارتها حيث إنه فى سنة ١٨٨٣م، أوجد عاصمة جديدة لبلاده وهى (أديس أبابا) والاسم يعنى (الودة الجديدة) وهذه التغييرات كانت ربما من

أجل إسعاد زوجته الإمبراطورة، وبعد هذه المرحلة وتلك الإصلاحات جاءت كثير من السفارات تحمل الهدايا للإمبراطور الذى يزداد قوة فى معاركه المحلية، وفى هذا الوقت انتصرت المصالح الفرنسية على منافستها البريطانية فى مشروع السكة الحديد على الرغم من أن مينيليك أوقف العمل عندما أخذت الحكومة الفرنسية الجزء الأكبر من الاستثمارات فى سنة ١٩٠٢م، ثم تراجع وأعطى الموافقة سنة ١٩٠٦م، وأخيراً رخص لبريطانيا وإيطاليا حيث وافق على تمديد الخطوط إلى أبعد من أديس أبابا، إلا أن ذلك لم ينجز ولم تبدأ القطارات من جيسوتى قبل سنة ١٩١٨م، وهنا ضمنت بريطانيا اتفاقية تثبيت حدود مستعمرتها فى أرض الصومال، وكذلك الحقوق الرعوية إلا أنها فشلت فى إنهاء وتطمين خوف ماكونين من الإنجليز، ولقد كانت الفقرة الهامة فى اتفاقية سنة ١٩٠٢م من وجهة النظر البريطانية تلك التى تنص على أن إثيوبيا لا تقوم بتحويل مجرى النيل، وهذه مهمة للمحميين من بريطانيا فى مصر، وكان مينيليك قد وقع العديد من الاتفاقيات التى لم يكن يأخذها بجدية، حيث إن بعضها كان يعطى نفس الامتيازات لبعض البلدان أو الشركات عندما يحصل على رشاوى ومنح من هذا الطرف أو الآخر، وكانت اثنتان فقط من تلك الاتفاقيات حققنا بعض الفائدة وهما اتفاقية السكة الحديد الفرنسية واتفاقية بنك الحبشة البريطانى، وكان مينيليك يقوم بمسارات صعبة ويحصل عادة على نسب مئوية عالية، كما أنه كان يقرض المال بفوائد فلكية للشركات الاستثمارية الجديدة، ولا بد أنه يستخدم تلك الفوائد لدعم جيشه.



مدغشقر :

وضع مدغشقر فى سجل التاريخ الإفريقى يعود فقط إلى القرابة فى الجغرافية ذلك إنها ثقافيا جزء من آسيا كما تدعى إندونيسيا على ما يبدو فى الفترة الأخيرة على

أنها أنقطعت من منطققتها الإفريقية منذ حوالى أربعمائة مليون سنة (أى قبل إنسان بيكين) وانفصاله من أرض استراليا، ذلك أن مدغشقر كانت نباتاتها وحيواناتها قد تطورت عندما كان الشعب (البولينيزى) من أرخبيل الملايو أندونيسى قد وصل إلى مدغشقر منذ ألفى سنة ماضية، إما عن طريق البر أو البحر أو كليهما ولقد جاء هذا الشعب باللغة البولينيزية التى تتصل بالملايو أندونيسى، وفوق ذلك جاء بزراعة الأرز المالى ونوع الزوارق المستطيلة وأساطير البولينيزى التى ماتزال تزار فى البلاد والبيوت الزراعية المبنية بعناية وثيرانهم المنيرة وسلوكهم وتصرفاتهم التى توحى بالتأكيد على أنها غير إفريقية، وكانت موجة الهجرة الأخيرة قد وصلت خلال نهاية القرن الخامس عشر تقريبا، وكانت أول إشارة إلى هذه الجزيرة الواقعة غرب المحيط الهندى قد جاءت فى المدونات المصرية والإغريقية والرومانية وكانت أحيانا بالخطأ توصف على أنها سيلان ولقد جاء اسمها الحالى على لسان (ماركو بولو) ^(١) وكان الاسم ككنية، وقد جاء على النحو التالى (ماديقاسكر) ويكون ربما قد اختلط على ماركو الأمر فى بلد لم يره أبدا مع اسم (ماقاديشيو) الذى يظهر فى لغة المالاكازى، ولقد ظهرت الجزيرة على الخريطة سنة ١٥٠٠م عندما توقف أحد قباطنة (فاسكو دا جاما) هناك، وفى القرون اللاحقة عملت القوى الأربعة الكبرى فى المحيط الهندى بعض العمل التجريبي الملحوظ عن الأمراض والعنف الذى جاء من المستوطنين

(١) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) رحالة بندقى سافر مع والده وعمه إلى الصيد سنة ١٢٧١م، وكانا قد زارا كيفينج عاصمة كوبلاى الشرقية، وصلت الرحلة كالومبوك سنة ١٢٧٥م، وهناك التحق ماركو بيلاط قبلاى، حيث قام بعدة أعمال فى الصين الوسطى والشمالية وجنوب شرقى آسيا وجنوب الهند، ترك الصين سنة ١٢٩٢م وعاد إلى البندقية سنة ١٢٩٥م، حيث التحق بقواتها فى حربها ضد جنوة، أسر فى هذه الحرب، وأثناء الأسر أُملى على أحد زملائه وصف رحلاته وتحدث عن بداية حياته، ثم عن الأماكن التى زارها، وعادات المغول وتاريخهم، وكانت كتاباته هى المصدر الوحيد تقريبا لمعلومات الغرب عن الشرق فى عصر النهضة، وكذلك عن بعض جهات آسيا حتى القرن التاسع عشر. المترجم .

البولينيزيين، حيث كانت الجزيرة مكاناً هاماً كعمرين للقراصنة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد صارت (ديقو سواريز) سريعاً جمهورية يمكن أن تسمى عالمية إذ إنها تدار بواسطة ثلاثة رجال وثلاث لجان قرصنة تتمثل فى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، ولهذه الجمهورية دستور ولغة عالمية ومزارع عمومية وقراصنتها الثلاثة ينتمون إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ويمتد هؤلاء القراصنة بعلاقات مع السويد وروسيا وتركيا، وكان أحد التجار الأمريكيين الذى تعامل مع القراصنة سنة ١٦٩٩م، قد نقل الأرز المالاقاشى إلى (كارولينا)، وهكذا ظهر الأزر فى أمريكا الشمالية لكن إنجلترا وفرنسا أعلنتا الجزيرة طوقاً للقراصنة سنة ١٧٢٤م، وخلال سنة ١٧٥٠م تزوج عريف فرنسى هارب ملكة قاصر من ساحل مالاقاشى، وأقنعها بأن تتخلى عن مملكتها لفرنسا^(١) وكان أحد القراصنة قد قرر تحويل مدغشقر إلى يوطوبيا سنة ١٦٨٨م، بحيث يستخدمها كقاعدة لإلغاء الرقيق لكنه بعد ثلاث سنوات غادر برحلة رقيق إلى جزر الهند الغربية الفرنسية، وحدث أن محكمة فرنسية أمرت سنة ١٧٧٤م أن يتولى الهنغارى (باردو دى بينيوسكى) حكم الجزيرة، وعندما تخلت فرنسا عن الجزيرة أعلن (بينيوسكى) نفسه إمبراطوراً، ثم قدم إمبراطوريته إلى بريطانيا وفرنسا والطفل الرضيع وقتذاك الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه لم يجد قبولا أو مساعدة إلا من جانب الولايات المتحدة الأمريكية عندما قدم له تاجر رقيق من (بالتيمورى) سفينة وبعض المال مقابل احتكار تجارة الرقيق من مدغشقر، وفى سنة ١٧٨٥م أو بعدها بقليل أطاحت به القوات الفرنسية وقتلته، وكان الأوربيون من الفرنسيين والبرتغاليين قد استقروا فى مناطق ساحلية ثانوية، أما فى المناطق الداخلية فقد كانت هناك عدة ممالك من (الميرينا ومن الشعب البولينيزى) الذى لم يتأثر بالعرب أو بالأفارقة والهنود، وكانت المعلومات عن أحوال وثقافة هؤلاء قليلة، وإن قد وصلت

(١) ما أورده المؤلف فى هذا الجزء من الكتاب يكاد يكون من قصص الخيال الذى لا يصدق، ولا حتى يشد الانتباه، لكننا ترجمناه كما هو فقط من أجل الإلمام بفحوى محتوى الكتاب. المترجم.

الفصل الرابع عشر: زنجييار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

أخيراً إلى أسمع الأوربيين فى سنة ١٧٧١م، ويظهر أن الممالك ترجع إلى ثمانمائة سنة ماضية، وربما أكثر وعاصمة الجزيرة الحالية تسمى (انتاناريفو) ومعناها مدينة الألف محارب، وهذا يشير إلى حصار الثوار لها فى وقت ملك (ميرينا) وطبقة الميرينا هى اليوم الطبقة العليا فى الجزيرة وهى تكون حوالى ربع عدد السكان، وهؤلاء مشهورون بأسمائهم الطويلة؛ إذ كان أحد ملوكهم اسمه (أندريا تسيميتوفيا مانيا ديريا ديهيبي) وأشهر ملوك الميرينا كان قد حكم من سنة ١٧٨٧م إلى ١٨١٠م، وهو الذى وحد ونظم المملكة، وقد احتل بولينيزى الصغيرة الواقعة على الساحل وفرض عقوبات شديدة على جرم السرقة والاستعباد أو التسيب الذى وصفه شعرا بأنه (سرقة الوقت)، وقد جعل الملوكية مقدسة تحرسها الشمس الحمراء، ومنع التدخين والكحول، كما منع دخول الأوربيين للمملكة على أن تكون علاقاته معهم تجارية فقط والتى تقوم على مبادلة الرقيق بالسلاح إن أرادوا وعزز صلاته بأعدائه الشائرين السابقين بأن زوج اثنتى عشرة شابة باثنى عشر زعيماً، ومن أجل أن يتفادى الاغتيال جعل سريرين للنوم واحد له، والآخر لزوجاته الاثنتى عشرة على أن يرتفع السريران اثنى عشر قدماً عن الأرض، وكان موته مناسبة للبكاء والحزن الشديد فى الجزيرة، وعندما دفن لف بثمانين عباءة حريرية، ووضع فى زورق فضى، ثم اختير خليفته المدعو (رادام الأول) بواسطة شعب الميرينا من بين أبنائه الأربعة والعشرين الأحياء، واستخدم هذا الخليفة مستشارين سياسيين وعسكريين إنجليز، وهكذا صار المالاقاشيون يحق لهم الالتحاق بجامعة أكسفورد، واليوم بعد ثلاثة أجيال من التأثير الفرنسى مايزال عدد البروتستانت مثل عدد الكاثوليك فى مدغشقر، ولقد شجع (راداما الأول) التجار الأوربيين والبعثات البروتستانتية البريطانية، وفى وقت ما كان جيشه المتكون من خمسة عشر ألفاً تحت قيادة ثلاثة عرفاء تمت ترقيةهم إلى رتب

جنرالات، أحدهم كان أمياً لونه أسمر وهو من جامايكا (مولاتو)، والثانى فرنسى هارب والثالث اسكتلندى، وهذا كان قد جاء بالحصان العربى إلى الجزيرة وبالشعير أى الحبوب التى يصنع منها الويسكى، وكان هؤلاء الرجال يعلمون كيفية استخدام الأسلحة الحديثة، كما أنهم فرضوا القوانين الغربية فى حين أضاف الملك (راداما) إلى تلك القوانين أمراً يقضى بأن الهارب من الجيش لابد أن يحرق حياً، وأنه أى (راداما) لابد أن يعترف به كأول ملك على مدغشقر، حيث تبادلت معه بريطانيا العلاقات القنصلية، وكان من نتيجة ذلك أن دفع (راداما) الكثير من الطلبة إلى المدارس الإنجليزية، وهو قد فعل ذلك بحماس شديد معتقداً أنه من الممكن ومع الوقت ستكون هناك مدارس كثيرة وتلاميذ فى مدغشقر، ربما أكثر من كل إفريقيا، وراداما نفسه تعلم من العرفاء الجنرالات اللغات الإنجليزية والفرنسية كما أنه جعل اللغة المالاقاشية تستعمل الحروف الهجائية اللاتينية، ولقد قرأ التوراة وتأثر بها ولذلك أمر أنه منذ الآن ومستقبلاً أن العقاب سيكون طبقاً للتوراة كما أمر بمنع تجارة الرقيق، ووضع لذلك شروطاً وعقاباً شديداً ومنع بشدة تلك العادات الشائنة، وفى سنة ١٨٢٨م توفى (راداما) بعد أن أنهكه العمل الكثير والنساء والخمر المحلى، وعمل عدد كبير من الحرفيين الإسبان ليصنعوا نعشه الفضى وعدد كبير آخر لصنع ركائز ذلك النعش الذى يجب أن يتسع لكل حاجياته حيث دفنت معه خزائنه وخيوله وملابسه التى كانت تصنع فى بريطانيا، وذكر أن آلاف من الثيران ذبحت من أجل إطعام اعداد الناس الذين شاركوا فى العزاء، وخلال كامل القرن التاسع عشر كانت مدغشقر قد حكمت من طرف ملكات من بينهن آسيويات وإفريقيات اللواتى عرفن بوحشيتهن، أما أرملة (راداما) التى تولت إدارة العرش وما يتصل به فقد كان اسمها (رانافالونا)، وهذه زادت العقوبات عن الجرائم لتشمل المسيحيين كما أعادت تجارة

الرقيق واشتهرت بأنها عاقبت مائتى ألف من الناس خلال مدة ثلاث وثلاثين سنة من الحكم الدموى، ويذكر أن بعض أولئك الناس قد حرقوا أحياء والبعض الآخر صلبوا فى حين أن آخرين قذفوا من مرتفعات عالية ليموتوا، وكانت أرملة الملك هذه قصيرة وثخينة تماماً مثل زوجة الرئيس روبرت رئيس ليبيريا المشابهة للملكة فيكتوريا، وكان لها اثنا عشر زوجاً والعديد من العشاق، وكانت رجعية تؤمن بالخرافات بشكل جنونى وتخاف من الأجانب والاستثناء الوحيد لديها كان (جون لاوردى)، وهو شاب فرنسى بسيط يعمل حداداً كان قد انتقل إلى شاطئ مالاقاشى سنة ١٨٢٨م، حيث بقى وعاش فى الجزيرة خمسين سنة، وإلى أن مات عندما اكتسب الجنسية المالاقاشية، وصار نيلاً حيث أسس مجمعاً صناعياً فى (ماناسكا)، وهى منطقة مفضلة لوفرة الماء المتدفق والغابات الجميلة، ولقد استخدم هذا الفرنسى المالاقاشى آلافاً من عمال السخرة بحيث يتمكن من التنقيب عن الحديد ويصهره وليصنع الزجاج والفخار والبلاط والأسمنت وحامض السلفور والصبغة والصابون والبوتاس وشمع الأختام والحبر والمطاط وقبعات القش (التي ماتزال تستعمل فى الجزيرة)، كما صنع الورق والحبر والملابس والبنادق والمدافع والقنابل اليدوية والبارود والسيوف والسكر وتقطير المشروبات الكحولية وزرع العنب كما طور مواشى الجزيرة وسبق فى ابتكار زراعة السمك للملكة التى كان يعتقد أنه عشيقها، وقام ببناء قصر جديد بأحواض سباحة... إلخ وأخيراً مات سنة ١٨٦١م وخلفه (رامادا الثانى) الذى ربته أمه رئيسة الوزراء وهو لقيط وهذا ألغى ما تحقق قبله بحيث خلق نوعاً من الفوضى الأيدولوجية لكنه سرعان ما شق بأمر من زوجته التى تولت العرش تحت اسم (راسوهيرينا)، وقررت من جديد إعادة الحكم بالجلد أمام العامة، ثم خلفتها قريبتها التى أطلقت على نفسها اسم (رانافالونا الثانية) وتوجت سنة ١٨٦٨م، وكانت تظهر وهى تحمل فى

يدها التوراة هدية الملكة فيكتوريا، ولقد تزوجت سلفها رئيس الوزراء وحولته إلى المسيحية، وبالتالي أجبرته على ترك زوجاته الاثنتى عشرة وأنجبت منه اثنى عشر طفلاً، وقد اشتهرت (رانافالونا الثانية) بأعمال كثيرة، وعندما ماتت بمرض النقرس عن عمر يناهز الرابعة والخمسين، اختار أرملةا رئيس وزرائها قريبتها الجميلة البالغة من العمر اثنتين وعشرين سنة لتخلفها فى العرش وقد تزوجها وأصبحت تسمى (رانافالونا الثالثة) .



جنوب إفريقيا :

تاريخ رأس جنوب إفريقيا متصل مباشرة فى البداية بافتتاح طريق رأس الرجاء الصالح إلى جنوب الهند، وفى سنة ١٦٥٢م أنشأت شركة شرق الهند الهولندية محطة تموين مياه على الرأس من أجل رحلات السفن السريعة وقد اشتهرت المحطة وقتئذ بالرحلات، وكان السكان الوطنيون فى منطقة الرأس عددهم قليل وينتمون إلى فئتين وهم (البوشمين والهوتينتوس)، وهؤلاء كانوا يتمتعون باللفظ والسلوك الطيب وكانوا يعيشون على تربية المواشى والصيد، وأحياناً يقومون ببعض العمل فى المستوطنات الأوربية على أن مقاومتهم للأمراض قد كانت ضعيفة، ولهذا كان ذلك العدد القليل يتضاءل، وهكذا صار أغلب الموجودين الآن فى مقاطعة الرأس من الأوربيين المستوطنين وهؤلاء يمكنهم أن يدعوا أنهم وطنيون أفارقة، وفى كل الأحوال فإن الوطنيين فى شرق مقاطعة (كاي) وفى مناطق (ترنسكاي وناتال وبرنولاند) هم قبائل هاجرت من (زمبابوى) ومن البلد الذى يعرف الآن باسم (موزمبيق) وهم أصلاً ينتمون إلى (الناتومى) أسلاف (الزولو) الحاليين، والناس الذين يظهر أنهم ينتمون اليهم يعرفون بأسماء (الهوسا والبوندو والتيمبو) وكل هؤلاء المستوطنين الأفارقة

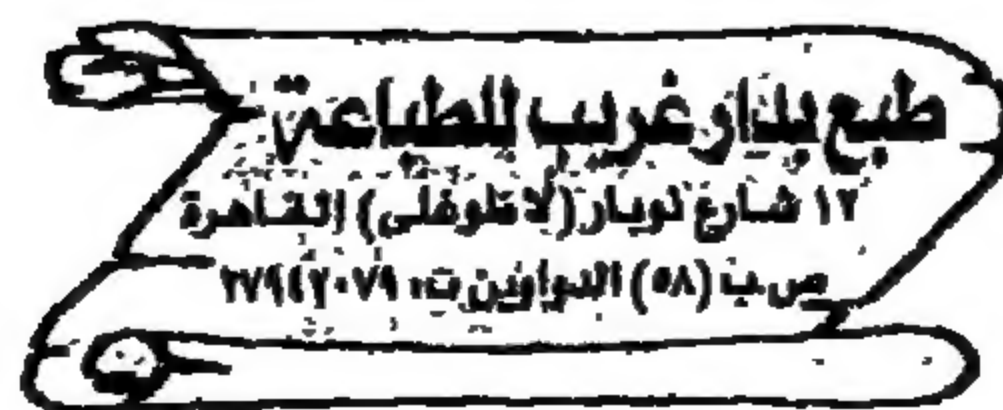
كانوا يقيمون فى الأراضى المطيرة المنخفضة أى (ناتال الحديثة) وما يجاورها من أراض ذلك أن (البشمين والهوتينتوس) صيادون ومولون يتعلقون بما يسمى الآن الرأس الغربى حيث كان السهل الأعلى غير مسكون، وحدث أخيراً خلال القرن الثامن عشر أن تقدم المستوطنون البيض فى الأرض حيث التقوا فى البداية برجال قبيلة (النانتو) قرب نهر السمك العظيم الذى يقع على بعد خمسمائة ميل شرق مدينة الكاب، والشركة الهولندية عندما أقامت محطتها المائية لم تكن لديها نوايا استيطانية ولا اهتمام بالدواخل، وإنما كان غرضها فقط تعزيز الدفاع عن المستوطنات وتموين رجال سفنها، وكان المستوطنون الزراعيون قد شاهدوا مدينة الكاب بما لها من طقس دافئ جميل وأراض خصبة وسقوط أمطار كافية وجمال طبيعى مثير فى جبالها وشواطئها، كل هذا جذب انتباههم أكثر فأكثر، وعندما تهيأ الوقت للشركة وبدأت تبحث عن مهاجرين جدد أظهر هؤلاء الذين استقروا كثيراً من الغضب والمقاومة بسبب الإجراءات التى فرضت على نشاطاتهم فى المناطق التى استحوذت عليها تلك الشركة ومحاولة إبعادهم عن مدينة الكاب التى ستكون سوقاً للسفن، وكذلك الجيل الجديد من المستوطنين الزراعيين البيض، وخلال القرن الثامن عشر، فإن الكثير من هؤلاء الناس العطشى من أجل الأرض عموماً هم فلاحون تسللوا إلى الداخل بعيداً عن الشركة، وعن أى سلطة دولية، وقد زرعوا وباعوا إنتاجهم للهوتينتوس مبادلة بالماشية، ثم صاروا هم أنفسهم يربون الماشية مثلهم مثل الهوتينتوس، وقد اتضح لهم أن السهول الواسعة أنسب للماشية، وبالتالي تسلل كثيرون أبعد فى اتجاه الشرق بحثاً عن مساقط الأمطار، وهؤلاء الرواد فى الأرض الواسعة التى تعرف الآن باسم جنوب إفريقيا التى لا تدين بالولاء لهولندا صاروا يسمون (أفريكانو) وكان التزامهم الدينى القوى مثل أولئك الرواد الأوائل فى شمال أمريكا المتدينين المتشددين، وقد حملوا

سيوف التقوى حيث حصدوا إنتاجهم بعزائم قوية وتصميم المؤمنين، وكان هؤلاء يؤمنون بأن الله قد اختارهم، وأن إنتاجهم وشجاعتهم مكافأة من الخالق لهذا البلد الذى لا تنازعهم عليه هيمنة ولا أى قوة فى الدنيا، ومن خلال هذا الإحساس يرون الوثنيين من حولهم كأعداء ليس ضدهم فقط، وإنما ضد الله نفسه، ولهذا لا بد أن يحرموا من أى حق أرادته الله أن يحترم، وهؤلاء الرواد مثلهم مثل زملائهم الأوربيين فى المهارة والنشاط الصناعى الأوربي وقد اكتسبوا الخبرات الثمينة، وإذا كان (البورز) قد تعمقوا شرقاً أكثر من شمالاً فقد قضوا على جماعات (البوشمين)، وأبعدوا جماعات الرعاة (الهوتيتوس) وفى سنة ١٧٧٩م كانوا قد وصلوا نهر السمك العظيم، ثم إلى حدود قبائل (البانتو) مع الهوتيتوس، وفى هذا التقدم توجد قبائل لها نفس التقاليد، وكل لغاتها ذات جذور واحدة وقواعد مماثلة فى النحو والنطق مع بدايات مشابهة فى اللواحق والحروف المزيّدة، وفى أغلب اللغات ومن مجمع كلمة (بانتو) يتكون المصطلح العام عن كل الأفارقة الذين ليسوا من الهوتيتوس والبوشمين، وكان التلاقى فى سنة ١٧٧٩م قد سبب بشكل غير مباشر أول تداخل بين القبائل بحيث أحدث حرب الكفار وهذا الاسم أو المصطلح من عرب شرق إفريقيا يعنى الكفار أو الكافر (وهى الكلمة التى استعملها العرب وتطلق على كل من هو غير مسلم، وورثها عنهم البرتغاليون وبعدهم قبائل البورز) الذين لم يعرفوا معناها وبالتالي اعتقدوا أن المسيحيين كفار أيضاً، وكانت هذه الحروب قد مثلت نوعاً من الحرج للسلطات البعيدة فى مدينة الكاب، وأثناء الحروب النابليونية ١٧٩٣ - ١٨١٥م نقلت ملكية الكاب من الهولنديين إلى البريطانيين، وبسبب هذا التغير حدث الضغط الكبير على ملاك الجناح الإفريقى، وفى سنة ١٧٩٥م عندما كانت الشركة الحكومية قد قاربت على التوقف، فإن المجموعتين من قبائل البورز (سوليندام والقرافرنر)

أعلنتا جمهوريتاهما المستقلتين وهذا يعنى انفصلاً عن مجموعة القبائل الإفريقية الأخرى بزعاماتها التقليدية لكن بريطانيا مع ذلك استطاعت أن تؤكد سيطرتها، وفى سنة ١٨٢٠م أرسلت لندن حوالى خمسة آلاف بريطانى أغلبهم من الجنود السابقين مع عائلاتهم ومنحتهم أراضي بالقرب من حدود توسع البيض، وهذا رغبة فى تعزيز الدفاع عن الحدود الواسعة ضد غزو قبائل البانتو ومن جانب آخر بتعبير تاريخى لتؤكد وجود البريطانيين بين جمهرة قبائل (البوير)، وإلى هذا الوقت كانت قبائل (البانتو) التى تعيش فى منطقة سواحل الرياح الموسمية فى سهول (ناتال) ماتزال قادرة على التوسع من أجل احتياجات الأجيال القادمة كما يقولون داخل المناطق غير المأهولة أو تلك التى يقتلون فيها البوشمين والهوتيتوس، وإذا جاء البيض متسللين فقد أضافوا مشكلة وتحدياً لهم كما هو الحال مع استيطان قبائل البانتو الذين خلقوا مشكلة للبوير، ومن هنا فقد كان هناك اختيار واحد بجانب البانتو، وهو الانضمام إلى القبائل الكبيرة التى تسعى لطرد القبائل الأضعف من أراضيها وكان هذا فى سنة ١٨٢٥م حين بدأت الإدارة البريطانية تشترع القوانين لحماية الأراضي غير الأوربية وكانت المستعمرات قارب أن ينتهى فيها الوجود العسكرى، وصارت فيها مؤسسات ديموقراطية أولية، وإدارات لتحصيل الضرائب من أجل التغلب على مشاكل الميزانيات، ومن ذلك تنظيم ملكية الأرض بحيث يرتفع ثمنها، ثم صدر القانون البريطانى الخاص بحق الفرد وما يتعلق بمنع تجارة الرقيق خلال سنة ١٨٣٧م فى أراضى نفوذ الإمبراطورية البريطانية، وكان هناك فى هذا الوقت عشرون ألف إنسان مسترق من المالاقاشيين فى منطقة الكاب جئ بهم نظراً لعدم قدرة البوشمين والهوتيتوس على العمل، ومن الملاحظ أن سلالة هؤلاء المالاقاشيين إضافة إلى أناس من دماء مختلطة أسيوية إفريقية وأوربية إفريقية يمثلون اليوم مليون وثلاثة أرباع المليون ملون فى الكاب، ولقد تصرف المجلس التشريعى الرضيع تجاه

الليبرالية اللندنية بإصدار قانون يلغى بعض الضمانات الديمقراطية التى حصل عليها السكان غير البيض، وهذا القانون صوت عليه المجلس بحلول سنة ١٨٣٤م، وفى سنة ١٨٣٦م كانت بعض الأراضى التى منحت للأوروبيين لأغراض أمنية فى منطقة الحدود الشرقية تمت إعادتها كملكية للبانو، وهذا قرار بريطانى أخذ لغرض اقتصادى، وفى هذا الوقت كان الجشع البويرى على الأرض بالغ الوضوح، وفى ظل الظروف القائمة فى الدواخل قيل: إن العائلة الواحدة تحتاج ستة آلاف هكتار، وفى سنة ١٨٣٤ - ١٨٣٦ اتخذ قرارا يؤيد رأى قبائل (البوير) القائل بأن الإنجليز ينحازون بأنفسهم سياسياً مع المستوطنين السود ضد البيض، وعلى الرغم من أن قبائل البوير اختاروا حدود الكاب، فإن بريطانيا ماتزال تصر على أنهم من رعاياها وكانت لندن لا تريد ترك هؤلاء المواطنين المتمردين ينحازون إلى جهة أخرى حيث إن توسع (البوير) يخلق الكثير من المشاكل والحروب، وهذه تكلف كثيراً فيما يتصل بالدفاع عن الكاب وإقرار الأمن، وقد أنزلت قوات بريطانية فى مكان يعرف الآن باسم (دوبان) فى وقت التحق فيه (ناتال) بالتاج البريطانى سنة ١٨٤٥م، وكان المعانيدون (البوير) غرباء عن بريطانيا باللغة وبالسلوك، وخلال الثمانينيات والتسعينيات تحركت بريطانيا لمساندة البعثة المتجهة إلى (نيازالاند) وكانت البرتغال تعارض هذا الموقف وهى تحلم فى أن تتمكن من خلق صلة بين المحيطين فى حين أن هذه الفكرة كانت قد شدت انتباه ألمانيا فيما بعد، لكن هذا المشروع الفكرة قد سقط أمام طموح (سيسيل رودس)، وتلك القوة الجدية النشطة التى لحقت به عبر منافذ إفريقيا لتنجز خطوط السكة الحديد من الكاب إلى ماتبالاند، ثم إلى جنوب إفريقيا وروديسيا وباستولاند التى كانت قد فصلت عن مستعمرة الكاب ووضعت تحت الإدارة البريطانية المباشرة سنة ١٨٨٤م، وهكذا ظهرت محميتان بريطانيتان أخريان فى المنطقة وهما (بيتشولاند وسوازيلاند) أما (بيتسوانا) ذات الحكم الذاتى فى محيط أرض جنوب إفريقيا

فهى جزئيا تحت سيطرة قبائل (الموفات)، وكانت البعثة قد ساعدت على تخلص (البامانتواتو) وهى القبيلة الأهم من قبائل البوتسوانا الثمانية من أهم قبائل (الزولو والبوير والفيديلى)، وكان الملك (خاما الثانى) الذى خلف القيادة الكبرى فى قبائل (البامانتواتو) سنة ١٨٧٢م، والذى أوقع عدة هزائم فى قبائل (أنديتلى) قد وجه نداءات عديدة للكتاب من أجل العون العسكرى والسياسى، وأخيراً فى نهاية سنة ١٨٨٤م كان السيد (جون ماكينزى) قد أرسل كمسئول إدارى فى منصب نائب المندوب، وكانت (بيتشوالاند) قد صارت محمية خلال السنة التالية، وفى سنة ١٨٩٥م أعلنت بريطانيا أنها سوف تسلم هذه البلاد للشركة البريطانية فى جنوب إفريقيا، ولكن الزعيم (خاما وزعماء آخرين من باتسوانا) ذهبوا إلى لندن محتجين، ويرجع اتصال بريطانيا المباشر مع (سوازيلاند) إلى الوقت الذى طلب فيه سوازى المساعدة منها ضد قبائل (الزولو) وفى الثمانينيات قام الملك (أمباندازىنى) وهو زعيم عشيرة (أنكوسى دلامينى) ببيع عدد من الامتيازات للأوربيين ولكن كان هناك مستشاراً بريطانيا قد عين لحماية المملكة من الاستغلال لم يوافق على تلك الامتيازات، وفى سنة ١٨٨٨م حدث مع ذلك أن سمح لجالية المستوطنين أن تقيم مجلس تشريعى، وبالتالي أن تقرر الانضمام إلى جنوب إفريقيا، وكانت جنوب إفريقيا قد ضمت سوازيلاند، لكنها فقدتها نهائياً خلال حربها من (البوير)، وصار توسع سيطرة الأوربيين فى مناطق غير أهلة بالسكان الأفارقة ذا أهمية فى القارة السمراء وهم بريطانيون وبرتغاليون وإيطاليون وألمان وبلجيكي وفرنسيون، لكن فى النهاية صارت إفريقيا لأهلها.



هذا الكتاب

يتحدث (بوسمان) عن إفريقيا ، وعن العادات والتقاليد ، وعن تجارة الرقيق الإفريقي فيقول :

كان الناس في ساحل الرقيق (داهومي الآن) يظهرون الكثير من الاحترام للسلطة ولل كبير وللوالدين ، والنساء كن يبدن الاحترام والخشية أمام أزواجهن ، وكان سوق بيع الرجال هنا مثل سوق الحيوانات عندنا ، وإن الرقيق الذين يتم اختيارهم عند الشراء توضع أختام علي صدورهم ، بحيث لا يستبدل الوسيط الأقوياء منهم بآخرين ضعفاء أو كبار في السن ، أما المرأة الرقيق ثمنها أرخص بالربع أو الخمس من الرجل ، وإن إطعام هؤلاء الأرقاء بالخبز والماء يكلف سنتين في اليوم الواحد ، وعندما يصعد هؤلاء الرقيق إلي السفن ، فإن الباعة ينزعون كل ملابسهم ، كما أن مستوى كل حمولة في السفينة الواحدة بين ستمائة وسبعمائة فرد ، وغالبًا ما يموت عدد كبير من هؤلاء أثناء النقل ، أو حتى قبل ذلك عندما يوضعون في مناطق تخزين ، هي عبارة عن سقن قديمة راسية في مكان ما ، ولا أحد يهتم بالموتى أو الجوعى أو المرضى.

د/ عبد الوهاب محمد الزنتاني

Bibliotheca Alexandrina



0669992